

رسالة الغفران



رسالة الغفران

أعاد كتابتها بلغة عصرية جديدة: نزار عابدين

الطبعة الأولى ٢٠١٦

الناشر: وزارة الثقافة والرياضة

إدارة البحوث والدراسات الثقافية

قسم الاصدارات الثقافية والنشر

هاتف: 44022785 (+974)

فاكس: 44022231 (+974)

ص.ب: ٣٣٣٢

الدوحة - قطر

رقم الايداع: ١٥٣ / ٢٠١٦

الترقيم الدولي (ردمك): ٨ - ٣٧ - ١٢٢ - ٩٩٢٧ - ٩٧٨

المراجعة والمتابعة: د. باسم عيود

الطباعة: مطابع علي بن علي

جميع الحقوق محفوظة

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر

رسالة الغفران

أبو العلاء المعريّ

أعاد كتابتها بلغة عصرية جديدة

نزار عابدين

تقديم

تهتم وزارة الثقافة والرياضة بإصداراتها للوصول إلى أكبر عدد من القراء، وهي تحاول أن تنوع فيما تقدمه للمكتبة العربية فلا تتوقف عند نوع معين من الكتب على حساب نوع آخر، فلكل توجه قراءه وعلينا أن نرضي جميع الاذواق.

إن كتاب «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري يعد أحد أهم كتب التراث، لما فيه من الرؤية الفلسفية والفكرية الشيء الكثير، وفي إعادة إصدارنا هذا الكتاب الذي يقدمه نزار عابدين كما يصفه «بإعادة كتابته بلغة عصرية»، إنما هي محاولة من المؤلف لتقريب التراث الى القاريء المعاصر الذي بعدت المسافة الزمنية بينه وبين وقت تأليف الكتاب، وما أصاب اللغة العربية من تطور جعل بعض النصوص القديمة يصعب إدراك معناها بيسر وسهولة، فكان هذا الكتاب، دون أن يؤثر عمل معده على مضمون وجوهر الكتاب الذي وضعه المعري.

نأمل أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة للمكتبة العربية ومن الله التوفيق.

إدارة البحوث والدراسات الثقافية

المحتويات

١١	بين يدي الكتاب
١٧	الكاتب والكتاب
٢٤	ابن القارح
٢٥	رسالة ابن القارح
٣٨	غرام أبي القطران
٣٩	آراء المتنبي
٤٠	منزلة أبي العلاء المعري
٤١	المتنبي في السجن
٤٢	صالح بن عبد القدوس
٤٥	قتل الألو ف في مكة
٤٦	الحسين بن منصور الحلاج
٤٨	الراوندي الزنديق
٤٩	ابن الرومي وتطيره
٥٠	اتهام أبي تمام
٥١	المعتصم والمازيار والأفشين
٥٢	جعفر بن محمد
٥٣	شكوى العصر
٥٤	من حال إلى حال
٥٥	المعرة والمعري
٥٦	عبر الدنيا
٥٧	أمر الخمرة
٥٨	التوبة النصوح
٦٠	احذروا ميتة فأذوه
٦١	معرفة الخبر
٦٥	امتداح أبي العلاء المعري
٦٦	ابن خالويه وأبو الطيب
٦٧	ذاكرة ابن القارح
٦٨	طرفة
٧٠	عناية الله
٧٢	رسالة الغفران

٧٨	وصول رسالة ابن القارح
٨٨	الأعشى
٩٠	زهوة في الجنة .. لقاء الأعشى
٩٣	مع زهير بن أبي سلمى
٩٥	مع عبيد بن الأبرص
٩٥	وعدي بن زيد
٩٩	مع أبي ذؤيب الهذلي
١٠١	النابغتان
١٠٦	الإوز المعنّي
١٠٨	ليبد بن ربيعة
١١٢	خلاف بين النابغة والأعشى
١١٦	حسان بن ثابت
١١٨	عوران قيس
١٢٢	تميم بن أبي
١٢٣	قصة دخول ابن القارح الجنة
١٢٥	مدح زُفر
١٢٦	حمزة بن عبد المطّلب
١٢٨	مع فاطمة الزهراء
١٣٠	في الجنة مجدداً
١٣١	حميد بن ثور
١٣٤	مجلس الغناء
١٣٧	رقص الجوّاري
١٣٩	طاووس الجنة
١٤١	مع الحور العين
١٤٤	أهل النار
١٤٦	الشقاء بالأدب
١٤٩	حيوانات الجنة
١٥٠	الحطيئة
١٥١	الخنساء السلميّة
١٥٢	إبليس وبشّار
١٥٥	امرؤ القيس
١٥٨	عنترة بن شداد
١٦٠	علقمة بن عبيدة
١٦٢	عمرو بن كلثوم(١)
١٦٣	الحارث اليشكري
١٦٤	طرفة بن العبد
١٦٧	أبو كبير الهذلي
١٦٨	الأخطل التغلبي

١٧١ المهلهل التغلبي(٢)
١٧٣ مع المرقشيين (١)
١٧٥ تأبط شرراً والشنفرى(١)
١٧٧ عودة إلى الجنان
١٧٧ آدم
١٨٠ ذات الصفا
١٨٤ العودة إلى الحور العين
١٨٥ جنّة الرّجز
١٨٧ سرر أهل الجنة
١٨٨ جواب رسالة ابن القارح
١٩٤ أبو القطران الفقعسي(١)
١٩٧ رُمس الهالك يبتُّ الحق
١٩٩ الثكلى تعين الثكلى
٢٠١ أبو الطيب المتنبي
٢٠٤ دين دُعيل
٢٠٦ إعجاز المتنبي
٢٠٩ بشار بن برد
٢١٢ صالح بن عبد القدوس
٢١٥ القرامطة
٢١٦ الوليد بن يزيد
٢١٨ لا ناشد ولا نشيد
٢١٩ ديك الجن
٢٢٢ الحلاج
٢٢٥ مذهب التناسخ
٢٢٩ الحلولية والتناسخ
٢٣١ ابن الرّومي
٢٣٣ أبو تمام والدين
٢٣٥ الإفشين والمازيار
٢٣٦ بابك
٢٣٧ الكيسانية
٢٣٨ ابن الراوندي
٢٣٩ مدعي النبوة
٢٤٠ خوف الشيخوخة
٢٤٥ عمر بن عبد العزيز
٢٤٦ عمر بن الخطاب
٢٥٤ بدء معرفة ابن القارح
٢٦٢ ابن خالويه
٢٦٤ في معرة النعمان

٢٦٧	دنانير الذهب وفيها العجب
٢٧٢	وما أدراك ما الثمانين
٢٧٣	الفرزدق
٢٧٦	ابنة الأخت والخال
٢٧٨	الشبلي الصوفي
٢٧٩	خاتمة الرسالة

بين يدي الكتاب

لقي جهدي المتواضع في إعادة كتابة «البخلاء» لشيخ الأدباء وإمام المتأدبين أبي عثمان عمرو بن بحر» الجاحظ « صدى طيباً لدى القراء والأدباء والنقاد، حتى قبل أن ينشر كاملاً، فقد عرضت فصولاً منه على هؤلاء الأفاضل، وكان لتشجيعهم كبير الأثر في دفعي إلى إتمام مشروعني في نقل هذا السفر الخالد إلى لغة يفهمها القارئ العادي دون الحاجة إلى العودة إلى المعجم أو هوامش الكتاب، ولم يكن لي من غاية إلا هذا.

ولا يمكن أن يكون المرء مثقفاً بحق، دون الغوص في بحار تراث أمته الأدبي والثقافي. فالأدب الجديد، والشعر الجديد، والنتاج الفكري الجديد، لا يكفي وحده، لأن هذا الإبداع الجديد، ليس إلا أغصاناً جديدة في شجرة ضاربة جذورها في الأعماق، تعطي أزهارها وثمارها في كل حين بأشكال وألوان متعددة، لكن القانع المكتفي بها، كمن على شاطئ البحر يبهجه انسياب الموج على رمال الشاطئ، ولا يعرف متعة الإبحار، أو كمن على سطح البحر يتأمل الأمواج الرقيقة، ولا يدري شيئاً عن متعة الغوص إلى الأعماق، واكتشاف الكنوز التي لا تنتهي.

ومنذ بدأ تعاملي مع تراثنا الخالد، وترددني على قصوره المنيفة الشامخة في زيارات خاطفة، تطول أحياناً، حتى كأني نويت الإقامة طويلاً، وغوصي إلى أعماق بحاره المذهلة الساحرة، وكان هذا قبل سنوات طويلة لا أذكر عددها، وجدت نفسي أمام معضلة حقيقية، كانت تنغص علي متعة الغوص والإبحار أحياناً. لقد عانيت - كما عانى غيري - من صعوبة فهم النصوص دون العودة إلى المعجم مرة بعد أخرى، فكأنني أقرأ بلغة أخرى لا أجيدها تمام الإجابة. فاللغة التي كتب بها أسلافنا أدهم العظيم غير اللغة التي نكتب بها الآن. لقد حافظت اللغة على قواعدها، لكن أسلوب صياغة الجملة تغير كثيراً، كما أن كلمات كثيرة سقطت من اللغة على مر الأجيال وكلمات كثيرة أخرى تغير معناها، أو لم نعد نفهمها لأنها تدل على أشياء لم تعد موجودة في حياتنا، وكلمات كثيرة لم نعد نستعملها.

لقد قام المحققون - جزاهم الله كل خير - بجهود عظيمة في تحقيق هذا التراث الخالد، وأمهات الكتب المتناثرة مخطوطاتها في مختلف جامعات العالم ومتاحفه، فنفضوا غبار السنين عن تلك الأسفار

الخالدة، وقارنوا، وحققوا، ودققوا، وأثبتوا الصواب، ونحووا الخطأ، وقدموا للأجيال العربية الجديدة تراث أجدادهم العظيم، ليكون فخراً لهم ونبراساً وهدياً، ولكن هذا ظل جهداً ناقصاً.

والعيب ليس فيما فعله هؤلاء الأساتذة الأفاضل، بل في تراجع اللغة العربية على لسان أبنائها، وضعفهم الواضح - والمخزي أحياناً - في استخدامها استخداماً صحيحاً. ومع ذلك فإننا لا نستطيع إلقاء اللوم كله على أبناء الأجيال الجديدة. فاللغة نفسها تتطور، وكما قلنا قبل قليل تسقط منها كلمات، وتتبدل معاني كلمات، وتدخلها كلمات واشتقاقات جديدة، ولذلك صار القارئ الجديد، يقرأ آداب أمته وتراثها شعراً ونثراً - إذا قرأ - وكأنه يقرأ آداب أمة أخرى بلغة أخرى، فإن لم يكن النص مشروحاً شرحاً وافياً، لم يكن له غنى عن المعجم، وحتى في مثل هذه الحالة قد لا يتمكن من الإحاطة بالمعنى إحاطة تامة، ويفقد الاستمتاع بجمال النص النثري أو الشعري.

ولقد تساءلت - ومنذ سنوات طويلة أيضاً - إذا كان المحققون الأفاضل قد قاموا بجهد مشكور وحميد في إحياء هذا التراث العظيم والحفاظ عليه، فلماذا لا يهب نفرٌ من أبناء اللغة العربية العاشقين لها، ليكملوا ما بدأ هؤلاء؟ ولماذا لا يبذل بعض تلاميذ هذا التراث جهداً ووقتاً لإعادة كتابة هذا التراث بلغة عصرية سليمة، بعيدة عن وحشي الكلام وغريب الألفاظ، لكنها ليست مقطوعة الصلة بلغة القرآن الفصحى الجميلة؟ لا أقول بلغة تشبه لغة الصحافة والإعلام السقيمة، ولكني لا أقول أيضاً بلغة طالعة من بطون المعاجم.

ورأيت أن من المستحيل تطبيق هذا على النصوص الشعرية، فلا يمكن إعادة كتابة قصيدة، إلا عندما نترجمها، فإذا كان الشعر لا يقبل هذا، فإن النثر يقبله. ولذا اقتنعت بإعادة كتابة هذه الأعمال الخالدة بلغة تفهمها الأجيال الجديدة بسهولة، فإذا أراد أحدُ التعمق في دراسة التراث، عاد إلى النصوص الأصلية في بطون الكتب المحققة تحقيقاً علمياً دقيقاً، وحصل متعة وفائدة جديتين ومختلفتين.

لقد كان كل همّي أن أتجنب الهوامش، وألا يجد القارئ رقماً بين قوسين، وعليه أن ينظر إلى أسفل الصفحة، ليجد الشرح، وغالباً ما لا يجد، بل يُطلب منه أن يعود إلى كتاب كذا وكتاب كذا. وأنا لا أريد للقارئ أن يعود إلى أي مرجع آخر، ولا أن يقلب الصفحات، ليقرأ في الملحق تعريف الأسماء (أسماء الشخصيات والأمكنة والأشياء) أو أن يجد في أسفل الصفحة شرحاً للألفاظ. لقد أردت للقارئ أن يقرأ كتاب «البخلاء» متكاملًا، بلغة عصرية سليمة، دون أن أتعبه بأي هامش أو ملحق أو شروح.

ولقد استغربت أن عدداً غير قليل من الأصدقاء حسني الاطلاع على التراث ممن أتق بصحة

أحكامهم، شفَعوا استحسانهم ما فعلت بإبداء رغبة، فقالوا كلهم على غير اتفاق: تابع مشروعك، وعسى أن يفعلَ فعلك عشائُ آخرون للغَة العربية، ونرشح لك لخطوتك التالية « رسالة الغفران » لفيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة أبي العلاء المعري. هل كانوا يلقون إلي طُعماً ليعرفوا قدرتي؟ هل قرؤوا الرسالة فوجدوها صعبة الفهم فأرادوني أن أبسطها؟ هل قرأ بعضهم صفحات من الرسالة ثم رماها لأنه وجدها متعبة جداً، ويريدني أن أبسطها ليستمتع بقرائها؟ هل يعرفون وعورة الطريق الذي حرصوني على السير فيه؟ ربما، وهذه الأسئلة كلها صحيحة ومشروعة، ولكنني لا أجزم.

لكنني في إعادة كتابة «رسالة الغفران» لم أستطع فعل ما فعلت في البخلاء. لقد كان ابنُ القارح يعرف لمن يوجّه رسالته، ولذلك حشدَ فيها كلَّ معارفه، ونوّه كثيراً بالعلماء الذين تتلمذ عليهم، ولذا ليسَ معقولاً أن يحاول تعريف المعري بهم، وكذلك فعل المعريّ عندما ذكر الشعراء والعلماء ، وتحداهم أحياناً، وسخر من آراء بعضهم أحياناً أخرى، وكان لزاماً أن ألجأ إلى الهوامش للتعريف بهؤلاء بصورة موجزة، وإذا كان المعريّ يعتمد على علم علي بن منصور، فإنني لا أستطيع الاتكال على أن القارئ يعرف ما كان هذا يعرفه.

ورحلة ابن القارح في الجنة كلُّها عرض لآراء المعري بالشعر والشعراء، وما أخذ على بعض النحويين والعروضيين في مناقشة أشعار هؤلاء، ولكنه لا يقدم أي تعريفٍ بهم، معتمداً كما قلنا على أن ابن القارح لا يجهلهم، بل إنه يشير إليهم أحياناً بأسماءٍ غريبة، فيقول مثلاً: «الحكمي» وعلينا أن نتذكّر أن أبا نواس كان «حكماً» بالولاء، ويقول «الكندي» ويجب أن نعرف أنه «امرؤ القيس» ويقول «الطائي» ونعرف أنه يعني حبيب بن أوس الطائي، ويسأل قارئ حديث: ومن هذا؟ ويجب أن نقول له إنه أبو تمام، وفي الرسالة عشرات الأمثلة.

وبالإضافة إلى اختلاق الحكايات والمواقف في الجنة بما يشي بشيء من الفن القصصي عند المعريّ، تبدو لغة المعري صعبة جداً، حتى إنه يلجأ هو نفسه إلى شرح الكلمات التي أوردتها، مع أنه يقول في رسالة الغفران «وهو، أنس الله الإقليم بقربه، أجل من أن يُشرح له مثل ذلك، وإمّا أفرغ من وقوع هذه الرسالة في يد غلام ما زال صغيراً، ليس بالفهم جديراً، فتستعجم عليه اللَّفظة، فيظلُّ معها كأنها كبَلتَه قيود الحديد، لا يقدرُ على الإسراع ولا المشي الوئيد». وهذا مثل واحد على وعورة لغة المعري « ويحمُّ فإذا هو بأسدٍ يفترس من صيران الجنة وحسبيلها فلا تكفيه هُنيدة ولا هندٌ فيقول في نفسه: لقد كان الأسدُ يفترسُ الشاة العجفاء، فيقيم عليها الأيام لا يطعمُ سواها شيئاً. فيلهم الله الأسدَ أن يتكلّم، وقد عرف ما في نفسه، فيقول: يا عبدَ الله، أليس أحدكم في الجنة تُقدّم له الصُّحفة وفيها

البهطُ والطَّريمُ مع النَّهيدة، فيأكلُ منها مثلَ عمرِ السَّمواتِ والأرضِ، يلتذُّ بما أصابَ فلا هو مكتفٍ، ولا هي الفانية؟ وكذلك أنا أفترسُ ما شاء الله، فلا تأذى الفريسةُ بظفرٍ ولا نابٍ، ولكن تجدُ من اللدَّة كما أجدُ بلطفِ ربِّها العزيزِ. أتدري من أنا أيُّها البزيع؟»

وهذا مثال آخر: «كم متظاهر باعتزال، وهو مع المخالف في نزال! بزعم أن ربَّه على الدَّرَّة يخلد في النار، بله الدرهم وبله الدينار، وما ينفكَّ يحتقبُ المآثمَ عظام، ويقع بها في أطائم. ينهمك على العهار والفُسق، ويضعن من الأوزار الموبقة بأوفى وسق، ويقنت على رهط الإجمار، ويسند إلى عبد الجبار. يطيل الدأب في النهار والليل، ويضمُر أن شيخ المعتزلة غير طاهر الرُدن ولا الدليل، فقد صيرَّ الجدل مصيدة، ينظم به الغي قصيدة. وحدثت عن إمام لهم يوقرُ ويتبع، وكأنه من الجهل ربع، أنه كان إذا جلس في الشَّرْب، ودارت عليهم المسكرة ذات الغرب، وجاءه القدح شربه فاستوفاه، وأشهد من حضرة على التوبة لما اقتفاه.

والأشعري إذا كشف ظهر نبي، تلعنه الأرض الرَّاكدة والسمي، إمَّا مثله مثل راعٍ حطمة، ويخبط في الدهماء المظلمة، لا يحفل علام هجم بالغنم، وأن يقع بها في الينم، وما أجدره أن تأتي بها سراحين، تضمن لجميعها أن يحين! فمن له أيسر حجي، كأنما وضع في دجي، إلا من عصمه الله باتباع السلف، وتحمل ما يشرع من الكلف»

وهذا مثال ثالث» وكلُّ ساعٍ للفانية لا بدُّ له من الندم، في أوان الفرقة وحين العدم، فذممنا لها يحسب من الضلال، كما تمى القنع أخو الإقلال، وهذه زيادة في التَّضب، وفاز بالسبق حائر القصب. ندمها على غير جنائية، ولم تخبر أحداً بالعناية، بل أبناؤها في المحن سواء، لا تساعفهم الأهواء، فرب حامل حزمة عصيدٍ ليس رثده بالنضيد، يعجز ثمنها عن القوت، ويكابد شظف عيشٍ ممقوت، يلج سلاء في قدمه، ويخضبه الشائك بدمه، وهو أقلُّ أشجاناً من الواثب على السرير، ينعم برشاً غرير، يجمع له الذهب من غير حلٍّ، بإعنات الأمم وإسقاط الإل، وإذا ملأ بطنه من طعام، وسبح في بحرٍ من الترف عام، فتلك النعم ولذاته، تحدث لأجلها أذاته، يختلجه القدر على غفول، وغاية السُّفر إلى قفول. وما يدري العاقل، إذا افتكر، أي الشخصين أفضل: أريب عقد عليه إكليل، أم أرقش ظله في الملك ظليل؟ كلاهما بلغ آراباً، وأحدهما يأكل تراباً، الآخر يعل بالراح، ويجتهد له في الأفراح.»

وقد بذلت جهدي ألا يكون في الهوامش شرح للكلمات، وأن أجد الكلمة المناسبة المفهومة لدى القارئ الحديث، أما الأشعار فقد تركتها على حالها، وإن كان المعري قد أتعبني بإيراده أشعاراً لم أجدها في الدواوين ولا في الكتب الجامعة.

كانت المعضلة الكبرى أن المعري كتب الرسالة مسجوعة، والسجع ليس غريباً، ومعظم كتب الأولين كانت مسجوعة، لكن سجع المعري يختلف عن أي سجع آخر، فهو هنا في رسالة الغفران يفعل نثراً - في معظم الأحيان - ما فعله في « لزوم ما لا يلزم » شعراً، هناك التزم بثلاثة حروف في القافية وليس حرف الروي وحده، وهنا يلزم نفسه في السجع بثلاثة حروف أيضاً، ولذلك تعج الرسالة بالكلمات الغريبة التي تحتاج إلى بحث في المعجم لفهمها، وسيعذرنى أبو العلاء والقارئ لأني لم أستطع مجارة هذا، فاكثفت في السجع بحرفين.

هذه هي رسالة الغفران بلغة جديدة، حاولت في إعادة كتابتها ألا أسيء إلى لغة المعري، وفي الوقت نفسه أن أجعلها مفهومة لدى القارئ الحديث، فإن وُقِّت، فبفضل من الله ومِنَّة. وأرجو أن يستمتع أبناء الجيل الجديد بقراءة هذا السُّفر الفريد الخالد، ليس في الأدب العربي وحده، بل في آداب الأمم كلها، فإن تحقق لهم ذلك، فالفضل الأول يعود إلى المعري، وإن تحقق ناقصاً، فإنهم سيعذرون، ويكفيني شرف المحاولة، وأقنع بأجر واحد لأنني اجتهدت، والله ولي التوفيق.

الكاتب والكتاب

كتاب المعريّ فريد بين كتبه وفي تراثنا العربي كله، بل هو فريد في الآداب العالمية، قيس منه كثيرون أشهرهم دانتي أليغييري (١ يونيو ١٢٦٥ - ١٤ سبتمبر ١٣٢١) شاعر إيطاليا الأشهر والأعظم في أعظم أعماله (الكوميديا الإلهية) بشقيه الفردوس والجحيم، ويعتبر البيان الأدبي الأعظم الذي أنتجه أوروبا أثناء العصور الوسطى، وقاعدة اللغة الإيطالية الحديثة.

تعد رسالة الغفران من أعظم كتب التراث العربي النقدي، وهي من أهم وأجمل مؤلفات المعري، وقد كتبها رداً على رسالة ابن القارح، وهي ذات طابع روائي، وتنقسم إلى قسمين رئيسيين: في الأول جعل المعري ابن القارح بطلاً لرحلة خيالية أدبية عجيبة يحاور فيها الأدباء والشعراء واللغويين في العالم الآخر، ويتنقل ابن القارح في الجنة ويلتقي ويحاور عدداً من الشعراء في الجنة من مشاهير الأدب العربي، ويواصل مسامراته الأدبية مع من يلتقي بهم من شعراء وأدباء ثم يعود للجنة مجدداً ليلتقي عدداً من الشعراء يتحلقون حول مادبة في الجنة وينعمون بخيرات الجنة من طيور وحوار عين ونعيم مقيم. ثم يمر وهو في طريقه إلى النار بمدائن العفاريث فيحاور شعراء الجن ويلتقي حيوانات الجنة ويحوارها ويحاور الحطيئة. ثم يلتقي الشعراء من أهل النار، ولا يتوانى في مسامرتهم وسؤالهم عن شعرهم وروايته ونقده، ثم يعود من جديد للجنة ونعيمها.

ومحاورات ابن القارح مع الشعراء والأدباء واللغويين التي تخيلها المعري في العالم الآخر مصدر مهم من مصادر دراسة النقد الأدبي القديم، حيث حوت تلك المسامرات والمحاورات مباحث نقدية مهمة وأساسية في النقد الأدبي، وقد انتبه كل من طه حسين و لويس عوض ونبها إلى أمر مهم في رسالة الغفران، ووصفاها بأنها من البدايات الخلاقة للأدب المقارن في العربية، وأسلوب فذ في المقاربة النقدية للتراث العربي.

وفي رسالة الغفران نجد للمعري صورة أخرى غير ما ألفناه في كل ما كتب عنه وقيل فيه، إذ تظهره الرسالة ذا مخيلة خلاقة قادرة على تشييد بناء خيالي قصصي ممتع، وذا فكاهة ودعابة أكثر مما يمكن تصوره عند رهين المحبسين، ويمارس أبو العلاء التصوير الكاريكاتوري الساخر نفسه الذي مارسه في رسالة الملائكة، حتى إن بعض النقاد يرون أن المعري مارس مع ابن القارح سخرية راقية مخففة، لكثرة

ما أورد من دعاء له في كل صفحة تقريباً من الرسالة، من مثل:

ثم إنه، أدام الله تمكينه

وهو، أكمل الله زينة المحافل بحضوره

وكأني به، أدام الله الجمال ببقائه

فيقول، أصلح الله به وعلى يديه

فيكره، جنبه الله المكاره

فلو أنه أورد هذه الأدعية في بعض الأمكنة حيث تلزم، لعدَّ هذا من حسن الأدب، لكن هذا التكرار والإصرار يجعل هذا الأسلوب مضحكاً.

كما نلاحظ سخرية المعري من الرواة الذين نسبوا شعراً لآدم عليه السلام وللجن، فخرج على أيديهم حكايات مما لا يصدقه العقل ولا يقره المنطق، ويرد ذلك إلى التأويل المفرط. ويعمد إلى ما توارثه الخلف عن السلف من حكايات، ويوضح ما فيها من مبالغات تجعل تصديقها من المستحيلات، ويرى أن الخيال تولى تضخيم هذه الحكايات، فأحالتها إلى خرافات وأساطير، وابتعد بها كثيراً عن أن تكون واقعية صحيحة، ولا ينسى في كل ذلك إظهار قدراته اللغوية الكبيرة، ومعرفته العميقة بكلام العرب وأساليبهم بكل ما فيها من الافتنان والتوسع. وفي القسم الثاني يرد على رسالة ابن القارح فقرة فقرة، والقسم الأول هو الأهم أدبياً، أما الثاني فتوضيح لقضايا أثارها ابن القارح في رسالته، ويمكننا القول إن هذا القسم وحده الرد على ابن القارح، أما القسم الأول فلعبة خيالية لعل رسالة ابن القارح أثارها.

الرسالة كثيرة الاستطراد، ولعل الجاحظ الذي وسَّم أدبه بالتنقل من موضوع إلى آخر، ثم العودة إلى ما بدأ، قد دمج باستطراده الأدب العربي، وأعدى صاحبنا المعري، وربما كان استطراد المعري لسبب آخر هو اللهو، والعبث بابن القارح، أو أنه لسعة اطلاعه فاض كما فاض الجاحظ. وكمثال على الاستطراد والاسترسال نقرأ الصفحات من ٣٣٤ إلى ٣٣٦ من هذا الكتاب حيث يسترسل المعري مع أوصاف الخمر وأسمائها، وإذ يعود إلى قول ابن القارح إن ابنة أخته سرت منه ثمانين ديناراً، فإنه يسترسل في الحديث عن الدينار والدنانير من الصفحة ٣٣٦ إلى الصفحة ٣٤٢، ثم يجذب عدد الدنانير « ثمانون » ليسترسل مع الثمانين من ٣٤٢ إلى ٣٤٧. بل إن القسم الأول كلُّه استطراد، فهو يقول: « وقد غرَّس لمولاي الشيخ الجليل إن شاء الله بذلك الشئ، شجرٌ في الجنة لذيذ اجتناء، كل شجرة منه تمتد ما بين المشرق والمغرب بظلٍ عظيم وارِف، ليست في الأعين كذاتِ أنواط في الزمن السالف » ولعل هذا

ما دفعه إلى ابتكار رحلة ابن القارح الخيالية في الآخرة. ثم يذكر الأباريق فيستطرد ويستترسل في شرح كل ما توحى به الكلمة في صفحات عدة.

إلى جانب ذلك أسرف المعري في الجري في مضمار الغريب، كأنه يكتب لخاصة الناس كما يقول الدكتور طه حسين، أو أنه لم يشأ أن يطلع عامة الناس على آرائه ومنازع فكره، لكن هذا الغريب النادر أظهر لنا أبا العلاء واسع الاطلاع - إلى حد لم نألفه عند سواه - على الغريب والناذر في اللغة، فأحيا ألفاظاً كانت مواتاً، مستوفياً قواعد اللغة والشاذ فيها، متصرفاً بالاشتقاق والتوليد تصرف الخبير، حتى إن العلامة عبد الله العلايلي (وهو العلم في اللغة العربية) يميزه بأنه صاحب فلسفة لغوية خاصة، مما أدى به إلى اعتبار الحروف كالأرقام ذات دلالات رمزية.

وفي رسالة الغفران علم كثير بالشعر وروايته ونقده ومقابلاته، وبالتاريخ والأماكن والأفراد، وبالقرآن وتفسيره وروايته، والحديث ومختلف شؤونه، واللغة بكل ما يتصل بها، والتفات حصيف إلى الفرق والأديان، وما خفي من حياة الأفراد العظماء، فجاء المعري ينبش ويكشف، أو يصحح أو يفضح.

وهذا هو الجانب الذي جعلني أتردد كثيراً في خوض غمار تجربة نقل رسالة الغفران إلى لغة العصر الحديث، كما فعلت في بخلاء الجاحظ . فالجاحظ - وإن كان شيخ الأدباء - اهتم في كتابه بالقصص والروايات والسخرية والمفاكهات، أما المعري فإن اللغة حجر الأساس في رسالته، وتهيبته الإقدام على تبسيط الرسالة، ثم توكلت على الله وعزمت / متذكراً قول أبي جعفر المنصور:

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَرَدَّدَا

أما الكاتب فهو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان القضاعي التنوخي (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٧ م)، وكنيته أبو العلاء مجازية، كما كان المتنبي يكنى أبا الطيب، مع أن اسم ابنه مُحَسَّد، وليس للمعري ابن يدعى العلاء، فهو لم يتزوج، وقد أوصى بأن يُكتب على قبره:

هَذَا جِنَاهُ أَبِي عَلِيٍّ وَمَا جَنَيْتَ عَلَى أَحَدٍ

ولقب نفسه برهين المحبسن. المحبس الأول فقدُ البصر، والثاني ملازمته داره واعتزاله الناس. ولد بمعرة النعمان المنسوبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص وفسرين أيام معاوية ويزيد ثم أيام عبد الملك، وترجع أسرة المعري بأصولها إلى قبيلة عربية مشهورة هي تنوخ التي ينتهي نسبها إلى قضاة ثم إلى يعرب بن قحطان. وبيت أبي العلاء في بني سليمان بن داود بن المطهر وفيهم العلم والرئاسة، يقول ابن العديم "وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلماؤها وشعرائها من بني سليمان". وتولى أجداد أبي العلاء قضاء المعرة، وضم إليها جدُّه أبو الحسن سليمان قضاء حمص أيضاً، وعرف بالفضل

وكرم النفس، ومات سنة ٢٩٠ هـ فولي بعده ابنه أبو بكر محمد بن سليمان عم أبي العلاء، فلما مات ولي القضاء بعده أخوه عبدالله بن سليمان والد أبي العلاء، واختلف المؤرخون في سنة وفاته، وله من الولد، غير أبي العلاء، أبو المجد محمد بن عبدالله، وأبو الهيثم عبدالواحد بن عبدالله، وكانا شاعرين، وخلفا طائفة من الأولاد تولوا القضاء. واستمر مجد الأسرة حتى أواخر القرن السادس الهجري. وأمه من بيت معروف من بيوتات حلب الشهباء، وجده لأمه هو محمد بن سبيكة. وخاله هما أبو القاسم علي وأبو طاهر المشرف، وكانا من ذوي الشرف والمروءة والكرم، ومن أرباب الأسفار طلباً للمجد والجاه، وكانت صلته بهم طيبة، كما كانوا بررة به يُعينونه ويصلونه. وخاله أبو طاهر هذا هو الذي أعانه على رحلة بغداد، ولذا كان يُكثر من ذكرهم، وله معهم مراسلات.

وكان المعري شديد التعلق بأمه، يتحدث عنها بعاطفة مشبوبة متقدمة، وعندما رحل إلى بغداد كان حنينه إليها متصلاً، ولم يكن طيفها يفارقه، وتصحبه الهواجس والظنون، ولم ينسها على مر الأعوام. أصيب في آخر العام الثالث من عمره بالجذري فعمي في الرابعة من عمره، ولم يبق من ذكريات ما رآه إلا اللون الأحمر. قال: " لا أعرف من الألوان إلا الأحمر، لأنني أُلِيسْتُ في الجُدري ثوباً مصبوغاً بالعصفر، لا أعقل غير ذلك".

بدأ أبو العلاء صغيراً في تلقي العلم على أبيه، وأول ما بدأ به علومُ اللسان والدين على دأب الناس في ذلك العصر، وتُلَمَحُ الفائدة التي جناها من هذه الدروس، إذ بدأ يقرض الشعر وله إحدى عشرة سنة، ثم ارتحل إلى حلب ليسمع اللغة والآداب من علمائها تلاميذ ابن خالويه. وكانت حلب في ذلك العصر إحدى حواضر العالم الإسلامي الكبرى، تضم جمعاً من العلماء ممن استدعاهم سيفُ الدولة إبان عنفوان دولته، ولم تذهب نهضتها بموته، بل استمرت بعده. وفي حلب اشتهر المعري وروايته للأدب والشعر.

ومن حلب توجه إلى أنطاكية، وكانت بها مكتبة عامرة تشتمل على نفائس الكتب، فحفظ منها ما شاء الله أن يحفظ، ثم سافر إلى طرابلس الشام، ومر في طريقه باللاذقية، ويقال إنه درس النصرانية واليهودية جميعاً. ولما وصل أبو العلاء إلى طرابلس وجد بها مكتبة كبيرة - وقفها أهل اليسار - درس منها ثم عاد إلى المعرة. تردّد في طور لاحق في مكتبات بغداد ودور العلم بها، وكان استعداده للعلم عظيماً وذكاؤه ملتهباً. روى الثعالبي عن أبي الحسن المصيصي الشاعر قوله: " لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد، ويدخل في كل فن من الجد والهزل، يكتئى أبا العلاء، وسمعته يقول: " أنا أحمدُ الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر، فقد أحسن بي إذ كفاني رؤية الثقلاء البغضاء". ولعله في هذا يذكّرنا ببشار بن برد، فقد قيل له: إنك تحمد العمى،

فقال: لأنه جنبني رؤية الثقلاء. وقيل له يوماً وقد أنشد قوله:

كَأَنَّ مِثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُووسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

ماقال أحد أحسن من هذا التشبيه، فمن أين لك هذا ولم تر الدنيا قط؟ فقال: إن عدم النظر يقوِّي ذكاء القلب، ويقطعُ عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء، فيتوفرِحُسه وتذكو قريحته، ثم أنشدهم قوله:

عَمِيْتُ جَنِينًا وَالذِّكَاءُ مِنَ الْعَمَى فَجِئْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَعْقِلًا

أشار ابن العديم إلى قوة حفظ أبي العلاء برواية حكاية عن ابن منقذ، ذكر فيها أنه يقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فيحفظهما، ولم يُعلم له من شيوخ بعد سن العشرين، وذكر هو نفسه أنه لم يحتج إليهم بعدها.

اختلف المؤرخون في السنة التي مات فيها أبوه، فيذكر ياقوت أنه توفي سنة ٣٧٧هـ بحمص، وبهذه الرواية يأخذ بعضهم، ويبنى عليها رأيه في نبوغ أبي العلاء الباكر وعبقريته الفذة. ويقول ابن العديم: إنه توفي سنة ٣٩٥هـ بمعرة النعمان، ويؤيد جمع من الدارسين روايته لأسباب منها أنه كان يذكر أسانيد رواياته، وأغلب رواته من بني سليمان أو من تلاميذ المعري ومعاصريه، ويذكر طرق الرواية قراءة أو سماعاً أو مكاتبة، هذا فضلاً عن تخصصه واقتصاره على أخبار أبي العلاء بخلاف ياقوت في كتابه الجامع المانع. ومنها أن القصيدة التي رثى بها أباه شديدة الأسر محكمة التركيب، فيها درجة من النضج الفني والفكري يصعب أن يتصف به ابن أربع عشرة سنة، وقد وصفت بأنها من عيون الشعر في الديباجة والأغراض والمعاني.

وقد خلفت وفاة والده جراحاً غائرة وأسى عميقاً في نفسه لعظم عطاء الوالد البر الذي كان اعتماد أبي العلاء عليه كبيراً في كثير من شؤونه، فأحس بعده بأنه مهيب الجناح ضائع أو شبه ضائع، وهذا الحدث أمدّه بكثير من الآراء التي عظمت عنده من سوء رأيه في الحياة ويقينه بفسادها.

كان أبو العلاء فقيراً، ولم يكن يتكسب بشعره، وكان له ثروة ضئيلة لا تتجاوز ثلاثين ديناراً في السنة، جعل نصفها لخدمته. ويرى بعضهم أن ما منعه من التكسب أمران: أولهما أن عزة النفس التي ورثها عن أسرته تمنعه من إراقة ماء وجهه، وتصده عن ذل السؤال، وثانيهما فطرته السليمة ودراسته الفلسفية اللتان صانتاه من الابتذال وصوغ الأكاذيب في الأمراء. والكذب عنده بشع قبيح، ثم إن المال الذي يأخذه عن طريق التكسب مالٌ حرام استحل ظلماً، وأولى به شيخ كبير وعجوزٌ فانية وأرملةٌ مهيبضة الجناح وأطفالٌ زُغب.

كانت أمه تمانع في سفره أول الأمر، ولكنه أقنعها فأذنت له، وأعدَّ له خالُه أبو طاهر سفينة انحدر بها إلى الفرات حتى بلغ القادسية، وهناك لقيه عمال السلطان، فاغتصبوا سفينته، واضطروه إلى أن يسلك طريقاً مخوفةً إلى بغداد، ولا يذكر المؤرخون أسباباً لرحلته تلك سوى أنها للسياحة وطلب العلم والحرص على الشهرة بمدينة السلام، وربما أشاروا من طرف خفي إلى فقره وطلبه الغنى. ولكن القفطي والذهبي ينصّان على أن عاملَ حلب كان قد عارض أبا العلاء في وقفٍ له، فارتحل إلى بغداد شاكياً متظلماً. وقد يكون الاضطراب السياسي في الشام آنذاك أحدَ الأسباب التي أخرجته وبغَّضت إليه المعرة، فتركها ليقيمَ ببغداد. وكانت أجزاء كبيرة من الشام قد خضعت للعبيديين وهم من الشيعة الباطنية، وكان المعري مبغضاً لهم، فيرجح بعض الدارسين أنَّ خروجه قد يكون بسبب تحكُّم هؤلاء في المعرة في السنة التي خرج فيها.

أما المعري فينفي أن يكون خروجه طلباً لدنيا أو التماساً لرزق، وكرر هذا في رسائله إلى أهل المعرة وإلى خاله، وذكر أن أهل بغداد بذلوا له الأموال ليبقى بينهم، ولكن وجدوه ”غير جدلٍ بالصفات ولاهشَّ إلى معروف الأقوم“ كما نفى نفيًا قاطعاً أن يكون خروجه ليستزيد من العلم: “ومنذ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتماع العلم من عراقي ولا شامي. وانصرفتُ وماءً وجهي في سقاء غير سرب، لم أرق قطرة منه في طلب مال ولا أدب “ مع أنه كان أمراً مألوفاً في عصره أن يرحل الرجل ليستكثر من لقاء الشيوخ، وكانت بغداد مما يقصد إليها الشعراء واللغويون والفقهاء والمحدثون. وقد صرح أبو العلاء بسبب سفره في بعض رسائله أنه أتاها قاصداً دار الكتب بها، وكان يسميها دار العلم. ويذكر أنه لما دخل بغداد طلب أن تُعرض عليه الكتب التي في خزائنها. وأنه حضر إلى خزانة الكتب التي بيد عبدالسلام البصري، وعرض عليه أسماءها، فلم يستغرب شيئاً لم يره من قبل بدور العلم بطرابلس، إلا ديوانَ تيم اللات فاستعاره.

كان خروج المعري إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨هـ ودخلها في أوائل سنة ٣٩٩هـ ولم يذهب إلى بغداد نكرة مغموراً بل سبقته شهرته إليها، ولكن أهل العاصمة الكبرى لم يكونوا ليسلموا بعبقرية الوافد قبل امتحانه، وقد أعدوا له امتحاناً عسيراً اجتازه بنجاح، ذكره ابنُ فضل الله العمري في مسالك الأُبصار: ”أحضروا دستور الخراج الذي في الديوان، وجعلوا يوردون عليه ما فيه مياومة وهو يسمع إلى أن فرغوا، فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه له“. وأقروا له بالحفظ والعلم والشعر معاً، إذ قرأوا عليه ديوان سقط الزند.

حضر المعري كثيراً من مجالس العلماء ببغداد واشترك في دروسهم ومناظراتهم، فكان يحضرُ مجمعَ سابور بن أردشير، ومجمع عبدالسلام البصري يوم الجمعة، ويحضرُ دروسَ الشريف

المرتضى، وكانت علاقته أول الأمر حسنة متينة بالشريفيين المرتضى والرضي وأسرتهم، ورث والدهما الشريف الطاهر بقصيدة مرتجلة، وكانا يُجلانه ويرفعان منزلته، كما كان يحضرُ المجالس الشعرية بمسجد المنصور حيث يلقي الشعراء قصائدهم.

وعلى الرغم من هذا الحضور وتلك المشاركات العلمية الاجتماعية الحافلة لم يَظب له المقام ببغداد، وحدث له من الحوادث ما ألمه وزهده فيها. من تلك الحوادث ما يروى من أنه عثر يوم إنشاده المرثية في الشريف الطاهر برجل لا يعرفه، فقال له الرجل: إلى أين يا كلب؟ فأجابه: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً. وأشدُّ من هذا وقعاً على نفسه موقفُ الشريف المرتضى منه لما جرى ذكر المتنبى في مجلسه، وكان المرتضى يكرهه، ويتعصّب عليه، ويتتبع عيوبه، بينما كان المعري من أشد الناس إعجاباً بالمتنبى، فقال المعري: "لو لم يكن له إلا قصيدته التي مطلعها:

لك يا منازلُ في القلوبِ منازلُ أقفرتِ أنت وهنَّ منك أواهلُ

لكفاه"، فغضب المرتضى، وأمر بإخراجه، فسُحب برجله ، ثم قال المرتضى لجلسائه: أتدرون لم اختار الأعمى هذه القصيدة دون غيرها ؟ قالوا: لا. قال: إنما عرض بقوله:

وإذا أنتك مدمتي من ناقصِ فهي الشهادةُ لي بأنِّي كاملُ

ولا ندري ممَّ نعجب: من ذكاء المعري الذي دافع عن المتنبى، وعرض بالغمز لمنتقديه دون أن يقول هذا صراحة، أم من الشريف الذي فهم التعريض ولم يفهمه جلساؤه.

وعلى ذكر إعجاب أبي العلاء بالمتنبى، نذكر أن المعري كان يقول: ما عنى أبو الطيب غيري حين قال:

أنا الذي نظرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعتُ كلماتي من به صممُ

وحاول المعري حضور مجلس إمام النحو ببغداد أبي الحسن علي بن عيسى الرُبَعي، ولما قصده واستأذن في الدخول عليه، قال أبو الحسن: ليصعد الاصطبل، وتعني الأعمى بلغة الشام، فانصرف المعري من فوره مغضباً. ثم قرر المعري مغادرة بغداد، وما كان هيناً على البغداديين مفارقتة، فكانوا لرحيله كارهين، ولفراقه محزونين، وودّعوه باكين. ويذكر أبو العلاء سببين لرحيله هما فقره ومرض أمه. ورجع إلى المعرة ولزم منزله لا يخرج منه. ويقول في إحدى رسائله: "يُحسن الله جزاء أهل بغداد، فقد وصفوني بما لا أستحق، وشهدوا لي بالفضل على غير علم، وعرضوا أموالهم عرض الجِدِّ".

خرج أبوالعلاء من بغداد لست ليال بقين من رمضان عام ١٠٠٤هـ، وحدد طريق عودته من بغداد إلى الموصل وميافارقين، ثم نزل بالحسنية ووصل بعدها إلى آمد، وقد مر في طريقه بطرف حلب ولم يدخلها تنفيذاً لقرار العزلة. توفيت أمه وهو في الطريق راجعاً من بغداد، فرثها بقصيدتين وكثير من النثر، وأضاف موتها إلى فواجعه ما ملأ نفسه ظلاماً وحباً في العزلة التي اختارها، وظل يذكر أمه طوال عمره، ولا يرى عزاء إلا في لحاقه بها، حيث يؤنسُه أن يدفن إلى جوارها. وبعد عودته من بغداد قرر أن يعتزل الناس جميعاً، وعبر عن ثلاثة سجون يعيشها بقول

أراني في الثلاثة من سُجوني فلا تسأل عن الخبرِ التَّبِيثِ
لِفَقْدِي نَاطِرِي وَلِزُومِ بَيْتِي وَكُونَ النَفْسِ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ

وكان في طبعه ميل إلى العزلة كما وصف نفسه بأنه ”وحشي الغريزة إنسي الولادة“. وتضافرت أسباب حملته على اتخاذ قرار العزلة، فمنها الأحداث المؤلمة التي مرت به من فقد أبيه وأمه، وما يلقي من أذى أحياناً من بعض الناس. ويجعل بعضهم من أسباب عزلته - إضافة إلى ما سبق - سببين رئيسيين، أولهما: ذهاب بصره الذي جعله يجهل كثيراً من آداب الناس في عاداتهم، وكان شديد الحياء عزيز النفس، يكره أن يُخطئ في ما أَلَفَ الناس، فيكون موضع السخرية والاستهزاء أو الرحمة أو الشفقة. وثانيهما إخفاقه في الإقامة في بغداد حيث يلقي العلماء والفلاسفة، ومن ثم اضطراره إلى لزوم المعرة، وهي خِلْوٌ من العلماء، فكان معاشرته للبغداديين قد بغّضت إليه معاشرته الناس.

قرر أبو العلاء الانقطاع عن الدنيا ومفارقة لذائذها، فكان يصوم النهار ويسرد الصيام سَرْداً لا يفطر إلا العيدين، ويقوم الليل، ولا يأكل اللحومَ والبَيْضَ والألبان، ولم يتزوج، وكان يكتفي بما يخرج من الأرض من بقل وفاكهة:

غَدَوْتُ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالِدَيْنِ فَالْقَنِي لِتَسْمَعِ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ
فَلَا تَأْكُلُنْ مَا أَخْرَجَ الْمَاءُ ظَالِمًا وَلَا تَبْنُخِ قُوْتًا مِنْ غَرِيضِ الذَّبَائِحِ
وَلَا تَفْجَعَنَّ الطَيْرَ وَهِيَ غَوَافِلٌ بِمَا وَصَّعَتْ، فَالظُّلْمُ شَرُّ الْقَبَائِحِ
وَدَعْ ضَرْبَ النَحْلِ الَّذِي بَكَرَتْ لَهُ كَوَاسِبَ مِنْ أَزْهَارِ تَبَتِ فَوَائِحِ

ويكتفي من الثياب بالخشن منها، ومن الفراش بالحصير، وكان يكلف نفسه أموراً شاقة زيادةً في مجاهدتها مثل الاغتسال شتاءً بالماء البارد:

مضى كانون ما استعملتُ فيه حميمَ الماءِ فاقْدُمْ يا شَباطَ

وقد التزم بقرار عزلته فلم يخرج من داره تسعاً وأربعين سنة إلا مرة واحدة مكرهاً. بعد ما أُلحَّ عليه أهلُ بلدته طالبين شفاعتَه لدى الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس، وذلك أن امرأة دخلت جامعَ المعرة صارخة تستعدي المصلين على أصحابِ ماخورٍ قصدوها بسوء، فنفر إليها الناس وهدموا الماخور ونهبوا ما فيه. وكان أسدُ الدولة في نواحي صيدا، فأسرع إلى هناك، وعسكر بظاهر المعرة وحاصرها، وشرع في قتالها، واعتقل سبعين من أعيانها، فلما ضاق الأمر بالمعريين لجؤوا إلى أبي العلاء، فخرج من محبسه مكرهاً، وقابل صالحاً واستشفع لديه فقال له: قد وهبتها لك يا أبا العلاء.

والتزم بقرار عزلته من جهة ثانية مدة من الزمان، أي إنه لم يفتح داره لأحد من الناس. قال ابن العديم: ” أقام مدة طويلة في منزله مختفياً لا يدخل عليه أحد. ثم إن الناس تسبوا إليه، وألحوا في طلب الشفاعة لديه من أقاربه الأذنين“. ثم إنه استجاب لتوسلات المتوسلين، ففتح داره لطلاب العلم من كل صقع وصوب، وصارت داره جامعة يؤمها الزائرون من شتى البقاع، وأخذ الناس يفدون إليه، وكتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار. قال ابن فضل العمري: ”أخذ عنه خلق لا يعلمهم إلا الله، كلهم قضاة وخطباء وأهل تبجُّر واستفادوا منه، ولم يذكره أحد منهم بطعن، ولم ينسب حديثه إلى ضعف أو وهن“. ومن أشهر تلاميذه أبو زكريا الخطيب التبريزي وعلي بن المحسن بن علي التنوخي القاضي. وله كتاب كان يملئ عليهم مصنفاته، منهم أبو محمد عبدالله بن محمد القاضي ابن أخيه، وكان براً بعمه، وأبو الحسن علي بن محمد أخو عبدالله، وأبو نصر زيد بن عبدالواحد، وجعفر بن أحمد بن صالح التنوخي، وإبراهيم بن علي بن الخطيب، وأبو الحسن علي بن عبدالله بن أبي هاشم المقرئ. وكان يذكرهم بالخير في شعره ونثره.

عُمِّر أبو العلاء طويلاً، وأصابته الشيخوخة بالوهن، ووصفها بقوله:

«الآن علت السن، وضعف الجسم، وتقارب الخطو، وساء الخلق“. ولكنها إن أصابت جسمه فما أصابت عقله وصفاءه وقريحته وتوقدها وحافظته وقوتها، فما نسي شيئاً مما حصل. وفي اليوم العاشر من ربيع الأول سنة 944هـ اعتل أبو العلاء وعاده الطبيب المشهور أبو الحسن مختار بن بطلان، وكان ممن يتردد عليه للزيارة والسماع أثناء مقامه بديار الشام، ووصف له كأساً من شراب أتاها به ابن أخيه القاضي فامتنع عن شربه وأنشد:

تُعَلِّني لتسقينني فذرني لَعَلِّي أَسْتريحُ وتَسْتريحُ

كما وصفوا له لحمَ الدجاج، وهم يعلمون أنه لا يأكل اللحمَ كلها ولا البيض ولا العسل، فلما وضعوه بين يديه لمسه بيده فجزع وقال ”استضعفوك فوصفوك، هلاً وصفوا شبل الأسد“. وتوفي بعد ثلاثة أيام ووقف على قبره أربعة وثمانون شاعراً يرثونه.

كان المعري على الرغم من عزلته ذا صلة حسنة بالناس. وكان مع فقره كريماً ذا مروءة، يعين طلاب الحاجات، وينفق على من يقصده من الطلاب، يهدي ويهدي إليه، ويكرم زائريه. ومن مروءته وكرمه أنه لم يقبل من تلميذه الخطيب التبريزي ذهباً ثمناً لإقامته عنده. لم يردّه إليه في حينه حتى لا يُوقعه في مشقة الحرج، ولكنه احتفظ له به حتى تجهز قافلاً فودعه ورد إليه ما دفع. وكان رقيق القلب رحيماً عطوفاً على الضعفاء، حتى شملت رقة قلبه الحيوان، فكان يرى ألا يُذبح ولا يُروّع بولده وبيضة. وكان وفيّاً لأصدقائه وأهله. وتفيض رسائله إلى أهل بغداد والمعرة وإلى أخواله بهذا الوفاء. ومن أهم خصاله الحياء، وكثيراً ما كتب كتباً ورسائل لأناس يستشفع لهم فيها عند الأمراء، وهو كاره لذلك، ولكنه لفرط حيائه لا يستطيع لهم رداً. وقد دفعه عماءه إلى تحدي الصعاب والرغبة في التكييف واكتساب العلم والمعرفة والتفوق فيهما على البصراء. ويتبدى تحديه هذا في لعبه النرد والشطرنج، وعلى الرغم من تكيّفه مع هذه العاهة، واكتسابه صفات تعويضية، فإنها أورثته شعوراً عميقاً بالألم والحزن ملأ شعره بالزفرات الحارة، مما يدل على مالها من أثر شديد على نفسه.

اتهم المعري بالزندقة والإلحاد من بعض معاصريه، ولا شك أنه كان يناقش في مجالسه قضايا الفلسفة، ويشرح للطلاب أشعاره، ويفسر لهم ما صعب منها. وربما قاده الشرح إلى الحديث عن مختلف الآراء الفلسفية التي لا يرتضيها عامة الناس. يضاف إلى هذا تبتُّله وتركه الزواج وامتناعه عن اللحم وما أشبه ذلك، وفيه ما فيه من مجانبة لسنن الدين ولحوق بفلسفات برهمية هندية. وقد استند متهموه إلى ما في رسالة الغفران من أخبار الزنادقة وأشعارهم.

ولكنه وجد من يدافع عنه نافعياً هذه التهمة. ومن هؤلاء القفطي وابن العديم، وسمى الأخير كتابه ”كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري“ وقال في مقدمته متحدثاً عن حُسادته وشائتيه: ”رموه بالإلحاد والتعطيل، والعدول عن سواء السبيل، فمنهم من وضع على لسانه أقوالاً ملحدة، ومنهم من حمل كلامه على غير المعنى الذي قصده، فجعلوا محاسنه عيوباً وحسناته ذنوباً وعقله حُمقاً وزهده فُسقاً، ورشقوه بأليم السهام، وأخرجوه عن

الدين والإسلام". ومن أحسن الشهادات في حقه شهادة الإمام الذهبي المتوفى سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، حيث قال: " كان من أهل الفضل الوافر والأدب الباهر ومعرفة النسب وأيام العرب. وله في التوحيد وإثبات النبوة وما يحض على الزهد وإحياء طرق الفتوة والمروءة شعر كثير".

ألّف أبو العلاء مصنفات جمّة، ضاع أكثرها، ولم يصل إلينا منها إلا النزر اليسير. يقول القفطي والذهبي إن أكثر كتبه بادّ ولم يخرج من المعرة، وحرّقتها الصليبيون فيما حرقوا من المعرة، وأحصيا له من الكتب خمسة وخمسين كتاباً في أربعة آلاف كراسة، تشمل الشعر والنثر، ويذكر الرحالة الفارسي "ناصر خسرو" سنة ٤٣٨هـ أن أبا العلاء نظم مائة ألف بيت من الشعر، وجاء هذا القول قبل وفاته بإحدى عشرة سنة. وعد ياقوت من مصنفاته اثنين وسبعين مصنّفاً. بقي من نثره رسالة الغفران ورسالة الملائكة، وهي صغيرة، وأجزاء من الفصول والغايات، وطائفة من الرسائل كان يوجهها إلى أصدقائه. ويمتاز نثره بالغريب وكثرة الغموض واللجوء إلى السجع مثل أهل عصره. وقد طرق في نثره موضوعات مختلفة مثل المدح والعزاء والوصف.

كتب المعري رسالة الغفران رداً على رسالة بعث بها إليه ابن القارح، وهو صديق له من حلب عنوانها "في تقبل الشرع ودم من ترك الوقوف عنده" وفيها يمازح المعري صديقه، ويعبث به، ويشير من طرف خفي إلى أنه كان مشككاً غير قوي الإيمان. وفيها يطوف ابن القارح في الجنة، وتظهر فيها مقدرة المعري اللغوية كما تبدو فيها مقدرته على السخرية والنقد.

الفصول والغايات: صورة أخرى للزوميات، فقد أورد فيه كثيراً من الآراء التي أوردتها هناك، وألفه المعري تقرباً إلى الله وتمجيداً وتسييحاً له قال: "علم ربُّنا ما علم.. أي ألّفت الكلم، أمّل رضاه المسلم وأتقي سخطه المؤلم" وكان الشائع المشهور أنه ألف هذه الفصول متأثراً ببلاغة القرآن الذي هو المثل الأعلى للبلاغة والبيان، وما وجد أديب وشاعر إلا فتن بأسلوب القرآن.

كان القدماء، إلا أقلّهم، يعترفون بشاعرية المعري، ويعرفون تقدمه، وينشد الناس أشعاره ويتظرف بها الظرفاء. أما المحدثون فمنهم من جعل المعري فيلسوفاً، وعده آخرون شاعراً، وجمع له فريق ثالث بين الحسينيين. فبينما يرى بعضهم فيه شاعراً فيلسوفاً حقاً لم يعهد المسلمون في قديمهم وحديثهم فيلسوفاً مثله، يرى آخرون أنه بلا مذهب فلسفي، بل له اتجاهات تخل بالمنهج الفلسفي إخلالاً واضحاً، فهو رجل وجدان، دقيق الحس، عميق الإدراك، صادق التعبير، جريء التعرض للمعاني والخواطر. بينما جعله فريق ثالث مع سقراط والقديس أوغسطين والغزالي وتوما

الأكويني وشوبنهاور في طبقة واحدة، فضلاً عن عدده مجدداً لأصول الفلسفة أو هو الفيلسوف الأكبر.

ولكن أكثر النقاد يرونه شاعراً إنسانياً متأملاً في المحل الأرفع بين شعراء العربية، له مقام فريد لامن حيث أسلوبه وفنه فحسب، ولكن من حيث روحه ونظرة إلى الحياة من حوله. كما أدلى المستشرقون بدلوهم في هذا الشأن، فعدوه شاعراً عالمياً سبق زمانه بأرائه العقلية والأخلاقية والسياسية والدينية.

بقي من شعر المعري ثلاثة دواوين: سقط الزند والدرعيات واللزوميات.. يضم سقط الزند أكثر شعر صباه وشيئاً من شعر الكهولة. وقد رتبته أبو العلاء ووضع له مقدمة. ويظهر في شعر صباه المبالغة والتكلف والمحاكاة. وكلما تقدم به العمر اكتسب شعره صفات تجعله متفرداً. فتبدو فيه ظاهرة استعمال الاصطلاحات والإشارات العلمية، كما في قصيدة توديع بغداد. أما الشعر الذي نظمته في كهولته ففيه نضجٌ في الفكر وإتقان للمعاني وبعد عن الضرورات والمبالغات. ويلجأ فيه للقوافي الصعبة، ويطيل فيها مثل الطائية التي بعث بها إلى خازن دار العلم ببغداد. وفي هذا الديوان تأثر واضح بالمتنبي، وكان به مغرماً ولأشعاره دارساً، وبينهما صفات مشتركة، أهمها التفوق والنبوغ والشعور بالامتياز والطموح، والشعور بفساد الحياة والأحياء في عصرهما. ويأتي تباينهما من اختلاف طباع كليهما وظروفه. فبينما أثر المتنبي الحرب والثورة وسيلة للإصلاح، أثر المعري النقد السلبي والاعتزال وتصوير القبائح والسخرية منها، وهذا الذي جعل له التفرد والأصالة. ويحوي ديوانه أغراضاً مختلفة كثيرة من أهمها:

المدح: لم يمدح أبو العلاء أميراً طلباً لنواله، وقد سطر في مقدمة الديوان: ”ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد، ولا مدحت طلباً للثواب، وإنما كان بغرض الرياضة وامتحان القريحة“ وسلوك الطريق التي سلكها الشعراء قبله، وإن كان له مدائح نظمها في أناس من أصحابه، أو أجاب بها نفرأ من الشعراء أرسلوا إليه قصائد. ولهذا السبب جاء مدحه مختلفاً عن مدائح من سبقوه. فلم يكن محتاجاً لأن يتزلف الممدوح أو يسبغ عليه صفات مبالغاً فيها. ومن هذا النوع النونية التي بعث بها إلى الشريف أبي إبراهيم العلوي، وكان قد بعث إليه بقصيدة:

غير مستحسن وصال الغواني بعد سبعين حجة وثمانى

فرد عليه أبو العلاء بقصيدة معارضة من البحر نفسه (الخفيف) والروي نفسه:

عَلَّانِي فَإِنَّ بِيضَ الْأَمَانِي قَنِيَّتْ وَالظَّلَامُ لَيْسَ بِفَانٍ

الفخر: لم تترك نفسه الزاهدة وحياء الانعزال التي فرضها على نفسه للفخر إلا حظاً ضئيلاً في شعره، فلم تظهر فيه الأنا المتضخمة، ولم يُبتل بالحساد لأنه ترك للناس حُطامَ الدنيا، ووجدنا له قليلاً من الفخر في صباه يعبر عن عنفوان هذه المرحلة من العمر وجموحها. ومن أشهر ما قاله في الفخر قصيدته:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

وفي هذه القصيدة كما في قصائد أخرى أبيات أقرب إلى شعر المتنبي:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانه لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ

وهذه القصيدة علامة من علامات تأثير المتنبي الكبير في شعر المعري، حتى يكاد القارئ يظن أنها ضلّت طريقها من ديوان أبي الطيب إلى سقط الزند. ثم ترك أبو العلاء المعري الفخر كله في آخر عمره.

الوصف: يحاول المعري وصف الأشياء المحسوسة، ويزين لفظه حتى يعوض ما يحس به من نقص تجاه وصف المبصرين، ولعله كان يعتمد إلى الوصف الحسي ليثبت أنه لا يقل قدرة عن المبصرين في الوصف:

رُبَّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الصَّبْحُ فِي الحُسِّ	نِ وَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ الطَّيْلِسانِ
لَيْتِي هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الرِّئِ	حِجٍ عَلَيْهَا قَلَائِدٌ مِنْ جُمانِ
هَرَبَ النَّوْمُ عَنْ جُفُونِي فِيهَا	هَرَبَ الأَمْنِ عَنْ فِؤادِ الجَبانِ
وَكأَنَّ الهِلالَ يَهْوَى الثُّرَيَّا	فَهُمَا لِلوَداعِ مُعْتَنِقانِ
وَسَهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الحَبِّ فِي اللُّو	نِ وَقَلْبِ المُحِبِّ فِي الخَفَقانِ

الغزل: في ديوان المعري مقطوعات غزلية رقيقة. ولم ينقل المؤرخون عنه أنه أحب فتاة بعينها في صباه، ويراه بعضهم ضريراً زاهداً محزوناً لا سبيل للحب إلى قلبه، ويرتفع شعره القليل في الغزل عن أن يكون محاولة لإكمال الديوان بالموضوعات التي استنتها الأوائل، ففي بعضه لوعة حقيقية، وغناء والهٍ مَشوق:

يا ساهِرَ البَرَقِ أَيْقِظُ راقِدَ السَّمْرِ	لَعَلَّ بِالجِرْعِ أعواناً على السَّهَرِ
وإنْ بَخِلتَ عن الأحياءِ كُلِّهِم	فاسقِ المَواطِرَ حَيًّا من بَنِي مَطَرِ

ويا أسيرةً حِجَلَيْهَا أرى سَفَهَا
 حَمَلَ الحُلِيِّ مَنْ أَعْيَا عن النَّظْرِ
 ما سِرْتُ إِلَّا وطيَّفُ منكِ يَصْحَبُنِي
 سُرَى أَمَامِي وتَأْوِيًّا على أَثْرِي

الرتاء: رثى أبو العلاء أباه وأمه وطائفة من الناس، وفي ديوانه سبع مرات، وفي أغلبها حزن وتفجُّع لأنها أحزان شخصية وليست تعزية. وأجود ما قاله في الرثاء قصيدته الدالية التي أبَّن بها أبا حمزة الفقيه الحنفي، يقول عنها طه حسين مبالغاً: ”نعتقد أن العرب لم ينظموا في جاهليتهم وإسلامهم ولا في بداوتهم وحضارتهم قصيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حُسن الرثاء“، ونقول إن طه حسين بالغ في مدح القصيدة، لأن في الشعر العربي قصائد رثاء كثيرة تضاهيها، إن لم تكن تتفوق عليها كرتاء أبي تمام لمحمد بن حميد الطوسي، ورتاء أبي ذؤيب الهذلي لأبنائه، ورتاء المتنبي لجدته ولأخت سيف الدولة، ورتاء ابن الرومي لابنه محمد، ولا ننسى طبعاً مراثي الخنساء الكثيرة في أخويها، ولا سيما في رثاء صخر، ولعل ميزة قصيدة المعري أنه بث فيها كثيراً من أفكاره الفلسفية، ومنها:

غَيْرُ مُجَدِّ فِي مِلَّتِي وَاَعْتِقَادِي	نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرْتُمُ شَادِ
وَشَبِيهَ صَوْتِ النَّعِيِّ إِذَا قِيءَ	سَ بِصَوْتِ البَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِ
صَاحِ هَذِي قُبُورُنَا تَمَلَأُ الرُّحَى	بَ فَأَيْنَ القُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
خَفَفِ الوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الـ	أَرْضِ إِلَّا مَنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ
سِرِّ إِنْ اسْطَعَّتْ فِي الهَوَاءِ رُويداً	لَا اخْتِيالاً على رُفَاتِ العِبَادِ
إِنَّ حُزْنَاً فِي سَاعَةِ المَوْتِ أَضْعَا	فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ المِيلَادِ
تَعَبُ كُلُّهَا الحَيَاةُ فَمَا أَعـ	جَبُّ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي أزدِيَادِ

الهجاء: لم ينظم المعري في هذا الغرض من أغراض الشعر بمعناه التقليدي المعروف، بمعنى أن يتجه الشاعر إلى شخص، فيثلبه ويذمه. فليس للمعري عدو ليفعل به هذا. ولكنه تتبع عيوب البشر عامة ونقائصهم، فأظهرها في لهجة قاسية متجنباً الفحش والإفذاع، وليس غرضه الإساءة والتشهير، بل الرحمة والإصلاح. ولا نجد هذا الموضوع في سقط الزند بل في اللزوميات، ويعده النقاد ضرباً من ضروب السخرية، وإن كان القدماء عدوه هجاء. وقد انتقد المعري ظواهر متعددة في مجتمعه، منها الأدعاء باسم الدين والرياء، وخص بنقده الواعظ المنافق:

رُويدَكَ قد غُرِزَتْ وَأَنْتَ حُرٌّ
 بِصَاحِبِ حَيْلَةٍ يَعْظُ النِّسَاءَ

يُحَرِّمُ فَيْكُمُ الصَّهْبَاءَ صُبْحًا وَيَشْرِبُهَا عَلَى عَمْدٍ مَسَاءً
يَقُولُ لَكُمْ غَدَوْتُ بِلا كِسَاءٍ وَفِي لَدَاتِهَا رَهْنُ الْكِسَاءِ

الدرعيات: قصائد وصف بها الدرع، طبعت ملحقة بسقط الزند. والغريب أن المعري يصف فيها شيئاً من عدة الحرب وهي الدروع، مع أنه لم يخض غمار معركة ولا استعد لها. وقد افتن في وصفها، فمرة يصفها على لسان رجل أسنَّ فتكَّ لبسها، أو على لسان رجل رهنها، وجعل وصفها مرة محاورة بين درع وسيف، ووصفها على لسان رجل يبيع درعاً أو رجل خانه آخر في درع، أو على لسان امرأة توصي ابنها بلبس الدرع والانشغال بها عن الزواج. والدرعيات موضوع جديد في الشعر العربي يدل على براعة وأصالة. ويجعلها النقاد مقابلة للطرديات (شعر الصيد) عند الشعراء الآخرين، كما يراها آخرون محاولة من المعري لتحقيق قوله:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بما لم تستطِعْهُ الأوائلُ

اللزوميات: سميت كذلك لأنه التزم فيها حرفاً قبل حرف الرّويِّ. وإذا تأملناها وجدنا فيها مشابهة من سجونته التي اختارها. فإن القافية والتزام رويها سجن للشاعر، فجعل المعري لنفسه سجنأً آخر هو الحرف الذي التزمه قبل الروي. لم يكن المعري أول من ابتكر هذا، وألزم نفسه بهذا القيد الشعري، فلكتئير عزة تائية التزم فيها اللام قبل التاء ومطلعها:

خِليِّ هَذَا رُبْعُ عَزَّةٍ فَاغْقِلَا قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتِ

ولكن الجديد في صنع المعري أنه نظم ديواناً كاملاً على هذا النمط حاوياً جميع حروف المعجم، فجاء عملاً يحمل بصماته مقترناً باسمه، وظل ديوانه هذا نسيج وحده، ولم يستطع شاعر أن يحذو حذوه إلا في المقطوعات المحدودة. وقد قدم له المعري قائلاً: "وقد تكلفْتُ في هذا التأليف ثلاث كُلف: الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها، والثانية أن يجيء رويُّه بالحركات الثلاث وبالسكون، والثالثة أنه لزم مع كل روي فيه شيء لا يلزم". وفوق هذا لم يضعه قصداً للبراعة اللفظية والمقدرة اللغوية فحسب، وإمّا قصد به إلى معان فلسفية، كذلك جاء من أحد عشر ألف بيت في مائة وثلاثة عشر فصلاً. وقد جاء الديوان مثقلاً بالغريب واستعمال المصطلحات، وجاءت القيود المترامية هذه على حساب الوحدة المعنوية في المقطوعات أحياناً، إذ يركز فيها على وحدة القوافي. ويرى بعض النقاد أن المقطوعة أو القصيدة في اللزوميات تطول وتقصر تبعاً لصعوبة القافية وسهولتها، فقد تساعده القافية السهلة فيمتد نفسه الشعري، فيكثر من الأبيات وإن استوفى المعنى

المراد، وقد ينقطع نفسه عند البيتين والأبيات القليلة، وإن كان في المعنى مُتَّسِحاً، لأن الساقية تضطره إلى ذلك. ومن أمثلة إثقال الأبيات بالعلوم والمصطلحات قوله:

ما لي غَدَوْتُ كِفَافِ رُؤْبَةٍ قَيِّدْتُ في الدَّهْرِ لَمْ يُقَدِّرْ لَهَا إِجْرَاؤُهَا
أُعْلِتُ عَلَّةً قَالَ وَهِيَ قَدِيمَةٌ أَعْيَا الْأَطِبَّةَ كُلَّهُمْ إِبْرَاؤُهَا

يعد عصر المعري عصرًا ذهبيًا في نضج العلوم وانتشارها على اختلاف مشاربها، فالعلوم الشرعية وعلوم القرآن من تفسير وقراءات وإعجاز، وعلوم الأدب والنقد ثم الفلسفات المنقولة كانت قد استوت على سوقها، وكان للمعري مشاركات جادة فيها، وهو مع هذا يتواضع ويضع من شخصه وعلمه:

ماذا تُرِيدُونَ لَا مَالَ تَيَسَّرَ لِي فَيُسْتَمَاحُ وَلَا عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ
أَتَسْأَلُونَ جَهْلًا أَنْ يُفِيدَكُمُ وَتَحْلُبُونَ سَفِيًّا صَرْعَهَا يَبَسُ

كان علمه باللغة والنحو والأدب الغاية القصوى حتى قيل إن المعري بالمشرق وابن سيده بالمغرب ليس لهما في زمانهما ثالث في اللغة. وذكر التبريزي أنه لا يعرف كلمة نطقت بها العرب ولم يعرفها أبو العلاء. وكان المعري حريصاً على إظهار علمه باللغة، يرصع شعره ونثره بالغريب النادر، ويدل على باهر علمه باللغة تحويله لقفائتي بيتي النمر بن تولب وقد عرض لهما في رسالة الغفران:

أَلَمْ بِصُحْبَتِي وَهُمْ هُجُوعٌ خِيَالٌ طَارِقٌ مِنْ أُمَّ حَصَنِ
لَهَا مَا تَشْتَهِي: عَسَلًا مُصْقَى إِذَا شَاءَتْ، وَحُوَّارِي بِسْمَنِ

ويستطرد إلى حكاية وقعت بين خلف الأحمر وأصحابه، فإنه سألهم لو أنه وضع أم حفص موضع أم حصن ما كنتم تقولون في البيت الثاني؟ فسكتوا، فقال خلف: وَحُوَّارِي بَلْمَص، والحواري: الخبز الأبيض، واللمص الفالودج، فذكر خلف تغييراً واحداً وعجز أصحابه عنه. فيأتي أبو العلاء ويظهر مقدرته اللغوية، ويفرغ على هذه الحكاية مغيراً حرف الروي على كل حروف المعجم، ويشرح الألفاظ الغريبة التي جاء بها، وكان مع الشرح يشير إلى الخلافات اللغوية، ويورد الشواهد، ويفرق بين الاستعمال الحقيقي والمجازي.

ومن وسائله في الإفصاح عن التمكن اللغوي إتيانه باللفظ ثم يفسره أو ينفي عن سامعه ما قد يتبادر إلى ذهنه من معناه مثبتاً معنى آخر:

نوديتَ أَلْوَيْتَ فَأَنْزِلْ لَا يُرَادُ أَتَى سَيْرِي لَوَى الرَّمَلِ بَلْ لِلنَّبْتِ إِلْوَاءُ

ويكثر عنده لذلك الجناس والتورية والطباق والاستعارة، ولها صلة قوية بالتفنن اللغوي. ومن أبرع ما وجد عنده، استغلاله المعارف النحوية واللغوية للتعبير عن الآراء الفلسفية . وللمعري معرفة نادرة بالعروض ، وقد ألف كتاباً فصّل فيه ضروب الشعر وقوافيه، ومثّل لها بأشعار من نظمه. ويدل على اهتمامه بذلك نثره المعلومات العروضية في كل تأليفه.

تأثر المعري بمختلف الفلسفات التي سادت في عصره، وأضاف إليها تجربته الشخصية وآراءه التي استقاها واختارها لنفسه. وأكثر آرائه الفلسفية حوثها اللزوميات. وكان يرى قدم المادة الكونية والزمان، وهذا أثر من آثار أرسطو:

وَلَيْسَ اعْتِقَادِي خُلُودَ النُّجُومِ وَلَا مَذْهَبِي قِدَمُ الْعَالَمِ

ابن القارح

وقبل الدخول في رسالة الغفران يستحسن أن نوردَ رسالة ابن القارح، فقد كانت سبباً في أن المعري كتب رسالة الغفران، ورسالتُهُ رد على الرسالة التي أرسلها ابن القارح وأُيِّد. فمن ابن القارح هذا؟

هو أبو الحسن علي بن منصور بن طالب الحلبي، الملقَّب دَوْخَلَةَ، ويُعرف بابن القارح (٣٥١هـ-٤٦١هـ). كان شيخاً من أهل الأدب، راوية للأخبار، حافظاً لقطع كثيرة من اللغة والأشعار، قيماً بالنحو. وكان ممَّن خَدَمَ أبا عليِّ الفارسي في داره وهو صبي، ثمَّ لازمه وقرأ على زعمه جميع كتبه وسماعاته. وكانت معيشته من التعليم بالشام ومصر. وكان مؤدِّباً للوزير أبي القاسم المغربي، وله فيه هَجْوٌ كثير، وكان يذمه ويعدُّ معايبه، وشعره يجري مجرى شعر المعلمين، قليل الحلاوة خالياً من الطلاوة. قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء: ” وكان آخرُ عهدي به بتكريت في سنة إحدى وستين وأربعمائة، فإننا كنا مقيمين بها، واجتاز بنا وأقام عندنا مدة، ثم توجه إلى الموصل، وبلغتني وفاته من بعد، وكان يذكرُ أن مولده بحلب سنة ٣٥١هـ. ولم يتزوج ولا أعقب، وجميع ما أوردُه من شعره ممَّا أنشدنيه لنفسه، فمنه في الشمعة:

لقد أشبهتني شمعةٌ في صابتي وفي طولِ ما ألقى وما أتوقَّعُ
نُحولٌ وحرقٌ في فناءٍ ووحدةٌ وتسهيْدُ عينٍ واصفرارٌ وأدمعُ

ومنه يهجو الوزير المغربي:

لُقِّبْتَ بالكاملٍ سَتراً على نَقِصِكَ كالباني على الخُصِّ
فصِرْتَ كالكنفِ إذا سُيِّدَتْ بُيِّضَ أعلاهِنَّ بالجِصِّ
يا عُرَّةَ الدنيا بلا عُرَّةٍ ويا طُوَيْسَ الشُّومِ والحِصِّ
قتلتَ أهليكَ وأنهبتَ بي تَ اللهُ بالمَوْصلِ تستعصي

رسالة ابن القارح

بسم الله الرحمن الرحيم

أستفتح باسمه الكريم، مستنزلاً منه البركة والخير العميم، والحمد لله الجواد واهب النعم، كان قبل كل شيء وتفرد بالقدم، جلّ سبحانه عن أن يشبهه أحد من خلقه، أو يرقى إلى بعض صفاته من يرجون رحمته وينعمون برزقه، وهو ولي النعم والحسنات، تعالى سبحانه عن النقص والسيئات، حرّم الظلم على نفسه فهو العدل المطلق، قوله الحقّ، خلق الإنسان وأنطق، خلق الكون وابتداه، ويؤقيه ما أراد في علاه، فإن شاء محقه وأفناه. وأصلي وأسلم على أشرف الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين المطهرين، صلاة يرضاها رب العزة كما أمر في كتابه، وعلى صحابته وأصحابه.

هذا كتابي أطال الله بقاء مولاي الشيخ الجليل، ومتّعته بالصحة والعمر الطويل، وأدام عليه الخير والسعادة، فإن استزاد وهبه الزيادة، وأعطاه النقاء والصفاء، وجعلني له الفداء، وأدعو الله سبحانه أن يأخذ من عمري ليمدّ له البقاء، ولا أقول هذا جرياً وراء ما ساربت الناس في اللفظ والكتابة وشاع، وحاشاه أن أعمد إلى التملق والخداع، وإلى ما يملأ البيوت والأسواق، من كلام التزلّف والنفاق، أو كما يقول واحداهم إذا زار صديقه العليل: كيف أنت يا صاحب الذكر الجميل؟ جعلني الله فداك، وأيد من نصرّك وعادى من عادك، وهو لا يريد إلا تحبباً وتكراراً لما يُقال، وكلامه تملق في أحسن الأحوال، ويضمّر أن كلامه فضل سيشكره صديقه إذا نهض من علته، وعاد إلى سابق عهده بقوته، فيكافئه على ما أظهر من جميل الأقوال.

ويعلم الله تقدست أسماؤه، وتعددت في الكون آياته وآلؤه، أي لو حننت إليه، أدام الله تأييده، حنين الأمّ الواله إلى ولدها الغائب، أو إناث الطير إلى أفراخها فرقتهم النوائب، أو الحمامة إلى إلفها وعشيرها، أو الغزالة إلى صغيرها، لكان ذلك ممّا تغيّره الليالي والأيام، والشهور والأعوام، لكنه حنينُ الظمآن إلى الماء، والخائف إلى الأمن والرجاء، والسقيم إلى البرء والشفاء، والغريق إلى النجاة وقد تعالت الأنواء، والقلبي إلى السكون والراحة، بل حنين نفس مولاي الجليل النفيسة إلى الحمد والمجد،

أدام الله عليه السعد، فإني رأيت توجُّهها إليهما، حنينَ الأشياءِ إلى عناصرها، ونزوعَ مَكُونَاتِ الكونِ إلى جواهرها. فإن جعل الله لي في العمر مُتَسَّعًا، ابتهلت إلى الله ابتهالاً مذنب تاب ودعا، أن يؤنسنِي ربي الكريمُ برؤيته، وأن يُنعم عليَّ بأن أعلَقَ حبل مودته، فكنت كساري الليل ألقى عصا التَّرحال، وحمدِ المسرى، وقرَّت عينه، ونَعِمَ البال، وكان كمن لم يَمَسُّه سوء، ولا يطلب عيوبه عدو لا يرجو له الفلاح، ولا أنهكه السعي في المساء والصبح، وأدعو العليَّ القدير أن يَمُنَّ عليَّ بذلك النجاح، والله سبحانه أدعو أن يشفي النفس ويبرئ الجراح، ويروي ظمأها باماء القراح.

وإني أسأل الله في البُعد والقُرب والفرق، أن يمتع مولاي الشيخ الجليل بالسعادة والفضل الجزيل، وأن يجعل المجد يسعى إليه سَعَى مشتاقٍ إلى مشتاق، فمن مرَّ على بحرِ الزاخر، ونظرَ إلى نورِ بدره الباهر، جديرٌ بأن يتعثر القلم بين أنامله، ويخبو وهجُ الكلمات في رسائله، إلا أن يعطيه مولاي المفتاح، ليفتح باب النجاح والفلاح، فيشرفه مولاي بأن يجعله إليه منسوباً، ومن مريديه محسوباً، خادماً في قصور علمه، يفتح له مولاي ما استعصى فتحه من الأبواب، ويشرفه بجعله أحد الخدام والحُجَّاب، فيكون شرارةً من ناره، يهتدي سواء السبيل بأنواره، يكتنفه بحرٌ مولاي من كل جانب، فلا يحتاج عوناً من خلِّ أوصاحب، ولكن هيهات! نأتِ الديار وبعُدت المسافات، وحاشاه أن يبلغه فهم المتعلمين، فهو السخاء وهم من المتساخين، لاسيما وألوان النفس تلزمها لزوم الألوان للأبدان، لا يقدر الأبيض على السواد، ولا على الأبيض يقدر الأسود كالمِداد، ولا على الجبن الشجاع، ولا على الشجاعة الجبان المُرتاع، وكما قال أبو بكر محمد بن عبد الله العرزمي، ويعلم مولاي الشيخ الجليل أن أصله من حضرموت، ولكنه نشأ في الكوفة:

يفرُّ جبانُ القوم عن أمِّ نفسه	ويحمي شجاعُ القوم من لا يناسبه
ويُرزقُ معروفُ الجوادِ عدُوّه	ويُحرَمُ معروفُ البخيلِ أقرُّبه
ومن لا يكفُّ الجهلَ عمَّن يودّه	فسوف يكفُّ الجهلَ عمَّن يواثبه

وقد نلقى بللاً في الضباب، ولكن من أين له مطرُ السحاب؟ وهل من عاقل يشبُّ الغراب بالْعُقَاب؟ ولقد طار ذكر مولاي في كل مكان، ويتردد اسمه كما يتردَّد الأذان، فجرى بذكره القلمُ واللسان، فمن أنكر صيته الرنَّان، كان كمن يكابر الإنس والجان، ويتمسك بالإفك والبهتان، وكان كمن جَعَلت وقاحته وجهه كالحجر، ومن يتطاوُل على نور القمر، وكأنه سكرانٌ هذى وهذر، ووصف نفسه بالغباء بين بدوٍ وحَصْر، فما استفاد إلا أنه قلَّل قدره، وما أظن الشاعرَ كان يعني غيره:

كناطحِ صخرةً يوماً لِيَفْلِقَها فلم يَضِرْها وَأَوْهى قَرَنَهُ الوَعْلُ^(١)

وردتْ حلبَ حماها الله وحرّسها، ومَن عَرَفها آنسها، وقد مُنيتُ في ظاهرها بالدواهي الشديدة
والمصائب العنيدة، فلما دخلتها لم يقرّ لي قرار، وأنكرتها لأني لم أجد فيها من كنتُ ألقهم من صاحب
وجار، فأنشدت باكياً أبياتاً لإياس بن القائف:

يَفِرُّ جبانُ القومِ عن أُمِّ نَفْسِهِ يُقِيمُ الرِّجالُ الأَغْنِياءُ بأَرْضِهِمْ
فَأَكْرِمِ أَخاكِ الدَّهْرَ ما عَشْتُمَا معاً كَفَى بِالْمَماتِ فُرْقَةً وتنايأ إذا
جئتُ أرضاً بَعَدَ طولِ اجْتِنابِها فَقَدْتُ صَدِيقِي، والبِلادُ كما هيا

١- البيت للأعشى، وروي البيت: لِيُوهِنها

غرام أبي القطران

كان الشاعرُ الفاتكُ اللصُّ أبو القَطِرانِ المُرَّارُ بن سعيد الفقعسي شجاعاً كريماً، وكان يهوى ابنة عمِّ له في نجد اسمها وحشية، ثم تزوّجها رجلاً من أهل الشام، ورحل بها إلى بلده، فغمَّ أبا القطران بَعْدُها، وأحزنه فراقها، فقال من قصيدة له تبلغ اثني عشر بيتاً:

إِذَا تَرَكْتُ وَحْشِيَّةَ النَّجْدِ لَمْ يَكُنْ لِعَيْنَيْكَ مِمَّا تَشْكُوَانِ طَبِيبُ
وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِذْ أَنْتَ لَمْ تَزُرْ حَبِيباً وَلَمْ يَطْرَبْ إِلَيْكَ حَبِيبُ
وَكَانَتْ رِيَّاحُ الشَّامِ تُكْرَهُ مَرَّةً فَقَدْ جَعَلَتْ تِلْكَ الرِّيَّاحَ تَطِيبُ

فلم أنل إلا رائحة الرياح، مثلما كان حظُّ أبي القَطِرانِ من وحشية.

ولقيتُ أبا الفرج الزُّهرْجي ومعه خزانةُ كُتُبِهِ، فعرضَهَا علي فقلت: كتبك هذه يهودية، برئت منها الشريعةُ الحنيفية، فأظهرَ من قولي عظيمَ الإنكارِ واحتج، فقلت مهلاً يا أبا الفرج، لقد وقعتَ على الحكمِ المُجْرَبِ، لا يحكم على ما يجهل، ولا يُجيب قبل أن يُسأل، ومن قولِ الحق لا يخجل، فقراً هو وولده وقال: مثلك من يحكم عن تجربة ودراية، ويولي الكتابَ كل عناية، وكتبَ إلي رسالة يمدحني فيها، وما ذلك إلا من طبع له كريم، وخلق غير ذميم.

آراء المتنبي

قال المتنبي: «أدُمُّ إلى هذا الزمان أهيلهُ»

وهكذا صغَّرهم تصغير تحقيرٍ غير تكبير، وتقليلٍ غير تكثير، فباحَ بمكنون سرِّه، وما خفي من أمره، وهذا مقبولٌ في مجال الشعر، ومن حقِّ قائل أن يقول في النظم والنثر، ولكنه لم يضعه في موضعه الصحيح، وهذا من الفعل القبيح، وما يستحق زمانٌ ساعده بقاء سيف الدولة أن يذمَّ أهله، أليس القائل:

أَسِيرٌ إِلَى إِقْطَاعِهِ فِي ثِيَابِهِ عَلَى طَرَفِهِ مِنْ دَارِهِ بِحُسَامِهِ

وقد كان أولى به أن يشملهم بشفاعة سيف الدولة، فهم عليه محسوبون، وإليه ينتسبون، ولا يجوزُ أن يشكو عاقلاً ناطقاً إلى غير عاقل ولا ناطق، إذ الزمان ليس إلا حركات الفلك، إلا أن يكون ممَّن يعتقد أن الأفلاك تعقل وتعلم، وتدرى بمواقع أفعالها وتعلم، ولها قصد وإرادة، ويحملُه هذا الاعتقاد على أن يحرق لها البخور في كل حين، ويقرب لها الهدايا والقرابين، فيكون مناقضاً لقوله:

فَتَبَّأَ لِدِينِ عَبِيدِ النُّجُومِ وَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهَا تَعْقِلُ

منزلة أبي العلاء المعري

ثم جرى ذِكْرُ مولاي الشيخ الجليل، أدامَ الله تَأْيِيدَهُ، من غير سبب جرَّه ولامقتضى اقتضاه، فقيل:

الشيخُ أعلمُ بالنحو من سيبويه، وباللغةِ والعروضِ من الخليل^(١) فقلت وكلُّ من في المجلس يسمعون: بلغني أنه - أدامَ الله تَأْيِيدَهُ - يُصَغِّرُ الكبيرَ ويُقلِّلُ الكثيرَ، فيصيرُ تصغيره تكبيراً وتقليله تكثيراً، وكانوا بهذا عارفين وله مُدْرِكِينَ، فقد تَفَتَّحَ الرَّهْرُ وتَوَضَّحَ النَّوْرُ وأضاء الصُّبْحُ لكل ذي عينين.



كان أبو الفرج الزهرجي كاتبَ حضرةِ نصرِ الدولة، أطل الله بقاءه، كتب رسالةً إلىَّ أعطانيها، ورسالةً إليه، أدامَ الله تَأْيِيدَهُ، استودعَنيها، وسألني إيصالها إلى جليل حضرته، وأكون موصِلها لا مُرسلها، ومُعجِّلها لا مُؤجِّلها، فسَرَقَ عديلي الرَّحْلَ الذي فيه الرسالة، فكتبتُ هذه الرسالة أشكو أمري، وأبثُّ ما في صدري، وما لقيته في سفري، من أناس صغيري النفوس، يدعون العلم والأدب وعلمهم علمُ التيوس، والأدبُ أدبُ النفس لا أدبُ الدرس، وحظُّهم صِفْرٌ في الحاليتين، ولهم تصنيفات لا يرضاها العقل ولا المنطق، كنتُ إذا رددتها عليهم، سَعَوْا إلي بالشدائد، ونصبوا لي الفخاخَ والمكائد، أو يكونُ واحدُهم كما قال الله تعالى في سورة النساء يصف المنافقين: «مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إلى هَوْلَاءِ ولا إلى هَوْلَاءِ»

١ - الخليل بن أحمد الفراهيدي (٢٠٠١-٥٧١هـ/٣١٧-٦٨٧م) كان إماماً في النحو، وهو أستاذ سيبويه، وضع أول معجم عربي سَمَّاهُ "العين" وهو مستنبط علم العروض.

المتنبي في السجن

حكى القطريلي^١ وابن أبي الأزهري^٢ في كتاب اجتماعا على تصنيفه، ويزعم أهل مصر أنه لم يُصنّف في معناه مثله، يحكيان فيه أن المتنبي أخرج في بغداد من الحبس إلى مجلس أبي الحسن الوزير رحمه الله، فقال له: أنت أحمد المتنبي؟ فقال: أنا أحمد النبي، وكشف عن بطنه، فأراه بقعة بيضاء وقال: هذا طابع نبوتي، فأمر به فصُغّ خمسين مرة، وأعادته إلى محبسه. ويقول لسيف الدولة:

وَتَغْضَبُونَ عَلَيَّ مَنْ نَالَ رِفْدَكُمْ حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِيصُ وَالْمِنَنُ

وكذب والله، لقد كان يتحرش بالمكارم ويتحكك بها، ولا يُرضيه إلا أن تكون له ومنه وبه، وهذا لا ينفي طلاوة شعره ورونق ديباجته.

ولكنني أعتاظ على الزنادقة والمُلحدين الذين يتلاعبون بالدين، ويُريدون إدخال الشكوك على المسلمين، ويستعذبون الدس والانتقاص من نبوة النبيين، صلوات الله عليهم أجمعين، وتراهم يتظرفون، ويبدون من أتباع مذهب:

تِيهِ مُغَنٌّ وَظُرْفُ زَنَدِيقٍ

وقتل الخليفة العباسي الثالث المهدي بشار بن بُردٍ بتهمة الزندقة، وكان بشار حين اشتهر بالزندقة خاف العقاب، فدافع عن نفسه بقوله:^(٣)

يَا ابْنَ نَهْيَا رَأْسَ عَلِيٍّ ثَقِيلُ وَاحْتِمَالُ الرَّأْسَيْنِ عَبَاءُ ثَقِيلُ
إِدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ رَبِّي مِنْ فِإِنِّي بِوَاحِدٍ مَشْغُولُ

١ - أحمد بن عبد الله بن الحسين القطريلي الكاتب من علماء الكتاب وأفاضلهم .

٢ - هو أبو بكر محمد بن أحمد الخزازي النحوي الإخباري

٣ - ورد البيتان في الديوان بلفظ آخر ولهما ثالث:

يَا ابْنَ نَهْيَا رَأْسِي عَلِيٌّ ثَقِيلُ وَاحْتِمَالُ الرَّأْسَيْنِ خَطْبٌ جَلِيلُ

إِدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِثْنَيْنِ مِنْ فِإِنِّي بِوَاحِدٍ مَشْغُولُ

يَا ابْنَ نَهْيَا بَرَيْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ هِجَارًا وَذَاكَ مِنْ أَيِّ قَلِيلِ

وابن نهيا هو ح | ماد عجرد الشاعر من رؤوس الزنادقة

صالح بن عبد القدوس

وجيءَ بصالح بن عبد القدوس، ووضعوا السيْفَ على رقبتِه، فقال: علامَ تقتلونني؟ قالوا: على قولك:

رُبَّ سِرٍّ كَتَمْتُهُ فَكَأْتِي أَخْرَسُ أَوْ ثَنِي لِسَانِي عَقْلُ
وَلَوْ أَنِّي أَظْهَرْتُ لِلنَّاسِ دِينِي لَمْ يَكُنْ لِي فِي غَيْرِ حَبْسِي أَكْلُ

يا عدو الله وعدو نفسه:

وَالسِّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَمَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرٍ^(١)
فقال: كنت زنديقاً وقد ثبت عن الزندقة.

يا ابنَ نَهْيَا رَأْسِي عَلَيَّ ثَقِيلُ وَاحْتِمَالُ الرَّأْسَيْنِ خَطْبُ جَلِيلُ
إِدْعُ غَيْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِثْنَيْنِ نِ فِيَّ يَوْاحِدٍ مَشْغُولُ
يا ابنَ نَهْيَا بَرِئْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ هِ جِهَاراً وَذَاكَ مِنِّي قَلِيلُ

وابن نهيّا هو حمّاد عجرد الشاعر من رؤوس الزنادقة

قال: كيف وأنت القائل:

وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ عَادَاتِهِ حَتَّى يُوَارِي فِي ثَرَى رَمْسِهِ^(٢)
إِذَا ارْعَوَى عَدَا إِلَى جَهْلِهِ كَذِي الضَّنَا عَادَ إِلَى نُكْسِهِ

وأخذ السيافُ غَفَلَتَه، فإذا رأسُه يتدحرجُ على بساطِ الجلد.



١ - البيت للشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سلمى.

٢- ورد البيت -

وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ حَتَّى يُوَارِي فِي ثَرَى رَمْسِهِ

وفي أيامه خرَج في بلاد ما وراء النهر رجلٌ أعورٌ حرفتهُ صباغة الثياب، فصنع لنفسه قناعاً من ذهب، وحوطب برَبَّ العزة، وصنع لمن أتبعوه قمرًا فوق جبلٍ عال، فأرسل إليه المهديُّ جيشاً أحاط بقلعته، وأحرق كلَّ ما فيها، فجمع ذلك الدجالُ كلَّ من في البلد، وسقاَهُم شراباً مسموماً، فماتوا جميعاً، ثم شربَ بعدهم، فليحِقَ بهم، وعجَّلَ بروحه إلى النار.



والصناديقي في اليمن، كانت له جيوشٌ، وحوطب برَبَّ العزة وكوتب بها، وكانت له دارٌ واسعة يجمعُ فيها نساء البلدة كلَّهن، ويُدخل الرجالَ عليهن ليلاً، وقال من يُوثق بخبره: دخلتُ هذه الدارَ لأنظر، فسمعتُ امرأةً تقول: بُني؟! فقال: يا أمَّاه، يجب أن نُمضي أمرَ وليِّ الله فينا. وكان يقولُ لهم: إذا فعلتم هذا لم يتميِّز مالٌ من مال، ولا ولد من ولد، وكنتم كنفسٍ واحدة، فغزاه الحَسَنِي من صنعاء وهزمه، فتحصَّن منه في حصنٍ هناك، ولم يقدر عليه، فأنفذ إليه طبيباً والوليد بن يزيد بن عبد الملك، تولى الخلافة سنة وشهرين وأياماً، وهو القائل:

إِذَا مُتُّ يَا أُمَّ الحُنَيْكِلِ فأنكِحي وَلَا تَأْمُلي بعدَ الفِراقِ تلاقيا
فإِنَّ الذي حُدِّثتِهِ مِن لِقائِنَا أحاديثُ طَسَمٍ تتركُ العَقْلَ واهيا

ورمى المصحف الشريف بالنشاب فمزقه وقال:

إِذَا ما جِئت رَبَّكَ يَوْمَ حَشْرِ فقلْ يا رَبِّ خرَّقني الوليدُ

وأرسل إلى مكة بناءً مجوسياً لبني له على الكعبة سبيلاً يشرب منه الناس، فكان الحجاج يقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك يا قاتل الوليد لبيك.



وأحضر عُلبةً من ذهبٍ وفيها جوهرةٌ جليلةٌ القدرِ على هيئة رجل، فسجد له وقبله وقال: اسجد له يا سمين، قلتُ: ومن هذا؟ قال: هذا ماني^(١)، كان شأنه عظيماً، واضمحل أمره لطول المدة، قلت: لا يجوزُ السجودُ لغير الله، فقال: قُمْ وانصرف عنا.^(٢)

وكان يشربُ على سطحٍ وبين يديه دَنٌّ كبيرٌ من زجاج، فقال لندمائه: أين القمرُ الليلة؟ فذكروا له الأبراج، وقال أحدهم: في الدنِّ، فضحك وقال: صدقت، لقد قلتُ ما في نفسي، والله لأشربنَّ سبعة

١ - ماني: مؤسس مبدأ الثوية أو إله الخير وإله الشر، وإله النور وإله الظلام، أصل الزندقة، وكان أتباعه يعدونه نبياً.
٢ - الكلام غير واضح، فمن الذي أحضر؟ أهو الوليد؟ لا يستقيم هذا، فبين ابن الفارح والوليد قرون، لكنه يثبت " قلت فلمن قال؟"

أيام متتالية. وكان بموضع بالقرب من دمشق يقال له البحر فقال:

تَلَعَّبَ بِالنَّبْوَةِ هَاشِمِيٌّ بِلا وَحْيٍ أَتَاهُ وَلَا كِتَابٍ^(١)

وأبو عيسى بن الرشيد القائل^(٢)

دَهَانِي شَهْرُ الصَّوْمِ لَا كَانَ مِنْ شَهْرٍ وَلَا صُمْتُ شَهْرًا بَعْدَهُ آخِرَ الدَّهْرِ

ولو كَانَ يَعْدِينِي الإمامُ بِقَدْرِهِ على الشَّهْرِ لاسْتَعْدَيْتُ جُدِي على الشَّهْرِ

فقاله بعقب هذا صرَّع، فكان يُصرَّع في اليوم مراتٍ إلى أن مات، ولم يدرك شهرا غيره والحمد

لله.

١ - ورد البيت بتغيير في الشطر الأول ويليهِ بيتان:

تَلَعَّبَ بِالْخَلَانِقِ هَاشِمِيٌّ بِلا وَحْيٍ أَتَاهُ وَلَا كِتَابٍ
تُذَكِّرُنِي الْحِسَابَ وَلَسْتُ أَدْرِي أَحَقًّا مَا تَقُولُ مِنَ الْحِسَابِ
فَقُلْ لِلَّهِ يَمْنُنِي طِعَامِي وَقُلْ لِلَّهِ يَمْنُنِي شُرَابِي

٢ - أبو عيسى بن هرون الرشيد كان أحسن الناس غناءً وأجملهم وجهاً، وكانت النساء في بغداد ينتظرن مروره ليمتعن أبصارهن بجماله.

قتل الألوفا في مكة

والجنابي^(١) قتل بمكة ألوفاً، وأخذ ستة وعشرين ألف جمل دون قتال، واستملك من النساء والغلمان والصبيان من ضاق الفضاء بكثرتهم، وأخذ الحجر الأسود، وظن أنه مغناطيس القلوب، واقتلع ميزاب الكعبة، وقتل في البصرة أربعة وعشرين ألفاً في ثورة الزنج^(٢)، وقال يخاطبهم: لقد ابتليتكم بقبح مظهر، فاجتمعوا إليه فبح مخبر. اجعلوا كل عام قفراً وكل بيت قبراً.

١ - هو أبو طاهر سليمان بن الحسن القرمطي، قاد الجيوش وهزم الفاطميين والعباسيين وحاصر القاهرة، وقطع طريق الحج، وانتزع الحجر الأسود من الكعبة، قتل سنة ٢٢٢هـ.

٢ - تخليط من ابن القارح فقد كانت ثورة الزنج عام ٦٥٢هـ، وظهر الجنابي عام ٦٨٢هـ، ولا علاقة لهذا بهذا.

الحسين بن منصور الحلاج

والحسين بن منصور الحلاج أصله من نيسابور وقيل من مرو، يدعي كل علم، وكان متهوراً جسوراً يروم تغيير الملوك والأمراء، ويدعي فيه أصحابه الألوهية، ويقول بالحلول، ويظهر للملوك مذاهب الشيعة، ومذاهب الصوفية للعامة، وبين هذا وذاك يدعي أن الألوهية حلت فيه، وناظره علي بن عيسى الوزير فوجده صفرًا في العلوم كلها، فقال له: لو أنك تعلمت فرائضك وأصول دينك، لكان أنفع لك من كلام تقوله ورسائل تكتبها وتقول: تبارك ذو النور الشعشعاني الذي يلمع بعد شعشعته، وأراك بحاجة إلى الأدب.

حدّثني أبو علي الفارسي قال: رأيت الحلاج واقفاً على حلقة أبي بكر الشبلي^(١)، وأنشد:

يَا سِرَّ سِرِّ يَدِيقُ حَتَّى يَخْفَى عَلَى وَهْمِ كُلِّ حَيٍّ
وِظَاهِرًا بِاطْنًا تَجَلَّى لِكُلِّ شَيْءٍ بِكُلِّ شَيْءٍ
إِنَّ اعْتِزَارِي إِلَيْكَ جَهْلٌ وَعَظْمُ شَاكٍ وَفَرَطُ عَيٍّ
يَا جُمْلَةَ الْكُلِّ لَسْتَ غَيْرِي فَمَا اعْتِزَارِي إِذَا إِلَيَّ

وهو يعتقد أن «العارف»^(٢) من الله بمنزلة شعاع الشمس، منها بدأ وإليها يعود، ومنها يستمدُّ نوره.

وأنشدني الظاهر لنفسه^(٣)

أرى جيلَ التصوفِ شرَّ جيلٍ فقلُّ لهم وأهونُ بالحلولِ
أقال الله حينَ عشقتُموه كلُّوا أكلَ البهائمِ وارْقُصُوا لي

وكان الحلاج يوماً في مجلس، فحرّك يده فانتثر على القوم مسك، وحرّكها مرة ثانية فانتثرت دراهم، فقال له بعض الحاضرين ممن يفهم: أريتني دراهمَ معروفة، أو من بك وهؤلاء الناس معي

١ - أبو بكر الشبلي فقيه مقدّم مالكي المذهب، صار من كبار المتصوفين

٢ - العارف: درجة متقدمة من درجات الصوفية التي تؤدي إلى اتصال الكائن بالخالق

٣ - هو سداد بن إبراهيم الجزري وورد لقبه في الوافي بالوفيات "الطاهر" شاعر مدح المهلبى وزير معز الدولة ومدح عضد الدولة.

إن أريتني درهماً واحداً عليه اسمك واسم أبيك، فقال: كيف وهذا لم يُصنع؟ قال الرجل: من أحضر ما ليس حاضراً صنع ما ليس مصنوعاً.

وكان في كتبه: إني أغرقت قوم نوح، وأهلكت قوم عاد وثمود. فلما شاع أمره، ووصل إلى السلطان خبره، أمر بضربه ألف سوط، وقطع يديه، ثم أحرقه بالنار في آخر سنة تسع وثلاثمائة، وقال لحامد بن العباس^(١): أنا أهلك، فقال حامد: الآن صح أنك تدعي ما اتهمت به.

والشلمغاني^(٢) كالحلاج يدعي قوم أنه إله، وأن الله حل في آدم، ثم في شيث، ثم في الأنبياء واحداً واحداً، ثم في الأوصياء والأئمة حتى حل في الحسين بن علي العسكري^(٣) وأنه حل فيه. وقد أغوى جماعة من الجهلة، منهم ابن أبي عون صاحب كتاب التشبيه، وقد ضربت عنقه مع الشلمغاني، وكانوا يبيحونه نساءهم وأموالهم يتحكّم بها، وكان يتعاطى الكيمياء وله كتب معروفة.

١ - كان وزيراً في زمن المقتدر، وله حكايات وأخبار كثيرة في كتب التراجم
٢ - هو محمد بن علي أبو جعفر ابن أبي العزاهر الشلمغاني الزنديق. أحدث مذهب الرفض في بغداد، وقال بالتناسخ وحلول الألوهية فيه. أفتى العلماء بإباحة دمه فأحرق.
٣ - هو أحد أئمة الشيعة الاثني عشر، توفي عام ٥٧٢هـ.

الراوندي الزنديق

كان أحمدُ بنُ يحيى الراوندي من أهل مَرَوْ في خراسان حسنَ السيرة جميلَ المذهب، ثم ترك هذا كَلِّهَ لأسبابٍ عَرَضَتْ له، ولأنَّ علمه كان أكبرَ من عقله، وكان كما قال الشاعر:

ومن يطيق مُزَكِّي عند صبوته ومن يقومُ لمستورٍ إذا خلعا^(١)

ومما أَلْفَه من الكتب «كتابُ التاج» يحتجُّ فيه لِقَدَمِ العالم. «كتابُ الزمردة» يحتج فيه على الرسل وإبطالِ الرسالة. كتاب «نَعَتِ الحِكْمَةِ» يسفِّه الله تعالى في تكليفِ خلقه ما لا يُطيقون من أمره ونهيه. «كتابُ الدامخ» يطعنُ فيه على نظم القرآن. «كتابُ القضيبي» الذي يثبت فيه أن علمَ الله تعالى بالأشياء مُحدَث، وأنه كان غيرَ عالمٍ حتى خلق خلقه وأحدث لنفسه علماً. «كتابُ المرجان» في اختلاف أهل الإسلام. وقد نقضها كَلِّها أبو الحسين عبدُ الرحيم بن محمد الخياط.^(٢)

١- البيت لمحمد بن يسير الرياشي، وورد «ومن يطيق خليعاً»

٢- أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد الخياط من أعيان المعتزلة في القرن الثالث، توفي بعد سنة ٢٠٣ هـ بقليل

ابن الرومي وتطيره

علي بن العباس بن جريج الرومي. قال أبو عثمان الناجم^(١): دخلتُ عليه في علته التي مات فيها، وعندَ رأسه وعاء كبير فيه ماء مثلوج وخنجر دون غمد، إذا طُعن به صدرٌ خرج من الظهر، فقلت: ما هذا؟ قال: الماء أبلُّ به حلقي، فقلماً يموتُ إنسانٌ إلا وهو عطشان، والخنجر إن زادَ علي الألم نحرت به نفسي. ثم قال: أقصُّ عليك قصتي، تستدلُّ بها على حقيقة موتي. أردتُ الانتقالَ من الكرخ إلى باب البصرة في بغداد، فشاورتُ صديقنا أبا الفضل، وهذا مشتقٌ من الأفضال، فقال: إذا جئتَ القنطرة فخذ على يمينك، وهو مشتق من اليُمن، وهل اليُمن إلا البركة؟ واذهبُ إلى سكة النعيمة، وهو مشتق من النعيم، فاسكن في دار ابن المُعافي، وهو مشتق من العافية. فخالفتُه لتعسي ونحسي، فشاورتُ صديقنا جعفرًا وهو مشتق من الجوع والفرار، فقال: إذا جئتَ القنطرة فخذ على شمالك، وهو مشتق من الشؤم، واسكن دار ابن قلابة، وهي التي أنا فيها، وقد انقلبت بي الدنيا، ولا يؤذيني شيءٌ كالعصافير في هذه الشجرة تصيح: سيق سيق، فها أنا في السياق، ثم أنشد:

أبا عُثْمَانَ أَنْتَ عَمِيدُ قَوْمِكَ وَجُودُكَ لِلْعَشِيرَةِ دُونَ لَوْمِكَ
تَمَتَّعَ مِنْ أَخِيكَ فَمَا أَرَاهُ يِرَاكَ وَلَا تَرَاهُ بَعْدَ يَوْمِكَ
وَأَلْحَ بِهِ الْبُولَ، فَقَلْتُ: الْبُولُ مُلْحٌ بِكَ. فَقَالَ:

غَدًا يَنْقَطِعُ الْبَوْلُ وَيَأْتِي الْوَيْلُ وَالْعَوْلُ
أَلَا إِنَّ لِقَاءَ اللَّـ هِ هَوْلٌ دُونَهُ الْهَوْلُ

ومات من الغد، فأرجو أن يكون هذا القولُ توبةً له مما كان اعتقده من ذبحه نفسه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من وجأ نفسه بحديدة حُشر يوم القيامة وحديدته بيده يجأ بها نفسه خالدًا مخلدًا في النار، ومن تردى من شاهق حُشر يوم القيامة يتردى على منخرية في النار خالدًا مخلدًا، ومن تحسى سُمًا حُشر يوم القيامة وسُمه بيده يتحساه خالدًا مخلدًا في النار.^(٢)

١- سعيد بن الحسن بن شداد المسمعي أبو عثمان الوراق المعروف بالناجم، كان يصحب ابن الرومي ويروي أكثر شعره عنه، وله معه أخبار، وكان أديباً فاضلاً شاعراً، وتوفي سنة ٤١٣هـ.

٢- وجأ: طعن

اتهام أبي تمام

قال الحسنُ بنُ رجاءِ الكاتبِ^(١): جاءني أبو تمام إلى خُراسان، فبلغني أنه لا يصلي، فوكَّلتُ به من لازمَه أياماً، فلم يره يصلي مرة واحدة، فعاتبته فقال: يا مولاي، قطعْتُ إليك من بغداد، فاحتملت المشقة وبُعدَ الدار وطولَ الطريق، ولم أزهْ يُثقل عليّ، فلو كنتُ أدركتُ أن الصلاة تنفعني وتركها يضرني ما تركتها. فأردتُ قتله، فخشيتُ أن يُحملَ على غير هذا.

١- هو أبو علي الحسن بن رجاء بن أبي الضحاك، أحد البلغاء الكتاب الشعراء. قلده المأمون كور الجبل، وقد مدحه أبو تمام، وله معه حكايات كثيرة.

المعتصم والمازيار والأفشين

وفي روايات كثيرة أن المازيار^(١) أخصر إلى المعتصم، وقبل قدومه بيوم سخط المعتصم على الأفشين^(٢) لأنه زين للمازيار العصيان. وأحضروا كاتب الأفشين، فأقر بأنه كتب إلى المازيار: لم يكن في الأرض ولا في العصر بليّة إلا أنا وأنت وبابك^(٣) وقد كنت حريصاً على حقن دمه حتى كان من أمره ما كان ولم

يبق غيري وغيرك، وقد توجه إليك عسكر من عساكر القوم، فإن هزمته وثبتت أنا على ملكهم في قرار داره، فظهر الدين الأبيض. فأجابه المازيار بكتاب محفوظ عنده في كيس أحمر، فجمع بين الاثنين، فاعترف المازيار بما حكي عنه، وقيل للمعتصم: إن المازيار خبأ أموالاً كثيرة، فأنشد:

إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَيْلِ هَمَّتْهَا يَوْمَ الْكَرْيَهَةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ^(٤)

١- محمد بن قارن المازيار صاحب طبرستان. كان الأفشين يشجعه ، فخالف وهدم المدن، فهرب الناس منه إلى خراسان، وأمر المعتصم عبد الله بن طاهر فحاربه وأخذ أسيراً ووعده إن أظهره على كتب الأفشين أن يشفع له عند المعتصم، فأقر له المازيار بالكتب، فأخذها ابن طاهر وبعث بها وبالمازيار إلى المعتصم محمد بن هارون الرشيد(٩٧١-٧٢٢هـ/٥٩٧-٢٤٨م) الخليفة العباسي الثامن.

٢- حيدر بن كاوس التركي، توفي ٦٢٢هـ/١٤٨م. كان من فواد المعتصم، وحارب بابك وقضى عليه، قبل أن يقتله المعتصم.
٣- بابك بن بهرام الخرمي، استأجره رئيس الخرمية جاويدان فعشقت امرأته، وقتل جاويدان، فزعمت امرأته أنه استخلف بابك على أمره، فجمع بابك أصحابه حتى صار عنده عشرون ألف فارس، ولما ولي المعتصم، بعث إليه الأفشين فأسره، وأمر جزاراً بقطع يديه ورجليه، وبعث برأسه إلى خراسان، ووصل بدنه في سُر من رأى .

٤- البيت لأبي تمام وهو من قصيدته الشهيرة « فتح عمورية » ومطلعها: السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ هي حَذِّهِ الْحَدَّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

جعفر بن محمد

وظهر بالبصرة من يدّعي أن جعفرَ بن محمد رضي الله عنهما^(١) متصل به، وأن روحه فيه. ولو استرسلت في هذا المجال، لطال فيه المقال، ولكن:

لا بدّ للمصدر أن ينفثا وللذي في الصدر أن يُبعثا

بل لو قلت كل ما أعلمه، أكلت زادي في محبسي، بل كنت أنشد:

أحمِلُ رَأْسًا قَدْ مَلَلْتُ حَمَلَهُ أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقَلَهُ^(٢)

١- أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين (٠٨ - ٨٤١هـ / ٩٩٦ - ٥٦٧م) (أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية. من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه في مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر.

٢- شطران من ثلاثة أشطر للشاعرة أم حكيم الخارجية، كانت مع فطري بن الفُجاءة، وكانت من أجمل الناس وجهاً وأشجعهم وأحسنهم يدينها تمسكاً.

شكوى العصر

إن شكوتُ العصرَ وأحكامه، وذممتَ تقلباته وأيامه، شكوت من لا يُشكّي أبداً، وذممت من لا يُرضي أحداً، من طباعه رفعُ مَنْزلةِ الخاملِ الوضيع، والحطُّ من قَدْرِ الفاضلِ الرفيع. إذا سمحَ بالعتاءِ، فما أسرع ما يريدُ الردَّ والافتضاء، وإذا أعطاك على سبيلِ الإعارة، ملأ في مقابلها الأيامَ بالمرارة، وما بين أن يقبل عليك بوجه ضاحك، ويولّي عنك وقد يُوردك المهالك، إلا أقلُّ من لمح البصر، وانطفاء ما تقدفُ النار من الشرر. ليس من شيمته الوفاء، ويكاد يقضي على كل أمل ورجاء، ظاهره يُؤنس ويسرّ، وباطنه يؤذي ويضرّ، يُخيّب ظنّ من علّق عليه الآمال، ويكذب أمنيات الرجال. إن شكوت لا يسمع الشكوى، وإن ابتليت يشمت بالبلوى، وقد وقعت فيما منه أحدّر، فكنت كالغريق يتعلّق بالطحالب يحسبها الحبال، والأسير ينادي الرجال ولا رجال، وما أحسن قول ابن الرومي:

ألا ليس شيبك بالمنتزع فهل أنت عن غيه مُرتدع
وهل أنت تاركُ شكوى الزمان إذاً لست تشكو إلى مستمع
فشيبُ أخي الشيبِ أمنيّةٌ متى ما تناهى إليها هلع^(١)

١- البيت في الديوان:

وشيوخوخة المرء أمنيّةٌ متى ما تناهى إليها هلع

من حال إلى حال

عندما كنتُ في عمر الشباب، كان أقربَ الناس إليّ، وأعزَّهم عليّ، وأجلَّهم في نفسي مرتبة، مَنْ قال لي: أبعدَ الله أجليّ، وهبكَ طولَ العمر. فلما بلغت الثمانين، جاءَ الجَزَع، فمَمَّ أخافُ وأرتاعُ؟ ألمْ يكن هذا أولَ الأطماع؟ أما كان هذا ما تمنيتُه وتمنَّاه لي كلَّ خَلِّ مُصاحبٍ وصديقٍ مقربٍ؟ أمِنَ إعراضِ الحِسانِ عنيّ؟ أنا والله أكثرُ ابتعاداً عنهنَّ وأكثرُ فراراً منهن، ولستُ ممن يُنشدُ تحسُّراً عليهن:

للسُّودِ في السُّودِ آثارٌ تركنَ بها لمعاً من البيضِ تثني أعينَ البيضِ^(١)

وقول الآخر:

ولما رأيتَ النسرَ عزَّ ابنُ دأيةٍ وعشَّشَ في وكره جاشت له نفسي^(٢)

ولا أنشد قول أبي عبادَةَ البحتري:

إِنَّ أَيَّامَهُ مِنَ الْبَيْضِ بَيْضٌ ما رَأَيْنَ الْمَفَارِقَ السُّودَ سَوْدَا

فَإِذَا الْمَحَلُّ جَاءَ جَاؤُوا عَيْوُثًا وَإِذَا النَّقْعُ نَارَ ثَارُوا أُسُودًا^(٣)

١- البيت لابن الرومي، والسود الأول: اللبائي، والسود الآخر: شعرات الرأس واللحية، والبيض الأول: الشيبات، والبيض الآخر: النساء..

٢- البيت للكُميت بن زيد الأسدي. ابن دأية: الغراب، وعنى به الشباب، وعنى بالنسر الشيب

٣- ورد هذا البيت

فَإِذَا الْمَحَلُّ جَاءَ جَاؤُوا سُبُلًا وَإِذَا النَّقْعُ نَارَ ثَارُوا أُسُودًا

المعرة والمعري

وإذا كان مولاي الجليل، أدامَ الله تأييدَه، يُنسب إلى المعرة، لا خَلَّتْ منه، فقد وجدت أهلها معترفين بعلمه وفضله، وقد لقيتُ أبا العباس أحمدَ بنَ خلف الممتع، أدام الله عزه، فوجدتُ آثار تفضُّل الشيخ الجليل عليه ظاهرة، ولسانَ أبي العباس رطباً بشكره وذكره، وقد ملأ الأرض والسماء دعاء له وثناء عليه.

عبر الدنيا

وأنا أستعين بعصمة الله وتوفيقه، وأجعلهما مُعيني على دفع شهوتي، وأشكو إلى الله عُكوفي على الأماني، وأسأله سبحانه فهماً لمواعظِ عِبَرِ الدنيا، فقد عَمِيتَ عن أسبابها، بما تلبَّد في خواطري وهو اجسي من التعلُّق بها، ولا أجدُ من ينصفني منها، ولا حاجزاً لرغبتني فيها، قال كثيرٌ عزة:

كأني أنادي صخرةً حينَ أعرَصتَ من الصمِّ لو تمشي بها العصمُ زلتَ^(١)

وأقول على مذهب كثيرٍ: يا دنيا، لي في كل لحظة منك عبرة، ولي في كل فكرة حسرة، أنتِ المكدرَّةُ الهناء والصفاء، ولم تعرفي يوماً عهود الوفا، ما صادف التوفيقَ من ماشاك، ولا السعدَ من أحسن الظنِّ بك، وهيهات يا معشرَ أبناء الدنيا، تحسبون في هذه الدنيا الغنى والثراء، وليس فيها إلا الفقر والعناء.

وكم من زمن كنت به مستبشراً، صحتَ سماؤه وامتد ظلُّه، لا أجد في سويحاته إلا ما يقربُ لي المني، ويمدني بكلِّ ما أهوى من السنأ، حتى إذا حسبت أن الزمان راضٍ، حسدتي عليه الدنيا، فسعت بالفراق إلى الألفة فيه، وأنقصت أيامه ولياليه، فكسفت بهجته، وأرهقت نُضرتَه بحرَّ الفراق، ورمتنا متباعدين في الآفاق، بعد أن كنا كالحمام المؤتلفة، والأغصان اللينة المنعطفة:

يا غفلتي عن يومٍ يجـ مع شرتي كفنٌ ولحدٌ^(٢)
صيّعتُ ما لا بُدَّ منـ هـ بالذي لي منه بُدُّ

وأنشد قول ابن الرومي:

ألا ليس شيبك بالمنتزع فهل أنت من غيه مُرتدع

فأقلق وأبكي بكاءً غير نافع وليس لمن كان مثلي بالدواء الناجع، وأعجب هل أبكي أيامي؟ أم أبكي ما كان سبب البكاء؟ وأنشد:

لساني يقول ولا أفعل وقلبي يريد ولا أعمل
وأعرف رشدي ولا أهتدي وأعلم لكنني أجهل^(٣)

١- العصم: جمع أعصم وهو نوع من الطيِّباء

٢- البيتان لأبي العتاهية، ووردا هي الديوان:

يا غفلتي عن يومٍ يجـ مع شرتي كفنٌ ولحدٌ
صيّعتُ ما لا بُدَّ لي منه بما لي منه بُدُّ

٣- لم أجد قائل هذين البيتين، ولعلهما من شعر ابن القارح نفسه

أمر الخمرة

عرَضَ عليَّ بعضُ الناسِ كأسَ خمرٍ فامتنعت وقلت: خلُوني والمطبوخَ على مذهب الأوزاعي^(١)،
وقلت لهم: عرَضَ إبراهيم بن المهدي^(٢) على محمد بن حازم الباهلي^(٣) الخمرة فامتنع وأنشد:

أَبْعَدَ شَيْبِي أَصْبُو وَالشَيْبُ لِلْجَهْلِ حَرْبٌ^(٤)
سِنٌّ وَشَيْبٌ وَجَهْلٌ أَمْرٌ، لَعَمْرُكَ، صَعْبٌ
يَا ابْنَ الْإِمَامِ فَهَلَا أَيَّامَ عُدُودِي رَطْبٌ
وَإِذْ مَشِيْبِي قَلِيْلٌ وَمَنْهَلُ الْحَبِّ عَذْبٌ^(٥)
وَإِذْ سَهَامِي صِيَابٌ وَنَضْلُ سَيْفِي عَضْبٌ
وَإِذْ شَفَاءُ الْغَوَانِي مَنِّي حَدِيْتُ وَقُرْبٌ
فَالآنَ مَا رَأَى بِي الْـ عَدَّالٌ مَا قَدْ أَحَبَّوْا
وَأَنْسَ الرُّشْدَ مَنِّي قَوْمٌ ، أَعَابُ وَأَصْبُو
أَلَيْتُ أَشْرَبُ كَأْسًا مَا حَجَّ لِلَّهِ رَكْبٌ

١ - عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، إمام أهل الشام وفقهيههم وعالمهم، مات سنة سبع وخمسين ومائة للهجرة، وولد سنة ثمانين. وكان ثقة مأموناً فاضلاً خيراً حجة كثير العلم والفقه والحديث.

٢ - إبراهيم بن الخليفة العباسي المهدي، أخو الرشيد، نادى به بعض الناس خليفة بعد مقتل الأمين، فقبض عليه المأمون ثم عفا عنه. أديبٌ وشاعرٌ وعلم من أعلام الغناء

٣ - أبو جعفر محمد بن حازم بن عمرو الباهلي بالولاء، شاعر مطبوع، كثير الهجاء، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون، ولد ونشأ في البصرة وسكن بغداد ومات فيها. كان يأتي بالمعاني المبتكرة التي تستغلق على غيره أكثر شعره في القناعة ومدح التصوف وذم الحرص والطمع.

٤ - ورد البيت في جميع المصادر «أبعد خمسين»

٥ - ورد هذا البيت «وشيب رأسي قليل»

التوبة النصوح

وأقبلت عليهم مخاطباً، ولهم معاتباً، والخطابُ لهم، والمقصودُ به نفسي: لقد أمهلکم حتى كأنه أهملکم، أما تستحون من كثرة ما منه يُستحي؟ فكن كالوليدِ تقلّبهُ على فراش اللطف به يدُ العطف عليه، يأتيه ما يحتاجُ بغير طلبٍ منه لصغره، ويصرف عنه الأذى بغير حذرٍ منه لعجزه. أما سمعتَ دعاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اكْلأني كلاءة الوليد الذي لا يدري ما يرادُ به ولا ما يريد»^(١)

يا متعلقاً بأذيالٍ دليلك، ويامن تُعد الرُّحْلَ والمطية ليوم رحيلك، من لم يسبقُ إلى الماء يظمى، إنما منعك ما تشتهي ضناً بك وغيره عليك، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام «إذا أحبَّ الله عبداً حماه الدنيا» وأنت تشكوني إذا حميتك، وتكره فعلي إذا حميتك. الله يُغني بشيءٍ عن شيءٍ، وليس يُغني عنه شيءٍ، ولهذا قال جبريل للخليل: ألك حاجة؟ قال: «أما إليك فلا، الله وحده يستحق أن يُسأل» أظعه لتطيعه، ولا تطعه ليُعطيك، فتسكن وتضعف وتملّ، جلّ من القلوب بيده، وعزائم الأحكام عنده:

أَنَسِيْتَ ذِكْرَ أَحِبَّةٍ يَنسُونَ ذَنبَكَ عِنْدَ ذِكْرِكَ^(٢)
وَجَفَوْتَهُمْ ولطالما كانوا، خلافك، طوعَ أمرِكَ
وَصَبَرْتَ عِنْدَ فِرَاقِهِمْ ما كانَ عُذْرُكَ عِنْدَ صَبْرِكَ؟

إنك تترك من إذا أظهرت له الجفاء، ونسيت ذكره في صباح ومساء، وارتكبت ما عنه نهى، وتوانيت عما أمر به وقضى، ثم عدت إليه تائباً، مُتكللاً عليه وراغباً، وما اعتمادك عليه إلا لأنه متفضلٌ عليك، وقلت: يا رب، قال لك: لبيك

{وإذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}^(٣). أنت الذي إذا

١ - كَلَاءَهُ يَكْلُوهُ كِلَاءً وَكِلَاءَةٌ: حَرَسَهُ وَحَفِظَهُ.

٢ - يبدو أن الأبيات لابن الفارح نفسه.

٣ - البقرة ٦٨١

أعطيتك ما أملت تركتني وأنصرفت { وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه }^(١) أليس
يقول لك: ما غرّك بي ؟ تقول: حلمك، وإلا لو أرسلت عليّ بَعوضَة لجمعتني عليك إذا أردت أن
تجمعني:

أَمِنَ بَعْدَ شُرَيْكٍ كَأَسِ النُّهَى وَشَمَّكَ رِيحَانَ أَهْلِ التُّقَى^(٢)
عَشِقْتَ فَأَصْبَحْتَ فِي الْعَاشِقِيهِ نَ أَشْهَرَ مِنْ فَرَسٍ أُبْلِقَا
أَدْنِيَايَ مِنْ غَمْرِ بَحْرِ الْهَوَى خُذِي بِيَدِي قَبْلَ أَنْ أُغْرَقَا
أَنَا لِكَ عَبْدٌ فَكُونِي كَمَنْ إِذَا سَرَّهُ عَبْدُهُ أَعْتَقَا

١ - الإسراء ٢٨

٢ - الأبيات لأبي عبيدة بن محمد بن أبي عبيدة

احذروا ميتة فأذوه

كان ببغدادَ رجل كبير الرأس، أذناه كأذني الفيل، واسمُه «فأذوه»، ولم يكن يُغطِّي رأسه لا في البرد ولا في الحر، ولا يتورَّع عن ارتكابِ المعاصي، ويقال له: ويلك يا فأذوه، تُبُّ إلى الله، فيقول: يا قوم، لم تدخلون بيني وبين مولاي وهو الذي يقبل التوبةَ من عباده؟ وذات يوم كان يسيرُ في شارعٍ اتَّسع أولُّه وضاق آخرُه، حتى إن البيوت المتقابلة تكاد تلتقي، فناولت امرأةً جارتها «هاؤناً» فانسلَّت من يديها وسقط على رأس «فأذوه» فهُرِسَ رأسُه، وخلَّطه كخلط الهريسة، وأعجله عن التوبة، وكان لنا واعظٌ صالحٌ يقول لنا دائماً: «احذروا ميتة فأذوه».

قال جبريل في حديثه: خشيتُ أن يُتِمَّ فرعون الشهادةَ والتوبة، فأخذتُ قطعة من حالِ البحرِ فضربتُ بها وجهه، أي من طينه، والحال ينقسمُ ثمانية أقسام منها الطين، فكيف يصنعُ مَنْ عنده أن التوبةَ من ذنبٍ لا تصحُّ مع الإقامة على آخر؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

معرفة الخبر

بلغني عن مولاي الشيخ ، أدام الله تأييده ، أنه قال وقد ذكرت عنده: أعرفه خبراً، هو الذي هجا أبا القاسم بن علي بن الحسين المغربي^(١). وقد راعني ذلك، خوفاً من أن يظنَّ الشرَّ من طبعي، وأن يتصوَّرنِي بصورةٍ مَن يضعُ الجُحود موضعَ الشكر، ولو أنه عرَّفني بغير هذا لكان أنفعَ لي عنده، لجلالِ قدره ودينه ونسكه، وأنا أطلِّعه على خفايا الأمور كلِّها، ليعرَفَ أولَ الأمرِ ومنتهاه، ويحكم لي أو عليَّ بمقتضاه.

كنت أدرس على أبي عبدالله بن خالويه رحمه الله^(٢)، وأختلف إلى أبي الحسن المغربي، ولما مات ابن خالويه سافرت إلى بغداد ونزلت على أبي علي بن أحمد الفارسي^(٣) وكنت أختلف إلى علماء بغداد، إلى أبي سعيد الحسن السيرافي^(٤) والرَّماني^(٥) وأبي عبيد المرزباني^(٦) وأبي حفص

١ - هو الحسين بن علي بن الحسين المعروف بأبي القاسم، الوزير المغربي. (٧٢ - ١١٤ هـ / ٠٨٩ - ٧٢٠ م) كان كاتباً ناظماً ناظراً فاضلاً، وله ديوان شعر واختصار إصلاح المنطق واختصار الأغاني، وكتاب الإيناس، وأدب الخواص، و المأثور في ملح الخدور، و تفسير القرآن في مجلد، وغير ذلك.
٢ - الحسين بن أحمد بن خالويه النحوي اللغوي المتوفى عام ٧٢ هـ / ٠٨٩ م كان حجة في كل قسم من أقسام الأدب، وله كتاب كبير سماه «كتاب ليس» مبني على أنه ليس في كلام العرب كذا ، و «الاشتقاق» و «الجميل» في النحو، و «القراءات» و «المقصور والممدود» و «المذكر والمؤنث» وغيرها. ولابن خالويه مع المتبني مجالس ومباحث عند سيف الدولة.

٣ - أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي «الفارسي» (٨٢ - ٧٧٣ هـ / ٢٠٩ - ٧٨٩ م)، كان إمام وقته في النحو، أقام عند سيف الدولة مدة، ثم انتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة ، وصنف له كتاب الإيضاح والتكملة في النحو، ومن كتبه «التذكرة» وهو كبير، و «المقصور والممدود» و «الحجة في القراءات، وكتاب العوامل المائة وكتب المسائل الحلييات و البغداديات و الشيرازيات والقصريات والمسائل العسكرية و المسائل البصرية وغير ذلك. وقال إنه لم يقل إلا ثلاثة أبيات:

خضبتُ الشيبَ لما كان عيباً وخضبتُ الشيبَ أولى أن يُعابا
ولم أخضبِ مخافةَ هَجْرٍ خُلِّ ولا عيباً خُشيتُ ولا عتابا
ولكنَّ المشيبَ بدا ذميباً فصبَّرتُ الخضابَ له عقابا

٤ - أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي النحوي (٨٢ - ٨٦٣ هـ / ٧٩٨ - ٩٧٩ م)، كان إماماً كبير الشأن. تصدر أبو سعيد لإقراء القراءات والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والعروض. وكان من أعلم الناس بنحو البصريين، عارفاً بفقهِ أبي حنيفة. شرح كتاب سيبويه. «سبويه» ، ومن كتبه الإقناع في النحو، وأخبار النحاة، والوقف والابتداء، وصناعة الشعر والبلاغة، وشرح مقصورة ابن دريد. «ابن دريد» ، وغيرها . وكان أبو حيان التوحيدي يعظمه، وقد ملأ تصانيفه بذكره والثناء عليه، وذكر فضائله.

٥ - أبو الحسن علي بن عيسى الرَّماني (٦٩٢ - ٤٨٣ هـ / ٨٠٩ - ٤٩٩ م). كان علامة في العربية، وهو في طبقة أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي. وكان يمزج نحوه بالناطق حتى قال الفارسي: إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء. وإن كان ما نقوله نحن فليس مع الرماني منه شيء، وكان يقال: النحويون في زماننا ثلاثة، واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني، واحد يفهم بعض كلامه وهو الفارسي، واحد يفهم جميع كلامه بلا أستاذ وهو السيرافي.

ومن تصانيفه: تفسير القرآن، كتاب الحدود الأكبر، كتاب الحدود الأصغر، كتاب معاني الحروف، كتاب إعجاز القرآن، كتاب شرح سيبويه، كتاب التصريف، كتاب الهجاء، كتاب الإيجاز في النحو، كتاب الاشتقاق الأكبر، كتاب الاشتقاق الأصغر، كتاب الألفات في القرآن، كتاب شرح الصفات، كتاب شرح الموجز لابن السراج، كتاب شرح الألف واللام لابن المازني، وغيرها .

٦ - أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (٧٩٢ - ٨٧٣ هـ / ٩٠٩ - ٤٩٩ م) كان راوية للأدب صاحب أخبار، أشهر كتبه «معجم الشعراء» وله كتب كثيرة منها : الشعر والشعراء ومذاهبهم، الأزمنة ، أيام العرب والعجم، الموشح، أشعار الخلفاء، أخبار البرامكة، أخبار المعتزلة، أشعار النساء، وغيرها

الكناني^(١) صاحب أبي بكر بن مجاهد^(٢). وكتبت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتاحت نفسي، فقد بذلت جهدي، ويُعذر مَنْ بذل جُهدَه. ثم سافرتُ منها إلى مصر، ولقيت فيها أبا الحسن المغربي^(٣) فلزمته لزوم الظل للأشياء، ولم أتركه في صباح أو مساء، فقال لي ذات يوم: إني أخافُ همّة أبي القاسم أن تدفعه إلى أن يُوردنا موارد الهلاك، وأنت من المقربين منه، فاحفظ كل ما يصدر عنه، حتى الأنفاس إن كانت تُحفظ وتُكتب، فاحفظها واكتبها وأطلعني عليها.

فقال لي أبو القاسم يوماً: كيف نرضى الخمول الذي نحن فيه؟ قلت: عن أي خمول تتحدث؟ تأخذون من مولانا، خلّد الله ملكه، ستة آلاف دينار كل سنة، وأبوك من شيوخ الدولة، وهو مُعظّم مكرّم، فماذا تريد أكثر؟ فقال: أريد أن تكون على أبوابنا الكتائب، وأن تُحفّ بنا المواكب، وأن نكون من ذوي السلطان، لا أن ننتظر الأعطيات كالولدان والنسوان.

وأعدت ذلك على أبيه فقال: والله إني لأخشى أن يخضّب أبو القاسم هذه من هذا، وأشار إلى لحيته ورأسه، وعلم أبو القاسم بما فعلت، فصارت بيني وبينه جفوة.

واستدعاني أبو عبد الله الحسين بن جوهر^(٤) فشرّفني بخدمته، فرأيت الحاكم كلما قتل واحداً من الرؤساء، أرسل رأسه إلى الحسين وقال: هذا عدوي وعدوك يا حسين، فقلت لنفسي: مَنْ يرَ مصائب الآخرين سيرى آخرون مُصيبته، والجاهل من يغرّب بالدهر المتقلب، وعلمت أن الحاكم قد يُرسل رأس الحسين بن جوهر إلى غيره، كما يرسل إليه الرؤوس، فاستأذنته في الحجّ فأذن لي، وخرجت سنة ٧٩٣هـ، ولم أعد إلا بعد خمسة أعوام، فوجدتُ الحاكم قد قتل أبا الحسن المغربي، وجاءني أولاده سرّاً، فقلت لهم: ليس لكم ولي إلا الهرب، ولأييكم في بغداد ودائع قيمتها خمسمائة ألف دينار، فاهربوا وأهرب، ففعلوا وفعلت، وبلغني مقتلهم في دمشق وكنت في طرابلس، فدخلت أنطاكية، ومنها

انتقلت إلى مَلطية^(٥) وفيها خولة بنت سعد الدولة بن سيف الدولة، فأقمت عندها إلى أن

- ١ - عمر بن ابراهيم البغدادي، إمام القراء في القرن الرابع الهجري.
- ٢ - أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد شيخ القراء في عصره (٥٤٢-٥٤٢هـ/٩٥٨-٦٣٩ م). سمع جماعة وحدث عنه آخرون وكان ثقة مأموناً. وله: «القراءات الكبير» و«القراءات الصغير» و«البايات» و«النهات» و«قراءة أبي عمرو» و«قراءة ابن كثير» و«قراءة عاصم» و«قراءة نافع» و«قراءة حمزة» و«قراءة الكسائي» و«قراءة ابن عامر» و«قراءة النبي صلى الله عليه وسلم» و«كتاب السبعة» و«انفراد القراء السبعة» و«قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه».
- ٣ - علي بن الحسين بن محمد بن المغربي، ولد بحلب ونشأ بها، وكان وزيراً لسيف الدولة وكان شاعراً. ثم هرب خوفاً منه إلى مصر، ووزر للحاكم فقتله سنة أربعمائة، وهو والد الوزير أبي القاسم المغربي الذي ذكرناه قبل قليل.
- ٤ - الحسين بن جوهر الصقلي: كان قائد القواد للحاكم بأمر الله صاحب مصر، ثم نqm عليه فقتله في سنة ١٠٤هـ، وكان الحسين قد خاف على نفسه من الحاكم، فهرب مع أسرته، وخدمهم الحاكم وطيب قلوبهم وأنسهم مدة، ثم غدر بهم، وجوهر هو الذي فتح مصر للمعز الفاطمي، وبنى القاهرة والجامع الأزهر.
- ٥ - مَلطية: من الثغور بالشام، وهي المدينة العظمى وكانت قديمة، فخربتها الروم فبناها أبو جعفر المنصور سنة ٩٢١هـ وجعل لها سوراً محكماً، وغزتها الروم أيام الرشيد فلم يقدروا عليها.

جاءني كتاب أبي القاسم، فسرت إلى ميفارقين^(١) وأدركت أنه يُضمر أمراً ويظهر خلافة. قال لي يوماً: مضت أيام وما رأيتك. قلت: أعرضت حاجة؟ قال: لا، ولكنني أردت أن ألعنك. قلت: فالعني غائباً. قال: لا، في وجهك أشفى. قلت: ولم؟ قال: لمخالفتك إياي فيما تعلم.

وقلت له يوماً بيني وبينه ونحن على أنس: لي حُرّمات ثلاث: البلدية، وتربية أبيك لي، وتربيتي لإخوتك، فقال: لا قيمة لهذه الحرمات التي تدعي، فالبلدية نسب بين الجدران، وتربية أبي لك منّا لنا عليك، وتربيتك لإخوتي بالهدايا والدنانير.

وأردت أن أقول له: استرحت من حيث تعب الكرام^(٢) فخشيت جنونَ جنونه، لأن جنونه كان مجنوناً، وأصح منه المجنون، وأجنُّ منه لا يكون، وقد أنشد:

جُنُونُكَ مَجْنُونٌ وَلَسْتَ بِوَاحِدٍ طَبِيباً يُدَاوِي مِِنْ جُنُونِ جُنُونٍ^(٣)

وقال لي ذات ليلة: أريد أن أجمع أوصاف الشمعة السبعة في بيت واحد، ولا يخطر لي ما أراضاه، فقلت: أنا أفعل الساعة، فقال: أنت جُدِّيلُهَا الْمُحَكِّكُ، وَعُدِّيقُهَا الْمُرَجَّبُ^(٤)، فأخذت القلم من دواته، وكتبت بحضرته:

لقد أشبهتني شمعةً في صابتي وفي هولٍ ما ألقى وما أتوقَّعُ
نحولاً وحُزناً في فناءٍ ووحدةٍ وتسهيدي عينٍ واصفرارٍ وأدمعٍ^(٥)

فقال: كنت عملت هذا قبل هذا الوقت. قلت: سبحان الله! تمنعني سرعة الخاطر وتعطيني علم الغيب؟ وقلت: ألا تذكر قول أبيك لي ولك وللبيتي الشاعر^(٦) وللمحسن الدمشقي: ليقُلْ كل منكم قطعةً في هذه القُبَّة، فمن أجاد جعلت جائزته أن أكتبها فيها، فقلت:

بلغ السماء سموً بي ست شيدٍ في أعلى مكانٍ
بيت علا حتى تغوَّ رَ في ذراه الفرقدانِ
أنعم به لا زلت من ريب الحوادث في أمانٍ

١ - ميفارقين: بلد معروف من أرض أرمينية، بين حدود الجزيرة وحدود أرمينية، وقال بعض الظرفاء: سميت ميفارقين لأن ذا الرمة أو غيره من العشاق، لو وصل إلى هذه المدينة بالاتفاق، وشاهد وجوه أهلها الملاح، والعيون السقيمة الصحاح، وعابن رشافة القدود، ولباقة الخدود، وسمرة الشفاه اللبس، وحمرة الوجات والجباه المس، لقال لصاحبه: مَيِّ فارقيني ولا تراققيني، فلا يجوز التيمم مع وجود الماء، ولا حاجة إلى الدواء بعد البرء والشفاء.

٢- هذا مثل يضرب لمن لا يهमे إن مدحه الناس أم ذمَّوه.

٣- البيت للإمام الشافعي، وهو بيت مفرد وليس من قصيدة.

٤- جذيلها المحكك وعُدِّيقُهَا المرجب: الجذيل، تصغير الجذل وهو أصل الشجرة. والمُحَكِّكُ هو عود ينصب في مَبَارِك الإبل تتحكك به الإبل الجري. والعُدِّيق، تصغير العَدِّق، وهو النخلة. والمُرَجَّب، الذي جعل له رُجْبَةٌ وهي دعامة تبنى من حولها الحجارة، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت، تخوفوا عليها أن تتعثر من الرياح العواصف، وهذا تصغير يراد به التكبير، والمعنى أنه رجل يستشفى برأيه وعقله.

٥- الغريب أن أسامة بن منقذ ينسب البيتين إلى المعري.

٦- أبو الحسن أحمد بن علي البتِّي: كان حافظاً للقرآن تالياً مليح المذاكرة بالأخبار والآداب عجيب النادرة ظريف المجون، ويكتب خطأ جيداً، ويترسل وينظم الشعر، وشعره أقل من علمه، وكان يذهب إلى مذهب المعتزلة في الأصول وإلى مذهب أبي حنيفة في الفروع، ويتعصب للطلائي تعصباً زائداً، ويفضل البحتري على أبي تمام.

فاستجاد سرعتها وكتبها على القبة، وخلع عليّ.

ولم يكن أحد يسلم من لسانه، وكان له معرفة بالغناء وصنعتة. وله تصانيف منها: كتاب «القادري». وكتاب «العميدي». وكتاب «الفخري». قال الوزير أبو القاسم المغربي: كان أبو الحسن البتي لا يكاد يجارى في فن من العلوم فيعجز عنه، وكان مليح الحاضرة طيب المذاكرة مقبول الشاهد. توفي سنة ٣٠٤هـ ورثاه الشريفان الرضي والمرتضى.

وكان أبو القاسم مَلَوًّا، والملول رَبِّمَا ملّ الممل، ولكن أبا القاسم لم يكن يَمَلُّ أن يَمَلُّ، ويحقدُّ حقد من لا يلين، ولا تستطيع إليه أن تستكين. قال لي بعض الرؤساء معاتباً: أنت حقود، ولم يكن أبو القاسم حقوداً. فقلت له: أنت لا تعرفه، والله كان عوده صُلباً لا يُحنى، ومعروفه صعباً لا يُجنى، وله طبع يزِين له العُقوق والجحود، وليس من طبعه إلا الصُدود، ولم يكن ذلك الألوْفَ الوَدود، وكأنه من غروره علا إلى السماء، أو استوى على الجوزاء. ولست ممَّن يرغب في وصل من لا يرغب بوصلي، ولا أريد أن يكون حقودٌ خَلِي، فلما رأيتَه مُمَعْنًا في قِلَّةِ إنصافي، ضربتُ صَفْحًا عن التصافي، وقابلت التجافي بالتجافي:

وَفِي النَّاسِ إِنْ رَتَّتْ حِبَالَكَ وَاصِلٌ وَفِي الْأَرْضِ عَن دَارِ الْقَلِي مُتَحَوِّلٌ^(١)
وَأُنشَدت الرجل أبيتاً أعتذر بها عن قطيعتي لأبي القاسم:^(٢)

فلو كان منه أُلخَيْرُ إذ كان شُرُّهُ عتيداً لقلنا إن خيراً مع الشرِّ
ولو كان لا خيراً ولا شرٌّ عنده رضىتُ لعمري بالكفافي مع الأجرِ
ولكنه شرٌّ، ولا خيرَ عنده وليس على شرٌّ إذا طال من صبرِ

وليس بُغْضِي له، شهد الله، لهذا وحده، بل لأنه أخذ ما كان في محاريب الكعبة من الذهب والفضة^(٣)، وسكَّها دنانير ودراهم وسماها الكعبيية، وخرَّب بغداد، وكم دم سفك، وحرِّم انتَهك، وحرَّرة صيرها أرملة، وأطفال صيرهم أيتاماً.

١ - هذا البيت من قصيدة لمعن بن أوس المزني المتوفى سنة ٤٦هـ/٣٨٦م، وهو شاعر فحل من مخضرمي الجاهلية والإسلام. وأثبت أحد شراح رسالة الغفران أن البيت للشنفرى، ويظهر أن الأمر اشتبه عليه، إذ يقول الشنفرى:

وَفِي الْأَرْضِ مَنَى لِلكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى وَفِيهَا مَنَ خَافَ الْقَلِي مُتَعَزِّلٌ

٢ - يوحى كلام ابن القارح بأن الأبيات من شعره، لكن ابن حبان البستي يوردها في «روضة العقلاء» لشاعر يدعى منصور بن محمد الكريزي .

٣ - نتذكر هجاء أبا القاسم بأبيات منها :

قتلت أهليكَ وأنهبْت بي تَ اللهُ بالمَوْصل تستعصي

امتداح أبي العلاء المعري

وأنا معتذر إلى الشيخ الجليل من مدحي مع أنني قصرت فيه، لأن فضله شاع في جميع البشر، كأنما كتّب على جبهة الشمس ووجه القمر. لا شيء يمحوه، فقد نال الخلودَ في بدائع الأخبار، فكأنما كتّب بسوادِ الليل على بياض النهار. وأنا في مكاتبةِ حضرته بشعري ونثري، كمن أمدَّ النارَ بالشرر، وأهدى الضوءَ إلى القمر، وصب في البحر جُرعة، وأعار النجوم السارية في الأفلاك سرعة، لا يحلُّ النقْصُ في بحرهِ الزاخر، ولا تسهو عنه الأسماع والنواظر.

ولقد سمعت من رسائله دُرراً أطربتني- يشهد الله - كمن يسمع جيد الغناء. وبالله لو صدرت عمَّن كتبه حوله، يقلِّب طرفه في هذا، ويرجع إلى ذاك، لكان ذلك عجباً، صعباً شديداً. والله لقد رأيت علماء منهم ابنُ خالويه إذا قرئت عليهم كتب الكبار، رجعوا إلى الأصول يقابلون ويقارنون، خوفاً من السهو والغلط واستبدال حرف بحرف.

أما حفظ مولاي، أدام الله تأييده، فمن العجب العجيب والنادر الغريب، إذ إن حفظ الشيخ الجليل النثرَ والأسماء، أفضلُ ممَّا يحفظ الشعْرَ الأذكياء، وهذا أمر من السهل قوله، ولكن من الصعب فعله، فمَن سمعه طمع فيه، فإن أرادته امتنع عليه بالمعنى والمبنى.

ابن خالويه وأبو الطيب

حدثني أبو علي الصَّقَلِيُّ بدمشق قال: كنتُ في مجلس ابن خالويه إذ وردت عليه من سيف الدولة مسائلٌ تتعلَّقُ باللغة، فاضطرب لها، ودخل خزانته، وأخرج كتبَ اللغة، وفرَّقها على أصحابه يفتشونها ليُجيب عنها. وتركته وذهبتُ إلى أبي الطيب اللغوي^(١) وقد وردت عليه تلك المسائل بعينها، وهو جالس وبيده قلم أحمر، فأجاب به ولم يغيِّره ولا قامَ من مجلسه. قال أبو الطيب: قرأت على أبي عمر الفصيحَ وإصلاحَ المنطق حفظاً.

١- هو عبد الواحد بن علي العسكري. قدم حلب، وأقام بها إلى أن قتل في دخول الدمستق حلب سنة ٥٢٣هـ. أحد العلماء المبرزين المتقنين لعلمي اللغة والعربية. أخذ عن أبي عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد ومحمد بن يحيى الصولي. وله كتاب «مراتب النحويين» وكتاب «الإبدال» وكتاب «شجر الدر» وكتاب «الأضداد».

ذاكرة ابن القارح

ولقد تعبتُ، فلقد أمضيت نصفَ عمري في الحفظ، وفي النصف الثاني صرْتُ أنسى ما حفظت. درست ببغداد وأنا طريُّ العود سريعُ الحفظ، ومضيت إلى مصر فأرُخيتُ لنفسي العنان في الأغراض البهيمية، وما يجرُّ إلى الإثم في الأفعال الدنيوية، وزعمت لنفسي، وبخديعةٍ منها وهي الأمانة بالسوء، أنني أذيقُها حلاوة العيش ثواباً لصبري في طلب العلم والأدب، ونسيْتُ أن العلم غذاءُ النفس الشريفة، وبه تُصقل العقولُ وتسمو إلى المعاني اللطيفة، وكنت أكتبُ خمسين ورقة في اليوم وأدرُس مائتين، فصرت الآن أكتب ورقة واحدة، وتحكُّني عيناى حكاً مؤلماً، وأدرُس خمس أوراق فأتعب .

ثم جاءت أوقات ليس فيها من يرغب في علم ولا أدب، ويسعى الجميع وراء الفضة والذهب، فلو كنتُ إياساً^(١) لصرْتُ باقلاً^(٢) وأضع كتاباً عن يميني وأطلبه عن شمالي، وأريدُ مع ضعفي أن أرتادَ عيشاً بجسد كليل، إن جلست فهو كالدمل، وإن مشيتُ فهو دماميل، وأملك نزرًا يسيراً من مالٍ كان كثيراً، ولو أنني أجد رجلاً ثقةً لأعطيته له، ليعود عليّ بما أرفقه به عن نفسي، وأريحُ جسمي من الحركة، ومَن يرضى بهذا كثير، وما من خلافٍ إلا أن يردَّ مالي إليّ.

١ - إياس بن معاوية بن قرّة البصري المزني، قاضي البصرة وأحد من يضرب به المثل في النكاه والرأي والسؤدد والعقل. (توفي ١٢١هـ/٩٣٧م). كان يقال: يولد كل عام بعد المائة رجل تام العقل، وكانوا يرون إياس بن معاوية منهم.

٢ - باقل رجل من ربيعة، بلغ من عبثه أنه اشترى طبيباً بأحد عشر درهماً، فمَرَّبَقوم فقالوا له: بكم اشتريت الطبيب؟ فمد يده ودلع لسانه، يريد أحد عشر، فنشرد الطبيب وكان تحت إبطة، فصاروا يضربون به المثل فيقال: أعيا من باقل.

طرفة

أودع رجل جارية عند صديق له وسافر، فقال الصديقُ بعد أيامٍ لَمَن يَأْنَسُ به: يا أخي، لم يُعَدِّ في الناس أمانة، أودعني صديقٌ لي جاريةً وقال إنها بِكْرٌ عذراء، جَرَّبْتُهَا، فإذا هي ثِيْبٌ.



ومن ظريف الأخبار أيضاً، أن بنتَ أخي سرقت مني ثلاثةً وثمانين ديناراً فاشتكيتهَا، فلما هدَّدها قالت: والله لو علمت أن الأمرَ يجري هكذا لقتلته.



والله لولا ضعفي وعجزني عن السفر، لخرجتُ إلى مولاي الشيخ الجليل متشرِّفاً بمجالسته وسَمَاعِهِ، فأما مذاكرته فقد يئسْتُ منها لما استولى عليَّ من النسيان، وما احتوى قلبي من الهموم والأحزان، ولا أشكو إلا إلى الله، وهل نقول عن رجل إنه حكيم، إذا كان يشكو رحيماً إلى غيرِ رحيم؟



وكان أبو بكر الشُّبلي^(١) يقول: ليس عندَ غيرِ الله خير. وقال يوماً: يا كريم، ثم أطرَقَ مفكراً ورفع رأسه وقال: ما أوقَحَنِي! أقول لك يا كريم وقد قيل لبعضِ عبيدك:

ولو لم يَكُنْ في كَفِّهِ غيرُ روجهِ لجادَ بها فليتنَّقِ اللهُ سَائِلُهُ

وقد قيل في آخر:

تراه إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كأنَّكَ تُعْطِيهِ الذي أنتَ سَائِلُهُ^(٢)

ثم قال: بلى، أقول: يا جواداً فاقَ كلَّ جواد، وبجودِهِ جادَ مَنْ جاد.

١ - هو دلف بن جحدر الصالح المشهور (٧٤٢-٤٣٣هـ/٢٤٨-٦٤٩م)، كان جليل القدر مالكي المذهب، وصحب أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصلحاء، وأخباره كثيرة.

٢ - البيهتان لعبد الله بن الزبير الأسدي المتوفى ٥٧هـ/٥٩٦م

وقال الرشيد لابن السمّاك^(١): عِظْنِي، وفي يد الرشيد كأس ماء، فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، لو حُبِسَتْ عنك هذه الشَّرْبَةُ أَكُنْتَ تَفْدِيهَا بِنَصْفِ مُلْكِكَ، قال: نعم، قال: اشْرَبْ يا أمير المؤمنين هُنَاكَ اللهُ، فلما شرب قال: يا أمير المؤمنين لو حُبِسْتُ عن إِخْرَاجِهَا أَكُنْتَ تَفْدِيهَا بِنَصْفِ مُلْكِكَ؟ قال: نعم، فقال له: فَاتَّقِ اللهُ فِي مُلْكٍ لَا يَسَاوِي شَرْبَةَ مَاءٍ وَإِخْرَاجِهَا.

١ - أبو العباس محمد بن سبيع، كان زاهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواعظ، جمع كلامه وحفظ، ومن كلامه: خَفِ اللهُ كَأَنَّكَ لَمْ تُطْعَمْ، وَارْجُ اللهُ كَأَنَّكَ لَمْ تَعَصِهِ . ومن كلامه: مَنْ جَرَعَتْهُ الدُّنْيَا حَلَاوَتَهَا بِمِيلِهِ إِلَيْهَا، جَرَعَتْهُ الْآخِرَةُ مَرَارَتَهَا بِتَجَافِيهِهَا عَنْهُ . وأخباره ومواعظه كثيرة.

عناية الله

وكيف أشكو مَنْ أطعمني ورعاني أكثرَ من سبعين سنة؟ كان قميصي ذراعين، فوكل الله بي والدَيْنَ عطوفين مُشفقين، لم يدِّخرا جهداً في تنشئتي، فلما صارَ قميصي اثني عَشَرَ ذراعاً، تولَّى ربِّي رعايتي، فما جَعْتُ ولا عَرِيت {والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ} وخاطبَ ربَّه بالأدب فقال: «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ»^(١) فنسب المرضَ إلى نفسه، لأنها تنفّر من الأعراض والأمراض. وكل شيء يطرأ على الإنسان لا يقدرُ على دفعه، مثل النوم واليقظة والضحك والبكاء والغمّ والسرور والغنى والفقر، فهو منه تقدّست أسماؤه. وما يقدر على دفعه فهو منه، ومن بيده رعشةٌ لا يقدر على إمساك قلم كما يفعلُ من ليست بيده.

كنت في «تيس»^(٢) وبين يدي رجل يقرأ مرققاً صوته ويبيكي {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}^(٣) فخطر لي خاطر: أنا لأنذُر ولا أفي، ولا أخافُ شقاءً ولا عناء، ولو كنت أخافُ ما أصبحت إلا محمومًا، وكنّته.

وحدثني من أثق به عن أبيه وكان من الزهاد قال: كنت مع أبي بكر الشبلي ببغداد في الجانب الشرقي باب الطاق، فرأينا رجلاً قد أخرج من التنور حملاً بلون التمر نضجاً، وقد صنع حلوى الفالودج، فوقف أبو بكر ينظرُ إليهما ساهياً مفكراً، فقلتُ: يا مولاي، دعني آخذُ من هذا وهذا ورُقافاً وخبزاً، ومنزلي قريب، فتشرفني بأن تجعلَ راحتك اليوم عندي. فقال: يا هذا، أظننتُ أني قد اشتهيتهما؟ إنما كنتُ أفكر في أن الحيوانات كلُّها لا تدخلُ النار إلا بعد الموت، ونحن ندخلها أحياء. يا رَبِّ عَفْوِكَ عَن ذِي شَيْبَةٍ وَجِلِّ كَأَنَّهُ مِن حِذَارِ النَّارِ مَجْنُونٌ^(٤)



١ - الآيتان ٩٧ و ٩٨ سورة الشعراء

٢ - تيس جزيرة بالقرب من دمياط

٣ - الآية ٧ سورة الإنسان

٤ - هذا البيت والذي يليه للشاعر عبيد بن أيوب العبّري

يا رَبِّ عَفْوِكَ عَن ذِي تَوْبَةٍ وَجِلِّ كَأَنَّهُ مِن حِذَارِ النَّاسِ مَجْنُونٌ

قَدْ كَانَ هَدْمٌ أَعْمَالاً مُقَارِبَةً أَيَّامٌ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ وَلَا دِينٌ

تمت الرسالة والحمد لله وشكره ونحمدُ عظيمَ فضاله، وصلى الله وسلم على محمد وآله. ما فرغت من الكتابة، حتى امتلأ قلبي بالكآبة، وأنا أعتذر عن أي خطأ فيها أو زلة، بعدد ما تتابعت الأهلّة، فمن اعتذر واجتهد وتحرى ووضِع عنه الخطأ: ومن ذا الذي يُؤتى الكمال فيكْمُلُ^(١)

قال عمر بن الخطاب: رحم الله امرأً أهدي إلي عيوبي

وأسأل مولاي الشيخ الجليل، أدام الله عزه، تشريفي بالجواب عنها، فإن هذه الرسالة، على ما بها، قد استُحسنت وكتبت عني، وشرفتُها باسمه، وطرّزتها بذكره، وكانت الرسالة التي كتبها إليّ الزهرجي أكبر الأسباب في دخولي إلى حلب. وإذا جاء جوابُ هذه الرسالة جعلتها سائرة في حلب وغيرها إن شاء الله، به الثقة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.



بعد استعراض رسالة ابن القارح يحارُّ المرء في إيجاد الغاية من كتابتها والهدف من إرسالها إلى المعري. هل كان ابن القارح يقدم نفسه إلى أبي العلاء بعد أن سمع أنه ذكر في مجلسه فقال المعري: أعرفه خبراً، هو الذي هجا أبا القاسم بن علي بن الحسين المغربي. ويقول ابن القارح: «وقد راعني ذلك، خوفاً من أن يظنَّ الشرُّ من طبعي، وأن يتصورني بصورة من يضع الجُحود موضعَ الشكر، ولو أنه عرفني بغير هذا لكان أنفع لي عنده، لجلال قدره ودينه ونسكه، وأنا أطلعُه على خفايا الأمور كلها، ليعرف أول الأمر ومُنتهاه، ويحكم لي أو عليّ بمقتضاه».

إذا كان الأمر على هذا النحو فلماذا حشد في رسالته أخباراً من هنا وهناك؟ هل كان يعرض علمه أمام أبي العلاء ليُعرفه بأنه ليس هجاءً فحسب؟ وما الذي دعاه إلى ذكر هؤلاء الذين اتهموا بالزندقة كلهم؟ ما علاقة هذا كله بالدفاع عن نفسه أمام المعري؟ وإذا كان يعرض علمه، كيف فاتته أن أبا العلاء من أكثر الناس إعجاباً بالمتنبي؟ وأوردنا سبب الخلاف بينه وبين الشريف المرتضى، وعندما شرح ديوان أبي تمام سمى الشرح «ذكر حبيب» وسمى شرح ديوان البحري «عبث الوليد» بينما سمى شرح ديوان المتنبي «مُعجز أحمد»، ومن أين جاء ابن القارح بحكاية حبس المتنبي في بغداد؟.

إن الرأي الأرجح أن ابن القارح كان يقدم سيرة ذاتية كما نقول هذه الأيام، فشرّق وغرّب، وأتى

١ - شطر من أحد أربعة أبيات لابن عمار الثقفي أحمد بن عبيد الله بن محمد:

أردت لكيما لا ترى لي زلةً ومن ذا الذي يُعطى الكمال فيكْمُلُ

بكل ما خطر له من الأخبار والقصص والروايات، ولم يكلّف نفسه عناء نسبة الأبيات إلى قائلها، ولا التعريف بمن عرّض لهم، اتكالا على علم المعري الغزير ومعرفته بهم، وهو ما اضطرنا إلى نسبة الأبيات إلى شعرائها، والتعريف بالأعلام الذين ذكرهم، ولعل هذا كان سبباً من أسباب تأليف المعري «رسالة الغفران» ليريه كيف يكون الإبحار في لجج المعرفة، في هذا القالب الطريف المبتكر.

رسالة الغفران

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يسّر وأعن.

قد علمتُ القوةَ الجبرُّ الذي نُسبُ إليه جبريل، وهو في كل الخيراتِ سبيل، أن في صدري حَمَاطَةَ قلبٍ ما كانت قطُّ أفانية، وما اقتربت منها الحيةُ الناكزةُ لحظةً أو ثانية، وسُميتِ الناكزةُ لأنها تنكزُ بأنفها لا بفمها وأنيابها. وحَمَاطَةُ قلبي تُثمر من مودة مولاي الشيخ الجليل، كبت الله عدوّه، وإنه إن شاء الله دعاء مستجاب، وأدامَ عليه الفضل في ذهاب وإياب، ما لو حملته الأشجار من عهد عاد، لدنت من الأرضِ غصونها، وأبيحَ من تلك الثمارِ مَصونها. والحَمَاطَةُ نوعٌ من الشجر يقال لها إذا كانت رطبةً «أفانية». قال الشاعر:

إذا أمُّ الوليدِ لم تُطعني حَنَوْتُ لها يدي بعضاً حَمَاطِ
وقلت لها عليك بني أقيشٍ فإنك غيرُ مُعجبةِ الشَطَاطِ

والشطاط طولُ القامة واستواؤها. ويُذكر أن الحيات تألف الحماطة. قال الشاعر:
أتيح لها وكان أخا عيالٍ شجاعٌ في الحماطة مستكنٌ^(١)

وأن الحماطة التي في مقرّي، لتجدُ حماطة من الشوق، لا تدانها لهفة أو توق. والحماطة حُرقة القلب، قال الشاعر «وهمُّ تَمَلُّ الأَحْشَاءِ منه»، فأما الحماطة المبدوء بها فهي حبة القلب، قال الشاعر:

رَمَتْ حَمَاطَةُ قَلْبٍ غيرِ منصرفٍ عنها بأْسُهُمْ لِحِطِّ لم تكن غَرَبًا

وإن في أسمالي حَضَبًا موكلاً بأن يؤذيني، ولو نطقَ لذكر لهفتي وحنيني، فلا هو ساكنٌ في الوديان، ولا يدنو من دروب الإنسان. ما طَهَّرَ في صيفٍ أو شتاء، ولا مرَّ بجبلٍ في هبوط وارتقاء، يُضمِر من محبة مولاي الشيخ الجليل - ثَبَّتَ الله أركانَ العلم بحياته - ما لا تُضمِرهُ للولد أمٌّ، سواءً كان سُمُّه يقتل أم فقد منه السَّم. وليس هذا الحَضَبُ مُجانساً للذي عناه الراجز بقوله: «وقد تطوّيت انطواءً الحَضَب». وقد علم - أدام الله جمال البراعة بسلامته - أن الحَضَبَ ضربٌ من الحيات، وأنه يُقال لحبة القلب «حضب».

١ - الشجاع: ضرب من الحيات

وإن في منزلي أسوداً^(١) أعزَّ عليَّ من عنتره على زبيبة^(٢)، وأكرمَ عندي من السَّليكَ^(٣) عند السَّلَكَة، وأحقَّ بإثاري من خفاف السلمي^(٤) بخبايا ندبة، وهو أبدأ سرَّ من الأسرار، لا تُزاح عنه الأغطية والأستار، وإنه إذ يُذكر، ليؤنَّثُ في المنطق ويُذكر، وما يُعلم أنه حقيقي التذكير، ولكن تأنيثه ليس بمنكر، أَسعى دائباً في رضاه، ولا أستطيع ردَّ مقتضاه. أجِلُّهُ أَكثَرَ من إجلال لَحْمٍ^(٥) للأسود بن المنذر^(٦) وكندة للأسود بن مَعْدِيكَرِب^(٧) وبني نهشل بن دارم^(٨) للأسود بن يعفر ذِي المقال المُطرب، مولعاً به ولوعٌ سَحِيمٌ بَعْمِيرَة^(٩) في ابتداء أمره ومنتهاه، ولولوعٌ نُصِيبٌ^(١٠) مولى بني أمية بسعداه، وقد كان مثله مع أسود بن زمعة^(١١)، والأسود بن عبد يغوث^(١٢) والأسودين اللذين ذكرهما اليشكري^(١٣) في قوله:

فَهَدَاهُمْ بِالْأَسْوَدِينَ وَأَمْرُ اللَّكِّ هِ بَلْعُ يَشْقَى بِهِ الْأَشْقِيَاءُ

والأسودان التمر والماء، ومع أسودان، وهو لقب نهبان بن عمرو بن الغوث بن طيء، ومع أبي الأسود الذي ذكره امرؤ القيس في قوله:

وَذَلِكَ مِنْ خَيْرِ جَاءِنِي وَنُبَّتُهُ عَن أَبِي الْأَسْوَدِ^(١٤)

- ١ - الْأَسْوَدُ: العظيمُ من الحيَّاتِ وفيه سوادٌ.
- ٢ - زبيبة: أم عنتره بن شداد، ومنها جاءه السواد.
- ٣ - السليكَ: فرخ القطا، والسلكة: الأثني من فراخ الحجل، والسليكَ بن السلكة من أشهر الصماليك العدائين لا تلحق به الخيل، والسلكة أمه.
- ٤ - خفاف بن عمير بن الحرث السلمي ينسب إلى أمه ندبة وكانت سوداء، وهو من فرسان العرب المعدودين، وكان أحد أغربة العرب، وهو ابن عم الخنساء الشاعرة. وروي عن الأصمعي قوله: خفاف ودريد بن الصمة أشعر الفرسان.
- ٥ - لَحْمٌ: قبيلة عربية كبيرة جداً، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهلية وهم آل عمرو بن عدِي بن نصر اللَّحْمِيّ، وهم آل المُنْذِر.
- ٦ - هو الأسود بن المنذر بن ماء السماء، وهو عم النعمان بن المنذر، وقد حكمت هذه الأسرة للفرس الحيرة حتى الفتوحات الإسلامية.
- ٧ - كِنْدَةٌ: أبو قبيلة من العرب، وقيل: أبو حيٍّ من اليمن وهو كِنْدَةُ بن ثُورٍ. وبنو معديكرب حيٌّ من كندة، وكان معديكرب يقال له: ذو التاج.
- ٨ - نهشل بن دارم حيٌّ من تميم، وكان الفرزدق كثير الفخر بدارم، قال:
لَوْ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ كَانُوا بِتَلْعَةٍ وَجِئْتُ بِجَدِّي دَارِمَ وَأَبْنِ دَارِمِ
لَطَلَّتْ رِقَابُ النَّاسِ خَاضِعَةً لَنَا سُجُوداً عَلَى أَقْدَامِنَا بِالْجَمَاجِمِ
- والأسود بن يعفر النهشلي الدارمي التميمي، كان فضيحاً جواداً، نادم النعمان بن المنذر، ولما أسن كَفَّ بصره ويقال له: أعشى بني نهشل.
- ٩ - هو سحيم عبد بني الحساس، وعميرة بنت سيده، قتل بسببها شر قتلة
- ١٠ نصيب بن رباح المتوفى ٨٠١هـ / ٦٢٧م، شاعر فحل، مقدم في النسيب والمدائح، وكان يعد مع جرير وكثير عزة، وسئل عنه جرير، فقال: أشعر أهل جلده، وتسلك في أواخر عمره.
- ١١ - أسود بن زمعة: قُتِلَ ابنه زمعة كافراً يوم بدر، فرتاه كثيراً.
- ١٢ - الأسود بن عبد يغوث من بني زهرة بن كلاب؛ كان من المستهزئين، وأسلم يوم الفتح، وكان قد تبنى المقداد بن الأسود، فلما أبطل التبني عاد المقداد إلى نسبه: المقداد بن عمرو.
- ١٣ - الحرث بن جِلَّةِ اليشكري المتوفى ٤٥ ق. هـ / ٧٥ م أحد أصحاب المعلقات.
- ١٤ - ورد البيت:
وَذَلِكَ مِنْ نَبَأِ جَائِنِي وَخُبْرَتُهُ عَن أَبِي الْأَسْوَدِ

وما فارقه أبو الأسود الدؤلي^(١) طرفة عين، في حال الراحة والهناء، وقارنَ سويدَ بن أبي كاهل^(٢)، وسويدَ تصغيرَ ترخيمَ لسيد، وحالف سويدَ بن الصامت^(٣)، ما بين المبتهج والشامت، وساعف سويد بن صَمِيع في أيام الربيع والرَّيغ، وسويد هذا هو القائل:

إِذَا حَلَفُونِي بِالْإِلَهِ مَنْحُتْهُمُ يَمِيناً كَبُرْدِ الْأَتْحَمِيِّ الْمَمْرَقِ^(٤)
وإنَّ حَلَفُونِي بِالْعَتَاقِ فَقَدْ دَرَى دُهَيْمٌ غَلَامِي أَنَّهُ غَيْرٌ مُعْتَقِ
وإنَّ حَلَفُونِي بِالطَّلَاقِ رَدَدَتْهَا كَأَحْسَنِ مَا كَانَتْ كَأَنَّ لَمْ تُطَلَّقِ

وكان يألف بيت سودة بنت زمعة بن قيس وهي زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعرف مكانة النبي المصطفى، ولا ينقطع عنه الأمل المرتجى،

ودخل مع سودة بنِ عدي^(٥) القبر، وما من عجيبٍ في هذا الأمر، وحضر النوادي التي يحضرها الأ سودان، وهما التمرُ والماء، والحرُّ والرمضاء، وقد امتلأت بالحرور الظلماء، وإنه لينفرُ من الأبيضين، إذا كانا في الغبار متعرِّضين، والأبيضان اللذان يَنفِرُ منهما سيفان، أو سيفٌ وقناة رُكَبَ في رأسها السنان، ولكنه إذا لقيهما يَصبرُ عليهما. قال الراجز:

الأبيضان أبردَا عظامي الماء والفت بلا إدام^(٦)

ويرتاح إليهما في قول الآخر:

وَلِكِنَّهُ يَمْضِي لِي الْحَوْلُ كُلُّهُ وَمَا لِي إِلَّا الْأَبْيَضِينَ شَرَابُ^(٧)

فأما الأبيضان اللذان هما الشبابُ والعافية، فتفرح بهما الغانية، وقد يبتهج بهما غيري، أما أنا فليسا من خيرِي.

- ١ - ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكتاني (١ ق. هـ - ٩٦ هـ / ٥٠٦ - ٨٨٦ م) تابعي، واضع علم النحو، كان معدوداً من الفقهاء والأعيان والأمرء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب. قيل أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) رسم له شيئاً من أصول النحو، فكتب فيه أبو الأسود.
- ٢ - سويد بن أبي كاهل شبيب بن حارثة بن ذبيان، شاعر مقدم من مخضرمي الجاهلية والإسلام.
- ٣ - سويد بن الصامت الأوسي: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة في الجاهلية، وذلك في أول البعثة، فدعاه رسول الله إلى الإسلام فلم يرد عليه شيئاً ولم يظهر له قبول ما دعاه إليه، ثم انصرف إلى قومه بالمدينة، فبزعم قومه أنه مات مسلماً وهو شيخ كبير، قتلته الخزرج قبل بعثه، وكان شاعراً محسناً كثير الحكم في شعره، وكان قومه يدعونه الكامل لحكمة شعره وشرفه فيهم.
- ٤ - هذه الأبيات تحيرنا، إذ تنسب إلى المزمق العبدي شأس بن نهار، وإلى المزدئد النطفاني، وهو أخو الشماخ بن ضرار، وإلى آخرين، والتحقق من نسبتها يحتاج إلى بحث طويل.
- ٥ - هو سودة بن عدي بن زيد، وكان عدي شاعراً وليس من الفحول، قتله النعمان بن المنذر خنقاً في سجنه، وهو أول عربي قتل خنقاً.
- ٦ - ورد البيت:

الأ سودان أبردَا عظامي الماء والفتُّ بلا إدام

والفتُّ حُبُّ يَطْلَحُ وَيُخْبِزُ مِنْهُ خَبزُ أَسْوَد، ومعنى: أبردَا عظامي أي أذهبَا مُخَي، والقول: الأ سودان أقرب إلى المنطق، لأن الأ سودين عند العرب التمر والماء.

٧ - البيت لأشجع السلمي المتوفى ٥٩١ هـ / ١١٨ م شاعر فحل، كان معاصراً لبشار.

وصول رسالة ابن القارح

وقد وصلت الرسالة التي تملؤها الحكمة كبحرٍ زاخرٍ بالنور، ومن قرأها لا شك مأجور، إذ تأمر بتقبُّل الشرع، وتعيُّب من ترك أصلاً إلى فرع. وغرقت في أمواج من البدع زاخرة، وعجبت من روعة المعاني فيها كالعقود الفاخرة، ومثلها شفع ونفع، وقرب إلى الله ورفع، وألفتها مبدؤها التسييح والتمجيد، صادراً عن امتلاك بلاغة الإنشاء والتشبيد، فهو يُدع ويُجيد، ومن قُدرة ربنا - جلَّت عظمته - أن يجعل كل حرفٍ منها نُوراً يكاد يتجسّد، ينأى عن مقال الزور ويبعد، ويستغفر لمن أنشأها إلى يوم القيامة، ويدعو له بالنجاة والسلامة. ولعلّه - سبحانه - قد نصب لسُطورها المنجية من اللهب، دروباً من الفضة أو الذهب، ترقى بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء، وتكشف أستار الظلماء، بدليل الآية الكريمة: "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ"^(١)، وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنيّة بقوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا"^(٢)، وفي تلك السطور كلمٌ كثيرٌ مفصل، وكلُّه عند ربِّ العزة محببٌ مفضل.

وقد غرس لمولاي الشيخ الجليل إن شاء الله بذلك الثناء، شجرٌ في الجنة لذيذ اجتناء، كل شجرة منه تمتد ما بين المشرق والمغرب بظلٍ عظيم وإرف، ليست في الأعين كذات أنواط في الزمن السالف، وذات أنواط - كما يعلم - شجرة كانوا يعظّمونها في الجاهلية، وقد روي أن بعض الناس قالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواط، وقال بعض الشعراء:

لنا المُهَيِّمُنُ يكفينَا أعاديَنَا كما رفضنا إليه ذات أنواط

والولدان المخلّدون في ظلال ذلك الشجر قيام وقعود، يسبحون الربّ المعبود، ربّ كل شيء في الوجود، ويقولون، والله على كل شيء قادر وعزيز: نحن وهذا الشجر إنعامٌ من الله لعلّي بن منصور^(٣)، نُخبَّأ له إلى يوم يُنفخ في الصور. وتجري بين تلك الأشجار أنهارٌ من ماء لم يره ولم يسمع به إنسان، ونهر الكوثر يجري في كل أوان، من شرب من تلك الأنهار جُرعةً فلا فناء، وقد آمن هنالك

١ - الآية ١٠ سورة فاطر

٢ - الأيتان ٢٥ و٢٤ سورة ابراهيم

٣ - نذكر بأنه ابن القارح

الشقاء. وتجري من اللبن أنهار، مادام الليل والنهار، وجداولٌ من الرحيق المختوم، عزَّ الإله الذي لا شيء غيره يدوم.

تلك هي الرأح الدائمة، ما دامت الجنة قائمة، بل هي كما قال علقمة بافتراء، وما دنا من الصواب والنقاء:^(١)

تَشْفِي الصُّدَاعَ وَلَا يُؤْذِيكَ صَالِبُهَا وَلَا يُخَالِطُهَا فِي الرَّأْسِ تَدْوِيمٌ

ويعمدُ إليها الشارب بكؤوس من الذهب، فسبحان من أعطى ووهب، يرى فيها مُتأمل السعد، فيرى ما حلم به أبو الهندي، فلقد آثر رحمة الله شراب الدنيا، ورغب بها عن الآخرة الأبقى، وهو القائل:

سُيْغَنِي أبا الهنديَّ عن وطْبِ سالمٍ أباريقُ لم يعلُقْ بها وَصْرُ الزُّبْدِ
مُفَدِّمَةً قَرّاً كَأَنَّ رِقَابَهَا رِقَابُ بناتِ المَاءِ أَفْرَعَهَا الرِّعْدُ
هكذا ينشد على الإقواء^(٢) وبعضهم ينشد:
رِقَابُ بناتِ المَاءِ رِيَعَتْ من الرِّعْدِ

والرواية الأولى إنشاد النحويين. وأبو الهندي إسلامي، واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس، وهذان اسمان شرعيان، وما استشهد بهذا البيت إلا وقائله عند المستشهد فصيح، فإن كان أبو الهندي ممن كتب وعرف حروف المعجم فقد أساء في الإقواء، وإن كان بنى الأبيات على السكون، فقد صح قول سعيد بن مسعدة، في أن الطويل من الشعر له أربعة أضرب.

ولو رأى تلك الأباريق أبو زيد^(٣) لعلم أنه كالعبد الخادم أو العبيد، وهزئ بقوله:

وأباريقُ مثلُ أعناقِ طيرِ الـ مَاءٍ قد جيبَ فوقهنَّ خَنيفُ

هيئات! هذه أباريق، تحملها أباريق، كأنها في الحسن الأباريق. فالأولى هي الأباريق المعروفة، والثانية من قولهم: جارية إبريق، إذا كانت تبرق من حسنها، قال الشاعر:

وغيداءٍ إبريقٍ كأنَّ رُضابَها جَنَى النحلِ ممزوجاً بصهباءٍ تاجرِ

١ - علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس، المتوفى ٠٢ ق. هـ / ٣٠٦ م شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصراً لامرئ القيس وله معه مساجلات.
٢ - الإقواء: تغيير حركة الروي عن باقي أبيات القصيدة
٣ - سعيد بن أوس بن ثابت بن زيد بن قيس بن زيد الأنصاري اللغوي البصري؛ كان من أئمة الأدب، وغلب عليه اللغات والنوادر والغريب، وكان ثقة في روايته.

والثالثة، من قولهم: سيف إبريق، مأخوذ من البريق. قال ابن أحمـر^(١)

تَقَلَّدتْ إِبْرِيقاً وَعَلَّقتْ جَعْبَةً لِتَهْلِكَ حَيًّا ذَا زُهَاءٍ وَجَامِلِ

ولو نظر إليها علقمة لبرق وخاف، كمن أدركته السنون العجاف، وأين يراها المسكين علقمة، ولعله في نار الجحيم، يُسقى من ماء حميم . ما علقمة بن عبدة وما فريقه؟! خسر وكسر إبريقه! أليس هو القائل:

كَأَنَّ إِبْرِيقَهُمْ طَبِيٌّ عَلَى شَرَفٍ مُفَدَّمٌ بِسَبَا الْكَتَّانِ مَفْدُومٌ
أَبْيَضٌ أَبْرَزُهُ لِلصُّحِّ رَاقِبُهُ مُقَلَّدٌ قُضِبَ الرِّيحَانِ مَفْغُومٌ

ولو رآها عدِي بن زيد، لشغل عن المدام والصيد، واعترف بأن أباريق الخمر، وما أدرك من الندامى والبُدور، أمرٌ هيِّنٌ، لا يعدل بالعدس والفل، أو بما هان وحقر من البقول.

وكنتُ بمدينة السلام، فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قصيدة عدي بن زيد التي أولها:

بَكَرَ الْعَادِلُونَ فِي وَصَحِ الصُّبِّ حِجَّ يَقُولُونَ لِي أَمَا تَسْتَفِيقُ
وَدَعَا بِالصُّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ قَيِّنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيقُ

وزعم الوراق أن ابنَ حاجب النعمان سأل عن هذه القصيدة، وطُلبت في نسخ من ديوان عدي فلم توجد. ثم سمعتُ بعد ذلك رجلاً من أهل أستراليا، يقرأ هذه القافية في ديوان العبادي، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم.

فأما الأقيسرُ الأسيدي^(٢) فإن صفقته كانت خاسرة، وشقي إلى يومِ الآخرة، قال ولعله سيندم، حين لا ينفع الندم:

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَشَبٍ قَرَعُ الْقَوَاقِيرِ أَفَوَاهِ الْأَبَارِيقِ

وما هو؟ وما مشاربُه؟ باءت بالخسران مآربُه. لو عاين تلك الأباريق، لأيقن أنه فُتن بالغرور، وسرٌّ بغير موجبٍ للسرور. وكذلك إياس بن الأرت، إن كان عجب لأباريق كإوز الطف، فإن الحوادث بسطت له أقبض كف. فكأنه ما قال:

١ - عمرو بن أحمـر الباهلي المتوفى ٥٧ هـ / ٤٩٦ م شاعر جاهلي مخضرم، أسلم وشارك في الفتوحات وفي مغازي الروم.
٢ - المغيرة بن عبد الله بن مُعرض الأسيدي المتوفى ٠٨ هـ / ٩٩٦ م شاعر هجاء عالي الطبقة، ولد في الجاهلية، ونشأ في أول الإسلام، وعاش وعُمِّر إلى زمن عبد الملك بن مروان.

كَانَ أَبَارِيقِ الْمَدَامَةِ بَيْنَهُمْ إِيوَزٌ بِأَعْلَى الطَّفِّ، عُوْجُ الْحَنَاجِرِ

وَالطَّفُّ مَا أَشْرَفَ مِنْ أَرْضِ الْعَرَبِ عَلَى رِيفِ الْعِرَاقِ، وَطَفُّ الْفِرَاتِ: شَطُّهُ، وَالطَّفُّ سَاحِلُ الْبَحْرِ
وَفِنَاءِ الدَّارِ. وَالطَّفُّ اسْمُ مَوْضِعٍ بِنَاحِيَةِ الْكُوفَةِ.

وَرَحِمَ اللَّهُ الْعَجَّاجَ بْنَ رُوَيْبَةَ^(١)، فَإِنَّهُ خَلَطَ فِي رَجْزِهِ شُرْبَهُ، أَيْنَ إِبْرِيْقِهِ الَّذِي ذَكَرَ فَقَالَ:

قَطَّفَ مِنْ أَعْنَابِهَا مَا قَطَّفَا فغَمَّهَا حَوْلَيْنِ ثُمَّ اسْتَوَدَفَا
صَهْبَاءَ خُرُطُومًا عُقَارًا قَرَقَفَا فَشَنَّ فِي الْإِبْرِيْقِ مِنْهَا نُزْفَا
مِنْ رَصْفٍ نَارِعٍ سَيْلًا رَصَفَا

وَكَمْ عَلَى تِلْكَ الْأَنْهَارِ مِنْ آتِيَةِ فَيْرُوزِ فِتَّانٍ، وَيَاقُوتِ خَلْقِ قَبْلَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، مِنْ أَصْفَرٍ وَأَحْمَرَ
وَأَزْرَقٍ، يَخَالُ الْمَرْءُ إِنْ لَمَسَ يُحْرِقُ، كَمَا قَالَ الصُّنُوبَرِيُّ^(٢):

تَخَيَّلُهُ سَاطِعًا وَهَجُّهُ فَتَأْبَى الدُّنُوَّ إِلَى وَهْجِهِ

وَفِي تِلْكَ الْأَنْهَارِ أَوَانٌ عَلَى هَيْئَةِ الطَّيْرِ السَّابِحَةِ، تَنْتَظِرُ لِتَغْطِسَ فِي الْمَاءِ الْفُرْصَةَ السَّانِحَةَ، عَلَى
خَلْقِ طَوَاوِيسٍ وَبَطِّ، فَبَعْضٌ فِي الْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ وَبَعْضٌ فِي الشَّطِّ يَنْبَعُ مِنْ أَفْوَاهِهَا شَرَابٌ، كَأَنَّهُ
مِنَ الرَّقَّةِ سَرَابٌ، لَوْ جَرَعَ جُرْعَةً مِنْهُ الْحَكَمِيُّ أَبُو نَوَاسٍ^(٣)، لِحُكْمِ أَنَّهُ الْفَوْزُ بَيْنَ النَّاسِ، وَشَهِدَ لَهُ
كُلُّ وَصَافٍ لِلخَمْرِ، مِنْ حَدِيثٍ فِي هَذَا الزَّمَنِ أَوْعَيْتِي مُجْرَبٍ فِي الْأَمْرِ، أَنَّ أَصْنَافَ الْأَشْرَبَةِ الْمَعْرُوفَةِ
فِي الدَّارِ الْفَانِيَةِ، كَخَمْرِ الْأُذْرَعَاتِ وَعَانَةِ، فِي الدَّنَانِ الْمَلَانَةِ، وَبَيْتِ رَاسٍ وَغَزَّةٍ، وَالْمَتَبَاهِيَةِ الْمَعْتَزَةِ،
وَمَا جَلِبَ مِنْ بَصْرَى فِي الْأَحْمَالِ، تَبْغِي بِهِ الْمُرَابِحَةَ فِي سَوْقِ الْأَعْمَالِ، وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ بُجْرَةَ بَوَّجٍ^(٤)،
وَاعْتَمَدَ بِهِ أَوْقَاتِ الْحَجِّ، قَبْلَ أَنْ تُحْرَمَ عَلَى النَّاسِ الْخَمْرَةَ، وَتُحْظَرَ لِخَوْفِ اللَّهِ هَذِهِ الْمَسْرَةَ. قَالَ أَبُو
ذُوَيْبٍ^(٥):

لَوْ كَانَ مَا عِنْدَ ابْنِ بُجْرَةَ عِنْدَهَا مِنَ الْخَمْرِ لَمْ تَبَلُّ لَهَاتِي بِنَاطِلِ

١ - عبد الله بن رُوَيْبَةَ بْنَ لَبِيدِ بْنِ سَخْرِ السَّعْدِيِّ التَّمِيمِيِّ الْمَتُوفِي ٥٩ هـ / ٨٠٧ م رَاجِزٌ مَجِيدٌ، وُلِدَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أَسْلَمَ وَعَاشَ إِلَى أَيَّامِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ
الْمَلِكِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ رَفَعَ مِنْ شَأْنِ الرَّجْزِ، وَشَبَّهَهُ بِالْقَصِيدِ.

٢ - أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ مَرَارِ الضُّبَيْيِّ الْمَتُوفِي ٤٢٣ هـ / ٥٤٩ م شَاعِرٌ اقْتَصَرَ فِي أَكْثَرِ شِعْرِهِ عَلَى وَصْفِ الرِّيَاضِ وَالْأَزْهَارِ. وَكَانَ مِمَّنْ يَحْضُرُ
مَجَالِسَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ.

٣ - اسْمُ أَبِي نَوَاسٍ الْكَامِلُ: الْحَسَنُ بْنُ هَانِئِ بْنِ عَبْدِ الْأَوَّلِ بْنِ الصَّبِيحِ الْحَكَمِيِّ.

٤ - ابْنُ بُجْرَةَ: خَمَّارٌ مَشْهُورٌ قَبْلَ إِثْنِهِ مِنْ بَنِي عَبِيدِ بْنِ عُوَيْجِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ بْنِ قَرِيْشٍ، وَكَانَتْ قَرِيْشٌ وَسَائِرُ الْعَرَبِ تَقْصِدُهُ، فَتَشْرَبُ فِي حَافَتِهِ، وَتَمْتَارُ مِنْهُ
مَا تَحْمَلُهُ إِلَى أَوْطَانِهَا. وَ«بَوَّجٌ» وَادٌ مَشْهُورٌ فِي الطَّلَاطِفِ.

٥ - أَبُو ذُوَيْبٍ الْهَنْدِيُّ: خُوَيْلِدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ مَحْرُثِ بْنِ بَنِي هَنْذِيلِ بْنِ مَدْرِكَةَ الْمُضَرِّيِّ. ٧٢ هـ / ٨٤٦ م شَاعِرٌ فَجَلَّ مَخْضَرُمٌ، أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ وَالْإِسْلَامَ، وَسَكَنَ
الْمَدِينَةَ وَاشْتَرَكَ فِي الْغَزْوِ وَالْفَتْوحِ، وَعَاشَ إِلَى أَيَّامِ عُثْمَانَ فَخَرَجَ إِلَى إِفْرِيْقِيَّةِ سَنَةِ (٦٢ هـ) غَازِيًا. فَلَمَّا كَانُوا بِمِصْرَ مَاتَ أَبُو ذُوَيْبٍ فِيهَا.

وما اعتَصِرَ بأرضِ شِبابٍ أو صَرَخِدَ لِكُلِّ مَلِكٍ في السُّوقِ لا تَكسُدُ، وما تَرَدَّدَ ذَكَرُه من خَمْرَةِ بَابِلَ وصرِيفين،^(٤) واتَّخَذَ لِأَشْرَافِ المَوسِرِينَ، وما عَمِلَ من أَجْناسِ المَسْكَراتِ، مُفَوِّقاتٍ لِلشَّارِبِ أو مُخَمِّداتٍ، كالجِعةِ والبَنْعِ والسُّكْرُكَةِ والمِزْرِ مُحَمَّلاتِ الوِزْرِ^(٥)، وما صُنِعَ من النخيلِ، لِكريمِ يَوجودِ أو بَخيلِ، وما صُنِعَ من أَيامِ نوحٍ وآدَمَ، إلى أن نُبعثَ في يَومٍ لا مَحالَةَ قادمِ.

ويعارض تلك المدامة أنهاراً من عسل مصفى مما كسبته النحل المبكرة إلى الأزهار، ولا هو في فلاة كأنها بحرٌ دون قرار، ولكن قال له العزيز القادر: كن فكان، وبكرمه أعطى الإمكان. وما أكرمه من عسل مصفى، ما مسته نار تخفى، لو جعله المملوء حرارة غيظ غذاءه طول الأبد، ما قدّر له عارض حمى تمتد وتدوم، ولا لبس ثوب المحموم، وذلك كله دليل قوله: "مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهاراً من ماء غير آسن وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه وأنهاراً من خمر لذة للشاربين وأنهاراً من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم"^(٦) فليت شعري عن النمر بن تولب العكلي^(٧)، هل يقدر له أن يدوق ذلك العسل، فيعلم أن شهد الفانية إذا قيس عليه حنظل، وهو لما وصف أم حصن وما رزقته في الدعة والأمن، ذكر حوارى بسمن، والحوارى الخبز الأبيض من لباب القمح، وأضاف إليه العسل المصفى، فرحمه الخالق إذ توفى، قال النمر:

أَلَمْ بَصُحْبَتِي وَهَمُّ هُجُوعٍ خَيْالٌ طَارِقٌ مِنْ أُمَّ حِصْنِ
لِهَا مَا تَشْتَهِي عَسَلًا مُصَفًى إِذَا شَاءَتْ وَحَوَارَى بِسَمْنِ

وهو، أدام الله تمكينه، يعرف حكاية خلف الأحمر^(٨) مع أصحابه في هذين البيتين، فقد قال لهم: لو كان موضع أم حصن أم حفص، ما كان يقول في البيت الثاني؟ فسكنوا، فقال: حوارى بلمص، يعني الفالودج، ويُفَرِّعُ على هذه الحكاية فيقال: لو كان مكان أم حصن أم جزء وآخره همزة، ما كان يقول في القافية الثانية؟ فإنه يُحتمل أن يقول: وحوارى بكشئ، من قولهم: كشأت اللحم إذا شويته حتى يببس، ويقال: كشأ الشواء إذا أكله. أو يقول بوزء، من قولهم: وزأت اللحم إذا شويته. ولو قال: حوارى بنسئ لجاز، وأحسن ما يُتأوّل فيه أن يكون من نساء الله في أجله، أي لها خبزٌ مع طول

١ - الأسماء المذكورة أسماء مدن وبلدات في فلسطين والشام واليمن والطائف والعراق.

٢ - بعض أنواع الخمر في الجاهلية ولا فائدة من شرحها.

٣ - الآية ٥١ من سورة محمد

٤ - النمر بن تولب بن زهير العكلي المتوفى ٤١ هـ / ٥٣٦ م شاعر جاهلي أسلم وهو كبير، لم تعرف له في المدح إلا قصيدة واحدة مدح فيها الرسول وكان هجاؤه نادراً، وكان شعره صادقاً وألفاظه سهلة جميلة.

٥ - خلف بن حسان الأحمر المتوفى ٨١ هـ / ٦٩٧ م. كان شاعراً وأعلم الناس بالشعر، ووضع على الشعراء شعراً موضوعاً كثيراً عبثاً بهم، فأخذ عنه أهل البصرة وأهل والكوفة، ثم تنسك فترك الشعر، وأقر بما فعل فلم يصدقوه، وكان يقرأ القرآن في كل يوم وليلة.

حياة، وهذا أحسنُّ من أن يُحمَلَ على أن النَّسأ اللبِن الكثير الماء، وقد قيل: إن النَّسأ الخمر، ولو حمَلَ حُوَّارى بنسأ، على اللبِن أو الخمر لجاز، لأنها تُأكل الحواري بذلك، أي لها الحُوَّارى مع الخمر ، وقد حدِّث مُحدِّث أنه رأى ملك الروم وهو يغمِسُ خبزاً في خمرٍ ويصيب منه، وفسروا قول عروة بن الورد^(١) على الوجهين:

سَقَوِي النَّسَأَ ثَمَّ تَكْنَفُونِي عُدَاهُ اللَّهُ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ

ولو قيل: حُوَّارى بلترء، من قولهم: لرزاً إذا أكل، لما بَعُد، وتكون الباء في بلترء بمعنى في. ولا يمكن أن يكون رويُّ هذا البيت ألقافاً، لأنها لا تكون إلا ساكنة، وما قبل الرويِّ ها هنا ساكنٌ، فلا يجوز ذلك. فإن خرج إلى الباء وقال: من أمَّ حَرَبٍ، جاز أن يقول: وحُوَّارى بصَرَبٍ، وهو اللبِن الحامض، ويجوز بإرْبٍ، أي بَعْضٍ من شِواءٍ أو قديد، ويجوز بكشْبٍ وهو أكل الشِواء.

فإن قال: من أمَّ صمت، جاز أن يقول: وحُوَّارى بكُمَّت، يعني جمعَ تمرَةٍ كَمَيْت، أي لونها بين الأسود والأحمر، وينشد للأسود ابن يعفر:

وَكُنْتُ إِذَا مَا قَرَّبَ الزَادُ مُوَلَعًا بِكُلِّ كَمَيْتٍ جِلْدَةٍ لَمْ تُوسِّفِ

فإن أخرجه إلى الثاء فقال: من أمَّ شَثَّ، قال: وحُوَّارى بيبث، والبثُّ: تمرٌ لم يُجدِ خازنه كَنزَه فهو متفرق. فإن أخرجه إلى الجيم فقال: أمَّ لَجَّ، جاز أن يقول: وحُوَّارى بدُجَّ، والدُّجُّ: الفُرُوج، جاء به العمانيُّ في رجزه^(٢). فإن خرج إلى الحاء، فقال: من أمَّ شُحَّ، جاز أن يقول: وحواري بمُحَّ، وبُحَّ، وبرُحَّ، وبُجَّحَّ، وبسَحَّ. فالْمُحُّ: مُحُّ البيضة، وُبُحُّ: جمع أبَحَّ، من قولهم: كسُرُّ أبَحُّ، أي كثيرُ الدَّسَم، وقال:

وعاذلة هبَّت عليَّ تلومني وفي كَفَّها كسُرُّ أبَحُّ رذومٌ

ويجوز أن يعنى بالْبُحِّ القداح، أي هذه المرأة أهلها أهلُ يسار، كما قال خفاف بن ندبة السُّلَمِيُّ:

قَرَوَا أَضْيَافَهُمْ رَبْحًا بِبُحِّ يَعِيشُ بِفَضْلِهِنَّ الْحَيُّ سُمِرٌ

وَرُحٌّ: جمع أَرَحَّ، وهو من صفات بقر الوحش، أي يُصاد لهذه المرأة، ويقال لأطلاف البقر: رُحٌّ،

١ - عروة بن الورد بن زيد العيسبي، من غطفان، توفي ٠٢ ق. هـ / ٣٩٥ م، من شعراء الجاهلية وقرسانها وأجوادها. كان يلقب بأَمِير الصعاليك وبأبي الصعاليك، لأنه كان يتعهد الفقراء والمرضى حتى يصحوا، ثم يعزروهم. قال عبد الملك بن مروان: من قال إن حاتمًا أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد.
٢ - محمد بن ذؤيب بن معجن بن قدامة ٣٩١ هـ / ٨٠٨ م. شاعر راجز من مخضرمي الدولتين، عُمر طويلاً، روى الأصمعي: أنه مات وهو ابن ٠٢١ سنة.

قال الأعشى^(١):

ورحٌّ بالزَّماعِ مردِّفاتٌ، بها تنضو الوغى وبها تروُدُ

والسُّحُّ والسَّحُّ: تمرٌّ صغير يابس. والجُحُّ: صغار البطيخ قبل أن ينضج. فإن قال: أمٌ دخٌّ، قال: حُوَّارى بمخٍّ، ونحو ذلك. فإن قال: أمٌ سعد، قال: حُوَّارى بثَّعد، وهو الرُّطب الذي لان كلُّه. فإن قال: أمٌ وقْد، قال: حُوَّارى بشَقْد، وهي فراخ الحجل. فإن قال: أمٌ عمرو، فإنَّ أشبه ما يقول: حُوَّارى بتمر.

فإن قال: أمٌ كَرزٍ، فإنَّ أشبه ما يقول: وحُوَّارى بأرزٍ، وفيه لغات ست: أرزٌ كأشدِّ، وهي اللُّغَّة المشهورة عند الخَواصِّ، أرزٌ مثل عُتْلٍ بإتباع الضَّمة، أرزٌ على وزن أشدِّ، وأرزٌ على وزن شُغلٍ، وأرزٌ في وزن قفلٍ، ورزٌّ مثل جدِّ، ورنزٌ وهي رديئة. فإن قال: أمٌ صَبَس، قال: وحُوَّارى بدبس. والعرب تسمي العسلَ دِبْساً. وكذلك فسروا قول أبي زيد^(٢)

فنهزَةٌ من لقوا حَسَبَتْهُمُ أحلى وأشهى من باردِ الدبِّسِ

وحَرَكَ الباءَ للضرورة.

فإن قال: من أمٌ قرش، جاز أن يقول: حُوَّارى بَورْش، والورش: ضربٌ من الجبن، ويجوز أن يكون مولدًا، وبه سُمِّي ورشٌ الذي يروى عن نافع وأسمه عثمان بن سعيد. والصاد قد مضت.

فإن قال: أمٌ غَرَض، جاز أن يقول: حُوَّارى بَفَرَض، والفرض: ضربٌ من التمر، قال الراجز:

إذا أكلتُ لبناً وفرضا ذهبتُ طولاً وذهبتُ عرضاً

وفي نصب (طول وعرض) اختلافٌ بين المبرِّد وسيبويه^(٣). فإن قال: من أمٌ حظٌّ، فإنَّ الأطعمة تقلُّ فيها الظاء، كقلَّتْها في غيرها، لأنَّ الظاء قليلةٌ جدًّا، ويجوز أن يقول: حُوَّارى بكظٍّ، أي يكظُّها الشَّبَع، أو نحو ذلك من الأشياء التي تدخل على معنى الاحتيال. فإن قال: أمٌ طَلَع، جاز أن يقول: حُوَّارى بخلَّع، والخلع: هو اللحم الذي كان يطبخ ويحملونه في القُروف، وهي أوعيةٌ من جلد، وينشد:

كُلِّي اللحمَ الغريضَ، فإنَّ زادي لَمِنَ خَلَعٍ تَضَمَّنُهُ القُروفُ

١ - ميمون بن قيس من بني قيس بن ثعلبة يعرف بأعشى قيس والأعشى الكبير، توفي ٧ هـ / ٦٢٨ م من شعراء الطبقة الأولى وأحد أصحاب المعلقات.
٢ - أبو زيد الطائي حرمله بن المنذر بن معد يكرب بن حنظلة المتوفى ٤١ هـ / ٦٦١ م شاعر جاهلي من العمرين ويروى أنه عاش مائة وخمسين عاماً وأدرك الإسلام واسلم على يد صديقه الحميم الوليد بن عقبة بن أبي معيط. رافق الوليد في اغتزاله علماً ومعاوية فاقام معه نديماً في الرقة ثم توفي بعده بقليل ودفن إلى جانبه هناك.

٣ - المبرد: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري(١٠١٢ - ٥٨٢ هـ / ٦٢٨ - ٨٩٨ م) إمام العربية في زمانه، كان فصيحاً بليغاً مفوهاً ثقة علامة صاحب نوادر وظرافة، وكان جميلاً وسيماً لا سيما في صباه، وله مصنفات عديدة في النحو واللغة والأدب.

فإن قال: أمّ فرع، جاز أن يقول: حواري بضرع، لأن الضرع تطبخ، وربما تشوّق إلى أكلها الملوك.
فإن قال: أمّ مَبْع، قال: حواري بصبح، والصبغ والصباغ ما تُغمس فيه اللقمة من مَرَقٍ أو زيت أوخل.

فإن قال: أمّ نَخف، قال: حواري برخف، والرخف زُبْدٌ رقيق، والواحدة رَخفة، قال الشاعر:

لنا غنمٌ يرضي النزِيلَ حليْبُها ورَخْفٌ يُغاديه لها وذبيحُ

فإن قال: أمّ فرَق، قال: حواري بعرق، والعرق: عظمٌ عليه لحمٌ من شواءٍ أو قديد. فإن قال: أمّ سَبَك، جاز أن يقول: حواري برَبِك أو بلبك، من قولهم: ربكت الطعام أو لبكته، إذا خلطته، وكان ذلك ممّا فيه رطوبةٌ، مثل أن يخالطه لبنٌ أو سمنٌ، أو نحو ذلك، ولا يقال: ربكت الشعير بالحنطة، إلا أن يستعار.

فإن قال: أمّ نخل، قال: حواري برخل، يريد الأثنى من أولاد الضأن، وفيه أربع لغات: رَخَل ورَخَلٌ ورِخْلٌ ورِخْلٌ. فإن قال: أمّ صَرَم، قال: حواري بطرم، والطرَم: العسل، وقد يسمّى السمنُ طرماً. وقد مضت النون في أمّ حصن.

فإن قال: أمّ دو، قال: حواري بحو، والحو: الجدي، فيما حكى بعض أهل اللغة في قولهم: ما يعرف الحو من اللو، أي الجدي من العناق، وقيل لا يعرف الحق من الباطل. فإن قال: أمّ كَره، قال: حواري بوَره، يريد جمع أوره، من قولهم: كبشٌ أوره، أي سمين. فإن قال: أمّ شَرِي، قال: حواري بأزي، أي عسل.

وهذا فصل يتّسع، وإنمّا عرض في قول تام، كخيال طرق في المنام.

ولو خالط رطلان من عسل الجنان، ما خلقه الله سبحانه في هذه الدار الخادعة، كالصاب، والمقرّ، والسّلع، والجعدة، والشّيح، والهبيد، لصار ذلك كلّهُ وغيره من مرّ المُعقبات، يُعدُّ من اللذائذ المرتقبات، فلذّ ما كره من الصّاب، كأنه المعتصر من المصاب، والمصاب: قصب السكر، وأمسى الحدج وهو الحنظل، وكأنه ما جاء من الأهواز، حلواً كالسكر، أو هو أفضل، ولصارت الراعية في الإبل، إذا وجدت الحنظلة، أتحتف بها سيدتها المُحظّلة، وهي التي تعظم عليها الغيرة، من قولهم: حَظَل نساءه، إذا أفرط في الغيرة عليهنّ، قال رؤبة بن العجاج:

فلا تَرى بَعلاً ولا حَلائِلاً كَهَوَ ولا كَهُنَّ إلا حَاطِلاً

ولانقطعت أرزاق أصحاب القصب في ساحل البحر، وصنع من المرّ الفالودج المَحْكَمُ بلا سحر، أي بلا خدع. ولو أن الحارث بن كلدة ^(١) طعم من ذلك العسل، لعلم أن الذي وصفه يجري من هذا الموصوف، مجرى الدفلى الشّاقة من حلوى اللّوزينج المعروف، وذكرت الحارث بقوله:

فما عسلٌ بباردٍ ماءٍ مُزِنٍ على ظمائمٍ لشاربه يُشابُ
بأشهى من لقائِكُمُ إلينا فكيف لنا به، ومتى الإيابُ

وكذلك السّلوى التي ذكرها أبو ذؤيب الهذلي بقوله:

وقاسمها بالله جهداً لأنتمُّ ألدُّ من السّلوى إذا ما نشورها

هي عند عسل الجنّة كأنها قارٌ رملِيّ، والقار: شجرٌ مرٌّ ينبت بالرّمل، قال بشر ^(٢):

يُرَجِّوْنَ الصّلاحَ بِذاتِ كَهْفٍ وما فيها لهم سَلَحٌ وَقارٌ

وإذا منّ الله تبارك اسمه على عبدٍ بورودِ تلك الأنهار، صاد فيها الوارد سمكاً لم ير مثله في الأسماك، منذ كان الكون ودارت الأفلاك، ولو بصر به أحمد بن الحسين ^(٣) لاحتقر الهدية التي أهديت إليه فقال فيها:

أقلُّ ما في أقلّها سَمَكٌ يَلْعَبُ في بركةٍ مِنَ العَسَلِ

فأما الأنهار الخمرية، فتلعب فيها أسماكٌ هي على صور السمك بحريةً ونهريةً، ومنه ما يسكن في مياه الينابيع ويسعى، ويظفر بضروب الثبت ليرعى، إلا أنه من الذهب والفضة وصنوف الجواهر، تتلألأ بالنور الباهر. فإذا مدّ المؤمن يده إلى واحدة من ذلك السمك، شرب من فمها رحيقاً عذبا، لو وقعت الجرعة منه في البحر الذي لا يحتمل ماءً من ينهل، لحلا منه أعلاه والأسفل، ولصار التتنُّ كأنه رائحة الخزامى بسهل، طلته السحابة الماطرةً بدهل، والدّهل: الطائفة من الليل. وكأني به، أدام الله الجمال ببقائه، إذا استحقّ تلك الرتبة، بيقين التوبة، وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس: كأخي ثمالة، وأخي دوس، ويونس بن حبيب الضبي وابن مسعدة المجاشعي ^(٤) فهم كما جاء في الكتاب الكريم: العزيز: ”وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ

١ - الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج من ثقيف، طبيب العرب المشهور، ومات في أول الإسلام، وليس يصح إسلامه، توفي في حدود ٦٠هـ/٦٨٠م.

٢ - بشر بن أبي خازم عمرو بن عوف الأسدي، توفي ٢٢ ق.هـ / ٦٠١ م شاعر جاهلي فحل من الشجعان. وورد البيت: ”يسومون العلاج“

٣ - أحمد بن الحسين: أبو الطيب المتنبّي

٤ - أخو ثمالة: المبرد يونس بن حبيب الضبي (٨٠-١٨٢هـ / ٧١٠-٨٠٨م) إمام النحويين في البصرة في عصره، وكان عالماً بالشعر نافذ البصر في تمييز

جيده من رديئه.

مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ“^(١) فصدّرُ أحمد بن يحيى هنالك قد غُسل من الحقد على محمد بن يزيد، فصارا يتصافيان ويتوافيان^(٢)، كأنها ندمانا جذيمة: مالكٌ وعقيل^(٣)، جمعها مبيتٌ ومقيل، وأبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه^(٤)، قد غُسلت سويداءُ قلبه من الضغينة، لما فعل به في مجلس البرامكة علي بن حمزة الكسائي وأصحابه^(٥). وأبو عبيدة^(٦) صافي الطوية لابن قُرَيْب^(٧)، قد ارتقيا عن البُغض والعيب، فهما كأربد ولبيد أخوان^(٨)، أو ابني نويرة في سالف الأوان^(٩)، أو صخر ومعاوية: ولدي عمرو^(١٠)، وقد أخمدا من الأحقاد كلَّ جمرٍ ”جَنَاتٌ عَدَنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ“^(١١) وهو، أيَد الله العِلْمَ بحياته، معهم كما قال الأعشى:

- ١ - الأيتان ٤٧ و ٤٨ من سورة الحجر
- ٢ - أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار النحوي المعروف بثلعب (٢٠٠-٢٩١هـ / ٨١٥-٩٠٤م) كان إمام الكوفيين في النحو واللغة، وكان ثقة حجة صالحاً مشهوراً بالحفظ وصدق لهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم. ومحمد بن يزيد: المبرّد.
- ٣ - مالك وعقيل ابنا فارج كانا نديمين لجذيمة بن الأبرش بن مالك ملك الحيرة، ويضرب بهما المثل في التآلف. وروي أن جذيمة لم يكن ينادم أحداً كبيراً وزهواً. وكان يقول: أنا أعظم من أن أنادم إلا الفرقدين. فلما أتى مالك وعقيل نادماه أربعين سنة، ما أعادا عليه حديثاً.
- ٤ - سيبويه (١٥٤-١٩٤هـ / ٧٥٨-٧٩٦م) كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو، ولم يوضع فيه مثل كتابه، وذكره الجاحظ يوماً فقال: جميع كتب الناس عيال عليه وقيل إن المؤامرة عليه جرت في مجلس هارون الرشيد، وقد غمّه ذلك، فخرج غاضباً، وارتحل إلى شيراز، فمات هناك ولما يبلغ الأربعين.
- ٥ - أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله المعروف بالكسائي، أحد القراء السبعة، كان إماماً في النحو واللغة والقراءات، ولم تكن له في الشعر يد، حتى قيل: ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر، توفي نحو ١٨٩هـ / ٨٠٥م.
- ٦ - أبو عبيدة معمر بن المنثى، البصري النحوي العلامة (١١٠-٢٠٩هـ / ٧٢٨-٨٢٥م) قال الجاحظ في حقه: لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه.
- ٧ - الأصمعي عبد الملك بن قريش بن علي بن أصمغ الباهلي (١٢٢ - ٢١٦هـ / ٧٤٠ - ٨٢١م) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. وكان الرشيد يسميه (شيطان الشعر). قال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي. وقال أبو الطيب اللغوي: كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حفظاً، وتصانيفه كثيرة.
- ٨ - لبيد بن ربيعة بن مالك العامري المتوفى ٤١هـ / ٦٦١م أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. وقد على النبي (صلى الله عليه وسلم). يعد من الصحابة، ومن المؤلفات قلوبهم. وهو أحد أصحاب المعلقات، وأريد بن قيس أخوه لأمه.
- ٩ - مالك بن نويرة، قتله خالد بن الوليد في حروب الردة، واتَّهم بأنه ما فعل ذلك إلا ليتزوج امرأته وكانت فائقة الجمال. رثاه متمم بن نويرة بقصائد خالدة.
- ١٠ - معاوية وصخر: أخوا الخنساء، ومعظم شعرها وأجوده في رثائهما ولا سيما رثاء صخر.
- ١١ - الأيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة الرعد.

الأعشى

نَارَعْتُهُمْ قُضِبَ الرِّيحَانِ مُتَّكِنًا وَقَهْوَةً مُرَّةً رَاوُفُهَا خَضِلُ
لَا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهِيَ رَاهِنَةٌ إِلَّا بِهَاتِ وَإِنْ عَلُّوا وَإِنْ نَهَلُوا
يَسْعَى بِهَا ذُو زُجَاجٍ لَهُ نُطْفُ مُقَلِّصٌ أَسْفَلَ السِّرْبَالِ مُعْتَمِلُ
وَمُسْتَجِيبٌ تَخَالَ الصَّنَجِ يَسْمَعُهُ إِذَا تُرْجِعُ فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضْلُ

وأبو عبيدة يُدَاكِرُهُمْ بِوَقَائِعِ الْعَرَبِ وَمَقَاتِلِ الْفَرَسَانِ، وَالْأَصْمَعِيُّ يَنْشُدُهُمْ مِنَ الشَّعْرِ مَا أَحْسَنَ قَائِلُهُ كُلَّ الْإِحْسَانِ. وَتَشْتَهِي نَفْسُهُمُ اللَّعْبَ، فَيَقْذِفُونَ تِلْكَ الْآنِيَةَ فِي أَنْهَارِ الرَّحِيقِ، وَيَعْتَرِضُهَا الْعَسَلُ الْأَبْيَضُ بِالتَّصْفِيقِ، وَيَلْطَمُ بَعْضُ تِلْكَ الْآنِيَةِ بَعْضًا، فَتُسْمَعُ لَهَا أَصْوَاتٌ، تُبْعَثُ بِمِثْلِهَا الْأَمْوَاتُ. فَيَقُولُ حَسَنَ اللَّهُ الْأَيَّامَ بِطُولِ عَمْرِهِ: آهَ لِمَصْرَعِ الْأَعْشَى مَيْمُونِ، لَوْ أَنَّهُ اسْتَبَقَ إِلَى الْخَيْرِ قَبْلَ الْمُنُونِ!!

وَدِدْتُ أَنَّهُ مَا صَدَّتْهُ قَرِيْشٌ لَمَّا تَوَجَّهَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُهُ السَّاعَةَ لَمَّا تَقَارَعَتْ هَذِهِ الْآنِيَةُ بِقَوْلِهِ فِي الْحَائِيَّةِ:

وَشَمُولٍ تَحْسِبُ الْعَيْنُ، إِذَا صُفِّقَتْ، جُنْدَعَهَا نَوْرَ الدُّبْحِ
مِثْلُ رِيحِ الْمِسْكِ ذَاكَ رِيحُهَا صَبَّهَا السَّاقِي إِذَا قِيلَ: تَوَخَّ
مِنْ زِقَاقِ التَّجْرِ فِي بَاطِيَةِ جَوْنَةٍ حَارِيَّةٍ ذَاتِ رَوْحِ
ذَاتِ غَوْرٍ مَا تُبَالِي يَوْمَهَا غَرَفَ الْإِبْرِيْقُ مِنْهَا وَالْقَدْحِ
وَإِذَا مَا الرَّاحُ فِيهَا أَرْبَدَتْ أَقْلَ الْإِزْبَادُ عَنْهَا، وَامْتَصَحَ
وَإِذَا مَكُوْكَهَا صَادَمَهُ جَانِبَاهَا، كَرَّ فِيهَا فَسَبَحَ
فَتَرَامَتْ بِزُجَاجٍ مُعْمَلٍ يُخْلِفُ النَّازِحُ مِنْهَا مَا نَزَحَ
وَإِذَا غَاظَتْ رَفَعْنَا زِقْنَا طَلَّقَ الْأَوْدَاجِ فِيهَا فَانْسَفَحَ

ولو أنّه أسلم، لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس، فيُنشدنا غريب الأوزان، ممّا نظّم في دارالأحزان، ويحدّثنا حديثه مع هُوذة بني عليّ، وعامر بن الطُّفَيْل، ويزيد بن مُسهرٍ وعلقمة بن عَلائة، وسلامة بن ذي فائش، وغيرهم ممّن مدحه أو هجاه، وخافه في الزمن أو رجاه^(١).

١ - فرسان وسادة من الجاهلية كان للأعشى معهم حكايات.

نزهة في الجنة .. لقاء الأعشى

ثمَّ إنَّه، أدام الله تمكينه، يخطرُ له حديثٌ شيءٌ كان يسمَّى النُّزْهة في الدارِ الفانية، فيركبُ بعيراً كريماً من نجائبِ الجنَّة، خُلِقَ من ياقوتٍ وزبرجد، في فضاءٍ بَعَدَ عن الحرِّ والبرد، ومعه إناءٌ بالخمرة مُفَعَم، فيسير في الجنَّة على غير هدى أو دربٍ مُعَلَم، ومعه شيءٌ من طعام الخلود، لم يذق مثله والد أو مولود، فإذا رأى بعيره يُسرِع بين كتبان العنبر، تحفُّ به شجيرات ربحان البرِّ، رفع صوته متمثلاً بقول الأعشى:

ليت شعري متى تخبُّ بنا النَّا قةً نحو العُذيبِ فالصَّيبون^(١)
مُحَقِّباً زِكْرَةَ، وخبزَ رِقَاقٍ وحباقاً وقِطْعَةً من نُونٍ

فيهتف هاتفٌ: أندري أيها العبدُ المغفورُ له لمن هذا الشعر؟ فيقول الشيخ: نعم، حدَّثنا أهل ثقتنا، عن أهل ثقتهم، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، حتى يصلوه بأبي عمرو بن العلاء^(٢)، فيرويه لهم عن أشياخ العرب، ممن يتحرشون بالضب الأراضى الوعرة الصلدة، ويجنون الكمأة في الفلوات الممتدة، الذين لم يأكلوا رائب الألبان، ولا جمعوا الثمرَ في أوعية تجعل في الأحضان، أن هذا الشعر لميمون بن قيس بن جندل أخى بني ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل فيقول الهاتف: أنا ذلك الرجل، من الله عليّ بعدما صرت من جهنم على شفا، فعفا عني وهو سبحانه خيرٌ من عفا. فيلتفت إليه الشيخ هشاً بشاً مرتاحاً، فإذا هو بشابٌ وسيم، يرفل في النعيم المقيم، وقد صار العشا في عينيه حوراً معروفاً، وانحناء ظهره ممشوقٍ قوامٍ موصوفاً، فيقول: أخبرني كيف كان خلاصك من النار، وسلامتك من قبيح العار؟

فيقول: سحبتني زبانية جهنم إلى سقر، فرأيت رجلاً في ميادين القيامة يتلألاً وجهه تلاًؤاً

١ - يورد المعري البيتين على أنهما من شعر الأعشى، لكن المُفضَّل الضُّبِّي المتوفى ١٦٨هـ/٧٨٤م يذكر في كتابه "الأمثال" في ما يلي: وكان للنعمان (ابن المنذر) أخ يقال له سعد القرقر، يضحك النعمان ويعجبه، وسعد الذي يقول:

ليت شعري متى تخب بي النَّا قةً نحو العذيب فالصيبون

محقباً زكرة وخبز رقاق وحباقاً وقطعة من نون

أما ابن قتيبة الدينوري (٢١٢- ٢٧٦هـ/ ٨٢٨- ٨٩٨م) فيورد البيتين في كتابه "عيون الأخبار" وينسبهما إلى شاعر مجهول، إذ يقول: وقال أحد العباسيين.

٢ - زيان بن العلاء بن عمار بن عبد الله التميمي المازني المقرئ النحوي (٧٠- ١٥٤هـ/ ٦٨٩- ٧٧٠م) أحد القراء السبعة كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر، وهو في النحو في الطبقة الرابعة من علي بن أبي طالب، وقال أبو عبيدة: كان أبو عمرو أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر.

القمر، والناس يهتفون به من كلِّ حَدَبٍ وصوبٍ: يا مُحَمَّد يا مُحَمَّد، الشفاعة الشَّفاعة! نَمْتُ لكذا ونمْتُ بكذا. فصرخت في أيدي الزبانية: يا مُحَمَّد اغْنِثِي فَإِنَّ لِي بِكَ حُرْمَةً! فقال: يا عَلِيّ اذهب إليه فانظر ما حُرْمته؟ فجاءني عليُّ بن أبي طالب، صلوات الله عليه، والزبانية يشدُّونني كي يُلْقُونِي فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، فَجَرَّهْمَ عَنِّي، وَقَالَ: مَا حُرْمَتُكَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا الْقَائِلُ:

أَلَا أَيُّهَذَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمَمْتُ	فَإِنَّ لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا
فَأَلَيْتَ لَا أَرْتِي لَهَا مِنْ كِلَالَةٍ	وَلَا مِنْ حَفَى حَتَّى تُلَاقِي مُحَمَّدَا
مَتَى مَا تُتَاخِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ	تُرَاحِي وَتُلَقِّي مِنْ فَوَاضِلِهِ نَدَى
أَجِدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ	نَبِيِّ الْإِلَهِ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى	وَأَبْصُرْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتُ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ	وَأَنْتَ لَمْ تَرُصِدْ لِمَا كَانَ أَرْصَدَا
فَإِيَّاكَ وَالْمَيْتَاتِ لَا تَقْرَبْنَهَا	وَلَا تَأْخُذْنَ سَهْمًا حَدِيدًا لَتَفْصِدَا
وَلَا تَقْرَبَنَّ جَارَةً إِنَّ سِرَّهَا	عَلَيْكَ حَرَامٌ فَانْكِحَنَّ أَوْ تَابَّدَا
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرُونَ، وَذِكْرُهُ	أَغَارَ لَعْمَرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا

وهو، أكمل الله زينة المحافل بحضوره، يعرف الأقوال في هذا البيت، وإنما أذكرها لأنه قد يجوز أن يقرأ هذا الهديان ناشيء لم يبلغه: حكى الفراء وحده^(١) أغار في معنى غار، إذا أتى العور، وإذا صح هذا البيت للأعشى فلم يرد بالإغارة إلا ضدَّ الإنجاد. وروي عن الأصمعي روايتان: أحدهما أن أغار في معنى عدا عدواً شديداً، وأنشد في كتاب الأجناس:

فَعَدُّ طِلَابِهَا وَتَسَلَّ عَنْهُ بِنَاجِيَةٍ إِذَا زُجِرَتْ تُغَيِّرُ

والأخرى أنه كان يقدم ويؤخر فيقول:

لعمرى غار في البلاد وأنجدا

١ - الحسين بن مسعود بن محمد، المعروف بالفراء، الفقيه الشافعي المحدث المفسر: كان بجرأ في العلوم، وصنّف في تفسير كلام الله تعالى، وروى الحديث ودرّس، وكان لا يلقي الدرس إلا على الطهارة، وصنّف كتباً كثيرة.

فيجيء به على الزحاف. وكان سعيد بن مسعدة^(١) يقول:

غار لعمرى في البلاد وأنجدا.

ويقول الأعشى: قلتُ لعليٍّ: وقد كنتُ أؤمن بالله وبالْحسابِ وأصدقُ بالبعثِ وأنا في الجاهليَّة
الجهلاء، فمن ذلك قولي:

وَمَا أَيُّبِلِيَّ عَلَى هَيْكَلٍ بَنَاهُ وَصَلَّبَ فِيهِ وَصَارَا
يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيحِ كِطُورًا سُجُودًا وَطُورًا جُؤَارَا
بِأَعْظَمَ مِنْكَ تُقَى فِي الْحِسَابِ إِذَا النَّسَمَاتُ نَفَضْنَ الْغُبَارَا

فذهب عليٌّ[ؑ] إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله، هذا أعشى قيسٍ قد رُوي مدحه فيك، وشهدَ أنك نبيٌّ مرسلٌ. فقال: هلاً جاءني في الدارِ السَّابِقة؟ قال: عليٌّ: قد جاء، ولكن صدته قريشٌ وحبُّه للخمر. فشَفَحَ لي، فأدخلت الجنةَ على أن لا أشربَ فيها خمرًا، فقَرَّتْ عيناى بذلك، وإنَّ لي عِوضًا في العسلِ واللبن. وكذلك مَنْ لم يَتَّبِعْ عن الخمر في الدارِ السَّاخِرة، لم يُسَقِّهَا في الآخرة.

١ - أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي النحوي المعروف بالأخفش الأوسط، أحد نحاة البصرة من أئمة العربية، أخذ النحو عن سيبويه، وهو الذي زاد في العروض بحر الخَبَب أو المُتَدَارِك، لأنه تدارك به على الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي صنَّف البحور الخمسة عشر كلها.

مع زهير بن أبي سلمى

وينظر الشيخ في رياض الجنة فيرى قصرين مُنيفين، فيقول في نفسه: لأبلغن هذين القصرين فأسأل لمن هما؟ فإذا قُرب إليهما رأى على أحدهما مكتوباً: هذا القصر لزهير بن أبي سلمى المُزني^(١) وعلى الآخر: هذا القصر لعبيد بن الأبرص الأسدي فيعجب من ذلك ويقول: هذان ماتا في الجاهلية، ولكن رحمة ربنا وسعت كل شيء، وسوف ألتبس لقاء هذين الرجلين فأسألهما بم غفر لهما. فبيتديء بزهير فيجده شاباً عن الزهرة لا يختلف، قد وهب له قصرٌ من دُرّة الصدف، كأنه ما لبس جلاباب الهرم، ولا شكا من السأم، وكأنه لم يقل في معلقته الميمية:

سَمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعْشُ ثَمَانِينَ حَوَلاً، لَا أَبَا لِكَ، يَسَامِ

ولم يقل في الأخرى:

أَلَمْ تَرْنِي عَمَّرْتَ تِسْعِينَ حِجَّةً وَعَشْرًا تَبَاعاً عَشْتَهَا، وَثَمَانِيَا؟^(٢)

فيقول: حقاً حقاً! أنت أبو كعب وبجير صدقا؟ فيقول: نعم. فيقول، أدام الله عزه: بم غفر لك وقد كنت في زمان الفترة والناس مثل ضالّات الإبل، لا يحسن منهم العمل؟ فيقول: كنت أنفر من الباطل نفوراً، فصادفت ملكاً غفوراً، وكنت مؤمناً بالله العظيم، ورأيت فيما يرى النَّائم حبلاً نزل من السماء، فمَن تعلق به من سُكّان الأرض سلم، فعلمت أنه أمرٌ من أمرِ الله، فأوصيت بنيّ وقلت لهم عند الموت: إن قام قائمٌ يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه. ولو أدركت محمداً لكنت أول المؤمنين. وقلت في الميمية:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى، وَمَهْمَا يُكْتَمَ اللَّهُ يَعْلَمَ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَمَ

١ - زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني المتوفى ١٣ ق.هـ / ٦٠٩ م حكيم الشعراء في الجاهلية، وضعه ابن سلام في الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية. أحد أصحاب الملقبات، قيل: كان ينظم القصيدة في شهر وينقحها ويهذبها في سنة، ويقال: إن أبياته في آخرها تشبه كلام الأنبياء.

٢ - ورد البيت، ولعله بيت آخر:

كَأَنِّي وَقَدْ خَلَقْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً خَلَقْتُ بِهَا عَنْ مَنْكِبِي رَدَائِي

فيقول: ألسـت القائل:

وقد أَعْدُو عَلَى ثُبَّةٍ كِرَامٍ نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ
يَجْرُونَ الْبُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ حُمَيَّا الْكَاسِ فِيهِمْ وَالْغِنَاءُ

فهل أَطْلَقْتَ لك الخمرُ كغيرك من أصحابِ الخلود؟ أم حُرِّمْتَ عليك مثلما حُرِّمَتْ على أعشى قيس؟ فيقول زهيرٌ: إن أبا بكرٍ أدرك محمداً فوجبت عليه الحُجَّةُ، لأنَّه هلك وبعث بعد تحريم الخمر، وحظر ما قبَّح من أمر؛ وهلكت أنا والخمرُ كغيرها من الأشياء، يشربها أتباع الأنبياء، فلا حجة عليّ. فيدعوه الشَّيخُ إلى المنادمة، فيجده من ظُرَافِ النُّدَمَاءِ، فيسأله عن أخبار القدماء، ومع الخادم الدَّنُّ الذي يُقال له باطية من الزمرد، فيها من الرَّحِيقِ المختوم شيءٌ يمزج بزنجبيل، والماء من سلسبيل. فيقول زاد الله في أنفاسه: أين هذه الباطية من التي ذكرها السَّروِيُّ^(١) في قوله:

ولنا باطيةٌ مملوءةٌ جونةٌ يتبعها برزِينُها
فإذا ما حارَدَت أو بَكَات فُكَّ عن خاتمِ أخرى طِينُها

١ - إبراهيم بن محمد بن موسى بن هارون السروي كان إماماً فاضلاً زاهداً وله تصانيف كثيرة، مات سنة ٤٥٨هـ عن مائة سنة.

مع عبيد بن الأبرص

وعدي بن زيد

ثم ينصرف إلى عبيد فإذا هو قد أعطي بقاء التأبيد، فيقول: السلام عليك يا أبا بني أسد. فيقول: وعليك السلام (وأهل الجنة أذكىء، لا يخالطهم الأغبياء) لعلك تريد أن تسألني بم غفر لي؟ فيقول: أجل، وإن في ذلك لعجبا! أألفيت حكماً للمغفرة موجبا، ولم يكن عن الرحمة محجبا؟ فيقول عبيد^(١): أخبرك أنني دخلت الهاوية، وكنت قلت في أيام الحياة:

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَائِلُ اللَّهِ لَا يَخِيبُ

وسار هذا البيت في آفاق البلاد، فلم يزل يُنشد فيخفُ عني العذاب حتى أُطِقت من القيود والأصفاد، ثم كُرِّرَ إلي أن شملتني الرحمة ببركة ذلك البيت، وإن ربنا لغفورٌ رحيم. فإذا سمع الشيخ، ثبتَ الله وطأته، ما قال ذاك الرجلان، طمع في سلامة كثير من أصناف الشعراء.

فيقول لعبيد: ألك علم بعدي بن زيد العبادي^(٢)؟ فيقول: إن منزله قريب منك فيقف عليه فيقول: كيف كانت سلامتك على الصراط وخلصك من بعد الإفراط؟ فيقول: إنني كنت على دين المسيح، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يُبعث محمداً فلا بأس عليه، وإنما التبعة على من سجد للأصنام، وعد في الجهلة من الأنام. فيقول الشيخ: يا أبا سواده، ألا تُتشدني بعض أبيات الصادية، فإنها بديعة من أشعار العرب؟ فينبعث منشداً:

أُبْلِغُ خَلِيلِي عَبْدَ هِنْدٍ فَلَا زِلْتَ قَرِيباً مِنْ سَوَادِ الْخُصُوصِ
تُجْنِي لَكَ الْكُمَاهُ رُبْعِيَّةً بِالْخَبِّ تَنْدَى فِي أَصُولِ الْقَصِيصِ

١ - عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي المتوفى ٢٥ ق. هـ / ٥٩٨ م. شاعر من دهاة الجاهلية وحكائها. عاصر امرؤ القيس وله معه مناظرات ومناقضات، وعمر طويلاً حتى قتله النعمان بن المنذر وقد وفد عليه في يوم بؤسه.

٢ - عدي بن زيد بن حماد العبادي التميمي المتوفى ٣٦ ق. هـ / ٥٨٧ م. شاعر من دهاة الجاهليين، كان يحسن العربية والفارسية، والرمي بالنشاب. أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، فجعله ترجماناً بينه وبين العرب، ولما مات كسرى وولي الحكم هرمز أعلى شأنه، ثم تزوج هنداً بنت النعمان. وشى به أعداؤه إلى النعمان بما أوغر صدره فسجنه وقتله في سجنه بالحيرة.

تَقْنِصُكَ الْخَيْلَ، وَتَصْطَادُكَ الـ
عُيْبَتَ عَنِّي عَبْدٌ فِي سَاعَةِ الـ
لَا تَنْسِينَ ذِكْرِي عَلَى لَذَّةِ الـ
إِنَّكَ ذُو عَهْدٍ وَذُو مَصْدِقٍ
قَدْ يُدْرِكُ الْمُبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ
يَا عَبْدُ هَلْ تَذَكَّرْنِي سَاعَةً
فَلَا يَزُلُّ صَدْرُكَ فِي رَيْبَةٍ
يَا نَفْسُ أَبْقِي وَأَنْقِي شَتَمَ ذِي الـ
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَإِنْ ذُو عَجَّةٍ
وَالرَّبْرَبِ الْمَكْفُوفُ أَرْدَانُهُ

فيقول الشيخ: أحسنت والله أحسنت فيما قلت، لو كنت الماءَ الراكدَ لما تغيرت فأسنت. وقد عمل أديبٌ من أدباء الإسلام قصيدة على هذا الوزن، وهو المعروف بأبي بكر بن دريد^(١)، قال:

يَسْعَدُ ذُو الْجِدِّ وَيَشْقَى الْحَرِيصُ لَيْسَ لِلْخَلْقِ مِنْ قَضَاءٍ مَحِيصُ
أَيْنَ مُلُوكِ الْأَرْضِ مِنْ جَمِيرٍ أَكْرَمُ مَنْ نَصَّتْ إِلَيْهِمْ قُلُوصُ
جَيْفَرُ الْوَهَابِ أَوْ دَى بِهِ دَهْرٌ عَلَى هَدْمِ الْمَعَالِي حَرِيصُ

إِلَّا أَنَّكَ يَا أبا سَوَادَةَ أَحْرَزْتَ فَضِيلَةَ السَّبْقِ. وَمَا كُنْتَ أَخْتَارُ لَكَ أَنْ تَقُولَ:

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَإِنْ ذُو عَجَّةٍ

لأنَّكَ لَا تَخْلُو مِنْ أَحَدٍ أَمْرِينَ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ قَدْ وَصَلْتَ هَمْزَةَ الْقَطْعِ وَذَلِكَ رَدِيءٌ، وَيَزِيدُ مَا فَعَلْتَ مِنْ إِسْقَاطِ الْهَمْزَةِ بَعْدَ أَنَّكَ حَذَفْتَ الْأَلْفَ الَّتِي بَعْدَ النُّونِ، فَإِذَا حَذَفْتَ الْهَمْزَةَ مِنْ أَوَّلِ الْكَلِمَةِ بَقِيَتْ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ بِهَا إِخْلَالٌ. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ حَقَّقْتَ الْهَمْزَةَ فَجَعَلْتَهَا بَيْنَ بَيْنٍ، ثُمَّ اجْتَرَأْتَ عَلَى تَصْيِيرِهَا أَلْفًا خَالِصَةً، وَحَسْبُكَ بِهَذَا نَقْضًا لِلْعَادَةِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُ الْقَائِلِ:

وَالرَّبْرَبِ الْمَكْفُوفُ أَرْدَانُهُ يَمْشِي رُوَيْدًا، كَمْشِي الرَّهْيِصُ

١ - أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٢٢٣ - ٣٢١ هـ / ٨٢٨ - ٩٣٢ م) من أئمة اللغة والأدب، وهو صاحب المقصورة الدريدية، من كتبه (الاشتقاق)، و(المقصود والممدود)، و(الجمهرة في اللغة)، و(أدب الكاتب)، و(الأمالى).

ولو قلت: يا ليت شعري أنا ذو عَجَّةٍ، فحذفت الواو، لكان عندي أحسنَ وأشبه. فيقول عدِّي ابن زيد: إنَّما قلتُ كما سمعتُ أهلَ زمني يقولون، وحدثت لكم في الإسلام أشياء ليس لنا بها علم، فيقول الشيخ: لا أراك تفهم ما أريده من الأغراض، ولقد هممت أن أسألك عن بيتك الذي استشهد به سيبويه، وهو قولك:

أرواحٌ مُودَعٌ أم بُكُورُ أنت فاعمدِ لآيٍ حالٍ تصيرُ

فإنه يزعم أن أنت يجوز أن يرتفع بفعلٍ مضمِرٍ يفسره قولك: فانظر، وأنا أستبعد هذا المذهب، ولا أظنك أردته. فيقول عدِّي بن زيد: دعني من هذه الأباطيل، ولكني كنتُ في الدار الفانية صاحب قصص، ولعلَّه قد بلغك قولِي:

ولقد أغدو بطِرفِ زانهُ وجهٌ منزوفٍ وخدٌ كالمِسَن
مُدْمَجٍ كالقَدْحِ لا صدعَ به فيرى فيه ولا عيبَ أبَن
رمه الباري، فسوى دَرَاهُ غمز كفيهِ وتخليق السَّفَن
أبي ثغرٍ ما يخفَ يُندبُ له ومتى يخلُ من القودِ يُصنُ
كريبِ البيتِ يفري جُلّه طاعةُ العُضِّ وتسحيرُ اللَّبنِ
فالذي يُمسكُه يحمده تئقُّ بالشدِّ مُمتدُّ الرِّسنِ

فهل لك أن نركب فرسين من خيل الجنة، فنُجريهما بين نخلها، وجماعات نعامها، وأسراب ظبائها، وقطعان المها فيها، فإن للقنيص لذةً أشتهيها لك؟ فيقول الشيخ: إنَّما أنا صاحبُ قلمٍ، ولم أكن صاحبَ خيل، ولا مَمَّنْ يسحبُ طويل الذيل، وزرتك إلى منزلِك مهنتاً بسلامتك من الجحيم، وتنعمك بعفو الرحيم. وما يؤمِّنني إذا ركبت جواداً نشيطاً رتَع في رياض الجنة فصارَ من البطرِ كالغول والسُّعلاة، وأنا كما قال القائل^(١):

لم يركبوا الخيلَ إلا بعدما كبروا فهمُ ثِقَالٌ على أكتافِها عُنْفُ

أن يلحقني ما لحق جَلَمًا صاحب المتجرِّدة^(٢) لَمَّا حُمِلَ على فرس النعمان "اليحوم"، والتعرض

١ - كعب بن معدان الأشقري المتوفى ٨٠ هـ / ٧٠٠ م، فارس وشاعر وخطيب. كان من أصحاب المهلب بن أبي صفرة في حروب الأزارقة.
٢ - جلم بن الضحيا زوج المتجرِّدة، نزل بها على النعمان، فرأها النعمان فهويها، فأقنع جلماً بأن يركب اليحوم ليصيد لها كوكبان اليحوم قلتما ركبه أحد إلا صرعه، فجمع به الفرس، فأدرك الخديعة، فألقى الحرية، وأمسك عنان الفرس وناصبته بيديه جميعاً، وعاد سالماً، واحتال عليه النعمان بالخمر حتى أسكره، فطلق المتجرِّدة، فتزوجها النعمان.

لما لم يلحق به قبل من الهموم، وقد بلغك ما لقي ولذُّ زهيرٍ لَمَّا دُقَّتْ عنقه، وكان يحسب أنه يأتي بالخير، فسلك في طريقٍ وسيعة، فسفح عليه كعب بن زهير^(١) دموعه، وكذلك ولذُّك علقمة، حلَّت في العاجلة به النِّقمة، وقلت فيه:

أُنْعِمَ صَبَاحاً عَلَّقَمَ بَنَ عَدِيٍّ إِذَا ثَوَيْتَ الْيَوْمَ لَمْ تَرَحَلِ

ويجوز أن يقذفني السابح على صخور زمرد، فيكسر لي عَضْداً أو ساقاً، فأصير مضحكة لأهل الجنان. فبيتسم عدِيٌّ ويقول: ويحك! أما علمت أنَّ الجنة لا يُرهبُ فيها السَّقَمَ، ولا تنزلُ بساكنها النَّقْمَ؟ فيركبان سابحين من خيل الجنة، كلُّ واحدٍ منهما لو عَدِلَ بممالك العاجلة الكائنة من أولها إلى آخرها لرجح بها، وزاد في القيمة عليها. فإذا نظرَ إلى قُطْعانٍ ترتع في دقاري الفردوس، والدقاري: الرياض، صَوَّبَ مولاي الشيخُ المِطْرَد، وهو الرُّمَحُ القصيرُ لصيد حُمُرِ الوحش،

إلى ثورٍ طال ذيلُه ويختال، قد رتَعَ هناك طويلاً أيام وليال؛ فإذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيدُ ظفرٍ، قال: أمسك، رحِمَكَ الله، فإني لست من وحشِ الجنَّة التي أنشأها الله ولم تكن في الدار الزائلة، ولكني كنتُ في دار الغرور أروُدُ بعض القفار، فمرَّ بي ركبٌ مؤمنون قد فني زادهم، فصرعوني واستعانوا بي على السَّفر، فعوضني الله، جَلَّتْ كلمته، بأن أسكنني في الخلود. فيكفُّ عنه مولاي الشيخ الجليل.

ويعمد إلى ثورٍ وحشيٍّ قد سَمِنَ، فهو يرعى وقد أَمِنَ، فإذا صار السنانُ منه بقدر أنملة قال: أمسك يا عبد الله، فإن الله أنعمَ عليَّ ورفعَ عني البؤس، وذلك أنِّي صادني صائدٌ بقوس، وباع جلدي في بعض الأمصار، فاتخذَ منه غُرْبٌ للسقاء، شُفي بمائه العطاش ومن كوتهم الرَّمضاء، وتطهَّرَ من تلك البئرِ الصالحون، فشمَلتني بركةٌ من أولئك، فدخلت الجنةَ أرزَقَ فيها بغير حساب. فيقول الشيخ: فينبغي أن تتميِّزَنَ عن غيركن، فما كان منكنَّ من وحوش الفانية، فما يجب أن يختلط بوحوش الجنة. فيقول ذلك الوحشيُّ: لقد نصحتنا نُصحَ الشقيق، وسوف نمثل لما أمرت.

١ - كعب بن زهير بن أبي سلمى، توفي ٢٦هـ/٦٤٦م، حارب الإسلام بشعره، ثم أسلم ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصيدته المشهورة "بانث سعاد"

مع أبي ذؤيب الهذلي

وينصرف مولاي الشيخ الجليل وصاحبه عديّ فإذا هما برجلٍ يحتلب ناقةً في إناءٍ من ذهب، فيقولان: مَنْ الرَّجُل؟ فيقول: أبو ذؤيب الهذليّ. فيقولان: حَيَّيت وَسَعِدْتَ، لا شقيت في عيشك ولا بَعُدْتَ، أحتلب ناقةً وحولك من اللبن نهور؟ إن هذا من العُبن والجور. فيقول: لا بأس، إنما خطر لي ذلك مثلما خطر لكما الصيد وإني ذكرت قولي في الدهر الأول:

وَإِنَّ حَدِيثاً مِنْكَ لَوْ تَعَلَّمِينَهُ جَنَى النَّحْلِ فِي أَلْبَانِ عُوذٍ مَطَافِلِ^(١)
مَطَافِيلَ أَبْكَارٍ حَدِيثٍ نِتَاجُهَا تُشَابُ بِمَاءٍ مِثْلَ مَاءِ الْمَفَاصِلِ

فقيض الله بقدرته لي هذه الناقة عائداً مطفلاً، وكان بالنعم متكفلاً، فقامت أحتلب على العادة، وأريد أن أشوب ذلك بالعسل الأبيض الفواح، جمعه نحل الجنة من أفواه الأقاح. فإذا امتلأ إناءه من اللبن، كوّن الباري، جلت عظمته، خلية من الجوهر، رتع نحلها في الزهر، فاجتني ذلك أبو ذؤيب، ومزج حليبه بلا ريب، فيقول: ألا تشربان؟ فيشربان من ذلك المزيج رشفات، لو فرقت على أهل سقر لكانت مشبعات، فيقول عديّ: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. لقد جاءت رسل ربنا بالحق، ونودوا أن تلكم الجنة أورثتكموها بما كنتم تعملون.^(٢) ويقول، أدام الله تمكينه، لعديّ: جئت بشيئين في شعرك، وددت أنك لم تأت بهما، أحدهما قولك:

فَضَافَ يُعْرِي جُلَّهُ عَن سَرَاتِهِ يَبْدُ الْجِيَادَ فَارِهاً مُتَتَابِعَا

والآخر قولك:

فَلَيْتَ دَفَعْتُ الهمَّ عَنِّي سَاعَةً فَنَمْسِي عَلَى مَا خَيْلَتْ نَاعِمِي بِالِ

فيقول عديّ بعبادته: يا مكبور، لقد رزقت ما يكب أن يشغلك عن القريض، إنما ينبغي أن تكون

١ - ورد البيت: لو تبدلينه

٢ - الآية ٤٣ الأعراف

كما قيل لك: «كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون»^(١) قوله يامكبور، يريد: يامجبور، فجعل الجيم كافاً، وهي لغة رديئة يستعملها أهل اليمن. وجاء في بعض أحاديث الأولين: أن الحارث بن هانيء بن أبي شمر بن جبلة الكندي، نادى يوم ساباط: يا حكر يا حكر، يريد: يا حجر بن عدّي الأديب، فعطف عليه فاستنفذه. ويكب: في معنى يجب.

فيقول، زاد الله في أنفاسه: إني سألت ربّي عزّ سلطانه، ألا يحرمني في الجنّة تلذذاً بأدبي الذي كنتُ أتلذذُ به في عاجلتي، فأجابني إلى ذلك «وله الحمدُ في السّمواتِ والأرضِ وعَشِيّاً وحين تُظهِرون»^(٢).

١ - الآية ١٩ الطور

٢ - الآية ١٨ الروم

النابغتان

ويمضي في نزهته تلك بشابَّين يتحادثان، كلُّ واحدٍ منهما على باب قصرٍ من دُرٍّ؛ قد أعفي من البؤس والضُرِّ. فيسلِّم عليهما ويقول: من أنتما رحمكما الله، وقد فعل؟ فيقولان: نحن النابغتان: نابغة بني جَعْدَةَ ونابغة بني ذبيان. فيقول، ثَبَّتَ اللهُ وطأته: أما نابغة جَعْدَةَ^(١) فقد استوجب ما هو فيه بالحنيفيَّة، وأما أنت يا أبا أمامة^(٢) فما أدري ما هيأناك؟ أي ما جهتك. فيقول الذُّبْيَانِيُّ: إني كنت مقرّاً بالله، وحججت البيت في الجاهليَّة، ألم تسمع قولي:

فلا لعمرُ الذي قد زُرْتَهُ حَجَجاً وَمَا هُرَيْقٌ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ^(٣)
والمؤمن العائذاتِ الطيرِ تَمَسُّحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْعَيْلِ وَالسَّعَدِ

وقولي:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةَ وَهَلْ يَأْتَمَنُ ذُو إِمَّةٍ وَهُوَ طَائِعٌ
مُصْطَحِبَاتٍ مِنْ لَصَافٍ وَثَبْرَةٍ يَزُرْنَ إِلَّا سَيْرُهُنَّ التَّدَافُعُ

ولم أدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فتقوم الحجة عليَّ بخلافه، وإنَّ الله تقدَّست أسماؤه، عزَّ ملكاً وجلَّ، يغفر ما عظم بما قلَّ. فيقول، لا زال قوله عالياً: يا أبا سواده، يا أبا أمامة، يا أبا ليلي، اجعلوها ساعة منادمة، فإنَّ من قول شيخنا العباديِّ:

أَيُّهَا الْقَلْبُ تَعَلَّلْ بَدَدَنْ إِنَّ هَمِّي فِي سَمَاعٍ وَأَدَنْ
وشرابٍ حُسْرَوَائِي، إِذَا ذَاقَهُ الشَّيْخُ تَغْنَى وَارْجَحَنْ

١ - أبو ليلي قيس بن عبد الله الجعدي العامري (٥٤ ق. هـ - ٥٠ هـ / ٦٧٠ - ٦٧٠ م) شاعر صحابي من الممجرين، وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام. ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم، وأدرك صفين فشهداها مع علي كرم الله وجهه، ثم سكن الكوفة فسُيِّرَ معاوية إلى أصبهان مع أحد ولاتها فمات فيها وقد كُفَّ بصره وجاوز المائة.

٢ - زياد بن معاوية بن ضباب الذبْيَانِيُّ الغطفاني المضرّي المتوفى ١٨ ق. هـ / ٦٠٥ م، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان يحكم بين الشعراء بسوق عكاظ، وهو أحد شعراء الملقّات. شعره كثير وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلف في شعره ولا حشو، عاش عمراً طويلاً.

٣ - ورد البيت: فلا لعمرُ الذي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ

وقال:

وسماعٍ يأذنُ الشَّيْخُ له وحديثٍ مثلِ ماذِي مُشَارِ

فكيف لنا بأبي بصير؟ فلا يُتِمُّ الكلمة إلا وأبو بصيرٍ قد صار خامسهم، فيسبِّحون الله ويقدِّسونه ويحمدونه على أن جمع بينهم، ويتلو، جَمَلُ الله ببقائه، هذه الآية: ”وهو على جَمَعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ“^(١).

فإذا أكلوا من طَيِّباتِ الجَنَّةِ، وشربوا من شرابها الذي خزنه الله لعباده المتقين قال، أرغم الله أنفَ مُبَغِضِهِ: يا أبا أمامة إنك لحصيف الرأي لبيب، فكيف حَسَنَ لك لُبُّك أن تقول للنُّعْمان بن المنذر:

زَعَمَ الْهُمَامُ بَأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ عَذَبْتُ إِذَا قَبَّلْتَهُ قُلْتُ ازْدَدَ
زَعَمَ الْهُمَامُ وَلَمْ أَذْقُهُ بِأَنَّهُ يُشْفَى بِبَرْدِ لِثَانِهِ الْعَطَشُ الصَّدِي

ثم استمرَّ بك القول، حتى أنكره عليك خاصة وعامة؟

فيقول النابغة بذكاء وفهم: لقد ظلمني من عاب علي، ولو أنصف لعلم أنني احترتزت أشد احتراز. وذلك أن النعمان كان مُستهماً بتلك المرأة، فأمرني أن أذكرها في شعري، فأدرت ذلك في خلدي فقلت: إن وصفتها وصفاً مطلقاً، جاز أن يكون بغيرها مُعلِّقاً. وخشيت أن أذكر اسمها في النظم، فلا يكون ذلك موافقاً للملك، لأن الملوك يأنفون من تسمية نساءهم، فرأيت أن أسند الصفة إليه فأقول: زعم الهمام، إذ كنت لو تركت ذكره لظن السامع أن صفتي على المشاهدة، والأبيات التي جاءت بعد، داخله في وصف الهمام، فمن تأمل المعنى وجده غير مختل. وكيف ينشدون:

وإذا نظرت فرأيت أقرم مشرقاً

وما بعده؟ فيقول، أرغم الله أنفَ شائته: نشد: وإذا نظرت، وإذا لمست، وإذا طعنت، وإذا نزعت، على الخطاب. فيقول النابغة: قد يسوغ هذا، ولكن الأجود أن تجعلوه إخباراً عن المتكلم، لأن قولِي: زعم الهمام يؤدِّي معنى قولنا: قال الهمام، فهذا أسلم، إذ كان الملك إنما يحكي عن نفسه، وإذا جعلتموه على الخطاب قبح.

إن نسبتموه إلي فهو مُخز، وإن نسبتموه إلى النعمان فهو إزراء وانتقاص. فيقول: أيد الله الفضل بزيادة مدته: لله درك يا كوكب بني مرة. ولقد صحف عليك أهل العلم من الرواة، وكيف

١ - الآية ٢٩ الشورى

لي بأبوي عمرو: المازنيّ والشَّيبانيّ، وأبي عبيدة، وعبد الملك، وغيرهم من النّقلة لأسألهم: كيف يروون، وأنت شاهدٌ، لتعلم أنني لا أكذب ولا أخوض في الأعراض؟ فلا يقتر هذا القول في أذن أبي أمانة إلاّ والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر، من غير مشقةٍ نالتهم، ولا كلفةٍ في ذلك أصابتهم، فيسلمون بلطفٍ ورفقٍ. فيقول، أعلى الله قوله: من هذه الشّخص الفرديّة؟ فيقولون: نحن الرواة^(١) الذين شئت إحضارهم أنفاً فيقول: لا إله إلاّ الله مُكُوناً مُدُوناً، وسبحان الله باعثاً وارثاً، وتبارك الله قادراً لا غادراً!! كيف تروون أيها المرحومون قول النابغة في الدالية: وإذا نظرت، وإذا لمست، وإذا طعنت، وإذا نزعت، أفتحت التاء أم بضمّها؟ فيقولون: بفتحها. فيقول: هذا شيخنا أبو أمانة يختار الضّم، ويخبر أنّه حكاه عن النّعمان. فيقولون: هو كما جاء في الكتاب الكريم: «والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين»^(٢) فيقول، ثبت الله كلمته على التوفيق: مضى الكلام في هذا يا أبا أمانة، فأنشدنا قصيدتك التي أولّها:

أقامت بها في المربّع المتجرّدة ألما على الممطورة المتأبّدة
مضخّة بالمسك مخضوبه الشّوى بدراً ويقوت لها متقلّدة
كأنّ ثناياها، وما ذقت طعمها، مجاجه نحل في كميّت مبرّدة
ليقرّر بها النّعمان عيناً فإنّها له نعمة، في كلّ يوم مجدّدة

فيقول أبو أمانة: ما أذكر أنني سلكت هذا الروي قط. فيقول مولاي الشيخ، زين الله أيامه ببقائه: إن ذلك لعجب، فمن الذي تطوّع فنسبها إليك؟ فيقول: إنها لم تنسب إليّ على سبيل التّطوع، ولكن على معنى الغلط والتّوهّم، ولعلّها لرجل من بني ثعلبة بن سعد. فيقول نابغة بني جعدة: صحبني شاب في الجاهليّة ونحن نريد الحيرة، فأنشدني هذه القصيدة لنفسه، وذكر أنّه من ثعلبة بن عكابة، وصادف قدومه مرض النّعمان فلم يصل إليه. فيقول نابغة بني ذبيان: ما أجدر ذلك أن يكون!

ويقول الشيخ، كتب الله له مثوبة المتّقين، لنابغة بني جعدة: يا أبا ليلى، أنشدنا قصيدتك التي على الشين وتقول فيها:

ولقد أغدو بشرب أنف قبل أن يظهر في الأرض ربش

١ - بكر بن محمد بن عثمان بن حبيب المازني البصري النحوي المتوفى ٢٤٨هـ/٨٦٢م، كان إمام عصره في النحو والآداب، وكان المبرد يقول: ما بعد سيبويه أعلم بالنحو من المازني.

- إسحاق بن مرار الشيباني النحوي اللغوي (٩٦ - ٢٠٦هـ/٧١٦ - ٨٢١م)، كان من الأئمة الأعلام في فنون اللغة والشعر.

- أبو عبيدة معمر بن مثنى سبق ذكره، عبد الملك بن قريب هو الأصمعي.

مَعَنَا زِقٌ ۖ إِلَى سُمَّهَةٍ تَسِقُ الْآكَالَ مِنْ رَطْبٍ وَهَشٍّ
فَنَزَلْنَا بِمَلِيحٍ مُقْفِرٍ مَسَّهُ طَلٌّ مِنَ الدَّجَنِ وَرَشٍّ
وَلَدَيْنَا قَيْنَةٌ مُمِيعَةٌ صَخْمَةُ الْأُرْدَافِ مِنْ غَيْرِ نَفْسٍ
وَإِذَا نَحْنُ بِإِجْلِ نَافِرٍ وَنَعَامٍ خَيْطَةٍ مِثْلِ الْحَبَشِ
فَحَمَلْنَا مَا هِنَا يُنصِفُنَا فَوْقَ يَعْجُوبٍ مِنَ الْخَيْلِ أَجَشِّ
فَاتَانَا بِشَبُوبٍ نَاشِطٍ وَظَلِيمٍ مَعَهُ أُمَّ حُشَشِ
فَاشْتَوَيْنَا مِنْ غَرِيضٍ طَيِّبٍ غَيْرِ مَمْنُونٍ وَأَبْنَا بَعْجَشِ

فيقول نابغة بني جعدة: ما جعلت الشين قط رويًا، وفي هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قط: ربش، وسمهة، وخشش. فيقول مولاى الشيخ الأديب المغربى بالعلم: يا أبأ ليلى، لقد طال عهدك بألفاظ الفصحاء، وشغلك شراب ما جاءتك بمثله بابل ولا أذرعات حوران، وثنتك لحوم الطير الراتعة فى رياض الجنة، فنسيت ما كنت عرفت، ولا ملامة إذا نسيت ذلك ” إنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِتُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ“^(١)

أما ربش، فمن قولهم: أرض ربشاء إذا ظهرت فيها قطع من النبات وكأنها مقلوبة عن برشاء، وأما السُّمَّةُ فشبيهة بالسُّفرة تُتخذ من الخوص، وأما حُشَشُ فَإِنَّ أَبَا عَمْرٍو الشَّيبَانِيَّ ذَكَرَ فِي كِتَابِ الْخَاءِ أَنَّ الْخَشَشَ وَلَدُ الطَّبِيَّةِ. فكيف تنشء قولك:

وليس بمعروفٍ لنا أن نرُدَّها صحاحاً، ولا مُسْتَنْكَرًا أَنْ نُعَقِّرَا

أقول: ولا مُسْتَنْكَرًا، أم مُسْتَنْكَرٍ؟ فيقول الجعديُّ: بل مُسْتَنْكَرًا. فيقول الشيخ: فإن أنشد منشدًا: مستنكر، ما تصنع به؟ فيقول: أزجره وأنهره، نطق بأمر ليس عنده خبره. فيقول الشيخ، طوّل الله له أمد البقاء: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، ما أرى سيبويه إلا وهم فى هذا البيت، لأنَّ أبأ ليلى أدرك جاهليَّةً وإسلاماً، وعذى بالفصاحة غلاماً. وينثني إلى أعشى قيس فيقول: يا أبأ بصيرٍ أنشدنا قولك:

أمن قتلَةٍ بالأنقا ءِ دَارٍ غَيْرُ مَحْلُولَةٍ
وما صهباء من عانةٍ فى الذارع مَحْمُولَةٍ

بمَاءِ الْمُنْزَةِ الْغُرَا ۚ رَاحَتٌ، وَهِيَ مَشْمُولَةٌ
بِأَشْهُى مِنْكَ لِلظَّمْمَا ۚ نِ لَوْ أَنَّكَ مَبْدُولَةٌ

فَيَقُولُ أَعَشَى قَيْسٌ: مَا هَذِهِ مِمَّا صَدَرَ عَنِّي، وَإِنَّكَ مِنْذَ الْيَوْمِ لَمَوْلَعٌ بِالْمِنْحُولَاتِ.

الإوز المغني

ويمرُّ رُفٌّ من إوزِ الجنَّةِ، فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر لأمر، ومن شأن طير الجنَّة أن يتكلَّم، فيقول: ما شأنك؟ فيقلن: ألهمنا أن نسقط في هذه الروضة فنغني لمن فيها من الشاربيين. فيقول: على بركة الله القدير. فينتفضن، فيصرن جوارِي كواعب يرفلن في وشي الجنَّة، وبأيديهن المظاهر وأنواع ما يلتمس به الملاهي. فيعجب، وحق له العجب، وليس ذلك ببديع من قدرة الله جلَّت عظمته، وعزَّت كلمته، وسبَّغت على العالم نعمته، ووسعت كلَّ شيء رحمته، ووقعت بالكافر نقمته. فيقول لإحدهنَّ على سبيل الامتحان: اعْمَلِي على الثقل الأول قولَ أبي أمامة، وهو هذا القاعد:

أَمِنْ آل مَيَّةٍ رَائِحٌ أَوْ مُعْتَدٍ عَجْلَانِ ذَا زَادٍ وَغَيْرِ مُزَوِّدٍ؟

فتصنعه، فتجيء به مطرباً، وفي أعضاء السامع متسرّباً. ولو نُحِت صنمٌ من أحجار، أو دَفٌّ نُشِر عند النجَّار، ثمَّ سمعَ ذلك الصوت لرقص، وبه زاد السرور وما نقص، فَيَرِدُ عليه خاطر، تعجز عنه النظائر والبصائر، فيقول: هلاً جعلته من خفيف الثقل الأول! فتنبعث فيه بنغم لو سمعه الغريض بانسجام^(١)، لأقرَّ أن كلَّ ما ترنم به مريضٌ يشكو السقام. فإذا أجادته، وأعطته الصنعة وزادته، قال: عليك بالثقل الثاني، ما بين مثاليك والمثاني، فتأتي به على رويٍّ لو سمعه عبد الله بن جعفر الطيار، لقرن أغاني بديح^(٢) إلى هدير الجمل إذا رغا وثار. فإذا سمع ذلك قال: سبحان الله! كل ما زادت أتت بالعجائب، فتتسي المحزون حزنه، وتطرب من حاقت به المصائب، ويقل لها: صيري إلى خفيف الثقل الثاني، فإنك لمحسنة مجيدة، تكتمل بغنائك الأوقات السعيدة. فإذا فعلت ما أمر به، أتت بما يعجز عنه معبد، وأمرت الأنفس بأن تسعد، ثمَّ يقترح عليها: الرَّمْل والهَزَج، والثمانية من الألحان، تتمنى سماعها الآذان.

فإذا تيقن منها المهارة، لم يُخفِ انبهاره، وهلَّل وكبَّر، وأطال حمد ربِّه واعتبر. وقال: ويحك! ألم تكوني الساعة إوزة طائرة، والله خلقك مهدية لا حائرة؟ فمن أين لك هذي العلوم، بغناء يبهج

١ - عبد الملك أبو زيد، أحد رؤساء المغنين.

٢ - عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان من أجود أجواد العرب، وكان محباً للفناء، يرضى المغنين ويعطيهم، ويديح مولاه من أشهر المغنين وأمهرهم.

النفس ويُنسي الهموم؟ لو نشأت بين معبدٍ وابن سُريج^(١)، لما هجت السامع بهذا الهيج؟ فتقول: وما الذي رأيت من قدرة فتقول: وما الذي رأيت من قدرة ربك العظيم؟ إنَّك على سيفٍ بحرٍ هائل، لا يُدرك له ساحل، سبحان من يحيي العظام وهي رميم.

١ - معبد: كان أحسن الناس غناءً وأجودهم صنعةً وأقر له بالتفوق جميعُ المغنين. عبيد بن سريج مولى بني نوفل. كان منقطعاً إلى عبد الله بن جعفر، وكان أول من ضرب بالعود، وقيل: ما خلق الله بعد داود النبي أحسن صوتاً من ابن سريج، ولا صاغ الله أحداً أحزق بالغناء منه.

لبيد بن ربيعة

فبينما هم كذلك، إذ مرَّ شابٌّ في يده عصا من الياقوت كالصولجان، يحمله ملوك الإنس والجان، فيسلّم عليهم، فيقولون: من أنت؟ فيقول: أنا لبيد بن ربيعة بن مالك^(١). فيقولون: أكرمت أكرمت! لو قلت: لبيدٌ وسكت، لكفاك اسمك وإن صمت. فما لقيت من مغفرة ربك؟ فيقول: أنا بحمد الله في عيشٍ يُقصر عن وصفه الواصفون، ولديّ الخدم والحشم، لا أهرم ولا أضجر ولا أبرم. فيقول الشيخ: تبارك الملك القدوس، ومن بيده الأرواح والنفوس، كأنك لم تقل في الدار الفانية:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس: كيف لبيدٌ

ولم تفه بقولك:

فمتى أهلك فلا أخفله بجلي الآن من العيش بجل
من حياةٍ قد مللنا طولها وجديرٌ طول عيش أن يمل

فأنشدنا ميميّتك المعلّقة. فيقول: هيهات! إنني تركت الشعر في الدار الخادعة، ولن أعود إليه في الدار الآخرة، وقد عوّضني ربي ما هو خيرٌ وأبرّ. فيقول: أخبرني عن قولك:

ترأك أمكنةٍ إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

هل أردت ببعض معنى كل؟ فيقول لبيدٌ: كلا، إنمّا أردت نفسي، وهذا كما تقول للرجل: إذا ذهب مالك، أعطاك بعض الناس مالاً، وأنت تعني نفسك في الحقيقة، وظاهر الكلام واقع على كل إنسان، وعلى كل فرقة تكون بعضاً للناس. فيقول، لا فتية خصمه مفتحاً: أخبرني عن قولك: أو يرتبط، هل مقصدك: إذا لم أرضها أو يرتبط، فيكون: لم يرتبط؟ أم غرضك: أترك المنازل إذا لم أرضها، فيكون يرتبط كالمحمول على قولك: ترأك أمكنة؟ فيقول لبيدٌ: الوجه الأول أردت. فيقول، أعظم الله حظّه في الثواب: فما مغزاك في قولك:

١ - لبيد بن ربيعة بن مالك العامري المتوفى ٤١ هـ / ٦٦١ م. أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. أحد الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً. وسكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات.

وَصَبُوحٍ صَافِيَةٍ وَجَذْبِ كَرِينَةٍ بِمُوتَرٍ تَأْتَالُهُ إِبْهَامُهَا؟

فإن الناس يروون في هذا البيت على وجهين: منهم من ينشده تأتاله، يجعله تفتعلته، من آل الشيء يؤوله إذا ساسه، ومنهم من ينشد: تأتاله من الإتيان. فيقول لبيد: كلا الوجهين يحتمله البيت، فيقول، أرغم الله حاسده: إن أبا عليّ الفارسيّ كان يدعي، في هذا البيت، أنه مثل قولهم: استحي يستحي، على مذهب الخليل وسيبويه، لأنهما يريان أن قولهم: استحييت، إنما جاء على قولهم استحي، كما أن استقامت على استقام، وهذا مذهب ظريف، لأنه يعتقد أن تأتي مأخوذة من أوى، كأنه بني منها افتعل، ف قيل: اثتاي، فأعلت الواو كما تعل في قولنا: اعتان من العون، واقتال من القول. ثم قيل: اثتيت، فحذفت الألف، كما يقال: اقتلت. ثم قيل في المستقبل: يأتي، بال حذف، كما قيل: يستحي. فيقول لبيد:

”مُعْتَرِضٌ لِعَنْنٍ لَمْ يَعْغِنِهِ“^(١) الأمر أيسر مما ظن هذا المتكلم.

ويقول لبيد: سبحان الله يا أبا بصير، بعد إقرارك بما تعلم، غفر لك وجئت إلى جنة عدن؟ فيقول مولاي الشيخ متكلماً عن الأعشى: كأنك يا أبا عقيل تعني قوله:

وأشربُ بالريفِ حتّى يُقا لَ قد طالَ بالريفِ ما قد دَجَنُ
صريفية طيباً طعمها تُصَفِّقُ ما بينَ كُوبٍ ودنُ
وأقررتُ عيني من الغانيا تِ، إمّا نكاحاً وإمّا أزنُ

وقوله:

فبِتُ الخليفةَ من بعلِها وسيّدَ تيّا ومُستادها

وقوله:

فظَلِلْتُ أَرعاهَا وظلَّ يحوطُها حتّى دنوتُ إذِ الظلامُ دنا لها
فرَمَيْتُ غفلةَ عَينِهِ عن شاتِهِ فأصبْتُ حبةَ قلبِها وطحالها

ونحو ذلك مما روي عنه، فلا يعدو أحد أمرين: إما أن يكون قاله تحسیناً للكلام على مذهب الشعراء، وإما أن يكون فعله فغفر له « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن

١ - «معترض لعن لم يعنه» مثل يضرب للمعترض فيما ليس من شأنه. والعنن، شوط الدابة، وأول الكلام.

رَحْمَةَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(١). « إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا »^(٢)

ويخطر له، جعل الله الإحسانَ إليه موصولاً، وكلَّ قلب بوَدِّه مشغولاً، غناءَ القيان في القاهرة وبغداد. ويذكر تَغْنِيَهُنَّ بميميَّة المخبَّل السَّعدي^(٣) فتندفع تلك الجوارى التي نقلتهنَّ قدرة الخالق من هيئة الطيور التي لا تعقل، إلى هيئة حور العينِ جمالها يُذهل، يُلَحِّنُ قول المخبَّل السَّعدي:

ذَكَرَ الرَّبَّابَ وَذَكَرَهَا سَقْمٌ وَصَبَا، وَلَيْسَ لِمَنْ صَبَا عَزْمٌ
وَإِذَا أَلَمَّ خَيَالُهَا طَرِفَتْ عَيْنِي، فَمَاءٌ شَوْوْنَهَا سَجْمٌ
كَاللُّؤْلُؤِ الْمَسْجُورِ تُوبِعَ فِي سِلْكِ النُّظَامِ فِخَاتَهُ النَّظْمُ^(٤)

فلا يمرُّ حرف ولا حركة، إلا ويوقع مسرَّةً لو قيسَت بمسرات أهل الدار الفانية، منذ خلق الله آدم إلى أن طوى دُرَيْتَهُ من الأرض، لكانت الزائدة على ذلك، زيادة البحر المُتموِّج على دَمعة طفل، والجبيل الشامخ على حبة تراب في وادٍ أو سهل. ويقول لندمائهُ: أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى قَوْلِ السَّعْدِيِّ:

وَتَقُولُ عَاذِلْتِي وَلَيْسَ لَهَا بِيَعْدٍ، وَلَا مَا بَعْدَهُ عِلْمٌ
إِنَّ الثَّوَاءَ هُوَ الْخُلُودُ، وَإِ نَّ الْمَرْءَ يَكْرُبُ يَوْمَهُ الْعُدْمُ
وَلَسِنَّ بَنِيَّتِ لِي الْمُسَقَّرَ فِي عَنَقَاءَ تَقْصُرُ دُونَهَا الْعُصْمُ
لَتُنْقَبَنَّ عَنِّي الْمَنِيَّةُ إِ نَّ اللَّهُ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمٌ

فيقول: إِنَّهُ الْمَسْكِينُ، قَالَ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ، وَبَنُو آدَمَ فِي دَارِ الْمِحْنِ الشَّدَادِ، يَقْبِضُونَ مِنْهَا عَلَى شَوْكِ الْقِتَادِ، وَالْقِتَادُ شَجَرٌ شَوْكُهُ كَالإِبْرِ الْمَسْنُونَةِ؛ وَالْوَالِدَةُ تَخَافُ الْمَنِيَّةَ عَلَى الْوَلَدِ، وَلَا يَزَالُ رُغْبُهَا فِي قَلْبِهَا يَتَّقِدُ، وَالْفَقْرُ يُرْهَبُ وَيُتَّقَى، وَالْمَالُ يُطْلَبُ وَيُسْتَبْقَى؛ وَالْجُوعُ مَوْجُودٌ وَالظَّمَاءُ، وَالْعَمَى مَعْرُوفٌ وَالْحَفَاءُ، وَلَمْ يُجْذِبْ لِلظُّلْمِ عِنَانٌ، وَلَا سَكَنَتْ بِالْعَفْوِ الْجَنَانُ. فِ ” الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنْ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نِصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ “^(٥).

١ - الآية ٥٢ سورة الزمر.

٢ - الآية ١١٦ سورة النساء.

٣ - المخبَّل السَّعدي: زبيح بن مالك بن ربيعة السَّعدي من تميم المتوفى ١٢ هـ / ٦٢٣ م. شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، عُبر طويلاً ومات في خلافة عمر أو عثمان رضي الله عنهما. قال الجَمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء: له شعر كثير جيد.

٤ - ورد البيت: كَاللُّؤْلُؤِ الْمَسْجُورِ أَغْفَلَ فِي.

٥ - الأيتان ٣٥ و٣٤ سورة فاطر

فتبارك الله القُدُوس! نقلَ هؤلاء المُسمَّعات من زيِّ ربَّات الجناح ، إلى زيِّ ربَّات الأكفال والوشاح، ثمَّ ألهمهنَّ بالحكمة حفظ أشعارٍ لم تمرر قبل بمسامعهنَّ، فجئن بها متقنةً، محمولة على الطرائق مُلحَّنة، مصيبة في لحن الغناء، منزَّهة عن لحن الثقلاء. ولقد كانت الجارية في الدار العاجلة، إذا تفرَّستَ فيها الذكاء، وأحضرت لها المعلِّمة لتلقي إليها ما تعرف من ثقيلٍ وخفيفٍ من الأوزان، وتعلمها ما تعرف من الألحان، تقيم معها الشَّهر والشهرين ، قبل أن تلقنَّها بيتاً

من الغزل أو بيتين، ثم تُعطى المائة أو المائتين. فسبحان القادر على كل صعب من الأمور، هو الخالق المبدع المصورَّ الغفور.

خلاف بين النابغة والأعشى

ويقول نابغة بني جعدة، وهو جالس يستمع: يا أبا بصير أهذه الرباب التي ذكرها السعدي، هي ربابك التي ذكرتها في قولك:

يُعاصي العَوَازِلِ طَلَّقُ اليَدِ نِ يُعْطِي الجَزِيلَ وَيُرْخِي الإِزَارَا
فَمَا نَطَقَ الدِّيْكَ حَتَّى مَلَأَ تُ كُوبَ الرِّبَابِ لَهُ فَاسْتَدَارَا
إِذَا انْكَبَّ أَزْهَرُ بَيْنَ السُّقَاةِ تَرَامُوا بِهِ غَرَبًا أَوْ نُضَارَا

فيقول أبو بصير: قد طال عمرُك يا أبا ليلى، وأحسبك أصابك الخرف، فبقيت على خرفك إلى اليوم! أما علمت أن اللواتي يُسمَّينَ بالربابِ أكثر من أن نُحصيهن؟ أتظن أن الرباب هذه، هي التي ذكرها القائل:

مَا بَالُ قَوْمِكَ يَا رَبَابَ خُزْرًا كَأَنَّهُمْ غِضَابُ
غَارُوا عَلَيْكَ، وَكَيْفَ ذَا كَ وَدَوْنَكَ الحَرْقُ اليَبَابُ

أو التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

دَارٌ لِهِنْدٍ وَالرِّبَابِ وَفَرَّتَنِي وَلَمَيْسَ قَبْلَ حَوَادِثِ الأَيَامِ
وَلَعَلَّ أُمَّهَا أُمُّ الرِّبَابِ المَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ:

وجارتها أمُّ الربابِ بمأسل^(١)

فيقول نابغة بني جعدة: أتكلَّمُني بمثل هذا الكلام يا خليع بني ضبيعة، وقد متَّ كافرًا، وأقررت على نفسك بالفاحشة، وأنا لقيتُ النبي، صلى الله عليه وسلّم، فأنشدته قصيدتي التي أقول فيها:

وإنا لنبغي فوق ذلك مَطْهَرَا^(٢) بَلْغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَسِنَاءَنَا

١ - كَدَّابِكُ مِنْ أُمِّ الحَوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتْهَا أُمُّ الرِّبَابِ بِمَاسَلِ
٢ - روي البيت:

بَلْغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجَدُّوْنَا وَإِنَّا لَنرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَطْهَرَا

فقال: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقلت: إلى الجنة بك يا رسول الله! فقال: لا يفضض الله فاك. أغرَّك أن عدَّك بعض الجهال رابع الشعراء الأربعة؟^(١) وكذب مفضلُّك، وإنِّي لأطولُ منك نفساً وأكثرُ تصرفاً، ولقد بلغت بعدد البيوت ما لم يبلغه أحد من العرب قبلي، وأنت لاه بتلك التي سميتها عفارة، تفتري على حرائر قومك. وإن صدقت فحزياً لك ولأصحابك! ولقد أصابت زوجتك في تخليها عنك، عاشرت منك النَّابح، عَشِيَ فطاف الحواضر والبوادي على الجيف المنتنة، وحرص على نبش القبور المنفردة.

فيغضب أبو بصير فيقول: أتقول هذا وإنَّ بيتاً ممَّا بنيت ليعدل مائة من بنائك؟ وإن أطلت في مقالتك وأسهبته، فإنَّ المسهب كحاطب الليل. وإنِّي لفي الصميم من ربيعة، وإنك لمن بني جعدة، وهل لجعدة إلا المعاني الشنيعة؟ أتعيرني بمدح الملوك؟ ولو قدرت يا جاهل على ذلك لهجرت إليه أهلك وولدك، ولكنك خلقت جباناً أحمق، لا تجرؤ على الإسراء في الظلماء، ولا قطع البلاد في الحر والرمضاء. وذكرت لي طلاق امرأتي الهزانية، فما أدراك أنها لم تفارق وهي تكظم الغيظ والكمَد؟ والطلاق ليس بمنكر على أحد، لا للعامة ولا للملوك.

فيقول الجعديُّ: اسكت أيها الضالُّ بن الضالِّ، فأقسم إنَّ دخولك الجنة من المنكرات، ولكنَّ الأفضية جرت كما شاء الله! وحقُّك أن تكون في الدرك الأسفل من النَّار، ولقد رمي فيها من هو خيرُ منك، ولو جاز الغلطُ على ربِّ العزة، لقلت: إنَّه غلط بك! ألسن القائل:

فدخلتُ إذ نامَ الرُّقي	بُ، فبتُّ دون ثيابها
حتى إذا ما استرسلتُ	للنوم، بَعْدَ لِعابها
قسَّمْتُها نصفين كُ	لُ مُسَوِّدٍ يُرمى بها
فثنيتُ جيدَ غريرة	ولمستُ بطنَ حِقابها
كالْحُقَّةِ الصَّفراءِ صا	ك عيرها يَمَلابها
وإذا لها تَأْمُورَةٌ	مَرفوعَةٌ لشرابها

واستقلت بني جعدة، وليوم من أيامهم يرجح بمساعي قومك. وزعمتني جباناً وكذبت! لأنَّ أشجع منك ومن أبيك، وأصبر على السير في الفيافي والظلمة مُحَدقة، وأشدُّ إيغالاً تحت الشمس المحرقة.

١ - ثمة من يجعل الأعشى رابع طبقة امرئ القيس وزهير والنابعة.

ويشب نابغة بني جعدة على أبي بصير فيضربه بكوز من ذهب. فيقول: أضح الله وعلى يديه: لا عربة في الجنان، إنما يعرف ذلك في الدار الفانية بين السفلة والرّاع، وإنك يا أبا ليلى لم تُسرِع، وقد روي في الأخبار أن رجلاً صاح بالبصرة: يا آل قيس! فجاء النابغة الجعديُّ بعصاه له، فأخذته شرطة أبي موسى الأشعري^(١) فجلدوه لأنّ النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، قال: ”من تعزّى بعزاء الجاهليّة فليس منّا“. ولولا أنّ في الكتاب الكريم: ” لا يُصدّعونَ عنها ولا ينزفون“^(٢) لظنناك أصابك نَزَف في عقلك. فأما أبو بصيرٍ فما شرب إلاّ اللبن والعسل، وإنّه لوقور في المجلس، وإنّما مثله معنا مثل أبي نواس في قوله:

أيُّها العاذلانِ في الرّاحِ لُوما لا أذوقُ المُدامَ إلاّ شَمِيمَا
نالني بالعِتابِ فيها إمامٌ لا أرى لي خلافةَ مُستقيما
إنّ حظّي منها إذا هي دارت أن أراها وأن أشمّ النسيما
فاصرفاها إلى سِوايَ فإني لستُ إلا على الحديثِ نديما
فكأنّي وما أحسنُ منها قعدّي يُحسّنُ التّحكيما
لم يُطقْ حملَه السّلاحُ إلى الحرِّ ب، فأوصى المطيقُ ألاّ يُقيما

فيقول نابغة بني جعدة: قد كان الناس في أيام الدنيا الخادعة يظهر عنهم السّفهُ بشرب اللّبن، لاسيّما إذا كانوا أرقاءً لثاماً، كما قال الراجز:

يا ابنَ هشامِ أهلك النّاسَ اللّبنُ فكلّهم يغدو بسيفٍ وقرنُ

وقال آخر:

ما دهرُ ضبّة فاعلمْ نَحْتُ أثلتنا وإنّما هاجَ من جُهاها اللّبنُ

وقيل لبعضهم: متى يُخاف شرُّ بني فلان؟ قال: إذا ألبنوا. فيريد، بلّغهُ الله إرادته، أن يُصلح بين النّدماء، فيقول: يجب أن يُحذَرَ من مَلِكٍ يعبرُ فيرى هذا المجلس، فيرفُحُ حديثه إلى الجبار الأعظم، فلا يجرُّ ذلك إلاّ ما تكرهان، واستغنى ربُّنا أن تُرفَعَ الأخبار إليه، ولكن جرى مجرى الحفظة في الدار العاجلة، أما علمتما أن آدم خرج من الجنّة بذنبٍ حقير، فغير آمنٍ من ولدِه آدم أن يجري

١ - أبو موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري اليماني، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على زييد وعدن. وولي الكوفة والبصرة لعمر وحفظ الكثير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان من أجلاء الصحابة. توفي سنة ٤٤هـ / ٦٦٥م.

٢ - الآية ١٩ سورة الواقعة.

عليه مثل ذلك. فسألتك يا أبا بصير بالله هل يخطرُ لك تمنِّي المدام؟ فيقول: كلا والله! إنها عندي لمثلُ الحامضِ المرِّ لا يخطرُ ذكرها بالخلِّد. فالحمد لله الذي أغنانني عنها بالعسل، فما أشتهيها أبد الدهر.

وينهض نابغة بني جعدة مغضباً، فيكرهه، جنبه الله المكاره، انصرافه على تلك الحال، فيقول: يا أبا ليلى، إنَّ الله، جَلَّتْ قدرته، منَّ علينا بهؤلاء الحُورِ العِينِ اللواتي حوَّلهنَّ عن خَلْقِ الإوز، فاختر لك واحدةً منهنَّ، فلتذهبْ معك إلى منزلك، تروي لك أنباءَ الزمان، وتُسمِعك ضروبَ الألحان. فيقول لبيد بن ربيعة: إن أخذ أبو ليلى قينةً، وأخذ غيره مثلها، انتشر الخبر في الجنة، فلا يُؤمن أن يُسمَّى فاعلو ذلك أزواجِ الإوز، فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان.

حسان بن ثابت

ويمرُّ حَسَّانُ بنُ ثابتٍ^(١) فقولون: أهلاً أبا عبد الرحمن، ألا تجلس معنا ساعة؟ فإذا جلس إليهم قالوا: أين هذه المشروبة من خمرك التي ذكرتها في قولك:

كَأَنَّ سَبِيئَةَ مَنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ
عَلَى أَنْبِيَاهِهَا أَوْ طَعْمَ غَضٍّ مِنْ التَّفْجَاحِ هَصَّرَهُ اجْتِنَاءٌ
عَلَى فِيهَا إِذَا مَا اللَّيْلُ قَلَّتْ كَوَاكِبُهُ، وَمَالَ بِهَا الْغِطَاءُ
إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا فَهِنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ

ويحك! أما استحييت أن تذكر مثل هذا في مدحتك رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟ فيقول: إنه كان أسمح ممَّا تظنون، ولم أقل إلا خيراً، لم أذكر أنني شربت خمراً، ولا فعلت ممَّا نهى عنه أمراً، وإنما وصفت ريقَ امرأة، يجوز أن يكون حلالاً لي، ويمكن أن أقوله على الظنِّ. وقد شفَع صلى الله عليه وسلم في أبي بصيرٍ بعد ما تهكَّم في مواطن كثيرة، وما سُمِعَ بأكرم منه صلى الله عليه وسلم: لقد أوغلت في حديث الإفك فجلدني مع مسطح، ثم وهب لي أختَ مارية فولدت لي عبد الرحمن، وهي خالة ولده إبراهيم.

وهو، زَيْنُ الله الآدَابِ ببقائه، يخطرُ في ضميره أشياء، يريد أن يذكرها لحسان وغيره، ثم يخافُ ألا يستحسنوا ما طلب، فيتركها إكراماً للجليس، مثل قول حسان: "يكون مزاجها عسل وماء" يعرض له أن يقول: كيف قلت يا أبا عبد الرحمن: أيكون مزاجها عسل وماء، أم مزاجها عسلاً وماء، أم مزاجها عسلٌ وماءٌ على الابتداء والخبر؟ وقوله:

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ، سِوَاءُ

١ - حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، توفي ٥٤ هـ / ٦٧٣ م شاعر النبي (صلى الله عليه وسلم) وأحد المخضرمين، لم يشهد مع النبي (صلى الله عليه وسلم) مشهداً لعله أصابته. توفي في المدينة.

يذهب بعضهم إلى "أن من" محذوفة من قولك: ويمدحُه وينصُرُه، على أن ما بعدها صلةٌ لها. وقال قوم: حُذِفَت على أنها نكرة، وجُعِل ما بعدها وصفاً لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف. ويقول قائل من القوم: كيف جُبْنُكَ يا أبا عبد الرَّحْمَنِ؟ فيقول: ألي يقال هذا وقومي أشجعُ العرب؟ أراد ستَّةً منهم^(١) أن يميلوا على أهل الموسم بأسيافهم،

وأجاروا النبيَّ، صلى الله عليه وسلّم، على أن يحاربوا معه كلَّ عنودٍ مُكابر، فعادتهم ربيعة ومضر وجميع العرب، وأضمرُوا لهم الحقد والبغضاء، وإن ظهر منِّي تحرُّزٌ في بعض المواطن، فإنَّما ذلك على طريقة الحزم، كما جاء في الكتاب الكريم: " وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ."^(٢)

١ - يشير إلى الذين بايعوا بيعة العقبة الأولى ستة من الأوس وستة من الخزرج

٢ - الآية ١٦ الأنفال

عوران قيس

ويفترق أهل ذلك المجلس، بعد أن أقاموا فيه كعمر الدنيا أضعافاً كثيرة، فبينما هو يطوف في رياض الجنة، لقيه خمسة رجال على خمس من النوق، فيقول: ما رأيت أحسن من عيونكم في أهل الجنان! فمن أنتم خلد الله عليكم النعيم؟ فيقولون: نحن عوران قيس: تميم بن مقبل العجلاني وعمرو بن أحمر الباهلي والشماخ معقل بن ضرار، أحد بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، وراعي الإبل، عبيد بن الحسين النميري، وحميد بن ثور الهلالي^(١).

فيقول للشماخ بن ضرار: لقد كان في نفسي أشياء من قصيدتك التي على الزاي، والأخرى التي على الجيم، فأنشدنيهما لا زلت مخلصاً كريماً. فيقول: لقد شغلني عنهما النعيم الدائم فما أذكر منهما بيتاً واحداً. فيقول لفرط حبه الأدب وإيثاره الإشادة بالفضل: لقد غفلت أيها المؤمن وأضعت! أما علمت أن قصيدتك أنفع لك من ابنتيك؟ ذكرت بهما في المواطن، وشهرت عند راكب السفر والقاطن، وإن القصيدة من قصائد النابغة، لأنفع له من ابنته عقر، ولعل تلك عابته، وما زانتها، وأصابها ما كان يصيب بعض النساء في الجاهلية، وبعد أن كانت حرة صارت سبيّة. وإن شئت أن أنشدك قصيدتيك، فإن ذلك ليس بصعب عليّ. فيقول: أنشدني، زادك الله من نعيمه، فينشد:

عفا من سلمي بطن قو فعالز فذات العضا فالمشرفات النواشر

فيجده بها غير عليم، ويسأله عن أشياء منها، فيلقاه بها غير بصير، فيقول الشماخ: شغلنتي لذاذا الخلود في النعيم عن تعهد هذه المنكرات: ”إن المتقين في ظلال وعيون، وفواكه ممّا يشتهون، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون“^(٢)، إنما كنت أقول هذا الشعر، وأنا آمل أن أجزى بها ناقة، أو أعطى مؤونة عيالي سنة، كما قال الراجز:

لو شاك من رأسك عظم يابس لآل منك جمل حمارس

١ - تميم بن أبي بن مقبل من بني العجلان من عامر (٧٠ ق. هـ - ٣٧ هـ / ٥٥٤ - ٦٥٧ م) شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم فكان يبكي أهل الجاهلية، وعمرو بن أحمر سبقت ترجمته. الشماخ لقب معقل بن ضرار الذبياني الغطفاني المتوفى ٢٢ هـ / ٦٤٢ م، شاعر مخضرم. عبيد بن حنينة بن معاوية النميري المتوفى ٩٠ هـ / ٧٠٨ م من فحول الشعراء المحدثين، ولقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل.

حميد بن ثور بن حزن الهلالي المتوفى ٣٠ هـ / ٦٥٠ م، شاعر مخضرم، أسلم ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم.
٢ - الآيات ٤١-٤٣ سورة المرسلات.

سَوَىٰ عَلَيْكَ الْكَيْلَ شَيْخٌ بَائِسٌ مِثْلَ الْحَصَىٰ يَعْجَبُ مِنْهُ اللَّامِسُ

وأنا الآن بفضل من الله أغرف بكؤوس الذهب من اللبن، فتارة ألبان الإبل، وتارة البقر، وإن شئت لبِن الضأن فإنه كثير جمًّا، وكذلك لبن المعيز، وإن اشتهيت لبِن الأطباء، فربَّ نهر منه كأنه دجلة أو الفرات. ولقد أراني في دار الشَّقْوَةِ أعصر بكلِّ ما أوتيت من عزم ضُروع شياهي، فلا يمتلئُ منه القدح الكبير. فيقول، لا زال قَوَّالًا للخير: فأين عمرو بنُ أحمر؟ فيقول عمرو: ها أنا ذا. فيقول: أنشدني قولك:

بَانَ الشَّبَابُ وَأَخْلَفَ الْعَمْرُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ وَالْدَهْرُ

وقد اختلف الناس في تفسير العَمْر، فقيل: إنك أردت البقاء، وقالوا إن العَمْرَ والعُمْرَ سواء، وقيل: إنك أردت الواحدَ من عُمور الأسنان، وهو اللِّحْم الذي بينها. فيقول عمرو متمثلاً:

خُذَا وَجَهَ هَرَشَى أَوْ قَفَاها فَإِنَّهُ كِلا جَانِبِي هَرَشَى لَهُنَّ طَرِيقُ

ولم تترك في أهوال القيامة قوةً للانشاد، أما سمعت الآية: ”يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ“^(١) وقد شهدت الموقف، فأعجب لك إذ بقي معك شيء من روايتك! فيقول الشيخ: إني كنت أخلص الدعاء في أعقاب الصلوات- قبل أن أنتقل من تلك الدار- أن يمتعني الله بأدبي في الدنيا والآخرة، فأجابني إلى ما سألت وهو الحميد المجيد:

ولقد يعجبني قولك:

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَمَا يُفَزِّعُنِي خَوْفُ أَحَادِرُهُ وَلَا دُعْرُ
رُودُ الشَّبَابِ، كَأَنِّي عُضْنُ بِحَرَامِ مَكَّةَ، نَاعِمٌ نَضْرُ
كَشْرَابِ قَيْلٍ عَنِ مَطِيَّتِهِ وَلَكُلِّ أَمْرٍ واقِعٍ قَدْرُ
مَدِّ النَّهَارِ لَهُ، وَطَالَ عَلِيَّ هِ اللَّيْلِ وَاسْتَنْعَتْ بِهِ الْخَمْرُ
وَمُسْفَةً دَهْمَاءَ دَاجِنَةً رَكَدَتْ وَأَسْبَلَتْ دُونَهَا السَّنْرُ
وَجَرَادَتَانِ تُغْنِيَانِهِمْ وَعَلَيْهِمَا الْيَاقُوتُ وَالشَّدْرُ^(٢)

١ - الآية ٢ سورة الحج

٢ - الجرادتان: جارتان قيل إنهما أول من غنى من العرب العاربة في عهد عاد، وكان لعبد الله بن جدعان جارتان مغنيتان يقال لهما الجرادتان، وعبد الله بن جدعان من أجداد الجاهلية، وهي داره عُقِدَ حلف الفضول، وروي الشطر الثاني: وتلاً لأل المرجان والشدر.

وَمَجَلَجَلٌ دَانٍ زَبْرَجَدُهُ حَدِبٌ كَمَا يَتَحَدَّبُ الدُّبْرُ
وَنَانَ حَنَانٍ، بَيْنَهُمَا وَتَرٌ أَجَشُّ غَنَاؤُهُ زَمْرُ
وَبَعِيرُهُمْ سَاحٍ بِجَرَّتِهِ لَمْ يُؤْذِهِ غَرَّتٌ وَلَا نَفْرُ
فَإِذَا تَجَرَّرَ شَقٌّ بَازِلُهُ وَإِذَا أَصَاحَ فَإِنَّهُ بِكْرُ
خَلُّوا طَرِيقَ الدَّيْدَبُونِ فَقَدْ وَلَى الصِّبَا وَتَفَاوَتَ النَّجْرُ

فما أردت بقولك: كشرابِ قَيْلٍ؟ الواحدُ من الأقيال؟ أم قَيْلٌ بَنُ عَيْتِرٍ من عاد؟ فيقول عمرو: الوجهان صحيحان. فيقول الشيخ، بلغه الله الأمانى: ممّا يدل على أن المراد قَيْلٌ بَنُ عَيْتِرٍ، قولك: وجرادتان تغنيانهم، لأن الجرادتين، فيما قيل، مغنيتان غنتا لوفد عاد عند الجرهمي بمكة، فشغلا عن الطواف بالبيت وسؤال الله، سبحانه وتعالى، فيما قصدوا له، فهلكت عادٌ وهم لاهون. ولقد وجدت في بعض كتب الأغاني صوتاً يقال غنّته الجرادتان، فدهشت لذلك، والصوت:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ المَصِيفُ فَبَطْنُ عَرْدَةَ فَالْغَرِيفُ
هَلْ تُبَلِّغَنِي دِيَارَ قَوْمِي مَهْرِيَّةً سَيْرُهَا تَلْقِيفُ
يَا أُمَّ عُثْمَانَ نُؤَلِّينِي هَلْ يَنْفَعُ النَّائِلَ الطَّفِيفُ

وهذا شعر على غرار: "أقفر من أهله مَلُحُوبٌ"^(١) ومن الذي نُقِلَ إلى المغنين في عصر هارون وبعده أن هذا الشعر غنّته الجرادتان؟ إن ذلك لصعب التصديق، وما أجدره أن يكون مكذوباً. وقولك: وَمُسْفَتَةٌ دَهْمَاءُ دَاجِنَةٌ، ما أردت به؟ وما أردت بقولك: وَمَجَلَجَلٌ دَانٍ زَبْرَجَدُهُ؟ فيقول ابن أحمر: أما ذكر الجرادتين فلا يدل على أنني قصدت قَيْلٌ بَنُ عَيْتِرٍ وإن كان في الوفد الذي غنّته الجرادتان، لأن العرب صارت تسمي كل قَيْنَةٍ مغنيةٍ جرادةً، حملاً على أن قينة

في الدهر الأول كانت تدعى الجرادة. قال الشاعر:

تُغْنِينَا الجِرَادُ وَنَحْنُ شَرِبُّ نَعْلُ الرَّاحِ خَالِطُهَا المَشُورُ

وأما المُسْفَتَةُ الدَّهْمَاءُ، فإنها القدر. وأما المَجَلَجَلُ الداني زَبْرَجَدُهُ، فهو العود، وزَبْرَجَدُهُ ما حسن منه، أما تسمع القائل يسمي ما تلوّن من السحاب زَبْرَجَاءً؟ ومن روى: مُجَلَجِلٌ، فقد أراد السحاب.

١ - مطلع قصيدة لعبيد بن الأبرص، والبيت كاملاً:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلُحُوبٌ فَالْقَطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

فيعجب الشيخ من هذه المقالة، ويقول: كأنك أيها الرجل وأنت عربي صميم يُستشهد
 بألفاظك وشعرك، تزعم أن الزَّبْرَجَدَ من الزُّبْرِجِ، فهذا يقوِّي ما ادعاه صاحب كتاب "العين"
 الخليل بن أحمد الفراهيدي من أن الدال زائدة في قولهم: صَلَخَدَمَ، وأهل البصرة ينفرون من
 ذلك. فيُلهم الله القادرُ ابنَ أحمر علم التصريف، ليُريَ الشيخُ برهان القدرة، فيقول ابن أحمر: وماذا
 الذي أنكرت أن يكون الزُّبْرِجِ من لفظ الزَّبْرَجَدِ؟ كأنَّ فعلاً صُرِّفَ من الزُّبْرِجِ، فلم يُمكن أن يُؤتى
 بحروفه كلِّها، إذا كانت الأفعال لا يكون فيها خمسة أحرفٍ من الأصول، فقول: يُزْبْرِجِ، ثم بُني
 من ذلك الفعل اسمٌ فليل: زِبْرِجِ، ألا ترى أنَّهم إذا صَغَرُوا فَرَزَدَقًا قالوا: فُرَيْزِدِ، وإذا جَمَعُوهُ قالوا:
 قالوا: فَرَازِدِ؟ وليس ذلك بدليل على أن القاف زائدة. فيقول، خلد الله ألفاظه في ديوان الأدب:
 كأنك زَعَمْتَ أَنَّ فعلاً أَخَذَ من الزُّبْرِجِ، ثم بُنيَ منه الزُّبْرِجِ، ومعنى كلامك هذا، أن تكون الأفعالُ
 قبل الأسماء. فيقول ابن أحمر: لا يُلزمُني ذلك، لأنِّي جعلتُ زِبْرَجَدًا أصلاً، فيجوز أن يُحدَثَ منه
 فروع ليس حكمها كحكم الأصول. ألا ترى أنَّهم يقولون: إنَّ الفعلَ مشتقٌّ من المصدر؟ فهذا أصل، ثم
 يقولون: الصِّفَةُ الجاريةُ على الفعل، يعنون: الضارب والكريم وما كان نحوهما، فليس قولهم هذه
 المقالة بدليل على أن الصِّفَةَ مُشتقةٌ من الفعل، إذا كانت اسماً، وحقُّ الأسماء أن تكون قبل الأفعال،
 وإنما يرادُ أنَّه يُنطقُ بالفعل منها كثيراً. ولمُدَّع أن يقول: الفعل مشتقٌّ من المصدر فهو فرع منه،
 والصِّفَةُ فرع آخر، فيجوز أن يتقدَّم أحدُ الفرعين على صاحبه. ثمَّ يذكرُ له أشياءً من شعره، فيجده
 عاجزاً عن الجواب، إن نطق لم يأت بالصواب.

تميم بن أبي

فيقول: أيكم تميم بن أبي^(١)؟ فيقول رجل منهم: ها أنا ذا. فيقول أخبرني عن قولك:

يا دار سلمى خلاء لا أكلفها إلا المرانة حتى تعرف الدنيا

ما أردت بالمرانة؟ فقد قيل: إنك أردت اسم امرأة، وقيل: هي اسم ناقة، وقيل: العادة. فيقول تميم: والله ما دخلت من باب الفردوس ومعني كلمة من الشعر ولا الرجز، وذلك أنني حوسبت حساباً شديداً، وقيل لي: كنت فيمن قاتل علي بن أبي طالب. وانبرى لي النجاشي الحارثي^(٢)، فما أفلت من اللهب حتى لفحتني ناره.

وإن حفظك لغريب منك، كأنك لم تشهد أهوال الحساب، ومنادي الحشر يقول: أين فلان بن فلان؟ والجابرة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم، والملكات ذوات التيجان يصرن من الوقود، فتأخذ في شعورهن وأجسادهن، فيصحن: هل من فداء؟ هل من عذر يقام؟ والشباب من أولاد الأكاسرة يصرخون في سلاسل النار ويقولون: نحن أصحاب الكنوز، نحن أرباب الفانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائع وأيادٍ فلا فادي ولا معين!

فهتف داع من قبل العرش: ”أولم نعمركم ما يتذكركم فيه من تذكرة وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير“^(٣) لقد جاءكم الرسل في زمان بعد زمان، فبينوا لكم طريق الأمان، وقيل لكم في الكتاب: ”واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون“^(٤) فكنتم في لذات الدنيا الساخرة واغلين، وعن أعمال الآخرة متشاغلين، فالآن ظهر الحق، لا ظلم اليوم إن الله قد حكم بين العباد.

١ - سبقت الإشارة إليه

٢ - النجاشي الحارثي: قيس بن عمرو بن مالك بن الحارث بن كعب بن كهلان، توفي ٤٩ هـ / ٦٦٩ م. شاعر هجاء مخضرم اشتهر في الجاهلية والإسلام وأصله من نجران باليمن انتقل إلى الحجاز واستقر في الكوفة وهجا أهلها. وكانت أمه من الحبشة فنسب إليها.

٣ - الآية ٢٧ سورة فاطر

٤ - الآية ٢٨١ سورة البقرة

قصة دخول ابن القارح الجنة

فيقول، أنطقه الله بكل فضلٍ، إن شاء ربُّه أن يقول: أنا أقصُّ عليك قصتي:

لَمَّا نهضتُ أنتفضُ من القبر، وحَضرتُ حَرَصَاتِ القيامة، والحَرَصَاتِ مثل العَرَصَاتِ، أَبَدِلتُ الحاءَ بالعين، وهي الأراضِي بين البيوت لا بناء فيها، ذَكَرتُ الآيَةَ الكريمة: «تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه في يومٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خمسينَ أَلْفَ سنةٍ، فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا»^(١) فطال علي الأمد، واشتد الظمُّ والوَمَدُ، والوَمَدُ: شِدَّةُ الحَرِّ وسكُونُ الرِّيحِ، كما قال أخوكم النَّميري:

كَأَنَّ بَيْضَ نَعَامٍ فِي مَلَا حِفْهَا إِذَا اجْتَلَاهُنَّ قَيْظٌ لَيْلُهُ وَمَدٌ^(٢)

وأنا رجلٌ مهيفٌ أي سريعُ العطش، ففَكَرتُ، فرأيتُ أمرًا لا قُدرةَ لمثلي عليه. ولقيني المَلَكُ المُوَكَّلُ بي، وأظهرَ لي ما كتب من فعل الخير، فوجدتُ حسناتي قليلةً كالنُفْأِ في العام الأَرْمَلِ، والنُفْأُ الرِّياضُ، والأرملُ قليلُ المطر. إلا أن التوبةَ في آخرها كأنها مصباحُ راهبٍ جليلٍ، رُفِعَ لسالكِ السبيل. فلَمَّا أَقمتُ في الموقفِ زُهَاءَ شهرٍ أو شهرين، وخِفتُ في عَرقي من غرقي، زَيْنتُ لي النفسُ الكاذبةُ أن أنظُمَ أبياتًا في رضوان، خازنِ الجنان، عملتها في وزن:

قِفَا نَبِكُ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَعِرْفَانٍ^(٣)

ووسمَّتها برضوان. ثمَّ زاحمتُ الناسَ، حتى وقفتُ منه بحيثُ يسمَعُ ويرى، فما أعارني انتباهًا، ولا أَظنُّه اهتم بما أقول. فانقضتُ برهةً، نحو عشرةِ أيامٍ من أَيَّامِ الفانيةِ، ثم عملتُ أبياتًا في وزن:

بَانَ الخَلِيطُ وَلَوْ طُوِّعَتْ مَا بَانَ وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الوَصْلِ أَقْرَانًا^(٤)

ووسمَّتها برضوان، ثمَّ دنوتُ منه، ففعلتُ كفعلي الأَوَّلِ، فكأنِّي أَحركَ الأطوادَ، وألتمسُ من

١ - الأيتان ٤٥ سورة المعارج

٢ - الراعي النَّميري: سبق شرحه، وورد الشطر الثاني: جلاه طلٌ وقبظٌ ليله ومَدٌ

٣ - على وزن مطلع معلقة امرئ القيس:

قِفَا نَبِكُ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقَطِ اللّوِي بَيْنَ السَّخُولِ فَخَوَمِلٍ

٤ - مطلع قصيدة لجرير هجا فيها الأخطل، تبلغ ثمانية وستين بيتًا، ستة وخمسون منها في الغزل، وثلاثة عشر بيتًا هي الفخر والهجاء، والغزل فيها من

أجمل ما قال الشعراء، مثل البيت الشهير: إِنَّ العُيُونَ التي في طرفِها حَوْرٌ قَتَلتْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِبِنَ قَتَلَانَا

الغَضْرِمِ قَدَحَ الزِّنَادِ، وَالغَضْرِمِ: تَرَابٌ يَشْبَهُ الْجِصَّ، فَلَمْ أَزَلْ أَتَّبِعِ الْأَوْزَانَ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُوسَمَ بِهَا رِضْوَانٌ حَتَّى أَفْنَيْتَهَا، وَأَنَا لَا أَجِدُ عِنْدَهُ غَوْتًا فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ، وَلَا ظَنَنْتُهُ فَهَمٌ مَا أَقُولُ، فَلَمَّا أُدْرِكْتُ أَنِّي مَا نَجَحْتُ، دَعَوْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: يَا رِضْوَانُ، يَا أَمِينَ الْجَبَّارِ الْأَعْظَمِ عَلَى الْفِرْدَوْسِ، أَلَمْ تَسْمَعْ نِدَائِي بِكَ وَاسْتِغَاثَتِي إِلَيْكَ؟ فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُكَ تَذَكَّرُ رِضْوَانُ، وَمَا عَلِمْتُ مَا مَقْصِدُكَ، فَمَا الَّذِي تَطْلُبُ أَيُّهَا الْمَسْكِينُ؟ فَأَقُولُ: أَنَا رَجُلٌ لَا صَبْرَ لِي عَلَى اللَّوَابِ أَيْ الْعَطَشِ وَقَدْ طَالَتْ مَدَّةُ الْحِسَابِ، وَمَعِيَ صَكٌّ بِالتَّوْبَةِ، وَالتَّوْبَةُ تَمْحُو الذُّنُوبَ كُلَّهَا، وَقَدْ مَدَحْتُكَ بِأَشْعَارٍ كَثِيرَةٍ وَوَسَمْتُهَا بِاسْمِكَ. فَقَالَ: وَمَا الْأَشْعَارُ؟ فَإِنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ قَبْلِ. فَقُلْتُ: الْأَشْعَارُ جَمْعُ شَعْرٍ، وَالشَّعْرُ كَلَامٌ مُوزُونٌ تَقْبَلُهُ الْغَرِيزَةُ، إِنْ زَادَ أَوْ نَقَصَ أَبَانَهُ الْحَسُّ، وَكَانَ أَهْلُ الْعَاجِلَةِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى الْمُلُوكِ وَالسَّادَاتِ، فَجِئْتُ بِشَيْءٍ مِنْهُ إِلَيْكَ لَعَلَّكَ تَأْذِنُ لِي بِالْدُخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ، فَقَدْ اسْتَطَلْتُ مَا النَّاسُ فِيهِ، وَأَنَا رَجُلٌ ضَعِيفٌ، وَلَا رَيْبَ أَنِّي مِمَّنْ يَرْجُو الْمَغْفِرَةَ، وَتَصَحُّحٌ لَهُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى. فَقَالَ: إِنَّكَ لَذُو رَأْيٍ غَيْرِ رَشِيدٍ، أَتَأْمَلُ أَنْ آذِنَ لَكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! ”وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ“^(١).

مدح زُفَر

فتركته وانصرفت بأملي إلى خازنٍ آخرٍ يقال له زُفَر، فعملتُ كلمةً ووسمتها باسمه في وزن قول لبيد:

تمنى ابتتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

وقربتُ منه فأنشدتها، فكأنني إنما أخاطبُ صخرةً صماءً، لأستنزل منها الماء. ولم أترك وزناً مُقيداً ولا مطلقاً يجوزُ أن يوسم بزُفَر إلا وسّمته به، فما أفاد ولا غير. فقلت: رحمك الله! كُنّا في الدار الذاهبة نتقربُ إلى الرئيس والملك بالبيتين أو الثلاثة، فنجد عنده ما نحب، وقد نظمت فيك ما لو جُمع لكان ديواناً، وكأنك ما سمعت لي زُجْمةً أي كلمة. فقال: لا أشعرُ بالذي حمّمت أي قصدت، وأحسبُ هذا الذي تجيئني به قرآنَ إبليس المارد، ولا ينفقُ على الملائكة، إنما هو للجان وعلّموه ولدَ آدم، فما بُغيتك؟ فذكرتُ له ما أريد، فقال: والله ما أقدر على أن أنفع، ولا أملكُ لك ولغيرك أن أشفع، فمن أيّ الأمم أنت؟ فقلت: من أمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: صدقت، ذلك نبيُّ العرب، ومن تلك الجهة أتيتني بالشعر، لأنَّ إبليس اللعين نفثه في إقليم العرب فتعلّمه رجالهم ونساؤهم. وقد وجب عليّ نُصْحُك، فعليك بصاحبك لعلّه يتوصّل إلى ما ابتغيت.

حمزة بن عبد المطّلب

فِيئِسْتُ مِمَّا عِنْدَهُ، فَجَعَلْتُ أَتَفَرَّسُ فِي النَّاسِ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ عَلَيْهِ نُورٌ يَتَلَأَلُ، وَحِوَالِيهِ رِجَالٌ تَأْتَلِقُ مِنْهُمْ أَنْوَارٌ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا الرَّجُلُ؟ فَقِيلَ: هَذَا حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ صَرِيحٌ وَحْشِيٌّ، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَوْلَهُ مَنْ اسْتَشْهَدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدٍ. فَقُلْتُ لِنَفْسِي الْكَذُوبُ: الشُّعْرُ عِنْدَ هَذَا أَنْفَقُ مِنْهُ عِنْدَ خَازِنِ الْجَنَانِ، لِأَنَّهُ شَاعِرٌ، وَإِخْوَتُهُ شِعْرَاءُ، وَكَذَلِكَ أَبُوهُ وَجَدُّهُ، وَلَعَلَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ إِلَّا مِنْ قَدِ نَظْمٍ شَيْئاً مِنْ موزون، فَعَمَلْتُ أُبَيَاتاً عَلَى مَنَهْجِ أُبَيَاتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ^(١) الَّتِي رَثَى بِهَا حَمْزَةَ، وَأَوَّلُهَا:

صَفِيَّةٌ قَوْمِي وَلَا تَعْجَزِي وَبَيِّ النَّسَاءِ عَلَى حَمْزَةَ

وَجِئْتُ حَتَّى اقْتَرَبْتُ مِنْهُ فَنَادَيْتُ: يَا سَيِّدَ الشَّهَدَاءِ، يَا عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ أَنْشَدْتُهُ الْأُبَيَاتَ. فَقَالَ: وَيْحَكَ! أَفِي مِثْلَ هَذَا الْمَوْقِفِ تَجِيئُنِي بِالْمِدِيحِ؟ أَمَا سَمِعْتَ الْآيَةَ: ”لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ شَأْنٌ يُعْنِيهِ“ فَقُلْتُ: بَلَى قَدْ سَمِعْتَهَا، وَسَمِعْتُ مَا بَعْدَهَا: ”وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تُرْهِقُهَا قَتْرَةٌ، أَوْلَتْكَ هُمُ الْكَفْرَةَ الْفَجْرَةَ“^(٢). فَقَالَ: إِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى مَا تَطْلُبُ، وَلَكِنِّي أُرْسِلُ مَعَكَ رَسُولاً إِلَى ابْنِ أَخِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، لِيخَاطِبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِكَ. فَبَعَثَ مَعِيَ رَجُلًا، فَلَمَّا قَصَّ قِصَّتِي عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: أَيْنَ بَيَّنْتِكَ؟ يَعْنِي صَحِيفَةَ حَسَنَاتِي. وَكُنْتُ قَدْ رَأَيْتَ فِي الْمَحْشَرِ شَيْخَانًا كَانَ يَدْرُسُ النُّحُوحَ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ، يُعْرَفُ بِأَبِي عَلِيِّ الْفَارِسِيِّ، وَقَدْ أَحَاطَ بِهِ قَوْمٌ يُجَادِلُونَهُ، وَيَقُولُونَ: تَأَوَّلْتَ عَلَيْنَا وَظَلَمْتَنَا. فَلَمَّا رَأَى أَنِّي أَشَارُ إِلَيْهِ بِيَدِهِ، فَجِئْتُهُ إِذَا عِنْدَهُ طَبَقَةٌ، مِنْهُمْ يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ الْكِلَابِيُّ^(٣)، وَهُوَ يَقُولُ: وَيْحَكَ، أَنْشَدْتَ عَنِي هَذَا الْبَيْتَ بَرَفْعِ الْمَاءِ، يَعْنِي قَوْلَهُ:

فَلَيْتَ كَفَافاً كَانَ خَيْرَكَ كُلُّهُ وَشَرَّكَ عَنِّي مَا ارْتَوَى الْمَاءُ مُرْتَوِي

١ - كعب بن مالك بن عمرو الأنصاري (٢٧ ق.هـ - ٥٠ هـ / ٦٧٠ - ٥٩٦ م) صحابي من شعراء النبي صلى الله عليه وسلم وشهد أكثر الوقائع.

٢ - الآيات ٢٧-٤٢ سورة عيس

٣ - يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي المتوفى ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م شاعر عالي الطبقة، من أعيان العصر الأموي، كان أبي النفس شريفاً من حكماء الشعراء. ولم يرد نسبه على أنه « كلابي » إلا عند أبي العلاء.

ولم أفل إلا الماء. وكذلك زعمت أنني فتحت الميم في قولي:

تَبَدَّلْ خَلِيلًا بِكَشَكْلِكَ شَكْلَهُ فَإِنِّي خَلِيلًا صَالِحًا بِكَ مَقْتَوِي

وإنما قلت: مُقْتَوِي بضم الميم.

وإذا هناك راجز^(١) يقول: تأولت عليّ أني قلت:

يا إبلي ما دامه فتأبيه ماء رواء ونصي حويليه

فحرّكت الياء في تأبيه، ووالله ما فعلت ولا غيري من العرب.

وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله. فقلت: يا قوم، إن هذه أمور هيينة، فلا تعنّفوا هذا الشيخ، فإنه يمتُّ بكتابه في القرآن المعروف المعروف بكتاب «الحجّة»، وإنه ما سفك لكم دماً، ولا أخذ لكم مالاً، فتفرّقوا عنه.

وشغلت بخطابهم والنظر في جوابهم، فسقط مني الكتاب الذي فيه ذكر التوبة، فرجعت أطلبه فما وجدته، فأظهرت الجزع، فقال أمير المؤمنين: لا عليك، ألك شاهد بالتوبة؟ فقلت: نعم، قاضي حلب. فقال: ما اسم ذلك الرجل؟ فقلت: عبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب، حرسها الله، في أيام شبل الدولة، فأقام هاتفاً يهتف في الموقف: يا عبد المنعم بن عبد الكريم قاضي حلب في زمان شبل الدولة، هل معك علم من توبة عليّ بن منصور بن طالب الحلبيّ الأديب؟ فلم يجبه أحد، فأخذني الهلع والقلق، أي الرعدة. ثم هتف الثانية، فلم يجبه مجيب، فليح بي عند ذلك أي صرعت إلى الأرض، ثم نادى الثالثة، فأجابه قائل يقول: نعم، قد شهدت توبة عليّ بن منصور، وحضرت ذلك عندي جماعة من العدول، وأنا يومئذ قاضي حلب وأعمالها، والله المستعان. فعندها نهضت وقد ردت إلي روعي، فذكرت لأمير المؤمنين، عليه السلام، ما ألتمس، فأعرض عني وقال: إنك لتروم منكراً ممتنعاً، ولك أسوة بولد أبيك آدم. وهممت بالحوض، فكدت لا أصل إليه، ثم شربت منه جرعات لا ظمأ بعدها، وإذا الكفرة يحملون أنفسهم على أن يردوه، فتدفعهم الزبانية بعصي تضطرم ناراً، فيرجع أحدهم وقد احترق وجهه أو يده، وهو يدعو بويلٍ وثبور.

١ - هو عطاء بن أسيد السعدي، راجز من بني عوانة من زيد مناة بن تميم.

مع فاطمة الزهراء

فَطُفْتُ عَلَى آلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكِرَامِ الْمُخْتَارِينَ، فَقُلْتُ: إِنِّي كُنْتُ فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ إِذَا كَتَبْتُ كِتَابًا وَفَرَعْتُ مِنْهُ، قُلْتُ فِي آخِرِهِ: وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى عِتْرَتِهِ الْأَخْيَارِ الطَّيِّبِينَ. وَهَذِهِ حَرَمَةٌ لِي وَوَسِيلَةٌ، فَقَالُوا: مَا نَصْنَعُ بِكَ؟ فَقُلْتُ: إِنَّ مَوْلَاتِنَا فَاطِمَةَ، عَلَيْهَا السَّلَامُ، قَدْ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ مِنْذُ دَهْرٍ، وَإِنَّهَا تَخْرُجُ فِي كُلِّ حِينٍ مِقْدَارَهُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ فَتُسَلِّمُ عَلَى أَبِيهَا، وَهُوَ قَائِمٌ لَشَهَادَةِ الْقَضَاءِ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا مِنَ الْجَنَانِ، فَإِذَا هِيَ خَرَجَتْ كَالْعَادَةِ، فَاسْأَلُوا فِي أَمْرِي بِأَجْمَعِكُمْ، فَلَعَلَّهَا تَسْأَلُ أَبَاهَا فِيَّ، فَلَمَّا حَانَ خُرُوجُهَا وَنَادَى الْمَنَادِيُّ: أَنْ غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ يَا أَهْلَ الْمَوْقِفِ حَتَّى تَعْبُرَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اجْتَمَعَ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ خَلْقٌ كَثِيرٌ، مِنْ ذَكَورٍ وَإِنَاثٍ، مِمَّنْ لَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا، وَلَا عَرَفَ قَطُّ مَنْكَرًا. فَلَقَوْهَا فِي بَعْضِ السَّبِيلِ، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ قَالَتْ: مَا بَالُ هَذَا الْحَشْدِ؟ أَلَكُمُ حَالٌ تَذَكَّرُ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ بِخَيْرٍ، إِنَّا نَلْتَدُّ بِتَحْفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، غَيْرَ أَنَّا مُحْبَسُونَ لِلْكَلِمَةِ السَّابِقَةِ، وَلَا نَرِيدُ أَنْ نَتَسَرَّعَ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ قَبْلِ الْمِيقَاتِ، إِذْ كُنَّا آمَنِينَ نَاعِمِينَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ”إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ. لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ“^(١)

وكان فيهم علي بن الحسين وابناه محمد وزيد، وغيرهم من الأبرار الصالحين. ومع فاطمة، عليها السلام، امرأة أخرى تجري مجراها في الشرف والجلالة، فقال: من هذه؟ فقيل: خديجة ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى، ومعها شاب على أفراس من نور. فقيل: عبد الله، والقاسم، والطيب، والطاهر، وإبراهيم: بنو محمد، صلى الله عليه وسلم. فقالت تلك الجماعة التي سألت: هذا ولي من أوليائنا، قد صحت توبته، ولا ريب أنه من أهل الجنة، وقد توسل بنا إليك، سلام الله عليك، في أن يُراح من أهوال الموقف، ويصير إلى الجنة فيتعجل الفوز. فقالت لأخيها إبراهيم، سلام الله عليه: دونك الرجل. فقال لي: تعلّق بركابي. وجعلت تلك الخيل تخترق المجال، وتكشف لها الأمم والأجيال، فلما عظم الزحام طارت في الهواء، وأنا متعلّق بالركاب، فوقف عند محمد، صلى الله

١ - الآيات ١٠١-١٠٣ سورة الأنبياء

عليه وسلم، فقال: من هذا الغريب؟ فقالت له: هذا رجلٌ سأَل فيه فلانٌ وفلانٌ - وسَمَّت جماعةً من الأئمة الطاهرين- فقال: حتَّى يُنظر في عمله. فسأل عن عملي فوجد في الدِّيوان الأعظم وقد خُتِمَ بالتوبة، فشَفَع لي، فأذِنوا لي بالدُّخول. ولمَّا انصرفت الزَّهراء، عليها السلام، تعلَّقت بركاب إبراهيم، صلَّى الله عليه. فلمَّا خلصت من ذلك الزَّحام، قيل لي: هذا الصُّراط فأعْبُر عليه. فوجدته خاليًّا لا أحدَ عنده، فأردت العبور، فوجدتني لا أستمسك. فقالت الزَّهراء، سلام الله عليها، لجارية من جواريتها: فلانة أجزيه. فجعلت تُمارسني وأنا أترنَّح يميناً وشمالاً، فقلت: يا هذه، إن أردت سلامتي فاستعملي معي قولَ القائل في الدار العاجلة:

سَتْ إن أعياك أمـري فاحمـليني زقـفونـةً

فقالت: وما زقفونة؟ قلت: أن يضع الإنسان يديه على كتفي الآخر، ويمسكه الحامل بيديه، ويحمّله وبطنه إلى ظهره، أما سمعت قول الجَحْجَلُول من أهل كَفْرِطاب:

صلّحت حالتي إلى الخلفِ حتى صرْتُ أمشي إلى الوري زقـفونـةً

فقالت: ما سمعت بزقفونة، ولا الجَحْجَلُول، ولا كَفْرِطابٍ إلّا الساعة. فتحملني وتعبر كالبرق الخاطف. فلمَّا عبرت، قالت الزَّهراء، عليها السلام: قد وهبنا لك هذه الجارية، فخذها كي تخدمك في الجنان. فلمَّا وصلت إلى باب الجنّة، قال لي رضوان: هل معك من جواز؟ فقلت: لا. فقال لا سبيل لك إلى الدخول إلّا به فاحترت بالأمر، وعلى باب الجنّة من داخل شجرة صفصاف، فقلت: أعطني ورقةً من هذه الصّفاصة حتى أرجع إلى الموقف فأخذ عليها جوازاً، فقال: لا أخرج شيئاً من الجنّة إلّا بإذن من العليّ الأعلى، تقدّس وتبارك. فلمَّا دُهلت بالنازلة، قلت: إنّنا لله وإنّا إليه راجعون! لو أن للأمير أبي المَرْجِي حازناً مثلك، لما وصلت أنا ولا غيري إلى درهم من خزانته. والتفت إبراهيم، سلام الله عليه، فرآني وقد تخلفت عنه، فرجع إليّ فجذبني جذبة قذفني بها إلى الجنة. وكان مُقامي في الموقف مدّة ستّة أشهرٍ من شهور العاجلة، فلذلك بقي عليّ حفطي ما قلّته الأهوال، ولا أنهكه تدقيق الحساب.

في الجنة مجدداً

فأيكم راعي الإبل؟ فيقولون: هذا. فيسلّم عليه الشيخ ويقول: أرجو أن لا أجدك مثل أصحابك وقد نسيت كل شيء. فيقول: أرجو ذلك، فاسألني ولا تُطل. فيقول: أحقّ ما روى عنك سيبويه في قصيدتك التي تمدح بها عبد الملك بن مروان من أنك تنصب الجماعة في قولك:
أيام قومي والجماعة كالذي لزم الرحالة أن تميل مميلا
فيقول: حق ذلك.

حميد بن ثور

وينصرف عنه راشداً إلى حميد بن ثور فيقول: إيه يا حميد! لقد أحسنت في قولك:

أرى بصري قد رابني بعد حدةٍ وحسبك داءً أن تصحّ وتسلما
ولن يلبث العصران يومٌ وليلةٌ إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

فكيف بصرك اليوم؟ فيقول: إنني لأكون في مغارب الجنة، فألمح الصديق من أصدقائي وهو بمشارقتها، وبينني وبينه مسيرة ألوف أعوام للشمس التي عرفنا سرعة مسيرها في العاجلة! فتعالى الله القادر على كل بديع. فيقول: لقد أحسنت في الدالية التي تقول فيها:

تتابع أعوامٌ عليها هزلنها وأقبل عامٌ يُنعش الناسَ واجدٌ

فيقول حميدٌ: لقد ذهلت عن كل ميم وسين، وشغلت بملاعبة الحورالعين عن النساء، وعن طرد البيض من الظباء، بما وهب ربي الكريم، ولا خوف علي ولا حزن، ولقد كان الرجل منا يعمل فكره السنة أو الأشهر في الرجل قد آتاه الله الشرف والمال، فربما رجع بالخيبة، وإن نال فنوال زهيدٌ، ولكن النظم فضيلة العرب.

ويعرض لهم لبيد بن ربيعة فيدعوهم إلى منزله بالقيسية، ويقسم عليهم أن يذهبوا معه، ويتمشون قليلاً، فإذا هم بأبيات ثلاثة ليس في الجنة نظيرها بهاءً وحسناً، فيقول لبيدٌ: أتعرف أيها الأديب الحلبي هذه الأبيات؟ فيقول: لا والذي حجّت القبائل كعبته! فيقول: أمّا الأول فقولي:

إن تقوى ربنا خيرٌ نفلٌ وبإذن الله ريثي وعجلٌ

وأما الثاني فهو قولي:

أحمدُ الله ، فلا ندُّ له بيديه الخيرُ ما شاءَ فعَلُ

وأما الثالث فقولي:

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ، وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ

صَيَّرَهَا رَبِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ آيَاتًا فِي الْجَنَّةِ، أَسْكَنَهَا إِلَى الْأَبَدِ، وَأَنْعَمَ نَعِيمٍ مِنْ خَلَدٍ. فيعجب هو وأولئك القوم ويقولون: إِنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ عَلَى مَا أَرَادَ.

ويبدو له، أَيَّدَ اللَّهُ مَجْدَهُ بِالتَّأْيِيدِ، أَنْ يَصْنَعَ مَادِبَةً فِي الْجَنَانِ، يَجْمَعُ فِيهَا مِنْ أَمْكَنَ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْمُخْضَرِّمِينَ وَشُعْرَاءِ الْإِسْلَامِ، وَالَّذِينَ أَصَلُّوا كَلَامَ الْعَرَبِ، وَجَعَلُوهُ مَحْفُوظًا فِي الْكُتُبِ، وَغَيْرِهِمْ مَمَّنْ يَأْنَسُ بِالْأَدَبِ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا. فيخطر له أَنْ تَكُونَ كَمَا دَبَّ الدَّارِ الْعَاجِلَةَ، إِذْ كَانَ الْبَارِيءُ، جَلَّتْ عَظَمَتُهُ، لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِجَمِيعِ الْأَغْرَاضِ، مِنْ غَيْرِ كُفْلَةٍ وَلَا إِبْطَاءٍ، فَتَنْشَأُ رَحًا هُنَا وَرَحًا عَلَى الْكُوْثِرِ، تُجَجِّعُ لَطْحَنٍ بُرٍّ مِنْ بُرِّ الْجَنَّةِ، وَتَذَكَّرَ بُرِّ الْهَذَلِيِّ الَّذِي قَالَ فِيهِ: ^(١)

لَا دَرَّ دَرِيٍّ إِنْ أَطَعَمْتُ نَازِلِكُمْ قِرْفَ الْحَتِيِّ وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزٌ

لكن بُرَّ الْجَنَّةِ يَفْضَلُ ذَاكَ الْبُرِّ بِمَقْدَارٍ مَا تَفْضَلُ بِهِ السَّمَوَاتُ الْأَرْضَ، فَيَقْتَرِحُ، أَمْضَى الْقَادِرُ لَهُ اقْتِرَاحَهُ، أَنْ تَحْضُرَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَوَارٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، يَطْحَنُ بِأَرْحَاءِ الْيَدِ مِمَّا كَانَتْ النِّسَاءُ يَطْحَنَنَّ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ: فَرِحَى مِنْ دُرٍّ، وَرَحَى مِنْ عَسْجِدٍ، وَأَرْحَاءُ لَمْ يَرَ أَهْلُ الْعَاجِلَةِ شَيْئًا مِنْ شَكْلِ جَوَاهِرِهِنَّ. فإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِنَّ، حَمْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى مَا مَنَحَ، وَذَكَرَ قَوْلَ الرَّاجِزِيِّ رَحَى الْيَدِ:

أَعْدَدْتُ لِلصَّيْفِ وَلِلْجِرَانِ جَرِيَّتَيْنِ تَتَعَاوَرَانِ
لَا تَرَ أَمَانَ وَهُمَا ظُنَّانِ

وَيَتَسَمَّى إِلَيْهِنَّ وَيَقُولُ: اطْحَنَنَّ شَزْرًا وَبَتًّا. فيقلن: مَا شَزْرٌ وَمَا بَتٌّ؟ فيقول: الشَّزْرُ عَلَى أَيْمَانِكُنَّ، وَالْبَتُّ عَلَى شِمَائِلِكُنَّ، أَمَا سَمِعْتُنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ:

وَنُصِبِحَ بِالْغَدَاةِ أَتَرَ شَيْءٍ وَنُؤْمِسِي بِالْعَشِيِّ طَلَنْفَحِينَا
وَنَطْحَنُ بِالرَّحَى شَزْرًا وَبَتًّا وَلَوْ نُعْطَى الْمَغَازِلَ مَا عَيِينَا

ويقال: إِنْ هَذَا الشَّعْرَ لِرَجُلٍ أَسْرَ فَكُتِبَ إِلَى قَوْمِهِ بِذَلِكَ يَسْتَعْجِلُهُمْ فَكَأَكِهِ.

١ - مالك بن عويمر بن عثمان الهذلي ويلقب المنتخل.

ويخطر في باله، عمّره الله بالسُّرور، ذكرُ أرحاءٍ تدور فيها البهائم، فيمثل بين يديه ما شاء الله من البيوت، فيها أحجارٌ من جواهرِ الجنّة، تُدير بعضها جمالٌ ترعى ما خلق الله لها من نبات المرعى في الفردوس، ونوق وصنوفٌ من البغال والبقر والحمير، فإذا اجتمع من الطَّحْنِ ما يظنُّ أنّه كافٍ للمأدبة، تفرَّق خدَمُه من الولدان المخلّدين فجاؤوا بالجداء وضروب الطير التي جرت العادة بأكلها، والسَّمين من دجاج الرِّحمة وفراريج الخلد، وسيقت البقر والغنم والإبل لتذبح وتُنحر، وذلك كلُّه، بحمد الله، لا ألم فيه، وإنّما هو جدُّ مثل اللّعب، فلا إله إلاّ الله الذي ابتدع خلقه من غير رويّة، وصوره بلا مثال. فإذا وُضعت اللحوم فوق الموائد، قال، زاد الله أمره من النِّفاذ: أحضروا من في الجنّة من الطُّهاة السَّاكنين بحلب على مرِّ الأزمان، فتحضر جماعةٌ كثيرةٌ، فيأمرهم باتِّخاذ الأطعمة، وتلك لذةٌ يهبها الله، عزَّ سلطانه، بدليل قوله: ”يُطافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ“، وتلك الجنّة التي أُوْرثتُموها بما كنتم تعملون، لكم فيها فاكهةٌ كثيرةٌ منها تأكلون“^(١)

فإذا أتت الأطعمة، افترق غلمانُه الذين كأنَّهم اللؤلؤ المكنون لإحضار المدعوّين، فلا يتركون في الجنّة شاعراً إسلامياً، ولا مُخضرمًا، ولا عالماً بشيءٍ من أصناف العلوم، ولا مُتأدّباً إلاّ أحضروه، فيجتمع بجدِّ عظيمٍ، والبجدُ: الخلق الكثير، قال الشاعر:^(٢)

تَلوِّدُ البُجُودُ بأدْرَائِنَا مِنْ الضَّرِّ فِي أَرْمَاتِ السِّنِينَا

فتوضع الموائد من الذهب، والصحاف من الفضة، ويجلس عليها الآكلون، وتنقل إليهم الصُّحون، فإذا قضا الأرب من الطعام، جاءت السُّقاة بأصناف الأشربة، والمغنيات بالأصوات المطربة.

١ - الآيات ٧١-٧٢ سورة الزخرف

٢ - كعب بن مالك الأنصاري

مجلس الغناء

ويقول، لا فتىء ناطقاً بالصواب: عليّ بمن في الجنة من المغنّين والمغنّيات ممّن كان في الدار العاجلة، ففضّيت له التّوبة، فتحضر جماعةٌ كثيرةٌ من رجالٍ ونساء: فيهم الغريص، ومعبّد وابن مسجّح، وابن سريّج، إلى أن يحضر إبراهيم الموصليّ وابنه إسحاق. فيقول قائلٌ من الجماعة، وقد رأى أسراب قيانٍ قد حضرن مثل بصبص ودنانير وعنان^(١): إن الجرادتين في أقاصي الجنة.

فإذا سمع ذلك لا برح سمعه مطروقاً بما يبهجه، قال: لابدّ من حضورهما. فيركبُ بعض الخدم ناقة من نوق الجنة، ويذهب إليهما على بعد مكانهما، فتقبلان

على نجيبين أسرع من البرق اللامع. فإذا صارتا في المجلس، حيّاهما وبشّ بهما وقال: كيف خلصتما إلى دار الرحمة بعدما خبطتُما في الضلال؟ فتقولان: قدّرت لنا التّوبة، ومُتتنا على دين الأنبياء المرسلين.

فيقول: أحسن الله إليكما، أسمعانا شيئاً من التي تروى لعبيد مرة ولأوس أخرى^(٢)، وما سمعتا قطُّ بعبيدٍ ولا أوسٍ، فتلهّمان أن تغنّيا بالمطلوب، فتلحّنان:

وَدُعْ لِمَيْسَ وَدَاعِ الصَّارِمِ الأَلاحي	قَد فَنَكَّتْ فِي قَسَادٍ بَعْدَ إِصْلاحِ
إِذ تَسْتَبِيكَ بِمَضْقُولٍ عَوَارِضُهُ	حَمَشِ اللِّثَاتِ عِذابٍ غَيْرِ مِمْلَاحِ
قاتلها الله تلحاني وقد علمت	أني لنفسي إفسادي وإصلاحي
كأن ريقتها بعد الكرى اغتبتقت	من ماء أذكّن في الحانوت نضاح
أو من مشعشة ورهَاء نشوتها	أو من أنابيب رمان وتفّاح
ولامحالة من قبر بمخنيّة	أو في ملبع كظهر الترس وضاح

١ - أشهر المغنّين والمغنّيات من الجاهلية إلى العصر العباسي

٢ - عبيد بن الأبرص، وأوس: أوس بن خنجر بن مالك التميمي. (٩٥ - ٢ ق. هـ / ٥٢٠ - ٦٢٠ م)، من كبار شعراء تميم في الجاهلية. عمّر طويلاً ولم يدرك الإسلام. في شعره حكمة ورقة، وكان غزلاً مغرماً بالنساء. ولم يقل أحد غير المعري إن الأشعار قد تكون لعبيد، بل تجمع المصادر على أنها لأوس.

فُطِرِيان من سمع، وتَسْتَفِرَّانَ الأَفْتَدَةَ بالسُّرور، ويكثر حمدُ الله سبحانه، كما أنعم على المؤمنين والتائبين، وخلصهم من دار الشَّقوة إلى محلِّ النِّعيم.

ويعرض له، أدامَ اللهُ الجمالَ ببقائه، الشَّوقُ إلى نظرِ سَحابٍ كالسحابِ الذي وصفه قائل هذه القصيدة في قوله:

إِنِّي أَرِقْتُ وَلَمْ تَأْرُقْ مَعِيَ صَاحٍ لِمُسْتَكِفٍّ بُعِيدَ النُّومِ لَوَاحٍ
قَدْ نِمْتَ عَنِّي وَبَاتَ الْبَرْقُ يُسْهِرُنِي كَمَا اسْتَضَاءَ يَهُودِيٌّ بِمِصْبَاحٍ
يَا مَنْ لَبَرِقِ أَيْتُ اللَّيْلِ أَرْقُبُهُ فِي عَارِضٍ كَمْضِيءِ الصُّبْحِ لِمَاحٍ
دَانٍ مُسِفٍّ فَوَيْقَ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ
كَأَنَّ رِيْقَهُ لَمَّا عَلا شَطِيبًا أَقْرَابُ أَبْلَقَ يَنْفِي الْخَيْلَ رَمَاحِ
كَأَنَّما بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ رَيْطٌ مَنَشَرَةٌ أَوْ ضَوْءٌ مِصْبَاحِ
فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَنْ بِمَحْفَلِهِ وَالْمُسْتَكِنُ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاكِ
فَأَصْبَحَ الرَّوْضُ وَالْقِيَعَانُ مُمْرَعَةً مِنْ بَدِينِ مُرْتَفِقٍ مِنْهَا وَمَنْطَاحِ

فينشئ الله، تعالت آلاؤه، سحابةً كأحسن ما يكون من السُّحب، من نظر إليها شهد أنه لم ير قطُّ شيئاً أحسنَ منها، محلاةً بالبرقِ في وسطها وأطرافها، تمطر بماء ورد الجنة من طلٍّ وطشٍّ، وتنثر حصى الكافور كأنه صغارُ البرد، فعزَّ إلها القدير الذي لا يعجزه تصوير الأمانى وتكوين الهواجس من الظنون.

ويلتفت فإذا هو بجران العودِ النُّميريِّ،^(١) فيحييه، ويقول لبعض القيان :

فتصيب تلك القينة وتجيد. فإذا عجبت الجماعة من إحسانها وإصابتها قالت: أتدرون من أنا؟ فيقولون: لا والله المحمود! فتقول: أنا أم عمرو التي يقول فيها القائل:

تَصُدُّ الكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو وَكَانَ الكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا

١ - جران العود عامر بن الحارث النميري المتوفى ٦٨ هـ / ٦٨٧ م، شاعر وصاف. وجران العود معناه (مقدم عنق البعير المسن). ولقَّب بذلك لقوله:

حُذِّدَا حَذْرًا يَا جَارَتِي فإِنَّنِي رَأَيْتُ جِرَانَ الْعَوْدِ قَدْ كَادَ يَصْلُحُ

أراد بجران العود سوطاً قدَّه من جران عودٍ نَحَرَه وهو أصلب ما يكون.

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تُصْبِحِينَا

أُسمِعِينَا قَوْلَ هَذَا الْمُحْسِنِ:

حَمَلْنَ جِرَانَ الْعَوْدِ حَتَّى وَضَعْنَهُ
وَأَحْرَزْنَ مِنَّا كُلَّ حُجْرَةٍ مِئْزَرٍ
وَقُلْنَ تَمَتَّعْ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَذِهِ
بَعَلِيَاءَ فِي أَرْجَائِهَا الْجِنُّ تَعْرِفُ
لَهُنَّ وَطَاحَ النَّوْفَلِيِّ الْمَزْخَرَفُ
فَإِنَّكَ مَرْجُومٌ غَدًا أَوْ مُسَيِّفٌ

فيزدادون بها عجباً، ولها إكراماً، ويقولون: لمن هذا الشعر؟ ألعمر بن عدي اللخمي؟ أم لعمر بن كلثوم التغلبي؟ فتقول: أنا شهدت ندماني جديمة: مالكاً وعقيلاً، وصبحتهما الخمر المشعشعة، لَمَا وَجَدَا عَمْرَوَ بِنِ عَدِيِّ، فَكَنتَ أَصْرِفُ

الكأس عنه، فقال هذين البيتين، فلعلَّ عمرو بن كلثوم حَسَنَ بهما كلامه واستزادهما في أبياته.

رقص الجواري

ويذكر، أذكره الله بالصالحات، الأبيات التي تُنسب إلى الخليل بن أحمد، والخليل يومئذ في الجماعة، وأنها تصلح لأن يُرَقص عليها، فينشئ الله، القادر بلطف حكمته، شجرةً من الجوز فتونع لوقيتها، ثم تنفض عدداً لا يحصيه إلا الله سبحانه، وتنشق كل واحدة من ثمارها عن أربع جوارٍ يرقن الناظرين، ممن قَرُب والنائين، يرقصن على الأبيات المنسوبة إلى الخليل، وأولها:

إِنَّ الْخَلِيْطَ تَصَدَّعَ فِطْرُ بِدَائِكَ أَوْ قَعُ
لَوْ لَا جَوَارٍ حِسَانُ مِثْلُ الْجَاذِرِ أَرْبَعُ
أُمُّ الرِّيَابِ وَأُسْمَا وَالْبَغُومُ وَبَوْرَعُ
لَقُلْتُ لِلظَّاعِنِ اظْهِن إِذَا بَدَا لَكَ، أَوْ دَعُ

فتهتز أرجاء الجنة، ويقول، لا زال منطقتاً بالسداد: لمن هذه الأبيات يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول الخليل: لا أعلم. فيقول: إنا كنا في الدار العاجلة نروي هذه الأبيات لك. فيقول الخليل: لا أذكر شيئاً من ذلك، ويجوز أن يكون ما قيل حقاً. فيقول: أفنسيت يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكر العرب في عصرك؟ فيقول الخليل: إن عبور السراط ينفذ العقل مما استودع. ويخطر له ذكر الفُقاع الذي كان يُعمل في الدار الخادعة، فيُجري الله بقدرته أنهاراً من فُقاع، الجرعة منها لو قورنت بلذات الفانية، منذ خلق السموات والأرض إلى يوم تطوي الآخرة الأمم، لكنت أفضل وأشرف. فيقول في نفسه: قد علمت أن الله قديرٌ، والذي أريد، نحو ما كنت أراه في الدار الزاهية. فلا تكمل هذه المقالة، حتى يجمع الله كل فُقاعي في الجنة من أهل العراق والشام وغيرهما من البلاد، بين أيديهم الولدان المخلدون يحملون السلال إلى أهل ذلك المجلس. فيقول، حفظ الله على أهل الأدب نفسه وعقله، لمن حضره من أهل العلم: ما تُسمى هذه السلال بالعربية؟ فيسكتون، ويقول بعضهم: هذه تُسمى البواسن، واحدها باسن، فيقول قائل من الحاضرين: من ذكر هذا من أهل اللغة؟ فيقول، لا انفكت الفوائد واصلةً منه إلى الجلساء: قد ذكرها ابن درستويه، وهو يومئذ في الحضرة. فيقول له الخليل:

من أين جئت بهذا؟ فيقول ابنُ درستويه^(١): وجدته في كتب النَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ^(٢): فيقول الخليل:
أحقُّ هذا يا نضر، فأنت عندنا الثقة؟ فيقول النضر: قد التبس الأمر عليّ، ولم يحك الرجل إن شاء
الله، إلا حقاً.

١ - ابن درستويه: عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي (٢٥٨-٣٧٤هـ / ٨٧١-٩٥٦م). وكان جيد التصنيف، مليح التأليف. وكان شديد الانتصار
للبصريين في النحو واللغة، ترك كثيراً من المؤلفات.

٢ - النضر بن شُمَيْل بن خَرْشَةَ التميمي المازني النحوي البصري، كان عالماً بفتون من العلم، صدوقاً ثقةً، صاحب غريب وفقه وشعر ومعرفة بأيام العرب
ورواية الحديث، وقال العباس: كان إماماً ثقة في العربية والحديث.

طاووس الجنة

ويعبر بين تلك الجماعات طاووسٌ من طاوويس الجنة يروق حسنه من يراه ، فيشتهيه أبو عبيدة مطبوخاً بعد نقهه بالخل، فيتكون ذلك في صفحةٍ من الذهب. فإذا

قُضي منه الوطرُ انضمت عظامه بعضها إلى بعض، ثمّ تصيرُ طاووساً كما بدأ. فتقول الجماعة: سبحان من يحيى العظام وهي رميم. هذا كما جاء في الكتاب: «وإذ قال إبراهيمُ ربِّ أرني كيف تُحْيِي المَوْتَى ۝ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَى ۝ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فُخِّدْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى ۝ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَأَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»^(١)

ويقول هو، أنسَ الله بحياته، لمن حَضَرَ: ما موضعُ يطمئنُّ؟ فيقولون: نصبٌ بلامِ كي. فيقول: هل يجوزُ غيرُ ذلك؟ فيقولون لا يحضُرنا شيءٌ. فيقول: يجوزُ أن يكون في موضعِ جزمِ بلامِ الأمر، ويكون مخرجِ الدُعاء، كما يقال: يا ربِّ اغْفِرْ لي، ولتغفر لي. وأما قوله في الحكاية عن عازار: « قال أعلمُ أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ »^(٢) فقد قُرِئَ برفع الميم وسكونها، فالرفع على الخبر، والسكون على أنه أمرٌ من اللهِ جلَّ سلطانه. وأجاز أبو عليٍّ الفارسيُّ أن يكون أعلمُ مخاطبةً من عازر لنفسه، لأن مثل هذا معروفٌ. يقول القائل، وهو يعني نفسه: ويحك ما فعلت وما صنعت! ومنه قول الحادِرةِ الذبيانيِّ:^(٣)

بَكَرْتُ سُمِيَّةً غُدُوَّةً فَتَمَتَّحَ وَغَدْتُ غُدُوًّا مُفَارِقٍ لَمْ يَرْبَعِ

وتمرُّ إوزةٌ مثل البختية، فيتمناها بعض القومِ شواءً، فتتمثَّل على خوانٍ من الزُمرِّ، فإذا قُضيت منها الحاجة، عادت إلى هيئة ذوات الجناح، ويختارها بعض الحاضرين كباباً، وبعضهم معمولةٌ بسُمّاقٍ، وبعضهم معمولةٌ بلبنٍ وخلٍّ، وغير ذلك، وهي تكون على ما يريدون. فإذا تَكَرَّرت بينهم قال أبو عثمان المازنيُّ لعبد الملك بن قريب الأصمعيِّ: يا أبا سعيدٍ، ما وزن إوزة؟ فيقول الأصمعيُّ:

١ - الآية ٢٦٠ سورة البقرة

٢ - الآية ٢٥٩ سورة البقرة

٣ - قطبة بن أوس بن محسن بن جرول المتوفى ٥ هـ / ٦٢٦ م شاعر مخضرم مقل، يلقب بالحادِرة أي الضخم.

ألي تُعَرِّضُ بهذا يا فَصُّعُلُ، والفصعل صغير العقرب، وطالما جئتَ مجلسي بالبصرة وأنت لا يُرْفَعُ بك رأسٌ؟! وزن إوزة في الموجود إَفْعَلَةٌ، ووزنها في الأصل إَفْعَلَةٌ. فيقول المازني: ما الدليل على أنَّ الهمزة فيها زائدة، وأنها ليست بأصلية ووزنها ليس فَعَلَةٌ؟ فيقول الأصمعي: أمَّا زيادة الهمزة في أولها، فيدلُّ عليه قولهم وَزُّ. فيقول أبو عثمان: ليس ذلك بدليل على أنَّ الهمزة زائدة، لأنَّهم قد قالوا ناسٌ، واصله أناسٌ، ومِهْةٌ لَجْدَرِيَّ الغنم، وإنَّما هو أُمِيهَةٌ، فيقول الأصمعي: أليس أصحابك من أهل القياس يزعمون أنَّها إَفْعَلَةٌ، وإذا بنوا من أوى اسماً على وزن إوزة قالوا: إِيَاءَةٌ؟ ولو أنَّها فَعَلَةٌ قالوا: إَوِيَّةٌ، ولو جاؤوا بها على إَفْعَلَةٌ، بسكون العين، قالوا: إِيِيَّةٌ، والياء التي بعد الهمزة، وهي همزة أوى، جعلت ياءً لاجتماع الهمزتين، ولأنَّ قبلها مكسور وهي مفتوحة. وإذا خففت همزة مُنْزَرٍ، جعلتها ياءً خالصةً. فيقول المازني: تأول من أصحابنا وأدعاءً، لأنَّ إوزة لم يثبت أنَّ الهمزة فيها زائدة. فيقول الأصمعي:

رَيْشَتْ جُرْهُمُ نَبْلاً فَرَمَى جُرْهُمًا مِنْهُنَّ فَوْقَ وَغِرَارُ

تبعثهم مستفيداً، ثم طعنت فيما قالوه مُعِيداً، وما أنت إلا كما قال الأول: (١)

وينهض كالمُغْضَبِ، ويفترق أهل ذلك المجلس وهم ناعمون.

١ - مالك بن فهم بن غنم بن مالك بن الأزد المتوفى ٤٨٠ ق.هـ / ١٥٧ م أول من مُلِّك على العرب بأرض الحيرة، ويلى هذا البيت بيت آخر شهير أيضاً:

وكم عَلَّمْتَهُ نَطْمَ القوافي فلما قال قافيةً هجاني
أَعْلَمْتُهُ الرِّمَايةَ كُلَّ يومٍ فلما اشتدَّ ساعده رماني

مع الحور العين

ويخلو، لا أخلاه الله من الإحسان، بحوريتين له من الحور العين، فإذا بهره ما يراه من الجمال
قال: أعزز عليّ بهلاك الكندي^(١)، إني لأذكر بكما قوله:

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمَّ الْحَوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمَّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ
إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بَرِيًّا الْقَرْنَفِلِ

وقوله أيضاً:

كعاطفتين من نجاج تباله على جودرين أو كبعض دمي هكير
إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرِيحٍ مِنَ الْقَطْرِ

وأين صاحبتاه منكما لا كرامة لهما ولا نعمة عين؟ لجلسة معكما بمقدار دقيقة من دقائق
ساعات الدنيا، خير من ملك بني آكل المرار وبني نصر بالحيرة وآل جفنة ملوك الشام. ويقبل
على كل واحدة منهما يترشف رضابها ويقول: إن امرأ القيس لمسكين مسكين! تحترق عظامه في
السعير وأنا أتمثل بقوله:

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الْغَمَامِ وَرِيحَ الْخُزَامِي وَنَشْرَ الْقَطْرِ
يَعْلُ بِهِ بَرْدٌ أَنْيَابِهَا إِذَا غَرَّدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَجِرُ

وقوله:

أَيَّامُ فُوهَا كَلَّمَا نَبَّهَتْهَا كَالْمِسْكِ بَاتَ وَظَلَّ فِي الْفَدَامِ
أَنْفٌ كَلَوْنَ دَمِ الْغَزَالِ مُعْتَقٌ مِنْ خَمْرِ عَانَةٍ أَوْ كُرُومِ شَبَامِ

١ - امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (١٣٠ - ٨٠ ق. هـ / ٤٩٦ - ٥٤٤ م) أشهر شعراء العرب، يمني الأصل، مولده بنجد، كان أبوه ملك أسد وخطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر. أمضى شبابه في اللهو والغزل، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته، فأبعده إلى حضرموت، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه، فقال: اليوم خمر وغداً أمر. فلم يزل حتى ثار لأبيه من بني أسد، وقال في ذلك شعراً كثيراً. ثم قصد قيصر الروم فوعده وماطله ثم ولاه إمارة فلسطين، فرحل إليها، ولما كان بأنقرة ظهرت في جسمه قروح، فأقام فيها إلى أن مات.

فتستغرب إحداهما ضحكاً. فيقول: ممّ تضحكين؟ فتقول: فرحاً بتفضّل الله الذي وهب نعيماً، وكان بالمغفرة كريماً، أتدري من أنا يا عليّ بن منصور؟ فيقول: أنت من حورالجنان اللواتي خلقكّنّ الله جزاءً للمتّقين، وقال فيكّنّ: «كأنّهنّ الياقوتُ والمرجان»^(١) فتقول: أنا كذلك بإنعام الله العظيم، على أنّي كنت في الدار العاجلة أعرفُ بحمدونة، وأسكنُ في باب العراق بحلب، وأبي صاحبُ رحى يطحن فيها لعامة الناس، وتزوّجني رجلٌ يبيع السَّقَط الذي يرميه الجزارون، فطَلَّقني لرائحة كرهها من فمي، وكنت من أقبح نساء حلب، فلمّا عرفتُ ذلك زهدت في الدنيا الغرّارة، وانقطعت إلى العبادة، وأكلتُ من مغزلي، فصيرني ذلك إلى ما ترى، وتقول الأخرى: أتدري من أنا يا عليّ بن منصور؟ أنا توفيق السّوداء التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد على زمان أبي منصور محمّد بن عليّ الخازن، وكنت أخرجُ الكتب إلى النّسّاخ. فيقول: لا إله إلا الله، لقد كنت سوداء فصرت أنصب من الكافور. فتقول: أتعجب من هذا، والشاعر يقول عن أحد المخلوقين:

لَوْ أَنَّ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالَ حَرْدَلَةٍ فِي السُّودِ طُرّاً إِذَا لَأُبَيِّضَتِ السُّودُ^(٢)

ويمرُّ ملكٌ من الملائكة، فيقول: يا عبد الله، أخبرني عن الحور العين، أليس في الكتاب الكريم: ” إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، غُرُبًا أَتْرَابًا، لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ“^(٣). فيقول الملك: هنّ على ضربين: ضربٌ خلقه الله في الجنّة لم يعرف غيرها، وضربٌ نقله الله من الدار العاجلة لِمَا عمل الأعمال الصالحة.

فيقول، وقد عجبَ ممّا سمعَ أي عجب: فأين اللّواتي لم يكنّ في الدار الفانية؟ وكيف يتميّزَنَ من غيرهنّ؟ فيقول الملك: اتبع أثري لترى العجيب من قدرة الله. فيتبعه، فيجيء به إلى حدائق لا يعرف كنهها إلا الله، فيقول الملك: خذْ ثمرَةً من هذا الثمر فاكسرها، فإنّ هذا الشجر يُعرفُ بشجر الحور. فيأخذ سفرجلةً، أو رمانَةً، أو تفّاحَةً، أو ما شاء الله من الثمار، فيكسرها، فتخرج منها جارية حوراء عينا تذهل بحسنها حوريّات الجنان، فتقول: من أنت يا عبد الله؟ فيقول: أنا فلان بن فلان. فتقول: إنّي أمتي بلقائك قبل أن يخلُقَ الله الدُّنيا بأربعة آلاف سنة. فعند ذلك يسجدُ إعظاماً لله القدير ويقول: هذا كما جاء في الحديث: أعددت لعبادي المؤمنين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولم يخطر في قلب بشر. ويخطر في نفسه، وهو ساجدٌ، أنّ تلك الجارية، على حُسْنها، ضاويةٌ نحيلة، فيرفعُ رأسه من السُّجود وقد صارَ من ورائها ردْفٌ يضاهاي كُتبان عالجٍ والدّهناء، ورمال يبرين وبني

١ - الآية ٥٩ سورة الرحمن

٢ - الحسين بن مطير الأسدي المتوفى ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م، شاعر متقدم في القصيد والرجز، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. وكان زيه وكلامه كزي أهل البادية وكلامهم. وقد على معن بن زائدة لما ولي اليمن، فمدحه، وهذا البيت من مدائحه.

٣ - الآيات ٢٥-٢٨ سورة الواقعة

سعد، فيُذهل إلى حدّ الخوف من قدرة اللطيف الخبير ويقول: يا رازق الشمس المشرقة السنا، ومُبلِّغ السائلين المنى، والذي فعل ما أعجز وهال، ودعا إلى الحلم الجُهَّال، أسألك أن تقصّر عَجِيزَة هذه الحوريَّة على ميلٍ في ميل، فقد جاز بها قدرُك حدَّ التأميل. فيقال له: أنت مُخَيَّرٌ في تكوين هذه الجارية كما تشاء. فيَقْتَصِرُ من ذلك على الإرادة.

أهل النار

ويبدو له أن يطَّلع إلى أهل النَّار فينظرَ إلى ما هم فيه، ليعظّم شكره على النِّعم، بدليل قوله تعالى: "قال قائلٌ منهم: إني كان لي قرينٌ، يقولُ أئنك لَمِنَ المُصدِّقين، أئذا متنا وكُنَّا تراباً وعظاماً أئنا لَمَدينون. قال هلْ أنتم مُطَّلِعون. فاطَّلَعَ فرأه في سِواءِ الجحيم، قال: تالَّه إن كُدتَ لَتُردين، ولولا نعمةُ ربِّي لَكُنتُ مِنَ المُحْضَرين"^(١).

فيركب بعضَ دوابِّ الجنَّةِ ويسير، فإذا هو بمدائنَ ليست كمدائنِ الجنَّةِ، ولا عليها النُّور والشَّعشعانيُّ، وهي ذاتُ أنفاقٍ ودهاليزٍ وأوديةٍ ضيقة. فيقول لبعضِ الملائكة: ما هذه يا عبد الله؟ فيقول: هذه جنَّةُ العفاريت الذين آمنوا بمحمَّد، صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذُكروا في سورةِ الأحقاف، وفي سورةِ الجنِّ، وهم عددٌ كثيرٌ. فيقول: لأعدِلنَّ إلى هؤلاء، فلنَ أخلُوَ لديهم من أعجوبة. فيعرجُ عليهم، فإذا هو بشيخٍ جالسٍ على بابِ مغارةٍ، فيسلِّمُ عليه، فيحسنُ الرَّدَّ ويقول: ما جاء بك يا إنسي؟ إنك بخيرٍ لجدير، مالك من القومِ نظير! فيقول: سمعتُ أنكم جنٌّ مؤمنون، فجتت ألتِمِسُ عندكم أخبارَ الجنَّان، وما لعلَّه لديكم من أشعارِ المردة. فيقول ذلك الشيخ: لقد أصبت العالمَ بحقيقة الأمر، ومن هو منه كالقَمَر من الهالة، فسَلَّ عمَّا بدا لك. فيقول: ما اسمك أيُّها الشيخ؟ فيقول: أنا الخَيْثُورُ أحدُ بني الشَّيْبَان، ولسنا من ولدِ إبليس ولكنَّا من الجنِّ الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولدِ آدم، صَلَّى اللهُ عليه.

فيقول: أخبرني عن أشعارِ الجنِّ، فقد جمع منها المعروف بالمرزبانيِّ قطعةً سالحة. فيقول ذلك الشيخ: إنَّما ذلك هذيانٌ لا يُعتمدُ عليه، وهل يعرف البشرُ من النُّظيم إلا كما تعرفُ البقر من علمِ الهيئةِ ومساحةِ الأرض؟ وإنَّما لهم خمسةٌ عشرَ جنساً من الموزونِ قلَّ ما يعدوها القائلون، وإنَّ لنا لآلافِ أوزانٍ ما سمع بها إنس، وإنَّما كانت يلهو بهم أطفالٌ منَّا شرسون، فيَنفُثون إليهم مقدارَ السُّواك من شجر الأراك. ولقد نظمت الرِّجَز والقصيد قبل أن يخلق اللهُ آدمَ بثلاثمائة من السنين. وقد بلغني أنكم معشرَ الإنس تلهجون بقصيدةِ امرئ القيس التي مطلعها:

قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذَكَرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وتَحَفُّظونها الغلمانَ في المكاتب، وإن شئتَ أَمليتُ عليك ألفَ قصيدةٍ على هذا الوزنِ على
مثل: مَنْزِلٍ وَحَوْمَلٍ، وألْفاً على ذلك الرويِّ يجيء على مَنْزِلٍ وَحَوْمَلٍ، وألْفاً على مَنْزِلٍ وَحَوْمَلٍ، وألْفاً
على: مَنْزِلِهِ وَحَوْمَلِهِ، وألْفاً على: مَنْزِلُهُ وَحَوْمَلُهُ، وألْفاً على: مَنْزِلُهُ وَحَوْمَلُهُ، وكلُّ ذلك لشاعرٍ واحدٍ
مناً هَلَكٌ وهو كافرٌ، وهو الآن يشتعل في أطباق الجحيم. فيقول، وصلَ اللهُ أوقاتَه بالسعادة: أَيْهَا
الشيخ، لقد بقي عليك حَفْظُكَ! فيقول: لسنا مثلكم يا بني آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة، لأنكم
خُلِقْتُمْ من حَمِئٍ مَسْنُونٍ، وهل الحَمِئُ سوى طينٍ أسودٍ مُنتنٍ؟ وهل المَسْنُونُ إلا ما صُقِلَ؟ وخُلِقْنَا
من مارجٍ من نارٍ، والمارجُ شعلةٌ متقدةٌ ساطعةٌ، فهل من مقارنة؟ فتحمله الرغبة في الأدب أن يقول
لذلك الشيخ: أفتُملي عليَّ شيئاً من تلك الأشعار؟ فيقول الشيخ: فإذا شئتَ أَمَلتُكَ ما لا تحمله
المطايا، ولا تسعُه صحفُ دنياك.

فيهمُّ الشيخ، لا زالت همتهُ عاليةً، بأن يكتب منه، ثم يقول: لقد شقيتُ في الدار العاجلة
بجمع الأدب، ولم أخظ منه بطائلٍ، وإنما كنت أتقربُ به إلى الرؤساء، فأحتلبُ منهم قطراتٍ، فكأنني
أعصرُ ضرعَ ناقةٍ جفَّ لبنها، ولست بموفقٍ إن تركتُ لذاتِ الجنةِ وأقبلتُ أنسخُ آدابَ الجنِّ ومعني
من الأدب ما هو كافٍ، لاسيما وقد شاع النسيانُ في أهلِ الأدب في الجنة، فصرتُ من أكثرهم روايةً
وأوسعهم حفظاً، ولله الحمد.

الشقاء بالأدب

ويقول لذلك الشيخ: ما كُنَيْتُكَ لِأَكْرِمَكَ بِالتَّكْنِيَةِ؟ فيقول: أبو هَدْرَش، أنجبت من الأولاد ما شاء الله، فهم قبائل: بعضهم في النَّارِ الموقدة، وبعضهم في الجنان. فيقول: يا أبا هَدْرَش، مالي أراك أشيبَ وأهلُ الجنَّةِ شبابٌ؟ فيقول: إِنَّ الْإِنْسَ أَكْرَمُوا بِذَلِكَ وَحُرِمْنَا مِنْهُ، لَأَنَا أُعْطِينَا الْقُدْرَةَ عَلَى التَّحَوُّلِ فِي الدَّارِ الْمَاضِيَةِ، فَكَانَ أَحَدُنَا إِنْ شَاءَ صَارَ حَيَّةً، وَإِنْ شَاءَ صَارَ عَصْفُورًا، وَإِنْ شَاءَ صَارَ حَمَامَةً، فَمُنِعْنَا التَّصَوُّرَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَتَرَكْنَا عَلَى خَلْقِنَا لَا نَتَغَيَّرُ، وَكَانَ عَوْضُ بَنِي آدَمَ مَا حَسُنَ مِنَ الصُّورِ. وَكَانَ قَائِلُ الْإِنْسِ يَقُولُ فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ: أُعْطِينَا التَّفَكُّرَ، وَأُعْطِيَ الْجَنُّ التَّغْيِيرَ.

ولقد لقيتُ من بني آدمَ شرًّا، ولقوا مِنِّي كذلك. دخلتُ مرَّةً دارَ أناسٍ أريدُ أن أصرَعَ فتاةً لهم، فتصوَّرتُ في صورةِ جُرذٍ فدعوا لي الققط، فلَمَّا أرهقتني تحوَّلتُ ثعبانًا ودخلتُ في جِدَعِ نخلةِ أجوفٍ، فلَمَّا علموا ذلكَ كشفوه عني، فلَمَّا خفتُ القتلَ صرتُ ربحاً هَفَّافَةً، فلَحِقْتُ بِخَشَبِ السَّقْفِ، ونقضوا تلكَ الخُشْبَ وبقايا جذوعِ الأشجارِ الضخمةِ، فلم يروا شيئاً، وأغاظني أنهم كذبوا على أنفسهم وبعضهم على بعضٍ، وقالوا: ليس هاهنا مكانٌ يمكنُ أن يَسْتَتِرَ فيه. فبيناهم يتذاكرون ذلكَ عمدتُ إلى أطرافِ الكَلَّةِ فوق فراشها، فلَمَّا رأنتني أصابها الصَّرَعُ، واجتمع أهلُها من كلِّ صوبٍ، وجمعوا لها الرُّقَاةَ يرقونها بكل ما يعرفون، وجاؤوا بالأطباءَ المُداوين، وبذلوا النفيسَ والثمينَ، فما ترك راقٍ رُقِيَّةً إلا جَرَّبَها عليها، وأنا لا أُجيبُ، وتعاون الأطباءُ يسقونها الأشربةَ، وأنا مُلازمٌ لها لا أزول، فلَمَّا أصابها الحِمَامُ طلبتُ لي سواها صاحبةً، ثم كذلك مع الثانيةِ، حتى رزقني الله التوبةَ والثوابَ الجزيلَ، فلا أفتأ له من الحامدين الشاكرين:

حَمِدْتُ مِنْ حَطِّ أَوْزَارِي وَمَرَّقِهَا	عَنِّي، فَأَصْبَحَ ذَنبِي الْيَوْمَ مَغْفُورًا
وَكَنْتُ أَلْفٌ مِنْ أَتْرَابِ قُرْطُبَةِ	حَوْدًا وَبِالصَّيْنِ أُخْرَى بِنْتٌ يَغْبُورًا
أَزُورُ تِلْكَ وَهَذَا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ	فِي لَيْلَةٍ قَبْلَ أَنْ أَسْتَوْضِحَ النُّورًا
وَلَا أَمْرٌ بُوخْشِيٍّ وَلَا بَشَرٍ	إِلَّا وَغَادَرْتُه وَلِهَانَ مَدْعُورًا
أَرُوِّعُ الزَّنَجَ إِلْمَامًا بِنَسْوَتِهَا	وَالرُّومَ وَالتُّرْكَ وَالسَّقْلَابَ وَالْعُورًا

وَأَحْضُرُ الشَّرْبِ أَعْرُوهُمْ بِأَبْدَةٍ
فَلَا أَفَارِقُهُمْ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ
وَأَصْرِفُ الْعَدَلَ خْتَلًا عَنِ أَمَانَتِهِ
وِطْرْتُ فِي زَمَنِ الطُّوفَانِ مَعْتَلِيًّا
أَضَلَّتْ رَأْيِي أَبِي سَاسَانَ عَنْ رَشْدِهِ
فِتَارَةً أَنَا صِلُّ فِي نَكَارَتِهِ
تَلَوُّحٌ لِي الْإِنْسُ عُرُورًا أَوْ ذَوِي حَوْلٍ
ثُمَّ اتَّعَظْتُ وَصَارْتُ تَوْبَتِي مَثَلًا
حَتَّى إِذَا انْفَضَّتِ الدُّنْيَا وَنُودِي: إِسْ
أَمَانِي اللَّهُ شَيْئًا ثُمَّ أُيْقِظُنِي
يُرْجُونَ عُدُودًا وَمِزْمَارًا وَطُنْبُورًا
فِعْلٌ يَظَلُّ بِهِ إِبْلِيسُ مَسْرُورًا
حَتَّى يَخُونَ وَحَتَّى يَشْهَدَ الزُّورَا
فِي الْجَوِّ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَاءَ مَحْسُورَا
وَسِرْتُ مُسْتَخْفِيًّا فِي جَيْشِ سَابُورَا
وَرَبَّمَا أَبْصَرْتَنِي الْعَيْنُ عُصْفُورَا
وَلَمْ تَكُنْ قَطُّ لَا حَوْلًا وَلَا عُورَا
مِنْ بَعْدِ مَا عَشْتُ بِالْعِصْيَانِ مَشْهُورَا
رَافِئِلُ وَيَحَاكَ هَلَا تَنْفُخُ الصُّورَا
لِمَبْعَثِي، فَرَزِقْتُ الْخُلْدَ مَبْرُورَا

فيقول: لله دُرْكُ يا أبا هدرش؟ لقد كنت تمارسُ أفعالاً يندى لها الجبين، فكيف ألسنتكم؟ أيكون فيكم عربٌ لا يفهمون عن الروم، ورومٌ لا يفهمون عن العرب كما نجد في أجيالِ الإنس؟ فيقول: هيهات أيها المرحوم، إننا أهلُ ذكاءٍ وفطنة، ولا بدُّ لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الإنسيَّة، ولنا بعد ذلك لسانٌ لا يعرفه الأنيس. وانا الذي أنذرت الجنَّ بالكتاب المُنزل: سريت في رفقة من الجنِّ نريد اليمن، مررنا بيثرب في زمان الرُّطب، ف ”سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَّنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا“^(١) وعدت إلى قومي فذكرت لهم ذلك، فتسرَّعت منهم طوائفٌ إلى الإيمان، وحتَّهم على ما فعلوه أنهم رُجموا عن استراقِ السَّمعِ بكواكبِ محرقات. فيقول: يا أبا هدرش، أخبرني، وأنت الخبير، هل كان رَجْمُ النُّجُومِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ إِنَّهُ حَدَّثَ فِي الْإِسْلَامِ. فيقول: هيهات أما سمعت قول الأوديِّ:^(٢)

كِشَاهِبِ الْقَدْفِ يَرْمِيكُمْ بِهِ فَارِسٌ فِي كَفِّهِ لِلْحَرْبِ نَارٌ

وقول ابنِ حَجَرٍ:^(٣)

وَأَنْقَضَ كَالدَّرِيِّ يَتَبَعُهُ نَفْعٌ يَثُورُ تَخَالَهُ طُنْبَا

١ - الآيتان ١ و٢ سورة الجن
٢ - صلاة بن عمرو بن مالك من بني أؤد، المتوفى ٥٤ ق.هـ / ٥٧٠ م شاعر يمني جاهلي، لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان. كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم وهو أحد الشعراء الحكماء في عصره
٣ - أوس بن حجر: سبقت ترجمته

ولكنَّ الرَّجْمَ زاد في أوان المبعث، وإنَّ النفاقَ لكثيرٌ في الإنس والجنِّ، وإنَّ الصَّدقَ لقليلٌ، وهنيئاً
في العاقبة للصادقين. وفي قصة الرَّجْمِ أقول:

مَكَّةُ أَقْوَتَ مِنْ بَنِي الدَّرْدَبَيْسِ فَمَا لَجِنِّيَّ بِهَا مِنْ حَسِيْسِ
وَقَامَ فِي الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ أَزْهَرُ لَا يُغْفَلُ حَقَّ الْجَلِيْسِ
يَسْمَعُ مَا أَنْزَلَ مِنْ رَبِّهِ الـ قُدُّوسٍ وَحِيَاءٍ مِثْلَ قَرْعِ الطَّسِيْسِ^(١)

فيعجبُ، لا زال في الغبطة والسُّرور، لما سمعه من ذلك الجنيِّ، ويكره الإطالة عنده فيودِّعه.

١ - القصيدة طويلة جداً، إذ تبلغ ثمانية وخمسين بيتاً، وهي من شعر المعري ولا شك، لكنها وعرة الألفاظ جداً، وهي جزء من استعراض أبي العلاء ثقافته اللغوية والنحوية والشعرية، ولا فائدة فيما نحن فيه من إيرادها كاملة.

حيوانات الجنة

فإذا هو بأسد يفترس من قطعان الجنة فلا تكفيه مائة ولا مائتان فيقول في نفسه: لقد كان الأسد يفترس الشاة الهزيلة، فيُقيم عليها الأيام لا يطعم سواها شيئاً. فيُلهم الله الأسد أن يتكلم، وقد عرف ما في نفسه، فيقول: يا عبد الله، أليس أحدكم في الجنة تُقدّم له الصحيفة وفيها الرز وما طُهي بالسمن أو اللبن، فيأكل منها مثل عُمر السموات والأرض، يلتذّ بما أصاب فلا هو مُكتفٍ، ولا هي الفانية؟ وكذلك أنا أفترس ما شاء الله، فلا يُصيب الفريسة الأذى بظفر ولا ناب، ولكن تجدّ من اللذة كما أجد بلطف ربّها العزيز. أتدري من أنا أيّها السيد الشريف؟ أنا أسدّ "القاصرة" التي كانت في طريق مصر، فلما سافر عتبة بن أبي لهب يريد تلك الجهة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " اللهم سلط عليه كلباً من كلابك"، ألهمت أن أتجوع له أياماً، وجئت وهو نائم بين رفاقه، فتركت الجماعة إليه وافترسته، وأدخلت الجنة بما فعلت.

ويمرُّ بذئبٍ يقتنص ظباءً فيُفني القطيع بعد القطيع، وكلّما فرغ من ظبي أو ظبية، عادت بالقدرة إلى الحال المعهودة، فيعلم أن أمره كأمر الأسد، فيقول: ما خبرك يا عبد الله؟ فيقول: أنا الذئب الذي كلمّ الأسلمي^(١) على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كنت أقيم ليالي كثيرة، لا أقدر حتى على الأرنب، وإذا اقتربت من الغنم أو المعيز، أطلق الراعي عليّ الكلاب، فرجعت إلى أم صغاري مُصاباً بالجروح.

فتقول: لقد أخطأت في أفكارك، وما لك خير في ابتكارك. وقد أزمى بالسهم في خاصرتي، فأبيت ليلتي متألماً حتى تنتزع ذئبتي السهم وأنا بأخر رمق، فلحقنتي بركة محمد صلى الله عليه وسلم.

١ - هو أهبان بن الأكوخ كان يرعى غنماً فوثب الذئب على شاة منها فأخذها منه، ففتحى الذئب وأفعى على ذنبه وقال: ويحك لم تمنع مني رزقاً رزقنيه الله؟ فجعل أهبان يصفق بيديه ويقول: تالله، ما رأيت أعجب من هذا! فقال الذئب: إن أعجب من هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين هذه النخلات، وأومأ إلى المدينة. فخدر أهبان غنمه إلى المدينة وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدّثه الحديث، فعجب لذلك، وأمره إذا صلى العصر أن يحدث به أصحابه. وأسلم أهبان وصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفي في خلافة معاوية.

الحطيئة

فيذهب، عرفه الله الغبطة في كل سبيل، فإذا هو بيت في أقصى الجنة، كأنه كوخ أمة راعية، وفيه رجل ليس عليه نور أهل الجنة، وعنده شجرة قبيحة المنظر، ثمراها ليس شهياً. فيقول: يا عبد الله، لقد رضيت بحقير قليل. فيقول: والله ما وصلت إليه إلا بعد جلبة وصياح وعرقي من شقاء، وشفاعة من قريش وددت أنها لم تكن: فيقول: من أنت؟ فيقول أنا الحطيئة العبسي^(١) فيقول: بم وصلت إلى

الشفاعة؟ فيقول بالصدق. فيقول: في أي شيء؟ فيقول: في قولي:

أبت شفتاي اليوم إلا تكلماً بهجر، فما أدري لمن أنا قائله
أرى لي وجهاً شوّه الله خلقه فقبّح من وجهه وقبح حامله

فيقول: ما بال قولك:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

لم يغفر لك به؟ فيقول: سبقني إلى معناه الصالحون، ونظمته ولم أعمل به، فحرمتم الأجر عليه. فيقول: ما شأن الزبيرقان بن بدر^(٢)؟ فيقول الحطيئة: هو رئيس في الدنيا والآخرة، انتفع بهجائي ولم ينتفع غيره بمديحي.

١ - هو جرول بن أوس بن مالك من بني عبس المتوفى ٤٥هـ/٦٦٥م، لقب الحطيئة لقربه من الأرض فإنه كان قصيراً. وهو من فحول الشعراء وفصحائهم وكان ذا شر وسفه، لم يسلم أحد من لسانه، حتى إنه هجا زوجته وأمه وأباه وأخيراً نفسه. وهو مخضرم أدرك الإسلام فأسلم ثم ارتد ثم تاب. قال الأصمعي: كان الحطيئة جشعاً سؤولاً ملحقاً دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير بخيلاً، قبيح المنظر، رث الهيئة مغمور النسب فاسد الدين.

٢ - حصين بن بدر بن خلف من تميم المتوفى ٤٥ هـ / ٦٦٥ م شاعر صحابي مخضرم، وسمي بالزبيرقان لجماله الشبيه بالقمر، وقيل لأنه كان يصبح عامته بالزعفران. وهو من سادات قومه وأحد رؤساء تميم المشهورين. ويمتاز شعره بحسن العبارة وجودة المعنى ومتانة السبك، وقد حارب الزبيرقان في صفوف جيش خالد بن الوليد وعاش إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان.

الخنساء السُّلمِيَّة

فيخلفه ويمضي، فإذا هو بامرأةٍ في أقصى الجنَّة، قريبةٍ من المُطَّلَحِ إلى النار. فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا الخنساء السُّلمِيَّة، أحببتُ أن أنظر إلى صخرٍ فاطلَّعتُ فرأيتُه كالجبل الشَّامخِ والنار تضطرم في رأسه، فقال لي: لقد صحَّ مزعمُك فيَّ، يعني قولي:

وإنَّ صخرًا لتأتُمُّ الهداة به كأنَّه علمٌ في رأسه نارٌ^(١)

١ - هذا البيت من أشهر قصائد الخنساء في رثاء أخيها صخر، وقد صار الشطر الثاني مثلاً يضرب. والخنساء لقب أشهر شاعرات العرب وأشعرهن واسمها تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد من بني سليم المتوفاة ٢٤ هـ / ٦٤٤ م. أدركت الإسلام هأسلمت، ووهبت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع قومها بني سليم. فكان رسول الله يستشدها ويعجبه شعرها. أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية في الجاهلية. وكان لها أربعة بنين شهدوا القادسية، فجعلت تحرضهم على الثبات حتى استشهدوا جميعاً، فقالت: الحمد لله الذي شرهني باستشهادهم.

إبليس وبشار

وَيَطَّلِعُ فِيرَى إبليس، لعنه الله، وهو يضطرب في الأغلالِ والسَّلاسلِ، وأعمدة الحديد تضربه بها الزبانية. فيقول: الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه! لقد أهلكت من بني آدم طوائفَ لا يعلم عددها إلا الله. فيقول: من الرجل؟ فيقول: أنا فلان بن فلانٍ من أهل حلب، كانت صناعتي الأدب، أتقربُ به إلى الملوك. فيقول: بس الصنعة، لا يجني بها صاحبها رغداً من العيش، وقد لا تكفي قوت العيال، وكم أذلت أصحابها، وكم أهلكتُ مثلك، فهنيئاً لك إذ نجوت، وإن لي إليك حاجة، فإن قضيتها شكرتُك أبد الدهور، فيقول: إنني لا أقدر لك على نفع، فإن الآية سبقت في أهل النار، أعني قوله تعالى: «ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين»^(١).

فيقول: إنني لأسألك في شيء من ذلك، ولكن أسألك عن خبر تخبرني به: إن الخمر حُرِّمت عليكم في الدنيا وأحلت لكم في الآخرة، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المُخَلَّدِينَ فعل أهل القرى؟ فيقول: عليك الغضب واللعنة! أما شغلك ما أنت فيه؟ أما سمعت قوله تعالى: ”ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيه خالدون“؟^(٢) فيقول: وإن في الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر، فما فعل بشار بن برد؟^(٣) فإن له عندي يداً ليست لغيره من ولد آدم، كان يفضلني دون الشعراء، وهو القائل:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبَيَّنُوا يا مَعْشَرَ الأَشْرَارِ
النَّارُ عنصره، وأدم طينه والطين لا يَسْمُو سُمُو النَّارِ

لقد قال الحق، ولم يزل قائل الحق من الممقوتين.

فلا يسكت من كلامه، إلا ورجل في أصناف العذاب يُغْمَضُ عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم، فيفتحهما الزبانية بكلايب من نار، وإذا هو بشار بن برد قد صار بصيراً بعد العمى،

١ - الآية ٥٠ سورة الأعراف

٢ - الآية ٢٥ سورة البقرة

٣ - أبو معاذ بشار بن برد العقيلي بالولاء الضرير الشاعر المشهور (٩٥-١٦٧هـ/٧١٣-٧٨٢م)، بصري قدم بغداد، وهو في أول مرتبة المحدثين من الشعراء المجيدين فيه، وكان يمدح المهدي، ورمي عنده بالزندقة، فأمر بضربه حتى مات.

لينظرَ إلى ما نزل به من العذاب. فيقول له، أعلى الله درجته: يا أبا مُعَاذٍ، لقد أحسنتَ في مقالِك، وأسأتَ في مُعتقِدِك، ولقد كنتُ في الدَّارِ العاجِلَةِ أَذْكَرُ بعضَ قولك فأترحَّمُ عليك، ظَنًّا أَنَّ التَّوْبَةَ ستلحقُكَ، مثل قولك:

ارْجِعْ إِلَى سَكَنِ تَعِيشٍ بِهِ ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْقَرِدٌ
تَرْجُو غَدًا، وَغَدٌ كحَامِلَةٍ فِي الْحَيِّ لَا يَدْرُونَ مَا تَلِدُ

وقولك:

واهاً لأَسْمَاءِ ابْنَةِ الْأَشَدِّ قَامَتْ تَرَاءَى إِذْ رَأَيْتَنِي وَحْدِي
كَالشَّمْسِ بَيْنَ الزُّبْرِجِ الْمُتَقَدِّ صَنَّتْ بِخَدِّ، وَجَلَّتْ عَن خَدِّ
أَرْقُبُ مِنْهُ مِثْلَ حُمَى الْوَرْدِ حَمَلْتُهُ فِي رُقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي
الْحُرُّ يُلْحَى، وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ وَلَيْسَ لِلْمُلْجِفِ مِثْلَ الرَّدِّ

الآن وقع منك اليأس! وقلت في هذه القصيدة: السُّبْدِ، فإن كنت جعلته جمعَ سُبْدٍ، وهو طائرٌ، فإنَّ فَعَلًا لا يجمع على ذلك، وإن كنت سكنت الباء فقد أسأت، لأنَّ تسكين الفتحة غير معروفٍ، ولا حجة لك في قول الأخطل^(١):

وما كلُّ مَعْبُونٍ إِذَا سَلَفَ صَفْقَةً بِرَاجِعٍ مَا قَدْ فَاتَهُ بِرِدَادٍ

ولا في قول الآخر:

وقالوا: تُرَايِي، فَقُلْتُ: صَدَقْتُمْ أَيِ مِنْ تُرَابٍ خَلَقَهُ اللَّهُ آدَمًا

لأنَّ هذه شواذٌ، فأما قول، جميل^(٢):

وصاحَ بَبَيْنٍ مِنْ بُثَيْنَةَ وَالنَّوَى جَمِيعُ بَذَاتِ الرِّضْمِ صَرْدٌ مُحَجَّلٌ

فإنَّ من أنشده بضمَّ الصاد مخطيء، لأنَّه يذهبُ إلى أَنَّهُ أرادَ الصُّرْدَ فسكَّنَ الرءاء، وإنَّما هو صَرْدٌ أي خالِصٌ من قولهم: أَحِبُّكَ حُبًّا صَرْدًا، أي خالِصًا، يعني غرابًا أَسودَ ليس فيه بياضٌ، وقوله: مُحَجَّلٌ أي

١ - غياث بن غوث التغلبي (١٩ - ٩٠ هـ / ٦٤٠ - ٧٠٨ م) شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير والفرزدق والأخطل.

٢ - جميل بن عبد الله بن معمر العذري المتوفى ٨٢ هـ / ٧٠١ م شاعر من عشاق العرب، افتتن ببثينة من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما. شعره يذوب رقة، أقل ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر. قصد جميل مصر وأفداً على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه وأمر له بمنزل فأقام قليلاً ومات فيه.

مُقَيِّدٌ، لَأَنَّ حَلْقَةَ الْقَيْدِ تَسْمَى حِجْلًا، قَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ:

أَعَادَلْ قَدْ لَاقَيْتُ مَا يَزَعُ الْفَتَى وَطَابَقْتُ فِي الْحِجْلَيْنِ مَشْيَ الْمُقَيِّدِ

والغرابُ يُوصَفُ بِالتَّقْيِيدِ لِقَصْرِ نَسَاهُ، وَهُوَ الْعَرَقُ مِنَ الْوَرِكِ إِلَى الْكَعْبِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَمُقَيِّدٍ بَيْنَ الدِّيَارِ كَأَنَّهُ حَبَشِيٌّ دَاجِنَةٌ يَخِرُّ وَيَعْتَلِي

فَيَقُولُ بَشَارًا: يَا هَذَا! دَعْنِي مِنْ أَبَاطِيكَ فَإِنِّي لَمَشْغُولٌ عَنْكَ.

امرؤ القيس

ويسأل عن امرئ القيس بن حُجرٍ، فيقال: ها هو ذا يسمُكُ. فيقول: يا أبا هندٍ إنَّ رُواةَ البغداديين ينشدون في ” قفا نبك “، هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها، أعني قولك:

وكأنَّ ذُرَى رَأْسِ المَجِيمِ غُدُوَّةٌ

وكذلك:

وكأنَّ مَكَائِي الجِوَاءِ

وكذلك

وكأنَّ السَّبَاعَ فِيهِ غَرَقَى

فيقول: أبعد الله أولئك! لقد أسأؤوا الرواية، وإذا فعلوا ذلك فأبي فرقي يقع بين النظم والنثر؟ وإنما ذلك شيءٌ فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض، فظنَّه المتأخرون أصلاً في المنظوم، وهيئات هيهات! فيقول: أخبرني عن قولك:

كَبِكْرِ المَقَانَاةِ البِيَاضِ بَصْفَرَةٍ

ماذا أردت بالبكر؟ فقد اختلف المتأولون في ذلك فقالوا: البيضة، وقالوا: الدرّة، وقالوا: الروضة، وقالوا الزهرة، وقالوا: البرديّة التي هي باطن النبات المعروف. وكيف تُنشدُ البياض، أم البياض، أم البياض؟

فيقول: كلُّ ذلك حسنٌ، وأختار البياض، فيقول: فرغ الله ذهنه للآداب: لو شرحت لك ما قال النحويون في ذلك لعجبت. وبعض المعلمين ينشد قولك:

من السَّيْلِ والعُثَاءِ فَلِكَّةٌ مِغْرَلِ

فيشدُّ الثاءَ. فيقول: إنَّ هذا لجَهولٌ، وهو نقيضُ الذين زادوا الواو في أوائل الأبيات: أولئك أرادوا

النَّسَقَ، فَأَفْسَدُوا الْوَزْنَ، وهذا البائسُ أراد أن يُصَحِّحَ الْوَزْنَ فَأَفْسَدَ اللَّفْظَ، وكذلك قولي:

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَّتْ لَنَوْمِ ثِيَابَهَا

منهم من يُشَدُّ الضادَ، ومنهم من يُنْشِدُ بالتخفيف، والوجهانِ من قولك: نَضَوْتُ الثَّوْبَ. إلا أنك إذا شَدَدْتَ الضادَ، صارَ مشابهاً للفعلِ مِنَ النُّضِيزِ، يقال: هذه نَضِيزَةٌ مِنَ الْمَطَرِ أَي قَلِيلٌ، والتخفيفُ أَحَبُّ إِلَيَّ، وإنما حَمَلَهُمْ عَلَى التَّشْدِيدِ كَرَاهَةً الرَّحَافِ، وليس عندنا بمكروه.

فيقول: لا بَرِحَ مُنْطَقاً بِالْحِكْمِ: فأخبرني عن كلمتك الصادِيَّةِ والصادِيَّةِ والنُّونِيَّةِ التي أوَّلُها:

لِمَنْ طَلَّلَ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي كَخَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيبِ يَمَانِ

لقد جئت فيها بأشياء يُنكرها السَّمْعُ، كقولك:

فَإِنْ أَمْسِ مَكْرُوباً فَيَا رَبِّ غَارَةٌ شَهِدْتُ عَلَى أَقْبِ رَحْوِ اللَّبَانِ

وكذلك قولك في القصيدة الصادِيَّةِ:

عَلَى نِقْنِقِ هَيْقٍ لَهُ وَلِعْرَسِهِ مُمْنَقَطِعِ الْوَعْسَاءِ بَيْضِ رَصِيصِ

وقولك:

فَأَسْقِي بِهِ أُخْتِي صَعِيفَةَ، إِذْ نَأَتْ وَإِذْ بَعْدَ الْمُرْدَارِ غَيْرَ الْقَرِيضِ

في أشباه ذلك، هل كانت غرائزكم لا تُحسُّ بهذه الزيادة؟ أم كُنْتُمْ مَطْبُوعِينَ عَلَى أَنْ تَأْتُوا غَامِضَ الْكَلَامِ وَأَنْتُمْ عَالِمُونَ بِمَا يَقَعُ فِيهِ؟ كما أَنَّ زَهيراً لا ريبَ كان يعرفُ مكانَ الرَّحَافِ فِي قَوْلِهِ:

يَطْلُبُ شَأْوَ امْرَأَيْنِ قَدَّمَا حَسَباً نَالَا الْمُلُوكَ، وَبَدَأَ هَذِهِ السُّوقَا

فإنَّ الغرائزَ تُحسُّ بهذه المواضع، فتبارك اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. فيقول امرؤ القيس: أَدْرَكْنَا الْأَوَّلِينَ مِنَ الْعَرَبِ لَا يَحْفَلُونَ بِمَجِيءِ ذَلِكَ، فَأَمَّا أَنَا وَطَبَقْتِي فَكُنَّا نَقُولُ الْبَيْتَ حَتَّى نَأْتِيَ إِلَى آخِرِهِ، فَإِذَا انْتَهَى أَوْ قَارَبَ تَبَيَّنَ أَمْرُهُ لِلْسَّامِعِ. فيقول، ثبت اللهُ تَعَالَى الْإِحْسَانَ عَلَيْهِ: أَخْبَرَنِي عَنِ التَّسْمِيَةِ^(١) الْمَنْسُوبِ إِلَيْكَ، أَصَحِيحٌ هُوَ عِنْدَكَ؟

يَا صَحْبَنَا عَرِّجُوا تَقِفْ بِكُمْ أَسْجُ

١ - التسميط: شكل من النظم الشعري متعدد الفواحي، وقد يكون خماسياً وقد يكون سباعياً، وتسمى القصيدة "مُسْمَطاً" وهو البدايات المشرقية المبكرة لما ابتكر الأندلسيون من الموشح.

مَهْرِيَّةٌ ذُلُجٌ فِي سَيْرِهَا مُعْجٌ
 طَالَتْ بِهَا الرَّحَلُ
 فَعَرَجُوا كُلُّهُمْ وَالْهَمُّ يَشْغَلُهُمْ
 وَالْعَيْسُ تَحْمِلُهُمْ لَيْسَتْ تُعَلِّلُهُمْ
 وَعَاجَتِ الرُّمْلُ
 يَا قَوْمُ إِنَّ الْهَوَى إِذَا أَصَابَ الْفَتَى
 فِي الْقَلْبِ ثُمَّ ارْتَقَى فَهَدَّ بَعْضَ الْقَوَى
 فَقَدْ هَوَى الرَّجُلُ

فيقول: لا والله ما سمعت هذا قط، وإنه لدرّب لم أسلكه، وإنّ الكذب لكثير، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام، ولقد ظلمني وأساء إليّ! أبعد كلمتي التي أوّلها:

أَلَا أَنْعِمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَنْعَمَنَّ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي؟

وبعد قولي:

خَلِيلِي مَرًّا بِي عَلَى أُمَّ جُنْدَبٍ لِأَقْضِي حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَدَّبِ

يُقال لي مثل ذلك؟ والرّجَزُ من أضعف الشّعْر، وهذا الوزُنُ من أضعف الرّجَز. فيعجب، ملأ الله فؤادَه بالسُّرور، لما سمعه من امرئ القيس ويقول: كيف يُنشد:

جَالَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ لَهَا: قِرِي إِنِّي امْرُؤٌ صَرَعِي عَلَيْكَ حَرَامٌ

أقول: حرام، فتقوي؟ أم تقول: حرام، فتخرجه مخرج حدام وقظام؟ وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الإقواء⁽¹⁾ عليك. فيقول امرؤ القيس: ليس الإقواء عندنا مستنكرًا، أما سمعت البيت في هذه القصيدة:

فكأنما بدرٌ وصيلٌ كتيّفةٌ وكأنما من عاقلٍ إرمام

فيقول: لقد صدقت يا أبا هند، لأنّ إرماماً هاهنا، ليس واقعاً موقع الصّفة فيحمل على المجاورة، لأنّه محمول على كأنما، وإضافته إلى ياء النفس تُضعف الغرض.

١ - الإقواء: تغيير حركة الروي بين الكسر والضم، وورد في أشعار كثير من الفحول كالنابغة والفرزدق، أما التغيير من الكسر أو من الضم إلى الفتح فهو الإصراف، وهو أفتح من الإقواء.

عنتره بن شداد

وينظر فإذا عنتره العبسيُّ مُتَحَيِّرٌ في السَّعِيرِ، فيقول: ما لك يا أبا عبيسٍ؟ كأنك لم تنطق بقولك:

ولقد شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
بِرْجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسْرَةٍ قُرْنَتْ بِأَزْهَرِ فِي الشَّمَالِ مُقَدِّمِ

وإني إذا ذكرتُ قولك:

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفَتِ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُُّمِ

أقول: إنَّما قيل ذلك وديوان الشعر قليلٌ محفوظٌ، فأما الآن، فقد كثرت على الصائد الطرائد. ولو سمعت ما قيل بعد مبعث النَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، لعبتبت نفسك على ما قلت، وعلمت أنَّ الأمر كما قال حبيبُ بن أوس^(١):

وَلَوْ كَانَ يَفْنِي الشِّعْرَ أَفْنَاهُ مَا قَرَّتْ حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي الْعُصُورِ الذَّوَاهِبِ
وَلَكِنَّهُ صَوَّبَ الْعُقُولَ إِذَا انْجَلَّتْ سَحَابُ مِنْهُ أَعْقَبَتْ بِسَحَابِ

فيقول: وما حبيبكم هذا؟ فيقول: شاعرٌ ظهرَ في الإسلام، ويُنشده شيئاً من نظمه، فيقول: أمَّا الأصلُ فعربيٌّ، وأمَّا الفرع فنطقَ به غبيٌّ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب. فيقول وهو ضاحكٌ مستبشراً: إنَّما يُنكر عليه المستعار، وقد جاءت الاستعارات في أشعار كثيرٍ من المتقدمين، إلا إنها لاتجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس. فما أردت بالمشوفِ المُعْلَمِ؟ الدينار أم الرِّداء؟ فيقول: أيُّ الوجهين أردت، فهو حسنٌ. فيقول، جعل الله سمعه مستودعاً لكل الصالحات: لقد شقَّ عليَّ دخولٌ مثلك إلى الجحيم، وكأنَّ أذني مصغيةٌ إلى قيان الفُسطاط وهنَّ يُعَرِّدن بقولك:

أَمِنْ سُمِّيَةِ دَمْعِ الْعَيْنِ تَذْرِيفُ؟ لَوْ أَنَّ ذَا مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفُ
تَجَلَّتَنِي إِذْ أَهْوَى الْعَصَا قِبَلِي كَأَنَّهَا رَشَاءٌ فِي الْبَيْتِ مَطْرُوفُ

١ - أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (١٨٨ - ٢٣١ هـ / ٨٠٣ - ٨٤٥ م) أحد أمراء البيان، استقدمه المعتصم إلى بغداد فقدمه على شعراء وقته، ثم ولي بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتى توفي بها. كان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام، في شعره قوة وجزالة، واختلف في التفضيل بينه وبين المتنبى والبحتري، له تصانيف، منها: فحول الشعراء، وديوان الحماسة، ومختار أشعار القبائل، ونقاظ جرير والأخطل.

العبدُ عَبْدُكُمْ، والمالُ مالُكُمْ فهل عذابُكَ عَنِّي اليومَ مَصْرُوفٌ

وإني لأتمثلُ بقولك:

وَلَقَدْ نَزَلَتْ فَلَا تَظُنِّي غَيْرَهُ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ

ولقد وُقِّفَتْ في قولك: الْمُحَبُّ، لأنَّكَ جِئْتَ بِاللَّفْظِ عَلَى مَا يَجِبُ فِي أَحَبَبْتُ، وَعَامَّةُ الشُّعْرَاءِ يَقُولُونَ: أَحَبَبْتُ، فَإِذَا صَارُوا إِلَى الْمَفْعُولِ قَالُوا: مَحْبُوبٌ. قَالَ زَهِيرُ بْنُ مَسْعُودٍ الضَّبِّيُّ:

وَإِضْحَةُ الْغُرَّةِ مَحْبُوبَةٌ وَالْفَرَسُ الصَّالِحُ مَحْبُوبٌ

وقال بعض العلماء: لم يُسْمَعْ بِمُحَبِّ إِلَّا فِي بَيْتِ عَنْتَرَةَ. وَإِنَّ الَّذِي قَالَ: أَحَبَبْتُ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: مُحَبُّ، إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ اخْتَارَتْ: أَحَبَّ فِي الْفِعْلِ، وَقَالَتْ فِي الْمَفْعُولِ: مَحْبُوبٌ.

علقمة بن عبدة

وينظر فإذا علقمة بن عبدة فيقول: يعز عليّ أن أراك في مكانك! ما أغنت عنك عقود اللؤلؤ
التي صُغتها، يعني قصيدته التي على الباء:

طحا بك قلب في الحسانِ طروبُ بُعيدَ الشبابِ عَصْرَ حانٍ مَشيبُ

والتي على الميم:

هَلْ ما عَلِمْتَ وما اسْتودِعْتَ مَكْتومُ أم حَبَلُها إِذْ نَأَتْكَ اليَوْمَ مَضْرُومُ

فبالذي يقدرُ على تخليصك، ما أردت بقولك:

فلا تَعْدِلي بيني وبينَ مُغَمَّرٍ سَقَتْكَ روايا المَزْنِ حينَ تَصُوبُ
وما القلبُ، أم ما ذِكْرها رَبَعِيَّةُ يُخَطُّ لها مِن تَرَمَداءِ قَليبُ

أَعْنَيْتَ بالقلبِ البئرَ التي يَرُدُّها الناسُ أم القبر؟ ولكلِّ وجهٍ حسنٌ.

فيقول علقمة^(١): إنك تريد أن تضحك عابساً، وتريد أن تجني الثمرَ يابساً، فعليك شغلُك أيها
السَّليم! فيقول: لو شفعت لأحد أبياتٍ صادقةً ليس فيها ذكرُ الله سبحانه، لشفعت لك أبياتك في
وصف النساء، أعني قولك:

فإن تَسألوني بالنِّساءِ فإنَّني بَصيرٌ بأدواءِ النِّساءِ طَبيبُ

إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قَلَّ مالُهُ فليسَ لَهُ في وُدِّهِنَّ نَصيبُ

يُرِدُّنَ ثراءَ المالِ حيثُ عَلِمَنَّهُ وشَرَّخُ الشَّبابِ عِنْدَهُنَّ عَجيبُ

ولو صادفتُ منك راحةً لَسألتُكَ عن قولك:

وفي كَلِّ حَيٍّ قد خَبَطَ بِنِعْمَةٍ فحُقَّ لَشاسٍ مِن نَدائِكَ دُبوبُ

١ - علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس، من بني تميم المتوفى ٢٠ ق. هـ / ٦٠٢ م ولقبه "علقمة الفحل"، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصراً
لامرئ القيس وله معه مساجلات. وقيل إن لقبه هذا كان لتمييزه من علقمة بن سهيل الذي كان يلقب "علقمة الخصي"، وقيل بل لأنه احتكم مع امرئ
القيس إلى زوجة هذا، فحكمت لعلقمة بأنه أشعر، فاتهما امرؤ القيس بأنها تعشق علقمة وطلقتها، فتزوجها علقمة.

أهكذا نطق بها طاءً مشددةً، أم قالها كذلك عربيٌّ سواك؟ فقد يجوز أن يقول الشاعر الكلمة،
فيغيِّرها عن تلك الحال الرواة. وإنَّ في نفسي حاجةً من قولك:

كأسٌ عزيزٌ من الأعنابِ عتَّقها لبعضِ أربابها حانيَّةٌ حومٌ

فقد اختلف النَّاسُ في قولك حومٌ، فقليل: أراد حُمَّاً، أي سوداً، فأبدل من إحدى الميمين واواً.
وقيل: أراد حوماً أي كثيراً، فضمَّ الحاء للضرورة، وقيل: حومٌ، يحام بها على الشُّرب أي يطاق. وكذلك
قولك:

يَهدي بها أكلَفُ الخدَّينِ مُختَبِرٌ من الجمالِ كثيرُ اللَّحمِ عَيْثومٌ

فروي: يَهدي، بالدَّالِ، ويهذي بالذال. وقيل: مختَبِرٌ، من اختبارِ النوق التي لم تلتح من اللواقح،
وقيل: هو من الخبير أي الزُّبد، وقيل: الخبير الوَبَر.

عمرو بن كلثوم^(١)

(ألا هبي بصحنك فاصبحينا)

ويقول: ليت شعري ما فعل عمرو بن كلثوم، فيقال: ها هوذا من تحتك، إن شئت أن تحاوره فافعل. فيقول: كيف أنت أيها الشارب صُبحاً بصحن الغانية، ومساءً في الدنيا الفانية؟ لوددت أنك لم تُساند في قولك:

كَأَنَّ مُتَوَنَّهُنَّ مُتَوْنَ غُدْرٍ تُصَفُّهَا الرِّيحُ إِذَا جَرَيْنَا

فيقول عمرو: إنك لقرير العين لا تشعر بما نحن فيه، فاشغَل نفسك بتمجيد الله واترك ما ذهب فإنه لا يعود. وأما ذكرك سنادي^(٢)، فإن الإخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة، ويكون فيهم الأعرج أو الأعور، فلا يعابون بذلك، فكيف إذا بلغوا المائة في العدد، وأرهقهم المدد؟

فيقول: يعز عليّ أنك اقتصرت على شرب ماء الجحيم الذي قال عنه القرآن: حميم، وأخذت بعملك الدميم، من بعد ما كنت تشتري لك الخمرة من كل تاجر دهقان، فتأتيك بلون الزعفران. وقالوا في قولك:

مُشَعَّشَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيهَا إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا

إن سخيناً: فِعْلُنَا مِنَ السَّخَاءِ، والنون نون المتكلمين، وقال آخرون إنه من الماء الساخن، لأن الأندرين وقاصرين كانتا للروم، ومن شأنهم أن يشربوا الخمر بالماء السخين في صيفٍ وشتاءٍ. ولقد سئل بعض الأدباء ببغداد عن قولك:

فَمَا وَجَدْتُ كَوْجِدِي أُمَّ سَقْبٍ أَضَلَّتْهُ فَرَجَّعَتِ الحِينَا

وَلَا شَمِطَاءٌ لَمْ يَتْرُكْ شَقَاهَا لَهَا مِنْ تِسْعَةٍ إِلَّا جَنِينَا

١ - عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب التغلبي المتوفى ٣٩ ق. هـ / ٥٨٤ م شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، كان من أعز الناس نفساً، وهو من الفتاك الشجعان، ساد قومه (تغلب) وهو فتى وعمر طويلاً وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند. أشهر شعره معلقته التي مطلعها
٢ - السناد: تغير حركة الحرف قبل الروي، ومنه ما هو مكروه، ومنه غير مكروه، مثل: أبادر والمظاهر، وخموشا وقريشا، وعلينا وكيمنا هل يجوز نصب شمطاء؟ فلم يجب بشيء، وذلك يجوز عندي من وجهين: أحدهما على إضمار فعل دل عليه السامع معرفته به، كأنك قلت: ولا أدكر شمطاء، أي إن حنينها شديد، ويجوز أن يكون على قولك: ولا تنس شمطاء، أو نحو ذلك من الأفعال.

الحارث الإشكري

وينظر فإذا الحارث الإشكري^(١) فيقول: لقد أتعبت الرُّواة في تفسير قولك:

زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعَيْبَ رَ مَوَالٍ لَنَا، وَأَنَا الْوَلَاءُ

وما أحسبك أردت بالغير إلا الحمار. ولقد أحسنت في قولك:

لَا تَكْسَعُ الشُّوْلَ بِأَغْبَارِهَا إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ

وقد كانوا في الجاهليَّة يعكسون ناقة الميِّت على قبره، ويزعمون أنَّه إذا نهض لَحَشْره، وجدها قد بعثت له فيركبها، فليته لا يكسر بثقله مَنِكَبَهَا. وهيهات! بل حُشروا عرأة حفاةً بهُمَا لم يُخْتنوا، وقد ذكرت تلك الناقة في قولك:

أَتَلَهَى بِهَا الْهَوَاجِرَ إِذْ كُ لُّ ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمِيَاءُ

١ - الحارث بن حلزة بن مكروه الإشكري الوائلي المتوفى ٥٤ ق. هـ / ٥٧٠ م، أحد أصحاب المعلقة. كان أبرص فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند ملك الحيرة، جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم حتى صار مضرب المثل في الافتخار، فقيل: أفخر من الحارث بن حلزة.

طرفة بن العبد

ويعمد لسؤال طرفة بن العبد^(١) فيقول: يا ابن أخي يا طرفة خفف الله عنك، أتذكر قولك:

كريمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ سَتَعْلَمُ إِن مَتْنَا غَدًا أَيْنَا الصَّدي

وقولك:

أرى قَبْرَ نَحَامٍ بِخَيْلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدِ

وقولك:

مَتَى تَأْتِنِي أَصْبِحُكَ كَأَسَا رَوِيَّةً وَإِنْ كُنْتَ عَنْهَا غَانِيًا فَاعْنِ وَارْدِدِ

فكيف صَبُوْحُكَ الْآنَ وَعُبُوْقُكَ فِي الصَّبْحِ وَالْعَشِيَّةِ؟ إِنِّي لِأَحْسِبُهُمَا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ حَمِيمًا، لَا يَفْتَأُ مَنْ شَرَبَهُمَا ذَمِيمًا. وَهَذَا الْبَيْتُ مُتَنَازَعٌ فِيهِ: فَيَنْسُبُهُ إِلَيْكَ قَوْمٌ، وَيَنْسُبُهُ آخَرُونَ إِلَى عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ، وَهُوَ بِكَلَامِكَ أَشْبَهُ:

وَأَصْفَرَ مَضْبُوحٍ نَظَرْتُ حِوَارَهُ عَلَى النَّارِ وَاسْتَوَدَعْتُهُ كَفَّ مُجْمِدِ

وَشَدَّ مَا اخْتَلَفَ النُّحَاةَ فِي قَوْلِكَ:

شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان هجاءً غير فاحش القول، تفيض الحكمة على لسانه في أكثر شعره. اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلى المُكْعَبِرِ عامله على البحرين وعمان يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المُكْعَبِرُ شابًا.

أَلَا أَيُّهَذَا الرَّاجِرِي أَحْضَرَ الْوَعْيَ وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ، هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي؟

وأما سيبويه فيكره نصبَ أَحْضَرَ، لَأَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ عَوَامِلَ الْأَفْعَالِ لَا تَضْمَرُ. وَكَانَ الْكُوفِيُّونَ يَنْصَبُونَ أَحْضَرَ بِالْحَرْفِ الْمَقْدَّرِ، وَيُقَوِّي ذَلِكَ: وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ، فَجِئْتُ بِأَنْ. وَلَقَدْ جِئْتُ بِأَعْجُوبَةٍ فِي قَوْلِكَ:

١ - طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري (٨٦ - ٦٠ ق.هـ / ٥٢٩ - ٥٦٤ م)

لو كان في أملاكنا ملكٌ يَعْصِرُ فينا كالذي تَعْصِرُ
 لاجْتَبَتْ صَحْنِي العِراقِ على حَرَفِ أمونٍ، دَفْها أَرْوَرُ
 مَتَّعَنِي يَوْمَ الرَّحِيلِ بها فَرَعُ تَنْقَاهُ القِداحِ يَسْرُ

ولقد كثرت في أمرك أقاويل النَّاسِ: فمنهم من يزعم أنَّك في ملك النُّعْمانِ اعتقلت، وقال قومٌ: بل الذي فعل بك ما فعل عمرو بن هندٍ. ولو لم يكن لك أثرٌ في العاجلة إلا قصيدتك التي على الدال، لكنت قد أبقيت أثراً حسناً.

فيقول طرفه: وددت أني لم أنطق شرطاً من بيت، وهدمت في الدار الرِّائِلة كل ما أنفقت وأفنيت، ودخلت الجنَّة مع الرعاع والعبيد، ولم يعمدوا إلى التنكيل بي بالنار والحديد، وكيف لي بهداءٍ وسكون، أركن إليه بعض الركون؟ «وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً»^(١).

ويلفت عنقه يتأمل، فإذا هو بأوس بن حجر، فيقول: يا أوس، إن أصحابك لا يجيبون السائل، فهل لي عندك من جواب؟ فأني أريد أن أسألك عن هذا البيت:

وقارَفتُ وهي لم تَجْرَبْ وباعَ لها مِنَ الفَصافِصِ بالنُّمِّيِّ سَفْسِيرُ

فإنه في قصيدتك التي أولها:

هَلْ عاجِلٌ من مَتاعِ الحَيِّ مَنْظورُ أَم بَيْتٌ دَوَمَةٌ بَعْدَ الإِلفِ مَهْجورُ

ويُروى في قصيدة النَّابِغة التي أولها:

ودُّعُ أَمامَةٍ وَالتُّودِيعُ تَغْذِيرُ وما وداعُكَ مَنْ قَفَّتْ بِهِ العِيرُ

وكذلك البيت الذي قبله:

قد عَرَّيتُ نِصْفَ حَوَلٍ أَشْهُراً جُدُداً يَسْفِي على رَحْلِها في الحِيرَةِ المُوَرُ

وكذلك قوله:

إنَّ الرَّحِيلَ إلى قومٍ وإن بَعُدوا أَمَسُوا ومن دُونهم تَهْلانُ فالنَّيْرُ

وكلاهما معدودٌ في الفحول، فعلى أيِّ شيءٍ يُحْمَلُ ذلك؟ وتعجبنى لامِيتُك التي ذكرت فيها

الجُرَجَة وهي الخريطةُ من الجلد كالخُرج، فقلت لَمَّا وصفت القوس:

فَجِئْتُ بِبَيْعِي مُوَلِيًّا لَا أزيدُهُ عَلَيْهِ بِهَا حَتَّى يُوُوبَ المُنْخَلُّ
ثَلَاثَةُ أَبرَادٍ جِيَادٍ وَجُرَجَةٌ وَأَذْكَنُ مِنَ أَرْي الدَّبُورِ مُعَسَّلُ

فيقول أوسٌ: قد بلغني أن نابغة بني ذبيان في الجنة، فأسأله عما بدا لك فلعله يخبرك، فإنه أجدر بأن يعي هذه الأشياء، فأما أنا فقد ذهلت: نارٌ توقد، ولكل منا في النار مقعد، إذا غلب علي الظمأ، رفع لي شيء كالنهر، فإذا اغترفت منه لأشرب، وجدته سعيراً مضطرباً، فليتني أصبحت درماً، وهو الذي يقال فيه: أودى درم^(١). ولقد دخل الجنة من هو شر مني، ولكن المغفرة أرزاق، كأنها المال في الدار العاجلة. فيقول، صار وليه من المتبوعين، ومبغضه بالسفه من المدعورين: إنما أردت أن آخذ عنك هذه الألفاظ، فأتحف بها أهل الجنة فأقول: قال لي أوس، وأخبرني أبو شريح. وإنني لكاره قولك:

والخيلُ خارجةٌ من القسطل^(٢)

أخرجت الاسم إلى مثال قليل، لأن فعلاً لم يجئ في غير المضاعف، وقد حكى: ناقةٌ بها خزعالٌ، أي بها ظلعٌ.

١ - هو درم بن دُبُّ بن مرة بن ذهل بن شيبان، وكان النعمان يطلبه، فظفر به رجاله، فأرادوا حمله إليه، فمات في أيديهم، فلما رآهم سألهم عنه، فقالوا: "أودى درم"، أي هلك، فذهبت مثلاً في كل شيء يهلك وينهب.

٢ - والقسطل هو الغبار

أبو كبير الهذلي

ويرى رجلاً في النار لا يميّزه من غيره، فيقول: من أنت أيها الشقي؟ فيقول: أنا أبو كبير الهذلي،
عامر بن الحليس،^(١) فيقول: إنك لمن أعلام هذيل، ولكني لم أوثر قولك:

أزْهَيْرُ هَلْ عَن شَيْبَةَ مِنْ مَعْدِلٍ أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ الْأَوَّلِ

وقلت في الأخرى:

وَلَنْعَمَ مَاوَى الْمُسْتَضِيفِ إِذَا دَعَا وَالْخَيْلَ خَارِجَةً مِنَ الْقَسْطَالِ
أزْهَيْرُ هَلْ عَن شَيْبَةَ مِنْ مَصْرِفٍ أَمْ لَا خُلُودَ لِعَاجِزٍ مُتَكَلِّفٍ

وقلت في الثالثة:

أزْهَيْرُ هَلْ عَن شَيْبَةَ مِنْ مَعَكُمْ أَمْ لَا خُلُودَ لِعَاجِزٍ مُتَكَرِّمٍ

أي من محبس، فهذا يدل على قصرِ باعِك بالقريظ، فهلا ابتدأت كل قصيدة بفن؟
والأصمعي لم يرو لك إلا هذه القصائد الثلاث، وقد حكي أنه يروي عنك الرائية التي أولها:

أزْهَيْرُ هَلْ عَن شَيْبَةَ مِنْ مَقْصِرٍ أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ الْمُدِيرِ

فيقول أبو كبير الهذلي: كيف لي أن أردّ كلمات عذاباً مُغْدِقَاتٍ، وأنا أفضمُ جَمَرَاتٍ محرقَاتٍ؟
وإنما كلام أهل سَقَرٍ وِيلٌ وَعَوِيلٌ، وعذابهم فيها طويلٌ، فاذهب لحاجتك، واحذر أن تشغل عن
راحلتك. فيقول، بلّغه الله أقاصي الأمل: كيف لا أسعدُ وقد ضمنت لي الرّحمة الدائمة، ضمنتها من
يصدق ضمانه، ويعمُّ أهل الخوف أمانه؟

١ - شاعر فحل، من شعراء الحماسة قيل: أدرك الإسلام وأسلم، وله خبر مع النبي صلى الله عليه وسلم. ويروى أنه تزوج أم تابط شرأ وكان غلاماً صغيراً.
وله أربع قصائد تبدأ بقوله: أزهير هل عن شيبه من...

الأخطل التغلبي

وإذا هو برجلٍ يصيحُ ألمًا، فيقول: من هذا؟ فيقال: الأخطلُ التَّغْلَبِيُّ، فيقول له: ما زلتَ تتباهى بوصفِ الخمر، حتى صرتَ طعامًا للنار وللجمر، كم طَرَبَ السَّادَاتِ على قولك:

أَنَاخُوا فَجَرُّوا شَاصِيَاتٍ كَأَنَّهَا	رِجَالٌ مِنَ السُّودَانِ لَمْ يَتَسَرَّبَلُوا
فَقُلْتُ اضْبِحُونِي لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ	وَمَا وَضَعُوا الْأَثْقَالَ إِلَّا لِيَفْعَلُوا
فَصَبُّوا عُقَارًا فِي الْإِنَاءِ كَأَنَّهَا	إِذَا لَمَحُوهَا جَدْوَةٌ تَتَاكَلُّ
وَجَاؤُوا بِبَيْسَانِيَّةٍ هِيَ بَعْدَمَا	يَعْلُ بِهَا السَّاقِي أَلْدُ وَأَسْهَلُ
وَتُوقَفُ أحيانًا فَيَفْصَلُ بَيْنَنَا	غِنَاءٌ مُغَنٌّ أَوْ شِوَاءٌ مُرْعَبَلُ
فَلَدَّتْ لُمُتْرَاحٍ وَطَابَتْ لِشَارِبٍ	وَرَاجَعَنِي مِنْهَا مِرَاحٌ وَأُخَيْلُ
فَمَا الْبَثْتِنَانِ شَوْهَةٌ لِحِقَّتْ بِنَا	تَوَابِعُهَا مِمَّا نَعَلُ وَنُنْهَلُ
تَدِبُّ دَبِيبًا فِي الْعِظَامِ كَأَنَّهُ	دَبِيبُ نِمَالٍ فِي نَقَائِ تَهَيَّيْلُ
رَبَّتْ وَرَبَا فِي كَرْمِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ	مُكِبُّ عَلَى مِسْحَاتِهِ يَتَرَكَ كَلُّ
إِذَا خَافَ مِنْ نَجْمٍ عَلَيْهَا ظَمَاءَةٌ	أَدَبٌ إِلَيْهَا جَدُولًا يَتَسَلَّسَلُ
فَقُلْتُ اقْتُلُوها عَنكُمْ بِمِزَاجِهَا	وَحُبُّ بِهَا مَقْتُولَةٌ حِينَ تُقْتَلُ

فقال التَّغْلَبِيُّ: إِنِّي جَرَرْتُ الدَّنَانَ، ولقيتُ الفرسان، وهجرت كلَّ فعلٍ مُنكر، ورجوت أن تدعى النَّفْسُ إلى ما تُؤمر، ولكن أبت الأفضية.

فيقول، أحلَّ الله الهلكة بمغضيه: أخطأت في أمرين: جاء الإسلام فأبیت أن تدخل فيه، ولزمت أخلاق سفيه، وعاشت ابن معاوية يزيد^(١)، وأطعت نفسك الغاوية فيما تريد، وآثرت ما يفنى على ما يبقى، فكيف إلى المغفرة ترقى؟

١ - يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي (٢٥ - ٦٤ هـ / ٦٤٥ - ٦٨٣ م) ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد بالمطرون، ونشأ في دمشق. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠ هـ وفي أيامه كانت فاجعة الشهيد (الحسين بن علي) في كربلاء ٦١ هـ. وخلع أهل المدينة طاعته سنة (٦٣ هـ) فأمر باستباحتها ثلاثة أيام، وأن يبايع أهلها على أنهم خول وعبيد ليزيد، فقتل فيها الكثير من الصحابة والتابعين.

وكان نزوعاً إلى اللهو، وينسب له شعر رقيق وإليه ينسب (نهر يزيد) في دمشق.

فيزفرُ الأخطلُ زفرةً تعجب لها الزبانية، ويقول: آه على أيام يزيد، لا أشمُّ عنده إلا عنبراً ومن العود دخاناً، ولأعدمٌ لديه ريحاناً، وأمّزح معه مزح خليل، فيحتملني احتمال الجليل، وكم ألسني من موشى الرداء، فأسحب الذيل في الصباح والعشاء، وكأني بالقيان الصادحات بين يديه يُغنينه بقوله:

ولها بالمطرون إذا أنفدَ الثمّل الذي جمعا
خلفه حتى إذا ظهرت سكنت من جلق بيعا
في قبابٍ حول دسكرة حولها الزيتون قد ينعا
وقفت للبدر ترقبه فإذا بالبدر قد طلعا

ولقد فاكهته في بعض الأيام والسكر قد تمكّن مني، فقلت:

اسلم سلمت أبا خالدٍ وحيّاك ربك بالعنقز
أكلت الدجاج فأفنتها فهل في الخنايص من مغمز

فما زادني عن ابتسام، واهتزّ للصلة اهتزاز الحسام. والخنايص الخنازير، وهي محرمة في الإسلام فيقول، أدام الله تمكينه: أما علمت أنّ ذلك الرجل ظالم جائر، وفي دروب المعصية والغيّ سائر؟ فعلام اطلعت من مذهبه: أكان موحداً، أم وجدته ملحداً؟ فيقول الأخطل: كانت هذه الأبيات تعجبه:

أخالد هاتي خبريني وأعلني حديثك، إني لا أسرُّ التناجيا
حديث أبي سفيان لما سما بها إلى أحد حتى أقام البواكيا
وكيف بغى أمراً عليّ ففاته وأورثه الجد السعيد معاويا
وقومي فعلّيني على ذلك قهوة تحلبها العيسى كرمًا شاميا
إذا ما نظرنا في أمورٍ قديمة وجدنا حلالاً شربها المتواليا
فلا خُلف بين الناس أنّ محمداً تبوّأ رمساً في المدينة ثاويا^(١)

فيقول، جعل الله أوقاته كلها سعيدة: عليك اللعنة! قد ذهبت الشعراء من أهل الجنة والنار

١ - لم أجد ذكراً لهذه الأبيات، لا في شعر الأخطل ولا في أشعار يزيد، حتى إنها لم ترد في أي كتاب من كتب التراث.

عن المدح والنسيب، وما شُدِّهت عن كُفرك ولا إساءتك. وإبليس يسمع ذلك الخطاب كله فيقول للزبانية: ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك^(١)! فيقولون: كيف زعمت ذلك يا أبا مُرَّة^(٢)؟ فيقول: ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه؟ قد شغلكم وشغل غيركم عما هو فيه! فلو أن فيكم صاحب طبيعة قويَّة، لو ثب وثبَّة حتى يلحق به، فيجذبه إلى سقر. فيقولون: لم تصنع شيئاً يا أبا زوبعة! ليس لنا على أهل الجنة سبيل.

فإذا سمع، أسمع الله ما يحب، ما يقول إبليس، أخذ في شتمه ولعنه وإظهار الشَّماتة به. فيقول، عليه اللعنة: ألم تُنْهَوْا عن الشَّماتة يا بني آدم؟ ولكنكم، بحمد الله، ما زجرتم عن شيءٍ إلا وركبتموه. فيقول، واصل الله الإحسان إليه: أنت بدأت آدم بالشَّماتة، والبادئُ أظلم: ثمَّ يعود إلى كلام الأخطل فيقول: أنت القائل هذه الأبيات:

ولسْتُ بصائمٍ رمضانَ طَوْعاً ولسْتُ بأكِلٍ لحمِ الأضاحي
ولسْتُ بقائمٍ كالعيرِ أدعو قُبَيْلَ الصُّبحِ: حيَّ على الفلاح
ولكنِّي سأشربُها شَمولاً وأسجدُ عند مُنْبَلَجِ الصُّباح

فيقول: أجل، وإني لنادمٌ أشدَّ الندم، وهل أغنت الندامة عن أخي كُسَع؟^(٣)

١ - مالك: خازن النار.

٢ - أبو مُرَّة: كنية إبليس.

زَوْبَعَةُ: اسم شيطان مارد أو رئيس من رؤساء الجن؛ ومنه سمي الإعصار زوبعة. وأبو زوبعة: إبليس اللعين.

٣ - هذا مثل عند العرب، إذ يقولون: أندم من الكسعي. واسمه مُحارب بن قيس، وكان أرمى الناس، لا يخطئ له سهم، فخرج فرمى صيداً في الليل، فأصاب سهمه ونفذ، فوقع في الحجر ففدح ناراً. ثم رمى كذلك حتى استفد السهام. وهو يظن أنه أخطأ في الجميع، فكسر قوسه. فلما أصبح رأى رميته، فندم على فعله، وعض على أصبعه حتى قطعها.

المهلهل التغلبي^(١)

وَيَمَلُّ من خطاب أهل النَّارِ، فينصرف إلى قصره المُشَيَّدِ، فإذا صار على ميلٍ أو ميلين، ذكر أنه ما سأل عن مُهَلِّهِ التَّغْلِبِيِّ ولا عن المَرَقَّشِينَ وأنه أَغْفَلَ الشَّنْفَرِيَّ وتَأَبَّطَ شَرًّا، فيرجع أدراجَه، فيقف بذلك الموقف ينادي: أين عديُّ بن ربيعة؟ فيقال:

زد في البيان. فيقول: الذي يستشهد النُّحُوِّيُّون بقوله:

ضَرَبْتُ صَدْرَهَا إِلَيَّ وَقَالَتْ: يَا عَدِيًّا لَقَدْ وَقَتَكَ الْأَوَاقِي

وقد استشهدوا له بأشياء كقوله:

وَلَقَدْ خَبَطْنَ بِيوتَ يَشْكُرُ خَبْطَةً أَحْوَالُنَا، وَهُمُ بَنُو الْأَعْمَامِ

وقوله:

مَا أَرْجِي بِالْعَيْشِ بَعْدَ نَدَامِي كُلُّهُمْ قَدْ سُقُوا بِكَأْسِ حَلَاقِي

فيقال: إنَّكَ لَتُعَرِّفُ صاحِبَكَ بأمر لا معرفة عندنا به، ما النُّحُوِّيُّون؟ وما الاستشهاد؟ وما هذا الهديان؟ نحن خزنة النَّارِ، فبيِّنْ غرضَكَ تُجِبْ إليه. فيقول: أريد المعروفَ بِمُهَلِّهِ التَّغْلِبِيِّ، أخي كُليبٍ وائلٍ الذي كان يُضْرَبُ به المثل.^(٢)

فيقال: ها هو ذا يسمعُ حوارك، فقل ماتشاء. فيقول: يا عديُّ بن ربيعة، يَعْزِ عليَّ أن أراك في هذا المقام، لو لم آسف عليك إلا لأجل قصيدتك التي أوَّلها:

أَلَيْلَتَنَا بذي حُسْمٍ أَنْيَرِي إِذَا أَنْتِ انْقَصَيْتِ فِلا تَحَوْرِي

١ - المهلهل عدي بن ربيعة بن مرة من تغلب المتوفى ٩٤ ق. هـ / ٥٢١ م. وهو خال الشاعر امرئ القيس. قيل: لقب مهلهلاً، لأنه أول من هلهل الشعر، أي رققه. وكان من أصبح الناس وجهاً وأفصحهم لساناً. انشغل باللهو والنساء، فسماه أخوه كليب (زير النساء) أي جليسهن. ولما قتل جساس بن مرة كليباً انقطع عن الشراب واللهو إلى أن يثار لأخيه، فكانت وقائع بكر وتغلب، التي عرفت بحرب البسوس ودامت أربعين سنة، وكانت للمهلهل فيها العجائب والأخبار الكثيرة.

٢ - هو كليب بن ربيعة بن الحرث بن زهير، وكان سيد ربيعة في زمانه، وقد بلغ من عزه أنه كان يحمي الكلأ فلا يقربه أحد، ويُجير الصيد فلا يُهاج، وكان من عزه لا يتكلم أحد في مجلسه.

لكانت جديرةً أن تُطيلَ الأسفَ عليك، وقد كنتُ إذا أنشدتُ أبياتك في ابنتك المَزوجَةِ في
”جَنبٍ“ تغرورق من الحزن عيناى، فأخبرني لِمَ سُمِّيتَ مُهلِهلاً؟ فقد قيل: إِنَّكَ سُمِّيتَ بِذَلِكَ لِأَنَّكَ
أَوَّلُ مَنْ هَلَهَلَ الشُّعْرَ أَيَّ رَقَّقَهُ.

فيقول: إِنَّ الكَذِبَ لكثيرٌ، وإنَّما كان لي أَخٌ يقال له امرؤُ القيس فأغارَ علينا زهير بن جنابِ
الكلبيِّ، فتبعه أخي في زُرَافَةٍ من قومه، فقال في ذلك:

لَمَّا تَوَقَّلَ فِي الكِرَاعِ هَجِينُهُمْ هَلَهَلْتُ أَثَارُ مَالِكًا أَوْ صَنِيلًا
وَكأنَّه بَارِزٌ عَلَتَهُ كَبْرَةٌ يَهْدِي بِشَكَّتِهِ الرَّعِيلَ الأَوَّلَا

هلَهلت: أي قاربت، ويقال: توقَّفت، يعني بالهجين زهير بن جنابٍ. فسُمِّيَ مهلهلاً فلَمَّا هلك
شُبَّهْتُ به فقيل لي: مُهلِهَل. فيقول: الآن شفيت صدري بحقيقة اليقين. فأخبرني عن هذا البيت
الذي يُروى لك:

أرْعَدُوا سَاعَةَ الهِيَاجِ وَأَبْرَقُوا نَا كَمَا تُوعِدُ الفُحُولُ الفُحُولَا

فإنَّ الأَصْمَعِيَّ كان يُنكره ويقول: إِنَّهُ مُوَلَّدٌ، وكان أبو زيدٍ يستشهدُ به ويثبته. فيقول: لقد نسيت
ما قلت في الدار الفانية، فما الذي أنكر منه؟ فيقول: زعم الأَصْمَعِيُّ أَنَّهُ لا يُقالُ أرْعَدَ وَأَبْرَقَ في
الوَعِيدِ ولا في السَّحَابِ. فيقول: إِنَّ ذلكَ لخطأٌ من القول، وإنَّ هذا البيت لم يقله إلا رجلٌ من نبع
الفصاحة، إما أنا وإمَّا سواي، فخذ به وأعرض عن قول السُّفهاء.

مع المرقشيين (١)

ويسأل عن المرقش الأكبر، فإذا هو به في أطباق العذاب، فيقول: خفف الله عنك أيها الشاب المغتصب، فلم أزل في الدار العاجلة حزينا لما أصابك به الرجل الغفلي، أحد بني غفيلة بن قاسط، فعليه لعنة الله! (٣) وإن قوماً من أهل الإسلام كانوا يزرون بقصيدتك الميمية التي أولها:

هل بالديار أن تُجيبَ صَمَمَ لو كانَ رَسْمٌ ناطِقاً كَلَمَ

وإنها عندي لمن المفردات، وكان بعض الأدباء يرى أنها والميمية التي قالها المرقش الأصغر ناقصتان عن القصائد المفضلّيات (٣)، ولقد وهم صاحب هذه المقالة. وبعض الناس يروي هذا الشعر لك:

تخيّرْتُ من نَعَمَانَ عودَ أراكِةٍ لِهِنْدِ، ولكنَ من يُبَلِّغُه هِنْدَا
خليلي جُوراً بَارِكَ اللهُ فيكما وإن لم تكنْ هِنْدُ لأرضكما قصدا
وقولا لها: ليس الضلالُ أجارنا ولكننا جُرنَا للنلقا كُمُ عَمْدَا

ولم أجدها في ديوانك، فهل ما حكي صحيح عنك؟ فيقول: لقد قلت أشياء كثيرة، منها ما نقل إليكم ومنها ما لم يُنقل، وقد يجوز أن أكون قلت هذه الأبيات ولكني نسيتها لطول الأمد، ولعلك تستنكر أنها في هند، وأن صاحبتني أسماء، فلا تنفر من ذلك، فقد ينتقل المُشَبَّبُ من الاسم إلى الاسم، ويكون في بعض عُمره مُستهتراً بشخص من الناس، ثم ينصرف إلى شخص آخر، ألا تسمع إلى قولي:

سَفَهَ تَدَكُّرُهُ حُوَيْلَةَ بَعْدَمَا حَالَتْ دُرَا نَجْرَانَ دُونَ لِقَائِهَا

١ - المرقش الأكبر عوف بن سعد بن مالك المتوفى ٧٢ ق. هـ / ٥٥٢ م، شاعر من المتييمين الشجعان، عشق ابنة عمه (أسماء) وقال فيها شعراً كثيراً ضاع أكثره، وشعره من الطبقة الأولى، وتزوجت أسماء برجل من بني مراد، فمرض المرقش زمناً ثم قصدها فمات عندها. وهو عم المرقش الأصغر رببعة بن سفيان بن سعد بن مالك المتوفى ٥٤ ق. هـ / ٥٧٠ م شاعر جاهلي من أهل نجد، أشعرُ المرقشيين، وكان من أجمل الناس وجهاً وأحسنهم شعراً، كلف بفاطمة بنت الملك المنذر وأكثر من ذكرها في شعره، وهو عمُ طرفة بن العبد.

٢ - يروى أن خادم المرقش الغفلي تركه في غار بين الحياة والموت، وأن المرقش كتب على رحل الناقة أبياتاً فهم منها أخوه ما حدث، فقتل الغفلي بعد أن عرف منه مكان المرقش.

٣ - المفضلّيات: أقدم المجموعات الشعرية، نسبة إلى مؤلفها المفضلّ الضبيّ المتوفى ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م.

وينعطف إلى المرفّش الأصغر فيسأله عن شأنه مع بنت المنذر وبنت عجلان فيجده غير خبير،
قد نسي لتعاقب الأزمان، فيقول: ألا تذكر ما صنع بك جناب الذي تقول فيه:

وَأَلَى جَنَابٍ حِلْفَةٍ فَأَطَعْتَهُ فَنَفْسَكَ وَاللَّوْمَ إِن كُنْتَ لِإِذَا

فيقول: وما صنع جناب؟ لقد لقيت من العذاب الأكبرين، وسُقيتُ الأمرين، وكيف لي بتذكر ما
لقيت في الدار العاجلة.

تأبط شرّاً والشنفرى^(١)

فإذا لم يجد عنده طائلاً تركه، وسأل عن الشنفرى الأزديّ فألفاه قليل التَشَكِّي والتأثُّم لما هو فيه، فيقول: إنِّي لا أراك قلقاً مثل قلقِ أصحابك. فيقول: أجل، إنِّي قلت بيتاً في الدار الخادعة، فأنا أتأدّبُ به مدى الدهر، وذلك قولي:

غوى فغوتُ ثمَّ ارعوى بعدُ وارعوتُ وللصبرِ إنَّ لم ينفعِ الشكُّو أجملُ

وإذا هو قرينٌ مع تأبط شرّاً، كما كانا في الدار الغرّارة. فيقول، أسنى الله حظّه من المغفرة، لتأبط شرّاً: أحقُّ ما روي عنك من نكاح الغيلان؟ فيقول: لقد كنّا في الجاهليّة نتقولُ ونخترع الأحاديث، فما جاءك عنّا ممّا تُنكره العقول فإنّه من الأكاذيب، والزّمن كله على سجيّةٍ واحدةٍ، فالذي شاهده معدُّ بن عدنان كالذي شاهد نضاضة ولد آدم. والنضاضة آخر ولد الرّجل.

فيقول، أجزل الله عطاءه من الغفران: نقلت إلينا أبياتٌ تنسب إليك:

أنا الذي نكحَ الغيلان في بلدٍ ما طلَّ فيه سِماكيُّ ولا جادا
في حيثُ لا يَعِمُّ الغادي عَمائتُهُ ولا الظلِّيمُ به يَبغي تَهَبّادا
وقد لهوتُ بمصقولٍ عوارِضها بِكِرٍ تُنازعني كأساً وعنقادا
ثمَّ أنقضى عصرها عني وأعقبه عصرُ المشيبِ فقلُّ في صالح: بادا

فاستدللت على أنّها لك لما قلت: تهبّادا، مصدر تهبّدَ الظليم إذا أكل الهبيد،^(٢) فقلت: هذا مثل قوله في القافية:

١ - ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي من مضر المتوفى ٨٥ ق. هـ / ٥٤٠ م، شاعر عداء، من فتاك العرب في الجاهلية، كان من أهل تهامة، قتل في بلاد هذيل.

الشنفرى عمرو بن مالك الأزدي، من قحطان المتوفى ٧٠ ق. هـ / ٥٥٤ م شاعر جاهلي يمني، من فحول الطبقة الثانية، وكان من فتاك العرب وعدائهم، وهو أحد الخلفاء الذين تبرأت منهم عشائهم، وهو صاحب لامية العرب.

٢ - الظليم: ذكر النعام. الهبيد: الحنظل

طَيْفُ ابْنَةِ الْحُرِّ إِذْ كُنَّا نُوَاصِلُهَا ثُمَّ اجْتُنِنْتُ بِهَا بَعْدَ التَّفَرَّاقِ

مصدر تفرَّقوا تَفَرَّقًا، وهذا مطرِدٌ في تَفَعَّلَ، وإن كان قليلاً في الشعر، كما قال أبو زيد:

فَنَارَ الزَّاجِرُونَ فزَادَ مِنْهُمْ تَقْرَابًا، وَوَادَفَهُ صَبِيْسُ

فلا يظفر من تأبَّطَ شراً بطائلٍ.

عودة إلى الجنان آدم

فإذا رأى قلة الفوائد لديهم، تركهم في الشقاء السرمَد، وعمد لمحلّه في الجنان، فيلقى آدم عليه السلام في الطريق فيقول: يا أبانا، صلى الله عليك، قد روي لنا عنك شعراً، منه قولك:

نحنُ بنو الأرضِ وسُكَّانُها منها خُلِقْنَا، وإليها نَعُودُ
والسَّعدُ لا يَبقى لأصحابِهِ والنَّحسُ تمحوه ليالي السُّعودُ

فيقول: إنَّ هذا القول حقٌّ، وما نطقه إلا بعض الحكماء، ولكنِّي لم أسمع به حتى الساعة. فيقول: وفَرَ اللهُ قِسْمَه في الثَّواب: فلعلَّك يا أبانا قُلْتَه ثمَّ نَسِيتَ، فقد علِمْتُ أنَّ النَّسيانَ متسرِّعٌ إليك، وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوَّة في فرقان محمَّد، صلى الله عليه وسلم: ”ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً“^(١) وقد زعم بعض العلماء أنك إنما سميت إنساناً لنسيانك، واحتجَّ على ذلك بقولهم في التصغير: أنيسيان، وفي الجمع: أناسي، وقد روي عن ابن عباس^(٢) أنَّ الإنسان من النَّسيان، وقال الطائي^(٣):

لا تنسِينُ تلكَ العهودَ وإنَّما سُمِّيتَ إنساناً لأنَّك ناسٍ

وقرأ بعضهم: ”ثمَّ أفيضوا من حيث أفاض النَّاسُ“^(٤) بكسر السين، يريد النَّاسي، فحذف الياء، كما حذفت في قوله تعالى: ”سواء العاكفُ فيه والبادِ“^(٥). فأما البصريُّون فيعتقدون أنَّ الإنسان من الأنس، وأنَّ قولهم في التصغير: ”أنيسيان“ شاذ، وقولهم في الجمع: أناسي، أصله أناسين، فأبدلت الياء من النون. والقول الأوَّل أحسن.

١ - الآية ١١٥ سورة طه.

٢ - عبد الله بن العباس رضي الله عنهما: حَبْرُ الأمة.

٣ - أبو تمام حبيب بن أوس الطائي.

٤ - الآية ١٩٩ سورة البقرة.

٥ - الآية ٢٥ سورة الحج

فيقول آدم، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ: أَيْتُمْ إِلَّا عَقُوقًا وَأَذِيَّةً، إِنَّمَا كُنْتُ فِي الْجَنَّةِ أَتَكَلَّمُ بِالْعَرَبِيَّةِ، فَلَمَّا هَبَطْتُ إِلَى الْأَرْضِ نُقِلَ لِسَانِي إِلَى السُّرْيَانِيَّةِ، فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِهَا إِلَى أَنْ هَلَكْتُ، فَلَمَّا رَدَّنِي اللهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عَادَتْ عَلَيَّ الْعَرَبِيَّةُ، فَأَيُّ حِينٍ نَظَمْتُ هَذَا الشَّعْرَ: فِي الْعَاجِلَةِ أَمْ الْأَجَلَةِ؟ وَالَّذِي قَالَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ وَهُوَ فِي الدَّارِ الْمَاكِرَةِ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ:

مِنْهَا خُلِقْنَا وَإِلَيْهَا نَعُودُ

فكيف أقول هذا المقال ولساني سُرياني؟ وأما الجنَّة قبل أن أخرج منها فلم أكن أدري بالموت فيها، وأنه ممَّا حُكِمَ عَلَى الْعِبَادِ، لَا فِكَاكَ مِنْهُ كَأَطْوَاقِ حَمَامٍ، وَمَا رَعَى لِأَحَدٍ مِنْ ذِمَامٍ، وَأَمَّا بَعْدَ رَجُوعِي إِلَيْهَا، فَلَا مَعْنَى لِقَوْلِي: وَإِلَيْهَا نَعُودُ، لِأَنَّهُ كَذِبٌ لَا مَحَالَةَ، وَنَحْنُ مَعَاشِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَالِدُونَ مُخَلَّدُونَ.

فيقول، قُضِيَ لَهُ بِالسَّعْدِ الْمُؤَرَّبِ: إِنْ بَعْضَ أَهْلِ السُّيَرِ يَزْعَمُ أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ وَجَدَهُ جَدُّنَا يَعْرُبُ بْنُ قِحْطَانَ فِي الصُّحُفِ الْقَدِيمَةِ بِالسُّرْيَانِيَّةِ، فَنَقَلَهُ إِلَى لِسَانِهِ، وَهَذَا لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ. وَكَذَلِكَ يَرُودُ لَكَ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ، لَمَّا قَتَلَ قَابِيلُ هَابِيلَ:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُغْبَرُّ قَبِيحُ
وَأُودَى رَبْعُ أَهْلِهَا فَبَانُوا وَعُودِرَ فِي الثَّرَى الْوَجْهُ الْمَلِيحُ

وَبَعْضُهُمْ يُنْشِدُ:

وَزَالَ بِشَاشَةُ الْوَجْهِ الْمَلِيحُ

عَلَى الْإِقْوَاءِ. وَفِي حِكَايَةٍ مَعْنَاهَا عَلَى مَا أَذْكَرُ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَعْضِ وَلَدِكَ يُعَرِّفُ بَابْنَ دُرَيْدٍ أَنْشَدَ هَذَا الشَّعْرَ، وَكَانَتْ رَوَايَتُهُ: وَزَالَ بِشَاشَةُ الْوَجْهِ الْمَلِيحُ فَقَالَ أَوَّلُ مَا قَالَ: أَقْوَى.

وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ أَبُو سَعِيدِ السُّيْرَافِيِّ فَقَالَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَالَ:

وَزَالَ بِشَاشَةُ الْوَجْهِ الْمَلِيحُ

بِنَصْبِ بِشَاشَةِ عَلَى التَّمْيِيزِ، وَبِحِذْفِ التَّنْوِينِ لِالتَّقَاءِ السَّاكِنِينَ، كَمَا قَالَ: ^(١)

عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

١ - عبيد الله بن الرُّبَيْرِ السُّهْمِيُّ الْقُرَشِيُّ الْمَتَوْفَى ١٥ هـ / ٦٣٦ م. شاعر قريش في الجاهلية، وكان شديدًا على المسلمين إلى أن فتحت مكة، ثم عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح النبي صلى الله عليه وسلم، فأمر له بحلته.

قلت أنا: هذا الوجه الذي قاله أبو سعيد شراً من الإقواء عشرَ مراتٍ في القصيدة الواحدة. فيقول آدم، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ: يعز عليَّ معشرَ بنيِّ أنكم في الضلالة غارقون متحيرون. آليت ما نطقت هذا الشعر، ولا نطق في عصري، وإنما نظمه بعض الفارغين، فلا حول ولا قوة إلا بالله! كذبتم على خالقكم وربكم، ثم على آدم أبيكم، ثم على حواء أمكم، وكذب بعضكم على بعض، ومآلكم في ذلك إلى الأرض.

ذات الصفا

ثمَّ يضرب سائراً في الفردوس، فإذا هو بروضة يُعجب حسنُها، وإذا هو بحياتٍ يلعبن ، فيقول: لا إله إلا الله! وما تصنع حيّة في الجنّة؟ فيُنطقها الله، جَلَّتْ عَظْمَتُهُ، فتقول: أما سمعت في عمرك بذات الصّفا، الوافية لصاحبٍ ما وفي؟ كانت تنزل بوادٍ خصيب، يهفو إليه البعيد والقريب، وكانت تصنع الجميل لواحدٍ من بني آدمٍ صُبحاً وعشيّاً ، ولكنه كان محتالاً غيبياً، فلمّا زاد بصنيعها ماله، ورجا أن يحقق آماله، ذكر عندها الثار، ونسي كم جنى من صحبتها الثمار، وأكبّ على فأسٍ ذاتٍ حدٍّ أعجبه، يشحذها كي يقضي بها مآربه، ووقف للسّاعية على الصخور، وهمّ أن ينتقم منها بفجور، وكان أخوه ممّن قتلته، جاهرته في الحادثة أو قيل خدعته، فضربها ضربةً قاتلة، لكنها كانت مخاتلة، فلمّا توقت ضربة الفاس، والحدقُ يمسك منه بالأنفاس، ندّم على ما صنع أشدّ النّدم، وخاف منها أن تنتقم، فقال للحيّة مخادعاً، ولم يكن بما كتم مجاهراً وصادعاً: هل لك أن نعود خِلين من الأخلاء، ونحفظ العهدَ حفظ الأوفياء؟ فقالت: لا أفعل وإن طالت دهور،^(١) حتى إلى يوم النشور، إني أجدك فاجراً مسحوراً، وكيف آمن منك غدرًا أو جوراً، تأبى لي صلحك ضربة فوق الهامة، ولن أصافيك إلى يوم القيامة، وما يدريني أنك لن تعود إلى الطبع الغدار؟ وكيف آمنك في ليلٍ أو نهار؟ وقد وصف ذلك نابغة بني ذبيان فقال:

وإني لألقى من ذوي الضّعن منهم
كما لقيت ذات الصّفا من خليلها
فلمّا رأى أن ثمر الله ماله
فأصبح مسروراً، وسدّ مفاقره
مذكّرة، من المعاول، باتره
وما أصبحت تشكو من البثّ ساهره
وكأنت تديه المال غباً وظاهره

١ - في الأمثال العربية "كيف أعادوك وهذا أثر فأسك" ويضرب لمن لا يفي بالعهد، وتقول الحكاية إن أخوين كانا في إبل لهما ، وكان قريباً منهما وإد فيه حية تحميه ، فقال أحدهما للآخر: لو أني أتيت هذا الوادي الخصيب فرعيت فيه إيلي وأصلحتها، فقال أخوه: أخاف عليك الحية، لكنه عائد وهبط الوادي فرعى فلدغته فقتلته، فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، و لأطلبن الحية هاقتلها أو لأتبعن أخي، فهبط الوادي وطلب الحية ليقتلها، فقالت: هل لك في الصلح؟ أدعك بهذا الوادي وأعطيك في كل يوم ديناراً، فوافق وحلف لها وأعطها الموائيق، فكثر ماله، ثم ذكر أخاه، فعمد إلى فأس فأنحدها وضربها فأخطأها، ووقع الفأس بالصخر فأثر فيه، فقتلته عنه الدينار، وتخوّف شرّها وندم، فقال لها: هل لك في أن نعود إلى ما كنا عليه، فقالت: كيف أعادوك وهذا أثر فأسك وانت فاجر لا تبالي العهد.

وقامَ على جُحْرٍ لها فوقَ صخرةٍ
 فلماَ وقاها اللهُ ضربتهُ فأسه
 فقال: تعالِي نَجْعَلِ اللهَ بَيْننا
 فقالت: معاذَ اللهِ أفْعَلْ إنني
 أبي لِي قَبْرٌ لا يَزَالُ مُقَابِلِي
 ليَقْتُلها، أو تُخْطِيءَ الكُفَّ بادِرَه
 وللبَرِّ عَيْنٌ لا تُغْمِضُ ناظِرَه
 على مالنا، أو تُنْجِزِي لِي آخِرَه
 رأيتُكَ مَسْحوراً يَمِينُكَ فَاجِرَه
 وضربتهُ فأسٌ فوقَ رأسي فاقِرَه

وتقول حيةٌ أخرى: إنِّي كنتُ أسكن في دار الحسن البصري^(١) فيتلو القرآن ليلاً، فتلقيت منه الكتاب من أوله إلى آخره. فيقول، لا زال الرُّشدُ قريناً لمنطقه: فكيف سمعته يقرأ: فالقُ الإصباح؟ فإنه يروى عنه بفتح الهمزة، كأنه جمع صُبِح، وكذلك: بالعَشِيِّ والإبْكارِ كأنه جمع بَكَرٍ، من قولهم: لقيتهُ بَكَراً، وإذا قلنا: إنَّ أنْعَمًا جمعُ نعمةٍ وأَشَدًّا جمعُ شِدَّةٍ، على طرح الهاء، فيجوز أن تكون الأبْكارُ جمعُ بَكَرةٍ، فتكون على قولنا: بُكَرٌ وأبْكارٌ، كما يقال جُنْدٌ وأجناد. فتقول: لقد سمعته يقرأ هذه القراءة، وكنت عليها برهةً من الدهر، فلما توفِّي، رحمه الله، انتقلت إلى جدارٍ في دار أبي عمرو بن العلاء^(٢)، فسمعته يقرأ، فرغبت عن حروفٍ من قراءة الحسن كهذين الحرفين، وكقوله: الأنجيل بفتح الهمزة. فلما توفِّي أبو عمرو كرهت المقام، فانتقلت إلى الكوفة، فأقمت في جوار حمزة بن حبيب^(٣)، فسمعته يقرأ بأشياء ينكرها عليه أصحاب العربية، كخفض الأرحام في قوله تعالى: ”واتَّقوا اللهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ“^(٤) وكسر الياء في قوله تعالى: ”وما أنْتُمْ بمُصْرِحِي“^(٥) وكذلك سكون الهمزة في قوله تعالى: ”اسْتَكْبَاراً في الأَرْضِ ومَكْرَ السَّيِّئِ“^(٦) وهذا إغلاقٌ لباب العربية، لأنَّ الفرقان ليس بموضع ضرورةٍ، وإنما حُكي مثل هذا في المنظوم. وقد روي أنَّ امرأةً القيس قال:

فاليومَ أشربُ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ إثماً من الله، ولا واغِل

وبعضهم يروي: فاليومَ أُسْقَى، وإذا روي: فاليومَ أشربُ، فيجوز أن يكون ثمَّ إشارةً إلى الضمِّ لا حكم لها في الوزن، فقد زعم سيبويه أنَّهم يفعلون ذلك في قول الراجز:

١ - الحسن بن يسار البصري (٢١- ١١٠هـ/٦٤٢- ٧٢٨ م): كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة.
 ٢ - أبو عمرو بن العلاء بن عمار التميمي المازني البصري (٧٠- ١٥٤هـ/٦٨٩- ٧٧٠ م). كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر.
 ٣ - حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل (٨٠- ١٥٦هـ/٦٩٩- ٧٧٢ م). الإمام العلم الثممي الكوفي الرثيات، أحد القراء السبعة. كان عديم النطير في وقته علماً وعملاً، وكان رأساً في الورع.
 ٤ - الآية ١ سورة النساء
 ٥ - الآية ٢٢ سورة ابراهيم
 ٦ - الآية ٤٣ سورة فاطر

متى أنامُ لا يُورُقُنِي الكرى لَيْلًا ولا أسمعُ أصواتَ المَطِيّ

وهذا يدل على أنهم لم يكونوا يباليون بإهمال الإعراب، فأما قول الرَّاجز:

إذا عَوَّجَجَنَ قلتُ: صاحبُ قَوْمٍ في الدَّوِّ، أمثالُ السِّفِينِ العُومِ

فإنه من عجيب ما جاء، وقد غفل قائله عن أن يقول: صاحِ قَوْمٍ، فلا يكون بالوزن إخلالاً، وهذا يشبه ما أدعوه في قول الهذلي^(١):

أبيتُ على معاريِّ فاخِرَاتٍ بهنَّ مُلوَّبٍ كدمِ العِباطِ

يزعم النحويون أن قوله: معاريِّ، حملة عليه كراهه الزحاف، وهذا قول مردود، لأن في هذه «الطائفة» أبياتاً كثيرة لا تخلو من زحافٍ.

ويدهش، حشره الله مع الأبرار المتقين، لما سمع من تلك الحية، فتقول هي: ألا تقيم عندنا برهةً من الدهر؟ فإنني إذا شئت انتفضت من جلدي فصرت مثل أحسن غواني الجنة، لو ترشفت رضابي لعلمت أنه أفضل من الدرايقة التي ذكرها ابن مقبل في قوله:^(٢)

سَقَنِي بصَهَاءِ دِرْيَاقَةٍ متى ما تُلَيِّنُ عِظَامِي تَلِينُ

ولو تنفست في وجهك لأعلمت أنك أن صاحبة عنتره تنته صدوفٌ والصدوف: الكريهة رائحة الفم، وإنما تعني قوله:

وكأنَّ فارةً تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الفَمِ

ولو أدنيتِ وِسَادَكَ إلى وِسَادِي، لِفَضَّلْتَنِي على التي يقول فيها الأول:

باتت رَقوداً وَسَارَ الرِّكْبُ مُدْلِجاً وما الأوانِسُ في فِكْرِ لِسَارِينَا
كأنَّ رِيْقَتَهَا مِسْكٌ على صَرَبٍ شِيْبَتْ بأصْهَبَ من بَيْعِ الشَّامِينَا
يا ربِّ، لا تَسْلُبْنِي حُبَّهَا أبداً وَيَرْحَمْ اللهُ عَبْدًا قَالَ: آمِينَا

فيُدْعَرُ منها، جعل الله أمته موفوراً، وشانته بالحسرات مغموراً، ويذهب مهرولاً في الجنة، ويقول في نفسه: كيف يؤمنُ جانب حيةٍ لعابها السُّمُّ، وبالفتكة في كل ساعة تهم؟ فتناديه: هلمَّ

١ - المُنْتَخَل مالِك بن عويمر بن عثمان الهذلي. قال الأمدى: شاعر محسن.

٢ - تميم بن أبي: سبقت ترجمته.

إن شئت اللذة، فإنني لأفضل من حيّة ابنة مالك التي ذكرها العبسي^(١) في قوله:
ما ولدتني حيّة ابنة مالك سفاهاً، ولا قتولي أحاديث كاذب

وأفضل معاشرة من حيّة ابنة أزهر التي يقول فيها القائل:

إذا ما شربنا ماءً مُزِنَ بِقَهْوَةٍ ذكرنا عليها حيّة ابنة أزهر

ولو أقمت عندنا إلى أن تختبر وُدنا وإنصافنا، لندمت إن كنت في الدار العاجلة قتلت حيّة
أو ثعباناً. فيقول وهو يسمع خطابها الرائق: وهل ضيقَ الله عليّ رشفَ الحُورِ الحسان، حتى
أرضى بترشُّف هذه الحيّة؟.

١ - المقصود عنتره بن شداد

العودة إلى الحور العين

فإذا ضرب في بساتين الجنّة وحدائقها، لقيته الجارية التي خرجت من تلك الثمرة فتقول: إنّي لأنتظرُك منذ حينٍ فما الذي عن العودة منعك؟ لم تطلّ الإقامة معك، فأملّ بالمحاورّة مسمّعك، قد كان يحقُّ لي أن أكون أثيرة عندك على حسب ما تنفرد به العروس، يخضّها الرّجل بشيءٍ دون الأزواج.

فيقول: كانت في نفسي مآرب من مخاطبة أهل النّار، فلمّا حققت من ذلك مآربي عدت إليك، فاتبعيني بين كثبان العنبر والمسك. فيجول بها تلال الفردوس ورمال الجنان. فتقول: أيّها العبد المرحوم، أظنّك تحتذي بي فعّال الكندي^(١) في قوله:

فَقُمْتُ بِهَا أَمْشِي، تَجُرُّ وِرَاءَنَا عَلَى إِثْرِنَا أَدْيَالَ مِرْطٍ مُرَحَّلٍ
فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَأَنْتَحَى بِنَابِطُنْ خَبَبٍ ذِي قِفَافٍ عَقَنْقَلٍ
هَصَرْتُ بِفَوْدَيِ رَأْسِهَا فَتَمَايَلَتْ عَلَيَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ رِيًّا الْمُخْلَخَلِ

فيقول: العجبُ لقدرة الله! من أين لك علمٌ بالكنديّ وإنّما نشأت في ثمرةٍ تبعدك عن الجنّ والناس؟ فتقول: إنّ الله على كلّ شيءٍ قديرٌ.

ويعرض له حديث امرئ القيس في دارة جُلجل، فينشئ الله، جلت عظمتُه، حورًا عينا يتمايلن في نهرٍ من أنهار الجنّة، وفيهنّ من تخفّفهنّ من ملابسهنّ كتخفف صاحبة امرئ القيس، فيترايمين بالثّرمد، وهو نبات مالح مُرّ، وإذا هو كأجلّ ما في الجنّة من طيب، ويعقر لهنّ الرّاحلة، فيأكلن ويأكلن من لحومها ما لا تكفي الكلمات لوصفه من إمتاعٍ ولذاذةٍ.

١ - امرؤ القيس وسبقت ترجمته

جَنَّةُ الرَّجَزِ

ويمرُّ بأبياتٍ ليست عالية كآبيات الجنة، فيسأل عنها فيقال: هذه جنةُ الرَّجَزِ، يكون فيها: الأغلب العجلي والعجاجُ ورؤبةُ وأبو النجم وحميدُ الأرقط وعذافرُ بن أوس وأبو نخيلة وكلُّ من عُفِرَ له من الرَّجَزِ، فيقول: تبارك العزيز الوهاب! لقد صدق الحديث المرويُّ ”إنَّ الله يحبُّ معالي الأمور ويكره سفاسفها“ وإنَّ الرَّجَزَ لمن سفاسف القريض، قصرتم أيها النَّفَرُ فقصرت بيوتكم عن بيوت الشعراء.

ويعرض له رؤبة فيقول: يا أبا الجحاف، كم كنت شغوفاً بقوافٍ لا تعجب، تصنع رجزاً على الغين ورجزاً على الطاء وعلى الظاء، وعلى غير ذلك من الحروف النَّافرة، ولم تكن صاحب مثلٍ مذكورٍ، ولا لفظٍ عذبٍ مستحسن.

فيغضب رؤبة ويقول: ألي تقول هذا وعني أخذ الخليل، وكذلك أبو عمرو بن العلاء، ألم تكن في الدارِ السَّالفة تفتخرُ باللفظة تقع إليك ممَّا نقله أولئك عني وعن أشباهي؟

فإذا رأى، لا زال خصمه مُرغمًا، ما في رؤبة من الفخرِ والتكبرِ قال: لو جُمعَ رجزك ورجز أبيك، لم تخرج منه قصيدةٌ مستحسنة، ولقد بلغني أنَّ أبا مسلم كلَّمك بكلام فيه ابنُ ثأداء، فلم تعرف أنها اللئيمة الحمقاء حتى سألت بالحيِّ عنها، ولقد كنت تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق، وإنَّ غيرك أولى بالمنح والهبات.

فيقول رؤبة: أليس رئيسكم في القديم، والذي انتهت إليه المقاييس، كان يستشهد بقولي ويجعلني له كالإمام؟ فيقول، وهو بالقول مُنطقٌ: لا فخر لك أن استشهد بكلامك، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمة خرقاء، وخادم يحمل جذوع الشجر اليابسة إلى النَّار الموقدة، في الليالي الباردة، كأن البرد نفض عليها ريشه، وهدم لها الشيخ المقرور في بيته العريشة، لتأخذ خشبها فتحرقه، عسى النار بالدفع تجود، وينعم المقرور بالرقود، وأجل أيامها أن تجني كمأة لا يهملها أن تكون بيضاء أو سوداء، فكله رزق من رب السماء، تكره على الفقر القعود، وترعى من الإبل كلَّ مطرود. وكم روى النُّحاة عن طفلٍ صغير، ماله في الأدب من علم غزير، وعن امرأةٍ من النساء، لم تخرج يوماً من بيتها إلى الفضاء.

فيقول رؤبة: أجنّت لخصامنا في هذا المنزل؟ فأمض لما تريد، فقد أخذت بكلامنا ما شاء الله. فيقول، أسكت الله مجادله: أقسمت ما يصلح كلامكم تطرب له الآذان، وليس أفضل من القطران، تصكؤون مسامع الممدوح بالحجارة البيض والسود، وإنما يطربهُ السماع والمسك والعود، فإذا خرجتم عن صفة جمل، تراثون له من طول العمر، إلى صفة فرسٍ سابحٍ، أو كلبٍ للقنص نابح، فإنكم غير الرّاشدين.

فيقول رؤبة: إنّ الله سبحانه وتعالى قال: ”يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ“^(١) وإن كلامك لمن لغو الحديث، ولست تسعى إلى الإنصاف السعي الحثيث. فإذا طالت المخاطبة بينه وبين رؤبة، سمع العجاج، فجاء يسعى إلى المصالحة.

١ - الآية ٢٣ سورة الطور.

سرر أهل الجنة

ويذكر، أذكره الله بالصالحات، ما كان يلحق الندامى من فتور في الأعضاء، إذا شعشت بينهم الصهباء، فيشتهي ذلك من غير أن يذهب عقله من سكرها، ولا يحتال عليه خداع بأمرها، فإذا هو يشعر في العظام الناعمة فتوراً كدبيب نمل، أسرى في الليلة المقمرة على رمل، فيترنم بقول إياس بن الأرت^(١)

أَعَاذُ لَوْ شَرِبْتَ الْخَمْرَ حَتَّى يَظَلَّ لَكُلِّ أَنْمَلَةٍ دَبِيبٌ
إِذَا لَعَذَرْتَنِي وَعَلِمْتَ أَنِّي بِمَا أَتْلَفْتُ مِنْ مَالِي مُصِيبٌ

ويتركى على مفرش من السُّنْدَس، ويأمر الحُورَ العِين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سُرر أهل الجنة، وإنما هو زبرجد أو عسجد، ويكوّن الباريء للسرير حلقة من الذهب تطيف به من كل الأنحاء، حتى يأخذ كل واحد من الغلمان، وكل واحد من الجوارى شبيهاً بالجمان، واحدة من تلك الحلق، فينقل على تلك الحال إلى محله المشيد بدارالخلود، فكلما مر بشجرة نثرت عليه أغصانها ماء الورد قد خلط بماء الكافور مثقالاً بمتقال، وبمسك ما جني من دماء الغزال بل هو بتقدير الله الكريم.

وتناديه الثمرات من كل صوب هو مستلق على الظَّهْر: هل لك يا أبا الحسن، هل لك؟ فإذا أراد عنقوداً من العنب أو غيره قطع من الشجرة بمشيئة الله، وحملته القدرة الإلهية إلى فمه، وأهل الجنة يلقونه بأصناف التَّحِيَّة، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين: لا يزال كذلك أبداً سرمداً، ناعماً في الوقت المتناول مُخَلِّداً، وكل باب قد تأتي منه الأحران كان موصداً. وقد أطلت في هذا الفصل، ونعود الآن إلى الإجابة عن الرسالة.

١ - إياس بن قبيصة الطائي المتوفى ٤ ق. هـ / ٦١٨ م من أشرف طيء وفصحائها وشجعانها في الجاهلية. ولاء كسرى أبرويز الحيرة، ثم نجاه وولى النعمان وتعدى الروم تخوم المعجم في أيام ابرويز فوجه إياساً لقتالهم فظفر بهم. ثم قتل أبرويز النعمان، وأعاد إياساً إلى ولاية الحيرة، وحدثت في أيامه وقعة ذي قار، وكان على المعجم إياس، فانهزم وظل والياً على الحيرة إلى أن مات.

جواب رسالة ابن القارح

فهمت قوله: جعلني الله فداءه، لا يذهبُ به إلى النِّفاق، وبعْدَ ابنِ آدمٍ من الوفاق، وهذه غريزةٌ خُصَّ بها الشيخ دون غيره، وتعايشَ العالم بخداع، وأضحوا من الكذب في إبداع. لوقالت شيرين الملكة لكسرى: جعلني الله فداءك ما دام ماء في مَجْرَى، لخادعته في ذلك ونافقته، وإن راقه جمالها دون زينة ووافقته، على أنه أخذها من حالٍ أحسنُ منها حال الصلوك، وفرغها وجعلها تحيي حياة الملوك، وعتب عليه في ذلك الأحباء، ونقلت عنهم في ذلك قصصٌ وأنباءً، وقيل له، فيما ذُكر، والله العالم بما يُعلن المرء أو يُسرِّ: كيف تطيبُ نفس الملك لهذه المومس، وهي الوالغة في البغي وإن كانت تونس؟ فضربَ لهم المثل بالكوب، وإذا حظيت الغانية صارت عند عاشقها أجملَ من الحليِّ والطيب، فجعل في الإناء الشَّعْرَ والدَّم، وقال للحاضر ولا ندم: أتَهفو نفسك لشرب ما فيه؟ أم تشمتز مما فيه؟ ثم أراق ذلك الشيء من القدر وأمر به فغُسل، وهذَّب وعاءه ثم طلاه بالعسل، وجعل فيه مُداما، وعرضها على الندامي، فكلَّهم همَّ بأن يشربَ ما في الإناء، ومن يعافُ لذيذ الصهباء؟ فقال: هذا مثل شيرين، فلا تكونوا في دروب السَّفه سائرين.

كم من شبلٍ نافق أسدَ العرين، وأضمر له حقدًا وكان من الحاسدين؟ ولبوَّةٌ تُداهن الليث الشديد ، تُظهر له الحب وتُبغض أن تراه حتى من بعيد، وضيغمُ نغم على فرهود، وودٌّ لو دفنه في أخدود، والفرهود ولد الأسد، وهو، آنسَ الله الإقليم بقربه، أجلُّ من أن يُشرح له مثل ذلك، وإنما أفرع من وقوع هذه الرِّسالة في يد غلام ما زال صغيراً، ليس بالفهم جديراً، فتستعجم عليه اللَّفظة، فيظلُّ معها كأنما كبلته قيود الحديد، لا يقدر على الإسراع ولا المشي الوئيد.

وكم خادعت الذَّناب السَّلَق، وفي الضمائر تُضمُرُ الفلَق أي الدَّواهي، ومنه قول خلف: موت الإمام فليقَّة من الفلَق^(١)، والسَّلَق والسَّلَق جمع سَلَقَة: وهي أنثى الذئب. وكم من ملكٍ رفع

١ - هو خلف الأحمر وسبقت ترجمته، وهذا القول شطر من ثلاثة من الرجز ولها حكاية، إذ جاء خلف الأحمر إلى خلقة يونس النحوي (وسبقت ترجمته) فقال:

فَدَّ طَرَهَتْ بِبِكْرِهَا بِنْتُ طَبَقٍ
فَدَّ طَرَهَتْ بِبِكْرِهَا بِنْتُ طَبَقٍ
فَدَّ طَرَهَتْ بِبِكْرِهَا بِنْتُ طَبَقٍ
فَدَّ طَرَهَتْ بِبِكْرِهَا بِنْتُ طَبَقٍ
فَدَّ طَرَهَتْ بِبِكْرِهَا بِنْتُ طَبَقٍ
فَدَّ طَرَهَتْ بِبِكْرِهَا بِنْتُ طَبَقٍ
فَدَّ طَرَهَتْ بِبِكْرِهَا بِنْتُ طَبَقٍ
فَدَّ طَرَهَتْ بِبِكْرِهَا بِنْتُ طَبَقٍ
فَدَّ طَرَهَتْ بِبِكْرِهَا بِنْتُ طَبَقٍ
فَدَّ طَرَهَتْ بِبِكْرِهَا بِنْتُ طَبَقٍ

ملكة، ثم صنعت له مهلكة! يقول القائل: بأبي أنت، جاد عملك وأتقنت! ولو قدر لقطع منه الوريد، وإنما من الخداع يستزيد. ولعل بعض الديوك يلفظ إلى الدجاجة حبة البر، ويأنس بها في حرٍّ وقرٍّ، وفي فؤاده من الحقد أعاجيب، وتكثر وتقل المناجيب، والمناجيب ها هنا تحتل أمرين: أحدهما من النَّجابة، والآخر من قولهم: مناجيب أي ضعاف، من قول الهذلي^(١)

بَعَثْتُهُ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ يَرْقُبُنِي إِذْ آثَرَ النَّوْمَ وَالِدَفَّاءَ الْمَنَاجِبِ

والمعنى: أن المناجيب من النَّجابة تفل، والمناجيب من الوهن تكثر.

ولعل ذلك الديك الذي لا يعرف السكوت، يرقب الدجاجة يتمنى أن تموت، يقول: في النفس المتحدثة: لو أنني جعلت في قدر، أو ضربت فلحقت بالهدر، لتزوجت هذه من الديكة شاباً في مقتبل العمر، يُحسن لها حباً ويغمرها بالقبل أي غمراً. وأنا أذكره بالكلمة العارضة، إذ كان قد بدأ بالإيناس، وأغضى عن مكائد الناس: ألا يعجب من قول العرب: فداء لك، بالكسر والتنوين، كما قال الراجز:^(٢)

وَيْهَاءَ فِدَاءٍ لَكَ يَا فِضَالَهُ أَجِرَهُ الرُّمَحَ، وَلَا تُبَالَهُ

ويروى تهاله.

وذكر أحمد بن عبيد بن ناصح، وهو المعروف بأبي عصيدة^(٣)، أن قولهم فداء لك بالكسر، إذا كان لها مرفاع لم يجز فيها الكسر والتنوين. ولا ريب أنه يحكي ذلك عن العلماء الكوفيين. وعينه في قول النابغة:

مَهْلًا فِدَاءٍ لَكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ وَمَا أَثَمَّرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدٍ

فأما البصريون فقد رووا في هذا البيت: فداء لك.

وكيف يقول الخليل الوفي، وهو بالعهود لا يفي: إنَّ حنينه حنين الوالهة من النوق، وهي الذاهلة إن حُمِلَ عليها حملٌ إلى البيت أو السوق؟ فأما الحمامة الهاتفة فقد رزقها البارئ صيتاً شائعاً وظللاً

١ - أبو خراش خويلد بن مرة الهذلي المضري المتوفى ١٥ هـ / ٦٢٦ م شاعر مخضرم، وفارس فاتك مشهور، ومن العدائين، إذ كان يسبق الخيل. أسلم وهو شيخ كبير، وعاش إلى زمن عمر، وله معه أخبار، نهشته أفعى فقتلته.

٢ - هو قيس بن العيزارة الهذلي، وهو شاعر جاهلي، والعيزارة أمه واسمه قيس بن خويلد بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل. أسرته قبيلة «فهم» وأخذ تابطل شراً سلاحه ثم أفلت قيس.

٣ - أحمد بن عبيد بن ناصح بن بلنجر الديلمي البغدادي المعروف بأبي عصيدة النحوي، كان من أئمة العربية، توفي سنة ٢٧٨ هـ، وله من المصنفات: كتاب «المقصور والممدود»، كتاب «المذكر والمؤنث»، «عيون الأخبار والأشعار»، كتاب «الزيادات في معاني الشعر لابن السكيت في إصلاحه».

وصفها بالأسف ذائعاً، تنهض إلى التقاط حَبٍّ، وتعود إلى أرض لها ذات عشب، فإن هي صادفت
وليفها ظفر به بازٌ أو صقر من الصقور، أو غدا به مخلب شاهين، وهي، البائسة من اللاهين، فما هي
إلا مثل الحيوان، تملُّ حالها في أقصر زمان.

وقد زعم زاعمٌ، لا يُصدِّق، أن الحمائم في هذا العصر، يبكين مقعداً هلك في عهد نوح، أبرح له
البارح أم رُمي بالسُنوح، وإنَّ دوامها على ذلك لدليل الوفاء، وما العوضُ عن خليل الصِّفاء؟ لا عوض
ولا نائب إلا فيه، وكيف يعتب الزَّمن على تجافيه؟ وإنَّما حُشِيَ بشرٌّ وغَدِرَ فطيع، ولكنه كُتِب له
العزُّ في القَدْرِ الرفيع.

وأما الظبية فإنَّها لا تكف عن الحنين النظيف، يحملها على ذلك قلبٌ ضعيف. ومَن لها بالخصون
اليانعة من شجر الأراك، وهو الذي يُتَّخذ منه المسواك، ومن كان هواه يعدل عن الخلد، فإنَّه إذا
مال إلى الولد، فسوف تذرهُ الدهور ناسياً غير مُنطَق، كأنَّه ما جزع آسِياً وأشفق.

وما أقلُّ صدق الألاف، ولو بيعوا من الذهب، لا الفضة، بألاف: (١)

وليس خليلي بالملول، ولا الذي إذا غبْتُ عنه، باعني بخليل

وأحسب كثيراً تفوه بهذه المقالة غافلاً، وكان بنشاط الشباب جاهلاً، فكيف يقدر على إخاء
المَلِك، أم كيف يرتفع إلى الفلك؟

وأما ما ذكره من حالي، حاشاه أن يلحظ بنواظر الغير، ومُتَّع من المال بحير أي كثير، قال
الراجز:

يا ربنا من سره أن يكبراً فسُقُّ له يارباً مالاً حيراً

فطالما أعطِيَ الوثن حظواً موفورة، فصار حضوره للجهلة وعوداً مشهورة! فإن سُرت بالباطل،
فُشِرت بالخمرة دون طائل، وإنَّ الصابر مأجورٌ محمود، ولا ريب أن سيُقَدَّر لمن ارتحل شربٌ
مفقود.

وأحلف كيمين امرئ القيس لَمَّا رغب في مقامه عند المحبوبة، ولم يفرق من الرغبة ولا
المرغوبة، فقال:

فقلْتُ: يَمِينِ اللهِ، أبرحُ قاعداً ولو قطعوا رأسي لَدَيْكَ وأوصالي

١- كثير بن عبد الرحمن من خزاعة (٤٠ - ١٠٥ هـ / ٦٦٠ - ٧٢٣ م). مقيم مشهور، من أهل المدينة، سكن مصر حيث دار عزة بعد زواجها ووجد عند
صديقه عبد العزيز بن مروان يسر العيش. وتوفي في الحجاز هو وعكرمة مولى ابن عباس في نفس اليوم فتيل: مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس.

والأخرى التي أقسم بها زهير الحكيم، إذ هبت ریح الصبا والنسيم، أعني قوله:

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حوله رجالٌ بنوهُ، من قُرَيْشٍ وجُرهمِ
ميناَ لنِعَمِ السَّيِّدانِ وُجِدْتُمَا على كلِّ حالٍ من سَحيلٍ ومُبرَمِ

وباليمين التي نطق بها ساعدة، والمهجة إلى ملكها صاعدة، فقال: (١)

حَلَفَ امرئٌ بَرٌّ سَرِفَتْ يَمِينُهُ وَلِكُلِّ ما تُبدي النُّفوسُ مُجَرَّبُ

وأقسم مع ذلك قسم الفرزدق (٢) لَمَّا رَهَبَ وقوع انتقام، فاغتنم ما بين الكعبة والمقام، ووصف

ما صنع فقال:

ألم تَرَني عاهدتُ رَبِّي وإِنِّي لَبَيْنَ رِجاجٍ قائمٌ ومُقامِ
على حِلْفَةٍ لا أَشْتُمُ الدَّهْرَ مُسْلِماً ولا خارِجاً من في سُوءِ كلامِ

إني لمكذوب عليه كما كذبت العرب على الغول، وإنها عمّا يحكى عنها بالها مشغول، وكما تقولت الأمثال السائرة على الضبّ وكئيته أبو الحسل، وهو عما تقولوا في شغل. وكما تكلمت على لسان الضبع وهي خرساء، ما أطلق لسانها الصبح ولا المساء.

يظنُّ أنني من أهل العلم الجليل، وما أنا له بالصاحب ولا الخليل. وتلك لعمرى بلوى، تفتقد معها السلوى. والعلوم تحتاج إلى جلدٍ ومراس، ودارسٍ للكتب ينقطع للدراس.

ويقال إنني من أهل الدين الأبرار، ولو ظهر ما وراء الستار، ما اقتنع لي الواصف بالشتم، وودّ أن يسقيني السمّ، وكيف يدعى لحمار الوحش، وإنما أهد في الرّوض الحبشي، أن نهيقه في السّحر أشعارٌ موزونة، تفرح القلوب المحزونة؟

وهل يصوّر لعاقلي يتأمل، أن الغراب النّاعق صدح بأحلى أشعار الغزل؟ وأن العصافير الطّائرة في السماء، كعصافير المنذر يملأ تغريدها الفضاء؟ وكيف يظنُّ الظانُّ أن للغراب سجّج حمامة، وإنه لأخرس مع الدّمامة؟ فبعد من زعم أن الحجر يتكلّم، وأنّه عند الضّرب يتألّم. ومن التّمس كسوة من زبد أفواه الإبل، فإنّه لا يجد من يوافقّه بالعجل.

١ ساعدة بن جويّة بن كعب بن كاهل من سعد هذيل. من مخضرمي الجاهلية والإسلام، أسلم وليست له صحبة، شعره محشو بالفريش والمعاني الغامضة.
٢ الفرزدق همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، (٢٨ - ١١٠ هـ / ٦٥٨ - ٧٢٨ م) شاعر من النبلاء. يشبهه بزهير بن أبي سلمى وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهليين، والفرزدق في الإسلاميين. كان شريفاً في قومه، عزيز الجانب، يحمي من يستجير بقبر أبيه. لقب بالفرزدق لجهامة وجهه وغلظه.

ولو أُنِّي لا أشعر بما يقال عني، لأرحت من إنكاري وظني، وكنت كالوثن: سواءً عليه إن وصفته الوقار، يبقى حجراً من الأحجار، وكالأرض السَّبْخَةُ ما تحفل أن قيل: هي مُريعة، أو قيل لها: بئست للزرع الطبيعة؛ وكالجدي المذبوح: ما يأبه لقول الآكل: إنه لسمين، ولا قول القصاب: إنه يشبع البطون. والله المستنصر على البروق الخادعة، ومتى كامن للسيل مانعة؟ وكيف أغتبط إذا تقوّلوا عليّ، ونسبوا المعرفة إليّ؟ ولست آمناً في العاقبة، فضيحةً ونظرة لوم ثاقبة، ومثلي، إن فرحتُ بذلك، مثّل من اتّهم بمال، فاعتقد أنّ ما ذاع من الخبر يأتيه بجمال، فسره قول الجهلة: إنه لأخو يسار. فطلب منه بعض السلاطين أن يحمل إليه ضريبة كبيرة، فأنكر وكشف السريرة، وضربه كي يُفَرَّ، وقتل في العقوبة لا في كُرِّ ولا في فَرِّ.

وقد شهد الله أنني أفرح بمن عابني، لأنه صدق فيما رابني، ويركبني الهمُّ لثناء يكذب، يتركني كالطريدة التي لا تأكل ولا تشرب، ولو نُطحت بقربي جرادة، لامتنعُ من كلِّ إرادة. فغفر الله لمن ظنَّ حسناً بمن ركبته السيئات، وجعله حجةً في القادمت. ولولا كراهتي حضوراً بين الناس، وإيثاري أن أموت ميتة ظبي في شجر يباس، فاجتمع معي أولئك المتعاهدون، لصحَّ أنهم عن الرُّشد يتعدون، وأثار لهم الحقُّ في الجبال والوهاد، وكانوا كمن خرط القتاد.^(١)

وأما وروده حلب، حرسها الله، فلو كانت تعقل لفرحت به فرح العجوز الشَّمطاء تسعى، ليست من أصحاب الإبل ولا ترعى، غاب سليلها الواحد، وما هو لحقها جاحدٌ. وقدِمَ بعد أعوام شقاء، ففرحت به فرح الظمآن بالماء، وكانت معه كالظبية معها وليدها، رتعت به في المدى، تخاف عليه الردى، فلما رأت المكان آمناً، ولم تخش من السباع كامناً، انبسطت وخلفتها في السهل الواسع، والتمست المرعى لا تخشى الموانع، لتملاً لغذائه الصُّروع، وتبعد عنه الجوع، فعادت المسكينة فلم تره، فقالت للصدمة: لا تتعبه إن كان وقع في مخالب الذئب، ومُنِي ببعض التَّعذيب، فأنت القادر عل تعويض الأطفال، والعالم بعقبي الحسن من الفال. فبينما هي تبكي يملؤها الأسى والوله، جاءها صوته من أصل كئيب اتخذ فيه مكنأ، ولم يرَ من الرُّماة من أعد قوسه وجنى، هدأ هناك لما امتلا، فما ساءه القدر ولا سباع الفلا. فغمر فؤادها

فرح وسرور، من بعد ما وضحت لها الأمور. ولو رجع القارظ^(٢) إلى عَزَّة، ما بان فيها الطرب لإيابه، وما قُدِر من زوالِ مُصابه، إلا دون ما أنا مضمَرُ المسرَّة بدنوِّ الدِّيار. وإلقائه عصا التَّسيار،

١ القتاد: شجر له شوك كالإبر، والخرط: قشرك الورق عن الشجر اجتذاباً بكنك، وهوان تقبض على أعلاه ثم تمر يدك عليه إلى أسفله. ولذلك قالوا في المثل: دونه خرطُ القتاد.

٢ القَرظ: شجر يُدبُّ به، والقارظ: الذي يجمع القَرظ ويحتثيه. ومن أمثالهم: لا يكون ذلك حتى يُؤوب القارظان، وهما رجلان من عَنزَة، خرجا يَجْتَبيان القَرظَ فلم يرجعا فُضرب بهما المثل.

فالحمد لله الذي أعاد البارق إلى غمام آخر الشتاء، وجعله بريقاً لُحليّ السماء، وإنَّ حلبَ المنصورة لتحتاج إلى من يعرف قليلاً من علم، في أيام المحاربة والسُّلم، فما باله شيّد الله به الآداب، بأن يزيدَه في المدة، وأن يجعلها منفعة ممتدة.

وإني لأعجب من تمالؤ جماعة، على أمر ليس بالحسن ولا بالطاعة، ولا ثبت له يقينٌ، فيُخرِجُ جوهرَه الفعلُ المكين. قد كدت ألحقُ برهطِ العدم، من غير الأسف ولا الندم، ولكننا أخشى قدومي على جبّار السموات، ولم أصلح نخلي بإبرة أو غيرها من الأدوات. قيل لبعض الحكماء: إنَّ فلاناً قتل نفسه قبل أن يُجنَّ، ولم يطق في الدار الخالية أن يذللَّ ويمتهن، وكره أن يمارسَ الذنوب والشُّرور، وأحبَّ الانتقال إلى منازل السُّرور، فقال الحكيم قولاً معناه: أخطأ ذلك الشابُّ وهو من العمر في مُقتَبَل، وله ولأمّه الغباء والهبل، هلاً صبر على صُروف الزَّمان، وهل يعلمُ ما يخبئُ القدرُ إنسان؟ فإنه لا يشعر علامَ أقدم، وكلُّ بيتٍ يُبنى ويُهَدَم! ولولا حكمة الله جلَّت قدرته، وأنَّه حجز الرَّجَلَ عن الموت المُحتَم، بالخوف من الضُّرِّ والألم، لرغِبَ كلُّ من احتدم به الغضب، وكلَّ عن ضريبة الحياة واجتنب، أن يُسقى من الموتِ كأساً، والله العالم بما يأسى.

أبو القطران الفقعسي

وأما أبو القطران الفقعسي^(١)، وأبي البشر من الخطوب منسي، فصاحب غزلٍ ونسيب، منشغل بالنساء والتشبيب، وما أشكُ أن الشيخ، أقر الله عين الأدب بالزيادة في عمره، أشد شوقاً إلى أحمد بن يحيى مع صمم^(٢)، وأبي الحسن الأثرم مع انكسار سنه^(٣)، من المرار بن سعيد عند رجاء العاقبة وخوف الوعيد، وهو ذلك المتهيم إلى وحشية ابنة عمه، حتى صارت كل هممه، يتذكر ثغراً كالياقوت، وخذلاً يظن من لثمه لن يموت، وإنما ود الغانيات خلاّب وخذاع، وللغم في هواه ابتداع. ولو هلكت تلك المرأة قبل المرار، لعاش العمر في ضيق ومرار، لاسيما بعد التقدم في السن، وما يعترى الجسم من الوهن.

ولعل أبا القطران لو مُتّع بهذه المذكورة سنين بلا عدد، على غير خوف من رقابة من أحد، لجاز أن يسأم الوصال، إذا علم أن حبهما في اتصال. ولو نزل بها شيء تتغير به عن عهدها، لتمنى أنها ما فارقت مهدها، لأن ابن آدم ملول، تسري به إلى المنية ناقة ذلول. ولو أصابها العور، بعد أن سكن عينها العور، لظن أن ذلك نبأ لا يُغفر ولا يُكفر، فكيف يعتب على الناسين، وينتقم من القوم الساهين؟ والله سبحانه، قد رفع ذلك عن الساهي لأنه لا يعلم، والمتألم يشغله عن كل شيء ألم. ومن أين له، ما وهبه الله للشيخ من وفاء لو علم به السموءل^(٤) لاعترف أنه من الغادرين، أو الحارث ابن ظالم^(٥) لشهد أنه من السادرين، من قولهم فعل كذا وكذا سادراً، أي لا يهتم لشيء، وإنما عاشر أبو القطران الأعبد في الإبل والإماء، ونظر إلى عقب رجله تغطيه الدماء، مما يطاء على هراس، ومن له في المرعى بالفراس؟ والهراس جمع هراسة، وهي شجرة ذات شوك، والفراس التمر الأسود،

- ١ المرار بن سعيد بن خالد بن نضلة الفقعسي الأسدي. شاعر من سكان البادية في العصر الأموي، كان قصيراً مفرد القصر، ولكنه كان شجاعاً كريماً، وكان من الشعراء للصوص وقد سجن مرتين، وكان كثير الشعر، ولكن أكثره فقد.
- ٢ أحمد بن يحيى بن زيد النحوي المعروف بتعلب (٢٠٠-٢٩١هـ/٨١٥-٩٠٤م)، كان إمام الكوفيين في النحو واللغة، وكان ثقة حجة صالحاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم، نقل سمعه في آخر أيامه.
- ٣ علي بن المغيرة، أبو الحسن الأثرم، صاحب اللغة المتوفى ٢٣٢هـ/٨٤٧م، كان صاحب كتب مصححة، قد لقي بها العلماء، وضبطها؛ ولم يكن له حفظ. لقي أبا عبيدة والأصمعي، وأخذ عنهما. وله من الكتب: كتاب النوادر، كتاب غريب الحديث.
- ٤ السموءل بن غريز بن عاديء الأزدي المتوفى ٦٤ق. هـ / ٥٦٠ م شاعر جاهلي حكيم، وكان له حصن سماه الأبلق. أشهر شعره لاميته وهي من أجود الشعر، هو الذي أجاز امرؤ القيس.
- ٥ الحارث بن ظالم المري المتوفى ٢٥ق. هـ / ٥٩٨ م أشهر فتاك العرب في الجاهلية، نشأ يتيماً وآلت إليه سيادة غطفان، ووقد على النعمان ملك الحيرة فالتقى بقاتل أبيه جعفر بن خالد، فقتله في مبيته، ولم تحمه عشيرته. ثم قتل ابن النعمان. فطلبه النعمان، فلجأ إلى بني شيبان ثم طيء ثم بني دارم فحموه، فغزتهم بنو عامر فهزمتهم، وطاف الحارث في البلاد حتى أتى الشام، فقتل في حوران.

ومن أبيات المعاني:

إذا أكلوا الفَراسَ رأيتَ شاماً على الأنباثِ منهم والغُيوبِ

فما تنفكُ تسمعُ قاصِفاتٍ كصوتِ الرُعْدِ في العامِ الخصبِ

ولعلّه لو صادف غانيةً تفوق وحشيةً جمالا، لسلاها وبهمها ما بالي، وإنما ديدن ذلك الرجلِ ونظرائه صفة النافذة الشاردة، وليست له شجرة في الأرض أبدية. إذا جنى الكمأة طار من الفرخ، وخال أنه قد نجح! ولو حضر المآذب التي حضرها الشيخ لعاد كما قال القائل:

فلو كنتَ عُذريَّ العَلاقةِ لم تبتُ بطيناً، وأنساكَ الهوى كثرةَ الأكلِ

وهو، قدّر الله له ما أحبّ، قد جالس ملوك مصر التي قال فيها فرعون: «أليس لي مُلكٌ مِصرَ وهذه الأنهارُ تجري من تحتي أفلا تُبصرون»^(١) وقد أقام بالعراق زمناً مديداً، وانكب على الأدب انكباباً شديداً، وبالعراق مملكة فارس، وهم أهل الشرف والأخلاق، يوفي صرفهم في الأطمعة على كلِّ إنفاق، ولا ريب أنه قد جالس بقاياهم، واختبر في المعاشرة سجاياهم، وعاطوه الأكوّس من ذوات التصاوير، كما يفعل منهم كل كبير، كما قال الحكمي:^(٢)

تدورُ علينا الكأسُ في عَسَجديّةٍ حَبَتها بأنواعِ التصاويرِ فارسُ

قرارتها كسرى، وفي جنباتها مهأً تَدْرِيبها بالقِسيِّ الفوارسُ

وأبو القطران كان يستقي قليل الماء بحبل الألياف، ويجعلها في القدح أو العلبة ويخاف، وإذا طعمَ فمن طعام كالصخور الصلدة، وإن أخصب تباهى بأكل الزبدة. وما أشكُّ أنه، أمتع الله الآداب ببقائه، لو رُزق مُحاورَة أبي الأسود^(٣) على عرجِ رجله، ووعورة طبعه وبُخله، لكان أشهى إليه من شغف قيس بليلاه، وفرحة طير بأثناه. ولو أدرك محاضرة أبي الخطّاب لكان سيلان عينيه أشدَّ شغفاً من الحادرة بسُميّة، ومن غيلان^(٤) بميّة لأنه قال:

وعينانِ قالَ اللهُ: كونا، فكانتا فَعُولانِ بالألبابِ ما تفعلُ الخمرُ

١ الآية ٥١ سورة الزخرف

٢ نذكر بأن اسم أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي

٣ أبو الأسود الدؤلي

٤ الحادرة: قطبة بن أوس بن محصن الغطفاني المتوفى ٥ هـ / ٦٢٦ م شاعر مخضرم مقل، يلقب بالحادرة أي الضخم، أكثر من الغزل بمرأة تدعى سمية.

هو ذو الرمة غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي من مضر (٧٧ - ١١٧ هـ / ٦٩٦ - ٧٢٥ م)، قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس

وختم بذي الرمة. كان شديد القصر دميماً، يضرب لونه إلى السواد، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، عشق (ميّة) المنقرية واشتهر بها.

وهو بتباعد شفّتي أبي الحسن سعيد بن مسعدة^(١)، أعجب من كَثِيرِ برضابِ عَزَّةَ، والعدريِّ بلمى بثينة^(٢). ولو كان أبو عبيدة كرية رائحة الفم، لما أمنت مع كلفه بالأخبار، أن يقبله شقّ التينة بلا استكبار، وفي الحديث عن عائشة، رضي الله عنها: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، يقبلني شقّ التينة. وروى بعضهم: شقّ التمرة. وذلك أن يأخذ الشفة العليا بيده، والسفلى بيده الأخرى، ويقبل ما بين الشفتين.

١ هو الأخفش الأوسط، وسبقت ترجمته

٢ جميل بثينة

رَمَسَ الْهَالِكُ بَيْتَ الْحَقِّ

وأما مَنْ فَقَدَهُ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ لَمَّا دَخَلَ حَلَبَ، حَرَسَهَا اللَّهُ، فَتَلَكَ عَادَةَ الزَّمَنِ، لَيْسَ عَلَى الْإِنْسَانِ بِمُؤْتَمِنٍ، يَسْتَبَدُّ بِالْأَبْيَاتِ الْمَسْكُونَةِ قُبُورًا، وَلَا يَرْحَمُ عَائِرًا مَقْهُورًا. وَإِنَّ رَمَسَ الْهَالِكِ لِبَيْتِ الْحَقِّ، وَإِنْ طُرِقَ بِالصَّعْبِ الْأَشَقِّ. عَلَى أَنَّهُ يَغْنِي مِنَ يَثْوِي بَعْدَ الْعَدَمِ، وَيَكْفِيهِ الْمُؤُونَةُ مَعَ الْقَدَمِ. وَإِنَّ الْجَسَدَ لَمَنْ شَرُّ مَوْبِوءٍ، وَقَاكَ اللَّهُ شَرَّهُ الْمَخْبِوءِ. قَالَ الضَّبِّيُّ: (١)

ولقد علمتُ بأنَّ قصري حُفِرُهُ ما بعدَهَا خَوْفٌ عَلَيَّ وَلَا عَدَمٌ
فأزور بيتَ الحقِّ زورةَ مَاكِثٍ فعلامٌ أَحْفَلُ مَا تَقَوَّضَ وَأُنْهَدَمُ؟

وما زالت العربُ تسمِّي القبرَ بيتًا، وإن كان المنتقل إليه ميتًا، قال الرَّاجِزُ: (٢)

اليومَ يُبْنَى لِدُوَيْدٍ بَيْتُهُ لو كَانَ لِلدَّهْرِ بَلَى أُبْلَيْتُهُ
أَوْ كَانَ قِرْنِي وَاحِدًا كَفَيْتُهُ يَا رَبِّ بَيْتِ حَسَنِ بَنِيْتُهُ
يَا رَبِّ نَهَبٍ صَالِحٍ حَوَيْتُهُ يَا رَبِّ عَبَلٍ حَسَنِ لَوَيْتُهُ
وَمِعْصَمٍ مُخَضَّبٍ ثَنَيْتُهُ

فأما الفصل الذي ذكر فيه الخليل، فقد سقط منه اسم الذي غالى في المدائح المُدَبَّجات، وقرني بالانجوم الزاهرات، وأياً كان، غفر الله جرائمه، وحفظ له في الأبد كرائمه، فقد أخطأ على نفسه فيما زعم وعليّ، ونسب مالا أستوجب إليّ. وكم أعتذرُ وأتنصّل، من ذنبٍ ليس يتحصّل! وإنّي لأكره بشهادة الله تلك الدّعوى الباطلة، كراهة المسيح من جعله ربّ العزّة، فما ترك للفتن من مهزّة، بدليل قوله تعالى: ”وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ.“ (٣)

١ هو الأبرش الضببي عامر بن حوط بن أبي هند بن مازن بن بني عامر بن بن ضبية، شاعر فارس.

٢ دويد بن زيد بن نهد بن أسلم القضاعي. شاعر جاهلي، معمر، روي في القاموس المحيط أنه أدرك الإسلام.

٣ الآية ١١٦ سورة الأنعام

وأما أبو الفرج الزَّهرجِيُّ فمعرفةً بالشيخ تبيّن أنّه للأدب حليفٌ، وللطَّبعِ الخيِّرِ أليفٌ. وودِدْتُ أنّ الرِّسالةَ وصلت إليّ، ولكن ما كان عديلك منصفاً، إذ سرق الحَمَلَ وما وفى، هَلَا اقتنع بثوبٍ أو نفقة، وترك الصُّحفَ المُنمَّقة! فأفقدته الله ما بين يديه، ولا اهتدى في اللَّيلة بفرقيده. لو أنّه أحدُ لصوص العرب الذين رُويت لهم الأمثال السَّائرة، وتحدّثت بهم الركبُان السَّائرة، لما اغتفرتُ ما صنع بما نَظَّم، لأنّه أفرط وأعظم، أي أتى عزيمة، واقتلع من القلائد نظيمة.

وقد وُفِّقَ أبو الفرج وابنه، وصار كالبدْر شأنه، لمَّا درَسَ عليه الكتب، وحفظ عنه كيف تُرتَّب. وإن كان الشيخ مارسَ من التَّعب أمَّ الرُّبيِّق، وهي الشدائد، فقد جدَّد عهده الأوَّل بنهرِ قُويِّق، وإنّه من خير الأنهر، لا يُغرق السَّابح ولا يقهر، وبناته المخطوبات صغارٌ، يؤخذن منه في الغفلة ولا يغار. سترن الأنفس فما تبرَّجن، ولكن بالرُّغم خرجن. ما يشعرقويِّق المسكين، أعربَ أولاء أم رومٌ، ولا يحفلُ بما تروم. ولقد ذكره البحتريُّ، ونعته الصَّنوبريُّ، وإخالُ أنّ الشيخ أفسدته عليه دجلةُ وبناتها، وهنَّ الأنهرُ الصغيرة التي ترفدها، وأعانها على ذلك فُراتها.

وأما حلب، فإنّها الأمُّ البرّة، تُعقد بها المسرّة، وما أحسبها، إن شاء الله، تُظهِرُ ذميمةَ العقوق، أو تُغفلُ ما استوجب من الحقوق.

ووحشيّة، يُحتمل أن يكون، أنس الله الآداب ببقائه، جعلها نائبة عن فقده من الإخوان، الذين قلَّ نظيرهم في الأوان. وكذلك تجري أمثال العرب: يكتنُون فيها بالاسم عن جميع الأسماء، مثال ذلك أن يقول القائل:

فلا تُشَلَلْ يَدُ فَتَكْتُ بَعْمَرٍ فَإِنَّكَ لَنْ تَذِلَّ وَلَنْ تُضَامَا

يجوز أن يرى الرجل رجلاً قد فتك بمن اسمه حَسَّان أو عطارِد أو غير ذلك، فيتمثّل بهذا البيت، فيكون عمرو فيه واقعاً على جميع من يتمثّل له به. وكذلك قول الرّاجز: أوردتها سعدٌ وسعدٌ مشتمل^(١) صار ذلك مثلاً لكل من عمل عملاً لم يُتقنه، فيجوز أن يُقال لمن اسمه خالدٌ أو بكرٌ أو ما شاء الله من الأسماء. ويضعون في هذا الباب المؤنث موضع المذكر، والمذكر موضع المؤنث، فيقولون للرجل: أطريّ فإنك ناعلةٌ، والصيفُ ضيَّعت اللبَن، مُحسنةٌ فهيلي. وإذا أرادوا أن يُخبروا بأنَّ المرأة كانت تفعل الخيرَ ثمَّ هَلَكَتْ فانقطعَ ما كانت تفعله، جاز أن يقولوا: ذهب الخير مع عمرو بن حممة. وجامزٌ أن يقولوا لمن يُحذرونه من قرب النِّساء: لا تبت من بكريّ قريباً، والبكريُّ أخوك فلا تأمنه. ومثل هذا كثير.^(٢)

١ تتمة البيت مثل مشهور جداً: ما هكذا تورّد يا سعد الإبل

٢ أمثال عربية مشهورة يطول شرحها

الثكلى تعين الثكلى

وأما شكواه إليّ، فإنني وإياه كما قيل في المثل: الثكلى تعين الثكلى، وعلى ذلك حمل الأصمعيّ قول أبي دؤاد^(١):

ويُصيحُ أحياناً كما اسدُ تمعَ المَصلُ دعاءَ ناشِدِ

كلانا بحمد الله مُصلُّ سواءٍ بسواءٍ ، فعلى من نمنُّ في العطاء؟ أما المَطيّة فتشكو العناء، وأما المِزودُ فوصفه الخواء، والركبُ يفتقرُ إلى العقل والفطنة، وكلُّهم يرجو العطاء دونما منّة^(٢):

يشكو إليّ جملي طولَ السرى صبرٌ جميلٌ، فكِلانا مُبتلى

إن اشتكت شجرة السمرّة فأساً إلى نبات السّيالة، فإنها تشكو الوهن إلى مُتعب، وصدقُ المرء خيرٌ من أن يكذب. ولا أرتاب أنه يحفظ قول الفزاريّ منذ خمسين حجّة أو أكثر^(٣):

أُعِيّنَ هلاً إذ بُليتَ بحُبّها كنتَ استعنتَ بفارغِ العقْلِ
أقبلتَ تبغي الغوثَ من رَجُلٍ والمستغاثُ إليه في شُغلٍ^(٤)

ولم يزل أهل الأدب يشكون الغير في كلِّ جيل، ويخصّون من العجائب بسجلٍ سجيلٍ. وهو يعرف الحكاية أنّ مسلمة بن عبد الملك بن مروان أوصى لأهل الأدب بجزءٍ من ماله وقال: إنهم أهل صناعة جفاها الناس. وأحسب أنهم والقلّة خُلِقوا توأمين، وإنما ينجح بعضهم حقة أو حقتين، ثم لا يلبث أن تزلّ به القدم، ويصير كمن أصابه السقم. وقد سمع في مصر بقصة أبي الفضل وسعيد، وما كان أحدهما من الآخر ببعيد.

١ أبو دؤاد الإيادي جارية بن الحجاج بن حذاق الإيادي (١٤٦ - ٧٩ ق. هـ / ٤٨٠ - ٥٤٥ م) شاعر جاهلي، وهو أحد نعمات الخيل المجيدين، وإنما أحسن نعمت الخيل لأنه كان على خيل النعمان بن منذر.

٢ البيت من أبيات للشاعر المبلد بن حرملة الشيباني، ولم أجد له غيرها

٣ مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري المتوفى ١٠٠ هـ / ٧١٨ م شاعرٌ غزلٌ طريف من الولاة. كان هو وأبوه من أشرف الكوفة. وتزوج الحجاج أخته (هند بنت أسماء) وتقلد خوارزم وأصبهان للحجاج. ووقع منه ما أوجب حبسه مدة طويلة. شعره كثير.

٤ من الغريب أن يرد البيت هكذا، لأن قوله « بحبها » يكسر الوزن، وحاشا المعري أن يقع في هذا الخطأ، ولعل التغيير جاء من محققي الرسالة، وكان عليه أن يقول « إذ شغفت بها ».

وإذا كان الأدب على عهد بني أمية يقصدُ أهله بالجفوة، فكيف يسلمون من باس، عند مملكة بني العباس؟ وإذا أصابتهم المحن في زمن الرشيد فكيف يُطمع لهم بالحظ المشيد؟ أليس أبو عبيدة قدم مع الأصمعيّ وكلاهما يريد الصعود، ولا يلتمس إلى البصرة أن يعود، فتشبّث بعبد الملك الأصمعي، وردَّ أبا عبيدة معمر، ومن يعلم بما يخبئ الدهر. ومن بغى أن يتكسَّب بالأدب، فقد أودع شرابه في الخلق من القرب، غير ثقةٍ على الوديعة، بل هي منه في صاحب خديعة. وقد روي أن سيبويه لما اختبر شأنه وأدركوا أنه عالم، رغب في أن يتولى بشيراز ولاية المظالم، وأن الكسائي حزن مما صنع به، فأعانه كي يحصل على مطلبه. فأما حبيب بن أوس^(١) فهلك وهو بالموصل على البريد، وصاحب الأدب حليف التصريد.

١ هو أبو تمام

أبو الطيب المتنبي

وأما الذين ذكّروهم من المصحّفين، فغير بررة ولا منصفين. وما زال الثعلب يسعى لأذاة الأسد، وما أحسبه يشعر بمكان الحسد، فإذا سرى أسدٌ وطوّه كالهمس خفي، تشقى به الناقة ذات السنام القوي، فالثعلب به منذرٌ، كأنه ينبّه الفريسة ويحذّر، ولا يراه الضيغمُ أهلاً للعتاب، ويجعل أمره فيما يحتمل من ضرٍّ أصابه وانتاب. وكم من ضرغام يعلو منه الزئير، سهّده طنين البعوض الحقيق، وإذا البعوض بليلاً تغنى، فالأسد به معنى: ^(١)

ما يُضِيرُ الْبَحْرَ أَمْسَى زَاخِرًا أَنْ رَمَى فِيهِ غُلَامٌ بِحَجَرٍ ^(٢)

أو قول القائل:

أَوْكَلَمَا طَنَّ الدُّبَابُ أَرْوَعُهُ؟ إِنَّ الدُّبَابَ إِذَا عَلِيَ كَرِيمٌ ^(٣)

وما زال الهمج يقولون، ويُقصّرون عن المكّمة فلا يطولون، وإنهم عما فعل متناقلون، وطلاب الأدب في حباله، كمن يصعد في شعاب جباله.

من انفرد بفضيلةٍ أثيرة، فإنه يتقدّم بمناقب كثيرة، وإن حسادَ البارع لكما قال الفرزدق:

فإن تهجُ آلِ الزُّبُرِقَانِ، فإنّما هجوتَ الطَّوَالَ الشَّمَّ من يدبُلِ
وقد ينبحُ الكلبُ النُّجُومَ ودونها فراسخُ تُقْصِي نَاطِرَ الْمُتَأَمِّلِ

أو كما قال الراجز:

يَعْدُو عَلَى الْحَاسِدِ حَسَدُهُ وَيَذُوبُ مِنْ كَبْتِ جَسَدُهُ

أو كما قال:

فهل ضربهُ الرُّومِيُّ جاعلةً لكم أبا عن كَلَيْبِ، أو أبا مثل دارم؟

١ أورد أبو العلاء كعادته أسماء الأسد غير المشهورة مثل: الوُرد وهموس وأغلب وقشور، وسُمّي الثعلب ثعالة، والبعوض الطيثار

٢ البيت للأخطل التغلبي، وهو بيت مفرد ليس من قصيدة

٣ أشارت بعض المصادر إلى أن البيت لجرير، لكنه غير موجود في ديوانه

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ

فقد كان الرَّجُلُ مولعاً بالتَّصْغِيرِ، لا يَقْنَعُ مِنْ ذَلِكَ بِخِلْسَةِ الصَّغِيرِ، كَقَوْلِهِ:

مَنْ لِي بِفَهْمِ أَهْيَلِ عَصْرِ يَدَّعِي أَنْ يَحْسَبَ الْهِنْدِيَّ فِيهِمْ بَاقِلُ

وقوله:

إِذَا عَذَلُوا فِيهَا أَجَبْتُ بِأَتَّةٍ حُبَيْبَتَا قَلْبِي، فُؤَادِي هَيَا جُمْلُ

وقوله:

أَخِذْتُ بِمَدْحِهِ فَرَأَيْتُ لَهُوَاً مَقَالِي لِلْأَحْيَمِقِ يَا حَلِيمُ

وقوله:

وَنَامَ الْخُوَيْدِمُ عَن لَيْلِنَا وَقَدْ نَامَ قَبْلُ عَمَى لَا كَرَى

وقوله:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرُ صَعِيفُ يُقَاوِنِي قَصِيرُ يُطَاوِلُ

وغير ذلك مما هو موجودٌ في ديوانه، ولا مَلامَةَ عليه، إنما هي عادةٌ صارت كالطبع للشاعر، فما حَسُنَ بها ما ألفتَه النواظر، ولكنها تُغْتَفَرُ مع المحاسن، والخال قد يظهرُ على الخد الفاتن. وهذا البيت الذي أوله:

أذم إلى هذا الزمان أهيله إنما قاله في علي بن محمد بن سيّار بن مُكْرَمٍ بأنطاكية، قبل أن يمدح سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان، والشعراء مطلق لهم ذلك، لأن الآية شهدت عليهم بالمبالغة وقول الأباطيل: ”ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون؟“^(١)

وأهل كلمة أصلٌ وُضِعَتْ للجماعة، فيقال: ارتحلَ أهلُ الدار، فيعلم السامع أن المتكلمَ لا يقصدُ واحداً بما قال، إلا أن هذه الكلمة قد استعملت للأحاد، فقول: فلان أهلُ الخير وأهلُ الإحسان، قال حاتم الطائي:^(٢)

١ الأيتان ٢٢٥ و٢٢٦ سورة الشعراء

٢ حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي القحطاني المتوفى ٤٦ ق. هـ / ٥٧٧ م شاعر جاهلي، فارس جواد يضرب المثل بجوده، كان من أهل نجد.

ظَلَّتْ تَلُومٌ عَلَى بَكْرِ سَمَحَتْ بِهِ إِنَّ الرِّزِيَّةَ فِي الدُّنْيَا ابْنُ مَسْعُودٍ
غَادَرَهُ الْقَوْمُ بِالْمِعْزَاءِ مُنْجَدِلًا وَكَانَ أَهْلَ النَّدَى وَالْحَزْمِ وَالْجُودِ

وكأن هذه اللفظة أصلها أن تكون للجمع، ثم نقلت إلى الواحد، كما أن صديقاً وأميراً ونحوهما إنما وضعت في الأصل للأفراد، ثم نُقلت إلى الجمع على سبيل التشبيه. وكذلك قولهم: بنو فلان أخ لنا. ويقال: أهل وأهلة، وأهلات في الجمع، قال الشاعر:^(١)

وَهُمْ أَهْلَاتٌ حَوْلَ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ إِذَا أَدْلَجُوا بِاللَّيْلِ يَدْعُونَ كَوْتِرَا

وقال بعض النحويين في تصغير آل الرجل: يجوز أويل وأهيل، كأنه يذهب إلى أن الهاء في أهلٍ أبدلت منها همزة، فلما اجتمعت الهمزتان جُعِلت الثانية ألفاً، ومثل هذا لا يثبت. والأشبه أن يكون آل الرجل مأخوذاً من آل يؤول، إذا رجع، كأنهم يرجعون إليه أو يرجع إليهم.

أما ما ذكره من حكاية القطرُبُلِّي وابن أبي الأَزهري، فقد يجوز مثله، وما وضع أن المتنبى حُبِسَ بالعراق، فأما بالشام فحبسه مشهور. وحُدِّثت أنه كان إذا سُئِلَ عن حقيقة هذا اللقب، قال: هو من النَّبْوة، أي المُرتَفِع من الأرض. وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه. وإنما هي مقادير، يديرها في العلو قدير، يظفر بها من وُفَّق، ولا يَعِيبُ المَجْتَهِدُ أَنْ يُخْفِقَ.

وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متعبداً، وليس مثل غيره من الناس مُلحدًا، فمن ذلك قوله:

تَعَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمَا

وقوله:

مَا أَقْدَرَ اللَّهَ يُخْزِي خَلِيقَتَهُ وَلَا يُصَدِّقُ قَوْمًا فِي الَّذِي زَعَمُوا

وإذا رجع إلى الحقائق، فنُطِقَ اللسان لا يُنْبِيءُ عن اعتقاد الإنسان، لأن العالمَ مَجْبُولٌ على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يُظهِرَ الرجلُ بالقول تديناً، وإنما يُبدي ذلك تزيئاً، يريد أن يصل به إلى مدح أو ثناء، أو غرض من أغراض الدنيا دارالفناء، وكم رأينا من ناس هم في الظاهر متعبدون، وفيما بَطَّنَ ملحدون.

١ هو المُخَبَّل السُّعْدِي ربيع بن مالك بن ربيعة بن عوف من تميم المتوفى ١٢ هـ / ٦٣٣ م شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وعمر طويلاً ومات في خلافة عمر أو عثمان رضي الله عنهما. قال الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء: له شعر كثير جيد.

دين دَعْبِل

وما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي^(١) لم يكن له دين، وكان يتظاهر بالشيعة، وإنما غرضه التكسب، وكم أثبت نسباً بنسب، ولا أرتاب أن دعبلاً كان على رأي أبي نواس وطبقته، والزندقة فيهم طاغية، ومنهم جماعات باغية.

وقد اختلفوا في أبي نواس: فادّعوا له التعبد، وأنه كان يقضي ليلته في التهجد، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه، وذلك أن العرب جاءها النبي صلى الله عليه وسلم، فاتّبعه منها متّبعون، منهم واعون ومنهم مدّعون، فلما قوي الإسلام والإيمان، وارتفع مُلكه على الأركان، مازج العربُ غيرهم من الطوائف، وسمعوا كلام الأطباء والفلاسفة وأهل المنطق، فمالت منهم طائفة كثيرة. ولم يزل الإلحاد في بني آدم على مرّ الدهور، حتى إن أصحاب السّير يزعمون أن آدم عليه السلام، بُعث إلى أولاده فأنذرهم على ذلك المنهاج إلى اليوم. وبعض العلماء يقول إن سادات قريش كانوا زنادقة. وما أجدرهم بذلك!

وقال شاعرهم يرثي قتلى بدر من المشركين، وتروى لشداد بن الأسود الليثي:^(٢)

أَلَمْتُ بِالتَّحِيَّةِ أَمْ بَكْرٍ	فَحَيُّوا أَمْ بَكْرٍ بِالسَّلَامِ
وَكَائِنٌ بِالطَّوِيِّ طَوِيٍّ بَدْرٍ	مِنَ الْأَحْسَابِ وَالْقَوْمِ الْكِرَامِ
أَلَا يَا أُمَّ بَكْرٍ لَا تَكُرِّي	عَلَيَّ الْكَأْسَ بَعْدَ أَخِي هِشَامِ
وَبَعْدَ أَخِي أَبِيهِ وَكَانَ قِرْمًا	مِنَ الْأَقْرَامِ شَرَّابَ الْمُدَامِ
أَلَا مَنْ مَبْلُغُ الرَّحْمَنِ عَنِّي	بِأَيِّ تَارِكٍ شَهْرَ الصِّيَامِ
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَايِلَ مَنَكَبِيهِ	فَقَدْ شَبَعَ الْأَنْبِيسُ مِنَ الطَّعَامِ

١ دعبل بن علي بن رزين الخزازي (١٤٨ - ٢٤٦ هـ / ٧٦٥ - ٨٦٠ م) شاعر هجاء. في شعره جودة، وصنّف كتاباً في طبقات الشعراء. قال ابن خلكان: كان بذيء اللسان مولعاً بالهجو والحلم من أقدار الناس هجا الخلفاء الرشيد والمأمون والمعتمد والواقق ومن دونهم. وطال عمره فكان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك.

٢ لم يترجم له أحد، وذكر بعض المؤرخين أنه كان مسلماً وارتد، وقد وردت الأبيات في مصادر أخرى باختلافات طفيفة وزيادة بعض الأبيات وحذف بعضها وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه: أنه لما كان في بني عدي، وحاول أن يخرج فيهم، قالوا له وقد تبينوا دَعْوَاهُ: ها هنا ناقة صعبة، فإن قدّرت على ركوبها، أقررنا أنك مُرسل. وأنه مضى إلى تلك الناقة وهي رائحة في الإبل، فتجايل حتى وثب على ظهرها، فنفرت ساعة، ثم سكنَ نَفَارُهَا ومشت مشي المنقادة، وأنه ورد بها الحِلَّةَ وهو راكب عليها، فغضبوا له كل العجب، وصار ذلك من دلائله عندهم.

أُيُوعِدُنَا ابْنُ كَبْشَةَ أَنْ سَنَحْيَا وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءِ وَهَامٍ؟
أَيُنزِلُ أَنْ يَرَدَّ الْمَوْتَ عَنِّي وَيُخَيِّنِي إِذَا بَلَيْتَ عِظَامِي؟

ولا يدعي مثل هذه الدعاوى إلا من يستعدُّ وراءها للموت، ولا يأسف له إذا فات الفوت.

إعجاز المتنبي

وحُدثت أن أبا الطيب أيام كان إقطاعه ”بَصَفَ“ رُوِي يصلي بموضع بمعرة النعمان يقال له كنيسة الأعراب، وأنه صلى العصر ركعتين، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر، وأن القَصْرَ له جائز.

وحُدثت أيضاً أنه كان في ديوان اللاذقية، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكينُ الأَقلام فجرحته جرحاً بليغاً، وأن أبا الطيب تَفَلَّ عليها من ريقه، وشدّها غير منتظر لوقته، وقال للمجروح: لا تحلّها في يومك. وعَدَّ له أياماً وليالي، وإن ذلك الكاتب قبل منه، فبرىء الجرح، فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد، ويقولون: هو كُمُحيي الأموات.

وحَدَّث رجل: كان أبو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية أو في غيرها من السواحل، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل، ولقيهما كلب ألح عليهما في النباح ثم انصرف، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: إنك ستجد ذلك الكلب قد مات. فلما عاد الرجل ألقى الأمر على ما ذكر، وليس غريباً أن يكون أعد له شيئاً من الطعام مسموماً وألقاه له، وهو يخفي عن صاحبه ما فعل.

وأما القطرُبُلِّي وابن أبي الأزهر فمن المُحال اجتماعهما على تأليف كتاب، وقلما يُعرف مثل ذلك. ونحو منه قصة «الخالدين» اللذين كانا في الموصل وهما شاعران، وقد كانا عند سيف الدولة وانصرفا على حدِّ مغاضبة. ولهما ديوان ينسب إليهما لا ينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلا في أشياء قليلة. وهذا متعذر في ولد آدم إذا كانت الجبله على الخلاف وقلة الموافقة.^(١)

فأما أن يعمل الرجل شيئاً من كتاب، ثم يُتمّه الآخر، فهو أسوغ في المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان. والبغداديون يحكون أن أبا سعيد السيرافي عمل من كتابه المعروف بالمُقنَع أو الإقناع إلى باب التصغير، ثم توفّي وأتمّه بعده ولده أبو محمد. وقد يجوز مثل هذا، وليس عندهم فيه

١ محمد وسعيد ابنا هاشم بن ولة الخالدي الموصل، وكانا شاعرين اشتركا في كثير من الشعر ونسب إليهما معاً وكلاهما من خواص سيف الدولة بن حمدان، والخالدية قرية من عمل الموصل، توفي محمد سنة ٢٨٠ تقريباً، وكانا مع ذلك إذا استحسننا شيئاً غصباه صاحبه حياً كان أو ميتاً، لا عجزاً منهما عن قول الشعر، ولكن كذا كان طبعهما، ولهما تصانيف، منها حماسة شعر المحدثين، كتاب أخبار الموصل، كتاب أخبار أبي تَمَّام ومحاسن شعره، اختيار شعر ابن الرومي، اختيار شعر البحتري، اختيار شعر مسلم بن الوليد وأخباره، الأشباه والنظائر وهو جيد، والهدايا والتحف، الديارات.

ريب، وحكى لي الثقة أن أبا علي الفارسي كان يذكر أن أبا بكر بن السراج عمل من (الموجز) النصف الأول لرجلٍ بائعٍ حرير، ثم تقدم إلى أبي علي بإتمامه، وهذا لا يقال إنه من إنشاء أبي علي لأن الموضوع من (الموجز)، هو منقول من كلام ابن السراج في (الأصول) وفي (الجميل)، فكأن أبا علي جاء به على سبيل النسخ، لا أنه ابتدع شيئاً من عنده.

والذين رروا ديوان أبي الطيب يحكون عنه أنه ولد سنة ٣٠٣هـ. وكان طلوعه إلى الشام سنة ١٢٣، فأقام برهة ثم عاد إلى العراق ولم تطل مدته هنالك. والدليل على صحة هذا الخبر، أن مدائحه في صباه إنما هي في أهل الشام، إلا قوله:

كُفِّي أَرَانِي وَيَكِ لَوْمَكِ أَلْوَمَا هَمُّ أَقَامَ عَلَى فُؤَادٍ أَنْجَمَا

وأما شكيتته أهل الزمان إليه، فإنه سلك في ذلك منهاج المتقدمين، وقد كثر المقال في ذم الدهر حتى جاء في الحديث: « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » وقد عَرَفَ معنى هذا الكلام، وأن باطنه ليس كظاهره، إذ كان الأنبياء عليهم السلام لم يذهب أحدٌ منهم إلى أن الدهر هو الخالق ولا المعبود.

وقد جاء في الكتاب الكريم: ”وما يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ“^(١) وقول بعض الناس: الزمان حركة الفلك، لفظ لا حقيقة له. وفي كتاب سيوييه ما يدل على أن الزمان عنده: مُضِيَّ الليل والنهار. وقد تعلق عليه في هذه العبارة.

وقد حدّته حدّاً ما أجدره أن يكون قد سبق إليه إلا أني لم أسمع، وهو أن يقال: الزمان شيءٌ أقل جزء منه يشتمل على جميع المُدْرَكَات، وهو في ذلك ضد المكان، لأن أقلّ جزء منه لا يمكن أن يشتمل على شيء، كما تشتمل عليه الظروف، فأما الكون فلا بد من تشبته بما قل وكثر.

والذين قالوا: ”وما يُهْلِكُنَا إِلَّا الدهر“ وغير ذلك من المقال، كالبيت المنسوب إلى الأخطل، وذكره حبيب بن أوسٍ لشمعلة التغلبي، وهو:

فإنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفِعَلَهُ لَكَالدَّهْرِ لَا عَارٌ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ^(٢)

وقول الآخر:

الدَّهْرُ لَاءَمَ بَيْنَ أَلْفَتِنَا وَكَذَاكَ فَرَّقَ بَيْنَنَا الدَّهْرُ

١ الآية ٢٤ سورة الجاثية

٢ أبو تمام، والمقصود أنه أوردته في « الحماسة »، ولم ينفرد أبو تمام بإيراد البيت لشمعل التغلبي (وليس شمعلة) بل أوردته ابن حمدون أيضاً في « التذكرة الحمدونية » والمُتَبَرِّدُ في « الكامل في اللغة والأدب » و الزمخشري في « ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ».

وقول أبي صخر الهذلي:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

لم يقل أحدٌ منهم إنه كان يُقَرَّبُ للأفلاك القرابين، ولا يزعم أنها تعقل، وإنما ذلك شيء يتوارثه الأمم في زمان بعد زمان.

وكان في عبد القيس شاعر يقال له « شاتمُ الدهر »، وهو القائل:

ولمَّا رأيتُ الدهرَ وَعَرًّا سَبِيلَهُ وَأَبْدَى لَنَا وَجْهًا أَرْبَّ مُجَدِّعًا
وَجِبْهَةً قِرْدَ كَالشُّرَاكِ ضَيْلَةً وَأَنْفًا لَوَى بِالْعَثَانِينَ أَخْدَعًا
ذَكَرْتُ الكِرَامَ الذَاهِبِينَ أُولِي النَّدَى وَقَلْتُ لِعَمْرٍو وَالْحُسَامِ: أَلَا دَعَا

وأما غيظه على الزنادقة والملحدين فأجره الله عليه، كما أجره على الظلماء في طريق مكة، واصطلاء الشمس بعرفة، ومبيته بالمزدلفة. ولا ريب أنه ابتهل إلى الله، سبحانه، في أيام الصوم والحج المعدودات والمعلومات، أن يُثَبَّتَ هِضَابَ الإسلام، ويقيمَ لِمَن اتَّبَعَهُ النَّيِّرَ من الأعلام. ولكن الزندقة داءٌ قديم، منذ سكن الإنسان من الأرض الأديم. وقد رأى بعض الفقهاء أن الرجل إذا ظهرت زندقته ثم تابَ فزَعَا من القتل، لم تُقْبَلْ توبته. وليس كذلك غيرهم من الكفار، لأن المرتدَّ إذا رَجَعَ قُبِلَ منه الرجوع. ولا مِلَّةَ إلا ولها قومٌ ملحدون، يُظهرون لأصحابِ شرعهم أنهم مؤالفون، وهم فيما بطن من الأمر مخالفون، ولا بد أن ينفصح مُخَادِعٌ في وقت من الأوقات، وتبدو من الشرالدواهي والآفات. وقد كانت ملوك فارس تقتل على الزندقة، والزنادقة هم الذين يُسَمَّون الدهرية، لا يقولون بنبوة ولا كتاب.

بشار بن برد

وإنما أخذ بشار ذلك عن غيره، وقد روي أنه وجد في كتبه رفعة مكتوب فيها: إنني أردت أن أهجو فلان بن فلان الهاشمي، فصفحت عنه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١). وزعموا أنه كان يخاصم سيبويه، وأنه حضر يوماً حلقة يونس بن حبيب فقال: هل ههنا من يخشى لسانه؟ فقالوا: لا، فأنشدهم:

بَنِي أُمَيَّةَ هُبُّوا مِن رُقَادِكُمْ إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدِ
لَيْسَ الْخَلِيفَةُ بِالْمَوْجُودِ فَالْتَمِسُوا خَلِيفَةَ اللَّهِ بَيْنَ النَّايِ وَالْعُودِ

وكان في الحلقة سيبويه، فيدعي بعض الناس أنه وشى به. وسيبويه، فيما أحسب، كان أجلاً من أن يدخل في أمور الوشاية الحقيرة، بل يعمد لأموار بعلمه جديرة، وحكي عن سيبويه أنه عاب على بشار قوله:

عَلَى الْغَزَلِيِّ مَيِّ السَّلَامُ فَطَالَ مَا لَهَوْتُ بِهَا فِي ظِلِّ مَرْوُومَةٍ زُهْرٍ

فقال سيبويه: لم تستعمل العرب الغزلي، فقال بشار: هذا مثل قولهم البشكي (وهي الناقة السريعة) والجمزي (وهذه قد تكون بمعنى السريع، وقد تكون نوعاً من العدو) ونحو ذلك. وجاء بشار في شعره بالنينان (جمع نون وهو الحوت) فيقال إن سيبويه أنكره عليه، وهذه أخبار لا تثبت^(٢). وفيما روي في كتاب سيبويه أن النون يُجمع على نينان، فهذا نقض للخبر. وذكر من نقل أخبار بشار أنه توعد سيبويه بالهزاء، وأن سيبويه تلافاه واستشهد بشعره. ويجوز أن يكون استشهاده به على نحو ما يذكره المتذكرون في المجالس ومجامع القوم. وأصحاب بشار يروون له هذا البيت:

وَمَا كُلُّ ذِي لُبٍّ مُمُوتِيكَ نُصَحَهُ وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصَحَهُ بِلَبِيبِ

وفي كتاب سيبويه شطر هذا البيت الثاني، وهو في باب الإدغام لم يُسمَّ قائله. وزعم غيره أنه لأبي الأسود الدؤلي.

١ وجدت الرقعة في بيت بشار بعد جلده حتى مات، وهم آل سليمان بن علي.

٢ جاء في بعض المصادر أن هذا الخلاف كان بين بشار والأخفش، فتوعد بشار بالهزاء فيكي، ثم صار يستشهد بشعر بشار اتقاءً للسان.

ويقال: إن يعقوب بن داود وزير المهدي تحامل على بشار حتى قتل، واختلفوا في سنه: فقيل كان يومئذ ابن ثمانين سنة، وقيل أكثر، والله العالم بحقيقة الأمر. ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار، وإنما ذكرت ما ذكرت فيما تقدّم لأنني عقدته بمشيئة الله، وإن الله لحليمٌ وهّاب.

وذكر صاحب كتاب الورقة^(١) جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس ومَنْ قَبَلَهُ، ووصفهم بالزندقة، وسائرُ الناس مُعَيَّبة، ولا يعلم بها إلا عَلَامُ الغيوب. وكانت تلك الحال تُكْتَمُ في ذلك الزمان خوفاً من السيف، فالآن ظهر ما كان القوم

القوم يخفون، وفقسست بيضة النعامة المتروكة عن أخبث النعام.

وكان في ذلك العصر رجلٌ له أصدقاء من الشيعةٍ وصديقٌ زنديق، فدعا المتشيعة في بعض الأيام، فجاء الزنديق ففرع حَلَقَةَ الباب وقال:

أصبحْتُ جَمَّ بَلَابِلِ الصَّدْرِ مُتَقَسِّمَ الأشْجَانِ والفِكرِ^(٢)

فقالوا: ويحك! مم ذا؟ فانصرف. ولقيه صاحب المأدبة فقال له: يا هذا، أردت أن تُوَعِنِي فيما أكره (خوفاً من أن يظنَّ أصدقاؤه أنه زنديق) فقال: ادعهم ثانية وأعلمني بمكانهم. فلما حصلوا عنده، جاء الزنديق فقال:

أصبحْتُ جَمَّ بَلَابِلِ الصَّدْرِ مُتَقَسِّمَ الأشْجَانِ والفِكرِ

فقالوا: ويحك! مما ذا؟ فقال:

مِمَّا جَنَاهُ عَلَى أَبِي حَسَنِ عُمَرُ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ

ثم انصرف، وفرح الشيعة بذلك. ولقيه صاحب المنزل فقال: جُزيت عني خيراً، فقد خلصتني من الشبهة.

وكان يجلسُ في مجلسِ البصرة جماعة من أهلِ العلم، وكان فيهم رجلٌ زنديقٌ له سيفان، قد سَمَّى أحدهما «الخير» والآخر «الفلاح» فإذا سلّم عليه رجلٌ من المسلمين قال:

صَبَحَكَ الخَيْرُ ومَسَاكَ الفَلَحُ

١ أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح (٢٩٦هـ/ ٨٥٧-٩٠٩م) أديب من علماء الكتاب، كان صديقاً لعبد الله بن المعتز، فلما صار خليفة ليوم وليلة كان وزيره، ونكب وقتل معه.

٢ البيهتان للشاعر مطيع بن إياس الكناني المتوفى ١٦٦ هـ / ٧٨٣ م من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان ظريفاً ماجناً، متهماً بالزندقة

ثم يلتفت إلى أصحابه الذين قد عرفوا اسمي السيفين فيقول:

سَيْفَانِ كَالْبَرْقِ إِذَا الْبَرْقُ لَمَحَ

فأما قول الحكمي:

تِيهِ مُعَنَّ وَظُرْفُ زَنْدِيقِ

فقد عيب عليه هذا المعنى، وقيل: إنه أراد رجلاً من بني الحارث كان معروفاً بالزندقة والظرف، وكان له موضع من السلطان. وقوله في صدر هذا البيت:

وَصَيْفُ كَأْسٍ مُحَدَّثٌ وَلَهُ

فهو نحو قول امرئ القيس:

فَالْيَوْمَ أَسْقَى غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاغِلِ

وكما قال الآخر:

يَا رَبُّ أَبَا زٍ مِنَ الْعَصْمِ صَدَعُ تَقْبِضَ الظِّلِّ عَلَيْهِ فَاجْتَمَعُ
مَا رَأَى أَلَا دَعَا وَلَا شَبَعُ مَا لَ إِلَى أَرْطَاةٍ حِفْفٍ فَاضْطَجَعُ

صالح بن عبد القدوس

وأما صالح بن عبد القدوس فقد اشتهر بالزندقة، ولم يُقتل، ولله العلم، حتى ظهرت عنه مقالات تُوجب ذلك. ويروى لأبيه عبد القدوس^(١)

كَمْ أَهْلَكْتَ مَكَّةَ مِنْ زَائِرٍ خَرَّبَهَا اللَّهُ وَأَبْيَاتَهَا
لَا رَزَقَ الرَّحْمَنُ أَحْيَاءَهَا وَأَشْوَتِ الرَّحْمَةَ أُمُوتَهَا

وقد كان لصالح ولد حبس على الزندقة حبساً طويلاً، وهو الذي يروى له:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا فَمَا نَحْنُ بِالْأَحْيَاءِ فِيهَا وَلَا الْمَوْتَى
إِذَا مَا أَتَانَا زَائِرٌ مُتَفَقِّدٌ فَرِحْنَا، وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

وأما رجوعه عن الزندقة لما أحسَّ بالقتل، فإنما ذلك على سبيل الختل. فصلى الله على محمد، فقد روي عنه أنه قال: «بُعِثْتُ بالسيف، والخير في السيف، والخير بالسيف». وفي حديث آخر: لا تزال أمتي بخير ما حملت السُيوف». والسيف حمل صالحاً على التصديق، وردّه عن رأي الزنديق، وتلك آية من آيات الله إذا هي ظهرت للنفس الكافرة، فقد فني لا ريب زمانها، ولا يُقبل هناك إيمانها.

وأما ما ذكر أطال الله بقاءه عن «القصار» الأعور، فجهله لا يتصوّر، ولو تبع حقاً ثابتاً بالعلم، لكفي أن يُسقى السم، ولكن الغرائز ألدُّ أعداء الإنسان، ولا بدّ أن يلقي ما قدر الرحمن.

وأما المنسوب إلى الصناديق، فإنه يحسب من الزناديق. وأحسبه الذي كان يعرف بالمنصور، ظهر سنة سبعين ومائتين، وأقام برهة باليمن، وفي زمانه كانت القيان تلعب بالدف وتقول:

خُذِي الدَّفَّ يَا هَذِهِ وَالنَّعْبِي وَبُئِي فَضَائِلَ هَذَا النَّبِي
تَوَلَّى نَبِيٌّ بَنِي هَاشِمٍ وَقَامَ نَبِيٌّ بَنِي يَعْزُبِ

١ ورد البيتان لصالح نفسه، ولم يوردهما أي مرجع آخر على أنهما لأبيه.

فما نبتغي السَّعْيَ عِنْدَ الصَّفا
 إِذَا القَوْمُ صَلَّوْا فلا تنهضي
 ولا تَحْرِمِي نَفْسَكَ الْمُؤْمِنِينَ
 فكيف حَلَلْتِ لَذَاكَ الغَرِيبِ
 أليسَ الغِرَاسُ لِمَنْ رَبَّهُ
 وما الخَمْرُ إِلَّا كَمَاءِ السَّحَا
 ولا زُورَةَ القَبْرِ فِي يَثْرِبِ
 وَإِنْ صَوَّمُوا فَكُلِي واشْرِبِي
 مِنْ أَقْرَبِينَ وَمِنْ أَجْنَبِي
 وَصِرْتِ مُحَرَّمَةٍ لَلْأَبِ؟
 وَرَوَاهُ فِي عَامِهِ الْمُجْدِبِ؟
 بِ طَلَّقْ، فَقَدْ سَتَ مِنْ مَدَّهَبِ

فعلى معتقد هذه المقالة لعنة الله والملائكة أجمعين.

وهذه الطبقة، لعنها الله، تستعبد الجاهلين بأصناف مختلفة، فإذا طمعت في دعوى الربوبية، لم تجعل في هذا الادعاء، وليس لها عما فُجِحَ انتهاء، وإذا علمت أن في الإنسان ميزة عن الناس، اجتذبتة بالغرائز والحواس.

وقد كان باليمن رجل يَحْتَجِبُ في حصنٍ له، والواسطة بينه وبين الناس خادم له أسود سمَّاه جبريل، فقتله الخادم في بعض الأيام وانصرف. فقال بعض المجان:

تبارك اللّهُ فِي عُلَاهِ
 وَظَلٌّ مَنْ تَزَعُمُونَ رَبًّا
 فَرَّ مِنَ الفُسُوقِ جِبْرِيْلُ
 وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ قَتِيْلُ

ويقال إنه ما حمل ذلك الخادم على فعله إلا ما كان يفرض عليه من الفسق.

وإذا طمع بعض هؤلاء، فإنه لا يقتنع بالإمامة ولا النبوة. ولكنه يرتفع صعداً في الكذب، ويكون شرُّه من تحت العَذْبِ أَي الطُّحْلُبِ.

ولم تكن العرب في الجاهلية تقدم على هذه الأمور المردولة، والأمر غير المعقولة. بل كانت عقولهم تجنح إلى رأي الحكماء، وما سلف من كتب القدماء. إذ كان أكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي، وينظرون إلى من زعم ذلك على أنه غبي.

وكان ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي، جرى له مع أبي بكر الصديق رحمة الله عليه خطب، فلحق بالروم، ويروى أنه قال:^(١)

١ ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي، وكان خليعاً ماجناً، فأقام عليه عمر بن الخطاب الحد في الخمر، فغضب ولحق بالروم، فتتصر فمات بها نصرانياً،

لَحِقْتُ بِأَرْضِ الرُّومِ غَيْرَ مُفَكِّرٍ بَتَرَكَ صَلَاةً مِنْ عِشَاءٍ وَلَا ظَهْرٍ
فَلَا تَتْرُكُونِي مِنْ صَبُوحٍ مُدَامَةٍ فَمَا حَرَّمَ اللَّهُ السُّلَافَ مِنَ الْخَمْرِ
إِذَا أَمَرْتُ تَيْمُّمَ بِنِ مَرَّةٍ فَيَكُمُّ فَلَا خَيْرَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ وَلَا مِصْرٍ
فَإِنْ يَكُ إِسْلَامِي هُوَ الْحَقُّ وَالْهُدَى فَإِنِّي قَدْ خَلَيْتُهُ لِأَبِي بَكْرٍ

وأوغل الناس في الضلالة حتى استجازوا دعوى الربوبية، فكان ذلك إيغالا في الكفر، وجمعا للمعصية مع التيه والكبر. وإنما كان أهل الجاهلية يدفعون النبوة ولا يجاوزون ذلك إلى سواه. ولما أجلي عمر بن الخطاب، رحمة الله عليه، أهل الذمة عن جزيرة العرب، شق ذلك على الجالين، فيقال إن رجلا من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال في ذلك:

يَصُولُ أَبُو حَفْصٍ عَلَيْنَا بِدُرَّةٍ رُوَيْدَكَ إِنَّ الْمَرْءَ يَطْفُو وَيَرْسُبُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَتَّبِعْ حُمُولَةَ مَاقِطٍ لَتَشَبَعَ، إِنَّ الزَّادَ شَيْءٌ مُحَبَّبُ
فَلَوْ كَانَ مُوسَى صَادِقًا مَا ظَهَرْتُمْ عَلَيْنَا وَلَكِنْ دَوْلَةٌ تَمَّ تَذَهَبُ
وَنَحْنُ سَبَقْنَاكُمْ إِلَى الْمَيْنِ فَاغْرِفُوا لَنَا زُنْبَةَ الْبَادِي الَّذِي هُوَ أَكْذَبُ
مَشَيْتُمْ عَلَى آثَارِنَا فِي طَرِيقِنَا وَبُعَيْتُمْ فِي أَنْ تَسُودُوا وَتُرْهَبُوا

وما زال اليمن منذ كان، معدنا للمتكسبين بالتدين، والمحتملين على الحرام بالتزين. وحدثني من سافر إلى تلك الناحية، أن به اليوم جماعة كلهم يزعم أنه القائم المنتظر، فلا يعدم جباية من مال، يصل بها إلى خسيس الآمال.

ويتعارض هذا مع رواية المعري، وتيم قبيلة أبي بكر.

القرامطة

وحكي لي أن للقرامطة بالأحساء بيتاً يزعمون أن إمامهم يخرج منه، ويقيمون على باب ذلك البيت فرساً بسرج ولجام، ويقولون للهمج من العوام: هذا الفرس لركاب المهدي، يركبه متى ظهر بحق جلي. وإنما غرضهم الخداع بهذه الأباطيل، وتوصل إلى المملكة وتضليل.

ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم، لما حضرته المنية جمع أصحابه، وجعل يقول لهم لما أحس بالموت: إني قد عزمت على النقلة، وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمداً، ولا بد لي أن أبعث غير هؤلاء. فعليه اللعنة، لقد كفر أعظم الكفر، في الساعة التي يجب أن يتوب فيها الكافر، ويؤوب إلى ربه المكابر.

الوليد بن يزيد

وأما الوليد بن يزيد فكان عقله عقلَ وليد، وقد بلغ سن الكهل الرشيد، ما كانت له نية بالرشاد، وظل حتى لحظته الأخيرة متمسكاً بالعناد. وشغل بالخمير في الدنان، واللهم مع الجواري والقيان. يتخبط من جهنم في البطاح، ويغترف من الحميم بالأقداح. وقد رويت له أشعار، يلحق به منها العار، كقوله:

أدنيا مِنِّي خَلِيلِي عَبُدْ لَأَ دُونَ الإِزَارِ
فلقد أَيَقَنْتُ أَنِّي غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ
وَأَثْرُكَا مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ لَئِيسَعِي فِي خَسَارِ
سَأرُوضُ النَّاسِ حَتَّى يَرْكَبُوا دِينَ الْجِمَارِ

فالعجب لزمان صار فيه مثله إماماً، يمسك للمملكة زماماً، ولعل غيره ممن ملك يعتقد مثله أو قريباً، ولكن يُسَاتِرُ ويخاف تأنيباً. ومما يروى له:

أنا الوليدُ الإمامُ مُفْتَخِرًا أَنْعِمُ بَالِي وَأَنْبَعُ الْعَزَلَا
أَهْوَى سُلَيْمِي وَهَيَّ تَضْرِمِي وَلَيْسَ حَقًّا جَفَاءَ مَنْ وَصَلَا
غَرَاءُ قَرَعَاءُ يُسْتَضَاءُ بِهَا تَمْشِي الْهُوَيْنِي إِذَا مَشَتْ فُضْلَا
ما الْعَيْشُ إِلا سَمَاعُ مُحْسِنَةٍ وَقَهْوَةٌ تَتْرُكُ الْفَتَى تَمِلَا
لا أَرْتَجِي حُورَ فِي الْخُلُودِ وَهَلْ يَأْمُلُ حُورَ الْجِنَانِ مَنْ عَقَلَا
إِذَا حَبَّتْكَ الْوِصَالُ غَانِيَةً فَجَازَهَا بَدَلَهَا كَمَنْ وَصَلَا

ويقال إنه لما أحيط به، دخل القصر وأغلق بابه وقال:

دَعُوا لِي هِنْدًا وَالرِّبَابَ وَفَرَّتَنِي وَمُسْمِعَةَ، حَسْبِي بِذَلِكَ مَالَا
خُذُوا مُلْكَكُمْ لا تَبَّتْ اللهُ مُلْكَكُمْ فَلَيْسَ يُسَاوِي بَعْدَ ذَاكَ عِقَالَا

وَحَلَّوْا عِنَانِي قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى وَلَا تَحْسُدُونِي أَنْ أَمُوتَ هُرَالَا^(١)

١ هذه ثلاثة أبيات من خمسة كما وردت في ديوانه مع بعض الاختلاف:

خُذُوا مُلْكَكُمْ لا تَبَّتْ اللهُ مُلْكَكُمْ ثَبَاتًا يُسَاوِي مَا حَبِيبَتْ قِبَالَا

فأزيح عن تلك المنزلة أي إزاحة، ورؤي رأسه بين الكلاب النباحة. كذلك نقل بعض الرواة الصادقين، والله القائم بجزاء الغواة المارقين. ولا حيلة للبشر في الدنيا المنتنة، أعيت حتى القلوب المؤمنة. كان حق الخلافة أن تُفضي إلى من عُرف، لا تُصرفه عن الرشاد البلوى، ولكن البلية خلقت منذ كانت الدهور، فهل يخلص من سكن القبور؟

ذروا لي سلمى والطلاء وقينة ^٤	وكأساً ألا حسبي بذلك ما لا
أبالملك أرجو أن أعمر فيكم	ألا رب ملك قد أزيل فزالا
ألا رب دار قد تحمّل أهلها	فأضحت قفاراً والبقياع تلالا
وخلوا عناني قبل غير وما جرى	ولا تحسدوني أن أموت هزالا

لا ناشد ولا نشيد

وأما أبو عيسى بن الرشيد، فليس بالناشد ولا النشيد. وإن صح ما روي عنه فقد خالف بذلك أسلافه، وأظهر لأهل الديانة خلافه. وربُّه الغني عن العبيدِ صائمين خوفاً أومفطرين، ولكن الإنسَ غدوا بَطِرين. وربما كان الجاهل أو المتجاهل، ينطق بالكلمة ويشغل عقله من ضدها شاغل، وإنما أقول ذلك راجياً أن أبا عيسى ومن كان له نظيراً، لم يتبعوا من كان في الغي أميراً، وأنهم يضمرون غير ما يعلنون، لقد كان لهم عِبرة من سبقهم والميتون .

ديك الجن

ورأى بعضهم عبد السلام بن رغبان، المعروف بديك الجن في النوم وهو بأحسن حال^(١)، فذكر له الأبيات ” الفائية “ التي فيها:

هَيَ الدنِيا، وَقَدْ نَعَمُوا بِأُخْرَى وَتَسْوِيفُ الظنُونِ مِنَ السَّوَابِ

أي (الهلاك) فقال: إنما كنتُ أتلاعب بذلك ولم أكن أعتقدُه. ولعل كثيراً ممن شهِرَ بهذه الجهالات تكون طويته إقامة الشريعة، والإرتاع برياضها المريضة، فإن اللسان طمأح، وله بالفنَد إسماع. وكان أبو عيسى المذكور يستحسن شعره في أفتتن شعره الناس في العراق، وقيل إنه أعطى أبا تمام (وكان في بداياته) قطعة من شعره، فقال له: يا فتى اكتسب بهذا. وذكر ابن خلكان أن أبا نواس قصده لما مرَّ بالشام ولامه على تخوفه من مقارعة الفحول وقال له: اخرج فلقد فتنت أهل العراق.

البيتين والثلاثة، وأنشد له الصولي^(٢) في نوادره:

لساني كتمومٌ لأسراره ودمعي نَمومٌ بسِرِّي مُذِيعٌ
ولولا دموعي كتمتُ الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموعٌ

فإن كان فر من صيام شهر، فلعله يقع في تعذيب الدهر، و ” لا يئأس من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون “^(٣). وأما الجنَّابي فلو عوقب بلد بمن يسكنه، لجاز أن تؤخذ به ” جنَّابة “^(٤)، ولا يقبل لها توبة ولا إنابة. ولكن حكم الكتاب المنزل أجدر وأحرى: ” أَلَا تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى “^(٥). وقد اختلفوا في حديث الحجر الأسود، فزعم من يدعي معرفته أنه أخذه ليعبده ويعظمه، لأنه بلغه أنه يدالصنم الذي جُعِلَ على خَلْقِ زَحَل. وقيل: جعله متكأً، وهذا تناقض في الحديث. ومهما كان، عليه اللعنة

١ ديك الجنُّ الجمصي عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي (١٦١ - ٢٣٥ هـ / ٧٧٧ - ٨٤٩ م) شاعر مُجيد فيه مجون، من شعراء العصر العباسي، ومولده ووفاته بجمص، في سورية، لم يفارق بلاد الشام ولم يتكسب بشعره.

٢ أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله المعروف بالصولي الشطرنجي المتوفى ٢٣٥هـ/٩٤٦م، من كتبه المشهورة ”كتاب الوزراء“، ”كتاب الورقة“، ”أدب الكاتب“، ”أخبار أبي تمام“، ”أخبار القرامطة“، وجمع أخبار جماعة من الشعراء، ورتبه على حروف المعجم، وكلهم من الشعراء المحدثين، وغير ذلك. وكان ينادم الخلفاء، وكان أغلب فنونه أخبار الناس، وله رواية واسعة ومحفوظات كثيرة، وكان حسن الاعتقاد جميل الطريقة مقبول القول، وكان أوحد وقته في لعب الشطرنج.

٣ الآية ٨٧ سورة يوسف.

٤ الآية ٢٨ سورة النجم.

٥ جنابة: بلدة من أعمال فارس متصلة بالبحرين عند سيراف.

ما رسا ”أحد“، وصلّى على محمدٍ أحد.

وأما العلوي البصريّ فذكر بعض الناس أنه كان قبل خروجه يذكر أنه من عبد القيس ثمّ من أنمار. وكان اسمه أحمد، فلمّا خرج تسمّى عليّاً. والكذب في حديثه كثير جمّ، كأنه في النّظر جبل أشمّ، والصدّق لديه كالحصاة، توطأ بأقدام عصاة. وتنسّب إليه أبيات مشهورة :

أيا حِرْفَةَ الزُّمْنَى أَلَمَّ بِكَ الرَّدَى أما لي خلاصّ منك والشّمْلُ جَامِعُ
لِئِنْ قَنَعْتُ نَفْسِي بِتَعْلِيمِ صَبِيَّةٍ يَدَ الدَّهْرِ إِنِّي بِالْمَدَلَّةِ قَانِعُ
وهل يَرَضِينَ حُرّاً بِتَعْلِيمِ صَبِيَّةٍ وقد ظنُّنَّ أَنَّ الرِّزْقَ فِي الأَرْضِ وَاسِعُ؟

وما أعجب أن يكون حملته حبّ الفانية، على أن غرق في بحار من حميم قانية، يسبح فيها ”ما دامت السموات والأرض إلاّ ما شاء ربُّك إن ربك فعّال لما يريد“^(١). وقد رويت له أبيات تدل على تألّه، وما أدفع أن تكون قيلت على لسانه، لأن من خبر هذا العالم حكم عليه بالفجور، وأخلاقٍ تبعُد عن صالحات الأمور. والأبيات:

قتلتُ النَّاسَ إِشْفَاقاً على نفسي كي تبقى
وحزّتُ المَالَ بالسَّيْفِ لكي أنعم لا أشقى
فمَن أَبْصَرَ مَثْوَايَ فلا يظلم إذا خلّقا
فواويلي إذا ما مُتُّ عند الله ما ألقى
أخلدًا في جوار اللّ له أم في ناره ألقى؟

وأنشدني بعضهم أبياتاً قافيةً طويلة الوزن، وقافيتها مثل هذه القافية، قد نسبت إلى عضد الدولة. وقيل إنه أفاق في بعض الأيام، فكتبها على جدارِ الموضوع الذي كان فيه، وقد نحى بها نحو أبيات البصريّ. وأشهد أنها متكلّفة، صنعها رقيع من القوم، وأن عضد الدولة ما سمع بها قط.

وأما الحكاية عن أصحاب الحديث أنّهم صحفوا زخمة فقالوا: رحمة، فلا أصدّق بما يجري مجراها، والكذب غالب ظاهر، والصدق خفي متضائل، فإنّا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك ادعاء من يدعي أن عليّاً، عليه السلام، قال: تهلك البصرة بالزنج، فصحّفها أهل الحديث: بالريح، لا أوّمن بشيء من ذلك. ولم يكن عليّ، عليه السلام، ولا غيره ممن يكشف له علم الغيب، وفي الكتاب العزيز: قل

١ الآية ١٠٧ سورة هود.

لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وفي الحديث المأثور: أنه سمع جوارِي يُغْنِيَنَّ في عرس ويُقْلُن:

وأهدى لنا أكْبُشاً تبَحَّحَ في المرْبَدِ
وزوجك في النَّادي ويَعْلَمُ ما في غَدِ

فقال: لا يعلم ما في غدٍ إلا الله. ولا يجوز أن يخبرَ منذ مائة سنة أن أمير حلب، حرسها الله، في سنة أربع وعشرين وأربعمائة، اسمه فلان بن فلان، وصفته كذا، فإن ادعى ذلك مُدَّعٍ فإنما هو متخرِّصٌ كاذب.

وأما النجوم فإنما لها تلويح لا تصريح، وحُكيَ أنَّ الفضلَ بنَ سهلٍ^(١) كان يتمثل كثيراً بقول الرَّاجز:

لئنْ نجوتُ ونجَّتْ ركائبي منْ غالبٍ ومنْ لفيهِ غالبِ
إنِّي لنجاءٌ من الكرائبِ

وأنَّ غالباً كان فيمن قتله، فهذا يُنفَقَ مثله، وأجدر بهذه الحكاية أن تكون مصنوعة. فأما تمثله بالشعر فغير مستنكر، وربما اتفق أن يكون في الوقت جماعة يسمون بهذا الاسم، فيمكن أن يقترن معنى بلفظ، على أن في الأيام عجائب، وفوق كل ذي علم عليم.

وقد حكي أن إياس بن معاوية القاضي كان يظن الأشياء فتكون كما ظن، ولهذه العلة قالوا: رجل نقاب وألمعي، قال أوس:

الألمعي الذي يظنُّ بك الظنَّ كأنَّ قد رأى وقد سمعا

وقال: نقاب يحدث بالغايب.

١ الفضل بن سهل السرخسي، كان وزيراً للمأمون، وكان يلقب ذا الرياستين لأنه تقلد الوزارة والسيوف. وكان من أخير الناس بعلم النجوم، وأكثرهم إصابة في أحكامه. يقال إن المأمون طلب من والده الفضل بعد مقتله ما خلفه، فحملت إليه أغراضاً فيها درج، وفي الدرج مكتوب بخطه: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قضى الفضل بن سهل على نفسه، قضى أنه يعيش ثمانياً وأربعين سنة ثم يقتل بين ماء ونار. فعاش هذه المدة، وقتله غالب خادم المأمون في حمام بسرخس سنة ٢٠٢ هـ.

الحلاج

فأما الحسين بن منصور فليس جهله بالمحصور. وإذا كانت الأمة ربّما عدت الأوثان، فكيف يأمن الحَصيف البهتان؟ أراد أن يكون قُطْبَ الضَّلالة ، فانقل إلى بحور الجهالة، ولو انصرف إلى علاج الأقطان^(١)، ما بقي ذِكْرُ عنه في الأزمان، ولكنها مقادير الأقدار، تغشى بها الأبصار. فأن يكون ابن آدم حِصاة أو صخرة، خير له من أن يكون هدفاً للهزة والسخرة. النَّاسُ إلى الباطل يسرعون، وإلى الفتن يهرعون.

وكم افتري للحلاج من قصص، والكذب كثير في الناس وما نقص، وجميع ما ينسب إليه مما لم تجر العادة بمثله فإنه الإفك المُتَنَاقِل، لا يصدّق حرفاً منه عاقل. وممّا يفتعل عليه أنه قال للذين قتلوه: أتظنون انكم إيّاي تقتلون؟ أنمّا تقتلون بغلة المادرائي وأنّ البغلة وجدت في إصطبلها مقتولة.

وفي الصّوفية إلى اليوم من يرفع شأنه، ويجعل من النجم مكانه. وبلغني أنّ بغداد قوماً ينتظرون خروجه. وأنهم يقفون بحيث صُلب على دجلة يتوقّعون ظهوره. وليس ذلك بدّع من جهل النَّاس، وخرافات لا تقوم على أساس، فقد نزل حظ على قرد، فظفر بأكرم الورد.

وقالت العامة: اسجد للقرد في زمانه. وأنا أتحوّب من ذكر القرد الذي يقال: إنّ القوادّ في زمن زبيدة كانوا يدخلون للسلام عليه، وأنّ يزيد بن مزيد الشيبانيّ دخل في جملة المُسلّمين فقتله. وقد روي أن يزيد بن معاوية كان له قرد يحمله على أتانٍ وحشيةٍ ويرسلها مع الخيل في الحلبة.

وأما الأبيات التي على الباء:

يا سرّ سرّ يدقّ حتّى
يَجِلُّ عن وصفِ كلِّ حَيّ
وظاهراً باطناً تَبَدَّى
مِن كلِّ شيءٍ لكلِّ شي
يا جُملة الكلّ لستَ غيري
فما اعتذاري إذاً إلَيّ؟^(٢)

١ يشير إلى مهنة الحلاج ومنها أخذ لقبه.

٢ ثلاثة من أربعة أبيات للحلاج، وهي من شطحاته الصوفية، ومع ذلك فإن الوزن لا يستقيم إلا بكسر الباء في الروي.

فلا بأس بنظمها في القوّة، ولكن قوله: إليّ، عاهة في الأبيات: إن قيّدَ فالتقييد لمثل هذا الوزن لا يجوزُ عند بعض النَّاسِ، وإن كَسَرَ الياءَ من إلي فذلك رديء قبيح.

وأصحاب العربية مجمعون على كراهة قراءة حمزة^(١): ”وما أنتم بمصرخي“^(٢) بكسر الياء. وقد روي أنّ أبا عمرو بن العلاء سئل عن ذلك فقال: إنه لحَسَنٌ، تارة إلى فوق، وتارة إلى أسفل، يعني فتح الياء في مصرخيّ وكسرَها والذين نقلوا هذه الحكاية يحتجون بها لحمزة ويذهبون إلى أن أبا عمرو أجاز الكسر لالتقاء الساكنين. وإن صحت الحكاية عنه، فما قالها إلا هازئاً على معنى العكس، كما الغنوي وهو سهل بن حنظلة:^(٣)

لا يَمْنَعُ النَّاسَ مِنِّي ما أَرَدْتُ وَلَا أَعْطِيهِمْ ما أَرادوا حُسْنَ ذا أَدَبا

أي ليس ذلك بحسن، وهذا كما يقول الرَّجُل لولده إذا رآه قد فعل فعلاً قبيحاً: ما أحسن هذا! وهو يريد ضدَّ الحَسَن. ولم يأت كسرُ هذه الياء في شعر فصيح. وقد طعن الفراء^(٤) على البيت الذي أنشده:

قال لها: هل لك يا تافي؟ قالت له: ما أنتَ بِالْمَرْضِيِّ^(٥)

وقد سمعت في أشعار المحدثين: إليّ وعليّ، ونحو ذلك، وهو دليل على ضعف القدرة وركاكة الذخيرة.

وكذلك قوله: الكلّ، وإدخاله الألف واللامّ مكروه. وكان أبو علي يجيزه ويدعي إجازته على سيبويه، فأما الكلام القديم فيفتقد فيه الكل والبعض، وقد أنشدوا بيتاً لسحيم:

رَأَيْتُ الْعَنِيَّ وَالْفَقِيرَ كِلَيْهِمَا إِلَى الْمَوْتِ يَأْتِي الْمَوْتُ لِلْكَلِّ مَعْمِدا

وَيُنشَدُ لَفْتَى كان في زمنِ الحلاج:

إن يكنْ مذهبُ الحُلُولِ صحيحاً فإلهي في رَحْمَةِ الزَّجَّاجِ
عَرَصْتُ في غِلالَةٍ بِطِرازٍ بينَ دارِ العَطَّارِ والثَّلَّاجِ

١ أبو عمار حمزة بن حبيب بن عمار بن إسماعيل المعروف بالزيات (٨٠-١٥٦هـ/٦٠٠-٦٧٣م)، كان أحد القراء السبعة.

٢ الآية ٢٢ سورة إبراهيم.

٣ ورد اسمه في ”منتهى الطلب من أشعار العرب“ لابن المبارك: سهم بن حنظلة الغنوي، وهو شاعر فارس، من الشعراء المقلين.

٤ يحيى بن زياد بن عبد الله المعروف بالفراء، سبقت ترجمته.

٥ بيتان من خمسة للأغلب العجلي بن عمرو بن عبيدة بن حارثة، من بني عجل من ربيعة (٧٠ق.هـ - ٢١هـ / ٥٥٢ - ٦٤٢م) شاعر راجز معمر، وهو أول

من أطال الرجز. واستشهد في معركة نهاوند.

زَعَمُوا لِي أَمْرًا وَمَا صَحَّ لَكِنْ هُوَ مِنْ إِفْكٍ شَيْخِنَا الْحَلَّاجِ

وهذه المذاهب قديمة، تنتقل في عصر بعد عصر، ويقال إن فرعون كان على مذهب الحلولية^(١)،
فلذلك ادعى أنه ربُّ العِزَّة. وحكي عن رجلٍ منهم أنه كان يقول في تسيبته:

سُبْحَانَكَ سُبْحَانِي غُفْرَانُكَ غُفْرَانِي

وهذا هو الجنون الغالب، إنَّ من يقول هذا القول معدود في الأنعام، ما عرف ما أنعم الله به
علينا من الإيمان والإسلام. وقال بعضهم:

أَنَا أَنْتَ بِلَا شَاكٍّ فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانِي
وَإِسْخَاطُكَ إِسْخَاطِي وَغُفْرَانُكَ غُفْرَانِي
وَلَمْ أَجْلِدْ يَا رَبِّي إِذَا قِيلَ هُوَ الزَّانِي

وبنو آدم بلا عقول، وهذا أمر يتلقاه صغير عن كبير، فيكون في المقدمة إلى جهنم وبئس
المصير: «أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا»^(٢).

ويُروى لبعض أهل هذه البدعة:

رَأَيْتُ رَبِّي يَمْشِي بِلَاعْجَلٍ فِي سَوْقٍ يَحْيِي فَكِدْتُ أَنْفَطِرُ
فَقُلْتُ: هَلْ فِي اتِّصَالِنَا طَمَعٌ؟ فَقَالَ: هَيْهَاتَ! يَمْنَعُ الْحَذْرُ
وَلَوْ قَضَى اللَّهُ أَلْفَةً بَهْوَى لَمْ يَكْ إِلَّا السُّجُودُ وَالنَّظْرُ

١ تقوم الحلولية على «وحدة الوجود» أي «وحدة الخالق والمخلوق»، حيث تحل روح الله في كل المخلوقات. ولهذا كان الحللاج يقول: «ما في الجبة غير الله». وكان يقول أيضاً:

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ خَلَّتْنَا بَدَنَانَا
فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

٢ الآية ٤٤ سورة الفرقان

مذهب التناسخ

ويؤدّي هذا الاعتقاد إلى الإيمان بالتناسخ، وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند، وقد كثر في جماعة من الشيعة، نسأل الله التوفيق والكفاية. وينشد لرجل من النصيرية^(١):

اعجَبني أَمنا لَصْرِفِ اللَّيالي جَعَلتْ أختنا سُكِينَةَ فَارَهُ
فازَجُرِي هذهِ السَّنانيِرَ عنها واثرُكيها وما تَضُمُّ الغِراهُ

وقال آخر منهم:

تبارَكَ اللهُ كاشِفُ المِحَنِ فقد أَرانا عَجائبَ الرِّمَنِ
حمازُ شِيانَ شيخِ بلدِنا صيَّرَهُ جارِئاً أبو السِّكَنِ
بُدِّلَ مِنْ مَشِيهِ بِحُلَّتِهِ مشيَّتَهُ في الحِزامِ والرِّسَنِ

ويصوّر لهم الرأي الفاسد أباطيلَ ومُشَبَّهات، فيسلكون في الفجور والترهات. وحكى لي عن بعض ملوك الهند، وكان شاكياً حسن الصورة، أنه أصيب بالجدري، فنظر إلى وجهه في المرآة وقد تغير، فأحرق نفسه وقال: أريد أن ينقلني الله إلى صورة أحسن من هذه.

وحدثني قومٌ من الفقهاء، أنهم كانوا في بلاد محمود، وكان معه جماعة من الهند قد وثق بصفائهم، فيفيض عليهم الأعطية لوفائهم، ويكونون أقرب الجند إليه إذا حلَّ وإذا ارتحل، وأن رجلاً منهم سافر في جيش جهزه محمود، فجاء خبره أنه قد هلك بموت أو قتل، فجمعت امرأته لها حطباً كثيراً، وأوقدت ناراً عظيمة واقتممتها والناس ينظرون، وكان ذلك الخبر باطلاً، فلما قدم الزوج أوقد له ناراً عالية اللهب ليحرق نفسه حتى يلحق بصاحبته، فاجتمع خلق كثير للنظر إليه، وأن أصحابه من الهند كانوا يجيئون إليه فيوصونه بأشياء إلى أمواتهم: هذا إلى أبيه وهذا إلى أخيه. وجاءه

١ النصيريون طائفة من الشيعة ينتسبون إلى محمد بن نصير البكري النميري الذي كان من معاصري الإمام الحادي عشر عند الشيعة الحسن العسكري. تعتقد النصيرية بأن محمد بن نصير الباب الشرعي للإمام الحسن العسكري ولكن الشيعة يرفضون هذا.

إنسان منهم بوردة وقال: أعط هذه فلاناً يعني ميئاً له، وقذف نفسه في تلك النار. وحَدَّث من شاهد إحراقهم نفوسهم أنهم إذا لذعتهم النار أرادوا الخروج، فيدفعهم من حضر إليها بالعصي والخشب. فلا إله إلا الله « لقد جئتم شيئاً إداً »^(١).

وفي الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقد، يتوصَّل به إلى الدنيا الفانية، وهي أغدر من الحمقاء الزانية.

وكان لهم في الغرب رجل يعرف بابن هانئ^(٢) وكان من شعرائهم المجيدين، فكان يغلو في مدح المعز أبي تميم معد، غُلِّوا عظيماً، حتى قال يخاطب صاحب المظلة:

أُمْدِيرَهَا مِنْ حَيْثُ دَارَ لَشَدَّ مَا زَاخَمَتْ تَحْتَ رِكَابِهِ جَبْرِيلاً
وقال فيه وقد نزل بموضع يقال له رَقَادَة:^(٣)

حَلَّ بِرَقَادَةَ الْمَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنَوْحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وحضر شاعر يعرف بابن القاضي بين يدي ابن أبي عامر صاحب الأندلس^(٤) فأنشده قصيدة أولها:

مَا سِئَتْ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ فَاخُكُمُ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

ويقول فيها أشياء، فأنكر عليه ابن أبي عامر، وأمر بجلده ونفيه.

وأعلى مراتب الحلاج أن يكون مشعوذاً، لا ثاقب الفهم ولا جهيداً، على أن طائفة من الصوفيَّة تعظمه، وهي تدرك حقيقة أمره وتفهمه.

وأما ابن أبي عون فإنه أخذ في لونٍ بعد لون، غرَّ البائسُ بأبي جعفر، وما أدرك أنه حصد الهشيم الأوفر، وقد تجد الرجل حاذقاً في الصناعة، بليغاً في النظر والحجة، فإذا رجع إلى الديانة أليفته كأنه بهيمة أسلمت القيادة، وإنما تتبع ما تعتاد.

والتأله موجودٌ في غريزة الإنسان، لكنه يقمعه بالعلم والإيمان، ويلقن الطفل الناشئ ما سمعه

١ الآية ٨٩ سورة مريم

٢ محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي (٢٢٦ - ٣٦٢ هـ / ٩٢٨ - ٩٧٣ م) أشعر المغاربة على الإطلاق وهو عندهم كالمثني عند أهل المشرق، وكانا متعاصرين. ولد بإشبيلية وحظي عند صاحبها، وفي شعره نزعة إسماعيلية بارزة. ثم اتصل بالمعز العبيدي (معد) ابن إسماعيل، وأقام عنده في المنصورية بقرب القيروان، ولما رحل المعز إلى مصر عاد ابن هانئ إلى إشبيلية فقتل غيلة.

٣ رقادَة تقع وسط البلاد التونسية وعلى مسافة ١٠ كم جنوبي غرب القيروان.

٤ المنصور محمد بن أبي عامر (توفي ٣٩٢هـ/١٠٠٠م) أصله من قبيلة معافر القحطانية، دخل كاتباً في خدمة الحكم الثاني، ونال رضى «صبح» زوج الخليفة، فلما مات الخليفة كان ابنه هشام في العاشرة من عمره، فحكم المنصور باسمه، واستبد بالأمور ستاً وعشرين سنة حتى مقتله في إحدى المعارك. والبيت موجود في شعر ابن هانئ الأندلسي من قصيدة طويلة مدح بها المعز الفاطمي.

من الأكابر، فيلبث معه في الدَّهر الغابر. والذين يسكنون في الصوامع، والمتعبدون في الجوامع، يأخذون ما هم عليه، كنقل الخبر عن المُخبر، لا يميِّزون الصِّدق من الكذب لدى المفسِّر، فلو أنَّ بعضهم ألقى أسرة من المجوس، لخرج للمجوس خديناً^(١)، أو من الصَّابئة^(٢) لأصبح لهم قريناً. وإذا المجتهد ابتعد عن الإجابة، فما يظفر بغيرالبلادة. وإذا المعقول جُعل رائداً، أفاد به من لم يكن معانداً، ولكن أين من يصبر على أحكام العقل، ويصقل فهمه أفضل صقل؟ هيهات! عدم ذلك في مَنْ تطلَّع عليه الشمس، ومن ضمَّه في المقابر رمس، إلى أن يشدَّ رجلٌ في البشر، يختص من فضله منتشر.

ربماً لقينا مَنْ نظر في كتب الحكماء، وتبع بعض آثار القدماء، فألفيناه يستحسن قبيح الأمور، ويبتكر بلب مغمور، إن قدر على فطيع ركبته، وإن عرف واجباً تنكَّبه، كأنَّ العالم سعوا له لينقاد، فهو يعتقد شرَّ اعتقاد، وإن أودع وديعةً كان خائناً، وإن سئل قال رأياً شائناً، وإن وصَّف لعليل دواءً فما يحفل أقتله بما قال، أم ضاعف عليه الأثقال، بل غرضه أن يكتسب، ويدعي أنه إلى الحكمة ينتسب.

وربَّ من يتهم بالجهالة أهل ملَّة، وعلَّته الباطنة أدهى علَّة، وإن البشر لكما جاء في الكتاب العزيز «كل حزب بما لديهم فرحون».^(٣)

والإمامية تقرُّبوا بوجوه بالتراب تُعَفَّر، فعده بعض المتدينة ذنباً ليس يُغْفَر، ويحضرالمجالس أناس طاغون، كأنهم للرشد باغون، وأولئك، علم الله، أصحاب المَكْر والبِدع، ومن لك بمن يرتدع! كم مُتظاهرٍ باعتزال، وهو مع المخالف في نزال، وما ينفكُّ يرتكب من الآثام عظام الأمور، ويقع بها في جوف التَّنُّور. ينهملك على العهر والفسوق، ويظعن بأحمال من الأوزار والموبقات ويسوق. يطيل السعي في النهار والليل، ويضمِّر أن شيخ المعتزلة غير طاهرالرُّدن ولا الذيل، فقد جعل الجدال مصيدة، ينظم به الوالغ في غيِّه قصيدة.

وحُدِّثت عن إمام لهم يُوقَّر ويُتَّبَع، وكأنه من الجهل ما شبع، أنه كان إذا جلس في مجلس

١ المجوسية أو الزرادشتية نسبة لمؤسسها «زرادشت»، تأسست منذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة في إيران على تعاليم زرادشت، يعتقد معتقوها بوجود إله واحد أزلي هو خالق الكون ويمثل الخير ولا يأتي منه الشر أبداً، وأن زرادشت نبي الله الذي بشر بالقوة الشافية للعمل الصالح والقوة الخيرة. النار والشمس رمزا المجوسية، ولذلك فإن النار مقدسة لأنها تمثل نور أو حكمة هورامزدا، ويحرص الزرادشتيون على ألا تنطفئ في معابدهم، وهو ما جعل أصحاب الكثير من الديانات الأخرى يفسرونه على أن الزرادشتيين يعبدون النار.

٢ ديانة الصابئة هي أحد الأديان الإبراهيمية أول الأديان الموحدة، وأتباعها يتبعون أنبياء الله آدم، شيث، إدريس، نوح، يحيى، زكريا، وقد كانوا منتشرين في بلاد الرافدين وفلسطين، ولا يزال بعضهم في العراق، وقد عاملهم المسلمون الفاتحون معاملة أهل الذمة.

٣ الآية ٥٢ المؤمنون والآية ٢٢ الروم

الشراب، ودارت عليهم الخمرة في ليل كجنج الغراب، وجاءه القدر شربه لم يترك بقية، وأشهد من حصره على التوبة النقية.

والأشعري إذا كَشَفَ ظهرت العيوب بجلاء ، تلعنه الأرض الرَّاكدة والسماء، إنّما مثله مثل راعٍ أغنامه كثيرة، ويخبط في الدهماء بلا بصيرة، لا يحفل علامَ هجم بها، يريدُها أن ترعى من البقعة الأعشاب، ولا يضمن أن تُلمَّ بها الذئاب، ولا تحميها من الموت الكلاب! فمن له أيسر عقل من الأفهام، كأنما وضع في دجى الظلام، إلا من عصمه الله باتباع السلف، وتحمل ما يشرع من الكلف:

وإنّا، ولا كُفْرانَ لله ربّنا، لكالبُدنِ، لا تدري متى حتفها البُدنُ

والشيعة يزعمون أنّ عبد الله بن ميمون القدّاح^(١)، وهو من باهلة، كان من عليّة أصحاب جعفر بن محمد عليه السلام^(٢)، وروى عنه شيئاً كثيراً، ثم ارتدّ بعد ذلك، فحدثني بعض شيوخهم أنّهم يروون عنه ويقولون: حدّثنا عبد الله بن ميمون القدّاح كأحسن ما كان، أي قبل أن يرتدّ، ويروون له:

هاهِ اسقني الخمرة يا سنْبُرُ فليس عِندي أنّي أنشَر
أما ترى الشّيعَةَ في فِتْنَةٍ يَغْرُها مِن دينها جَعْفَرُ؟
قد كُنْتُ مَغْروراً به بُرْهَةً ثمَّ بدا لي خَبَرٌ يُسْتَرُ

وممّا ينسب إليه:

مَشَيْتُ إلى جَعْفَرٍ حِقْبَةً فألْفَيْتُهُ خادعاً يَخْلُبُ
يَجْرُ العلاءَ إلى نَفْسِهِ وكُلُّ إلى حَبْلِهِ يَجْدُبُ
فلو كانَ أمرُكُم صادقاً لما ظلَّ مَقْتولُكُم يُسْحَبُ
ولا غَصَّ مِنْكُم عَتِيقٌ ولا سَما عُمَرُ فوقَكم يَخْطُبُ

١ عبد الله بن ميمون القدّاح توفي ٢٧٦هـ/٨٨٩م، وسمي قدّاحاً لأنه كان كخالاً يقدح العين إذا نزل فيها الماء. وقيل إن المهدي قُتل في السجن، فدخل أبو عبد الله إلى السجن فوجد المهدي مقتولاً وعنده رجل من أصحابه كان يخدمه، فأخرجه وقال: هذا هو المهدي، وكان هذا بداية الدولة العبيدية ثم الخلافة الفاطمية التي قضى عليها صلاح الدين الأيوبي.

٢ جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم أجمعين، أحد الأئمة على مذهب الإمامية (٨٠-١٤٨هـ/٧٠٣-٧٦٨م)، كان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه في مقالته ، وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل، وكان تلميذه جابر بن حيان قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة.

الحلولية والتناسخ

والحلولية قريبة من مذهب التناسخ، وحُدِّثت عن رجلٍ من رؤساء المنجمين من أهل حرّان أقام في بلدنا زماناً، فخرج مرّة مع قوم يتنزهون، فمروا بثورٍ، فقال لأصحابه: لا أشك في أنّ هذا الثور رجل كان يعرف بخلفٍ بحرّان، وجعل يصيح به: يا خلف، فيتفّق أن يخور ذلك الثور، فيقول لأصحابه: ألا ترون إلى صحّة ما خبرتكم به؟

وحكي لي عن رجلٍ آخر ممّن يقول بالتناسخ أنّه قال: رأيت في النّوم أبي وهو يقول لي: يا بني، إنّ روحي قد نقلت إلى جملٍ أعور في قافلة فلان، وإنّي قد اشتهيت بطيخة. قال: فأخذت بطيخة، وسألت عن تلك القافلة، فوجدت فيها جملاً أعور، فدنوت منه بالبطيخة، فأخذها أخذ من يشتهيها. أفلا يرى مولاي الشّيخ إلى ما رمي به هؤلاء البشر من سوء التفكير، وتحيزهم إلى ما لا يقبله عقل طفل صغير؟

وأما ابن الرّاوندي فلم يكن إلى المصلحة بمهديّ، وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلًا، ولم يجد من عذابٍ وغلاً أي ملجأ، قال ذو الرّمة:

حتّى إذا لم يجِدْ وغلاً وتجنّجها مخافة الرّمي حتى كلّها هيّم

ويجوز أن يكون تاجه من العقارب، فما كان المحسن ولا المُقارب، فكيف له إذا تُوجّ بالسيوف، وقرعت لمصرعه الطبول والدفوف؟ وهل تاجه إلا كما قالت الكاهنة: أُنْفٌ وتُفٌّ، وجوربٌ وخُفٌّ^(١)؟ قيل: وما جوربٌ وخُفٌّ؟ قالت واديان بجهنم. ما تاجه كتيجان الملوك، وما هو إلا دعيّ صلوك، ولا اتّخذ من الذهب، وسوف يكون على رأسه من اللهب، ولا نظم من الدرّ، بل وقع من عناءٍ بقرّ، يقال: صابت بقرّ، إذا وقعت في موضعها، وأكثر ما يُستعمل ذلك في الشرّ. قال الشاعر:^(٢)

تُرّجّيها وقد صابت بقرّ كما ترجو أصاغرها عتيب

١ أفٌّ له، وتُفٌّ له، الأفٌّ: وَسَخُ الأذن، والتُّفُّ: وَسَخُ الأظفار. والأصل أن الخف ما يُتعل، والجورب ما يرتديه المرء في قدميه.

٢ البيت لعدي بن زيد

ما هو كتاج كسرى، وما قاده إلا إلى سوء المسرى، ولا تاج الملك أنوشروان، فأثقله وجرَّ الهوان، ذلك تاج فرسٍ أسرع، فقاد صاحبه إلى المصرع. ليس هو كتاج المنذر، ولكن لطفة من الهلاك تحذر، ولا هو كخرزات النعمان، بل شينٌ يدخر في الأزمان.^(١)

وأما كتابه الذي سمَّاه "الدامغ" فما أحسبه دمغ إلا من ألسفه، فأذله وما شرفه. وفي العرب رجلٌ يُعرف بدميغ الشيطان، وهذا الرجل كالضعيف من الخيطان.

وإنما المنكر، أنه في الآونة يُذكر. دلَّ مَمَّن وضعه على ضعفٍ دماغ، فهل يسمع لصوتٍ ماغ؟ من قولهم: مَغَت الهرة إذا صاحت.

رمانى بأمرٍ كنتُ منه ووالدي برياً ومن جَوْل الطويِّ رمانى^(٢)

لقد طاش منه صوابه، وطال في الآخرة عذابه. لقد شان راوند إذ انتسب إليها، وما عاد بغير العار عليها، إنمّا هتك عن نفسه الأسرار، وأبان لكل ذي نظر أنه ليس من الأبرار.

لقد أجمع من كفر ومن اهتدى، ومن ضلَّ عن الصراط ومن اقتدى، على أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كتابٌ بهرَ بالمعجزة، آياته محكمة معززة. ما كُتب على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال. ما هو من القصيد الموزون، وليس محمد شاعراً ولا يجوز أن يكون. ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهان ذوي الأرب. وجاء كالشمس الساطعة، نوراً للقلوب الخاشعة، لو فهمه الجبل الراسخ لتصدع، أو سمعته الوعول لم تفرع: "لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"^(٣) وإن الآية منه أو بعض الآية، تقارنها بأفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جُنج غسق، والزهرة البادية في واحات ذات نسق « فتبارك الله أحسن الخالقين »^(٤)

١ النعمان والمنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة

٢ البيت لعمر بن أحمد الباهلي وسبقت ترجمته

٣ الآية ٢ سورة الحشر

٤ الآية ١٤ سورة المؤمنون

ابن الرومي

وأما ابن الرومي فهو أحد من يقال: إن أدبه كان أكثر من عقله، وكان يتعاطى علم الفلسفة، والبغداديون يدعون أنه متشيع، ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيميّة، وما أراه إلأعلى مذهب غيره من الشعراء.

ومن كان متطيراً يتشاءم، لم ير إلا الشر حتى في النسائم، وإنما هو شرٌ فيه يتعثر، وللأنفس أجلٌ مقدّر، وكلّ ذلك خوفاً من الموت الذي هو حق على الإنسان والحيوان، محتومٌ لقاءه في كلّ أوان. وفي الناس من يظنّ أنّ الشيء إذا قيل جاز أن يقع، ولذلك قالت العامّة: الخوف أوّل الكون. ويقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم، تمثّل بهذا البيت ولم يتمّمه:

تفاءل بما تهوى يكنّ، فلقلمًا يُقال لشيءٍ كان إلأ تحقّقًا

ومهما ذهب إليه اللبيب، فالخير في هذه الدنيا قليل جدًّا، والشرّ يزيد عليه بأجزاء ليست معدودة، وما أشبه ذوي التقى بالعصاة، كلّهم إلى التّلف يُساقون، يلقون أقدارهم ولا يعاقون، ولعلّ الله، جلّت قدرته، يميزهم في ما إليه ينقلبون، ويسعفهم بما يطلبون. وقال علقمة:

ومن تعرّض للغربان يزجرها على سلامته لا بدّ مشؤوم

وقد جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، أخبار كثيرة تدل على كراهة الاسم الذي ليس بحسن، مثل مرّة وشهاب والحباب لأنّه يتأوّل في معنى الحية.

ونحو من حكاية ابن الرومي التي حكاها النّاجم ما حكي عن امرأة من العرب أنّها قالت للأخرى: سمّاني أبي غاضية، وإنّما تلك نار الغضى، فالحمدُ لربيّ على ما قضى، وتزوجت من بني جمرة رجلًا أحرّق، وما أمرق. أي لم يكثر مرّقه وكان اسمه توربًا، والتورب هو التراب، فشمتت بي الأتراب، وكان أبوه يدعى جندلة وهو الحجر والحجارة جندل، فما شممت رائحة البخور ولا المنديل، وكان اسم أمه سؤارة، فلم تزل توابني في العداوة، ولا أجد للعيش معها نداوة.

فَقَالَتِ الْآخَرَى: أَمَا أَنَا فَسَّامَانِي أَبِي صَافِيَةَ، فَصَفُوتٌ مِنْ كُلِّ قَذَى، وَجُنِبْتُ مَوَاقِعَ الْأَذَى، وَزَوْجَنِي فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ فَبَكَّرَ عَلَيَّ السَّعْدُ، وَأَنْجَزَ لِي الْوَعْدَ. وَاسْمُ زَوْجِي مُحَاسِنٌ، جُزِي الصَّالِحَاتِ، فَقَدْ حَاسَنَ وَمَا لَاسَنَ، وَاسْمُ أَبِيهِ وَقَّافٌ، رَعَاهُ اللَّهُ، فَقَدْ وَقَفَ عَلَيَّ خَيْرَهُ، وَأَكْثَرَ لَدَيَّ مَيْرَهُ، وَهُوَ الطَّعَامُ، وَاسْمُ أُمِّهِ رَاضِيَةٌ، رَضِيَتْ عَنِي وَعَنْ أَخْلَاقِي، وَلَمْ تَحْرُضْ ابْنَهَا عَلَى طَلَاقِي.

وَالْمَتَطِيرُ مِنَ النَّاسِ إِنْ رَأَى طَيْرًا يَطِيرُ، خَافَ وَاسْتَطِيرَ، وَإِنْ رَأَى حَمَامَةً مِنَ الْحَمَامِ، لَمْ يَذْكَرْ سِوَى الْحَمَامِ وَهُوَ الْمَوْتُ الَّذِي سَيَلْقَاهُ الْأَنَامُ، كَمَا قَالَ الطَّائِي أَبُو تَمَّامٍ:

هُنَّ الْحَمَامُ، فَإِنْ كَسَرْتِ، عِيَاةٌ
مِنْ حَائِهِنَّ، فَإِنَّهِنَّ حِمَامٌ

وَلِهَذِهِ الطَّوْبَةُ جَعَلَ ابْنُ الرَّومِيِّ جَعْفَرًا مِنَ الْجُوعِ وَالْفِرَارِ وَلَوْ هَدَى صَرْفَهُ إِلَى النَّهْرِ الْجَرَّارِ، لِأَنَّ الْجَعْفَرَ النَّهْرَ الْكَثِيرَ الْمَاءِ، وَلَكِنَّ إِخْوَانَ هَذِهِ الْخَلِيقَةِ، لَا يَحْمِلُونَ الْأَشْيَاءَ الْوَارِدَةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ. وَأَرَادَ بَعْضُهُم السَّفَرَ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ فَقَالَ: إِنْ سَافَرْتُ فِي الْمُحَرَّمِ، كُنْتُ جَدِيرًا أَنْ أُحْرَمَ، وَإِنْ رَحَلْتُ فِي صَفَرٍ، كُنْتُ الْغَنِيِّ الَّذِي افْتَقَرَ، فَأَخَّرَ سَفْرَهُ إِلَى شَهْرِ رَبِيعٍ، فَلَمَّا سَافَرَ مَرَضٌ وَلَمْ يُوقِّقْ فِي سَفْرِهِ، فَقَالَ: ظَنَنْتَهُ مِنْ رَبِيعِ الرِّيَاضِ، فَإِذَا هُوَ مِنْ رَبِيعِ الْأَمْرَاضِ.

أبو تمام والدين

وأما أبو تمام، فما أمسك من الدين بزمام، والحكاية عن ابن رجاء مشهورة، والأبصار بها مبهورة. فإن قذِف في النار حبيب، فما يغني المدح ولا النسيب. ولو أن القصائد لها صوت، وتشكو بعد فوات الفوت، لأقامت عليه الممدودتان اللتان في أول ديوانه، مأتماً يعجب الناس لأحزانه. فناحتا عليه كابنتي لبيد، وقد جرَّعهما الثكل مرارة الحنظل أو تزيد، وقالتا ما أوصاهما بقوله:

وقولا: هو المرء الذي لا حريمه أضعَ ولا خان الصديقَ ولا غدرَ
إلى الحَوْلِ ثمَّ اسمُ السَّلامِ عليكما ومن يَبْكُ حَوْلًا كاملاً فقدِ اغْتَدِرَ

وكأنِّي بهما لو قضي ذلك، لاجتمعت إليهما الممدودات، كما تجتمع نساء معدودات.

فيجنن من كل مُستقرٍّ، ويتواعدن المأتم بعويل غير محتقر. ولو فعلن ذلك لبارتهن البائيات بمأتم أعظم ريناً، وأشد في الظلام حيناً، كما قال:^(١)

يُجاوِبُن النِّياحَ بكلِّ فَجْرٍ فقد صَحَلَتْ مِنَ النُّوحِ الحُلُوفُ

وإذا كان مأتم الممدودات في مائة ممن يُعدُّهنَّ ويطاقق، وجب أن يكون مأتم البائيات في آلاف من السوابق، لأنَّ الباء في الرويِّ طريق معهود، والمد في القصائد سبيل مشهود. وتجيء الشائيتان وكلتاها كابنة الظلام، وتبادرك في حالك القتام. ولو صورتا من الآدميات، لزادتا على قينتي ابنِ خَطَلٍ في المَرثِيَّاتِ^(٢)، وإنَّ الثاء لقليلة كرويِّ في شعر العرب، إلا أنَّهما تستعينان قصيدة كُثِيرٍ:^(٣)

١ المفضل بن معشر بن أسحم التكري: شاعر جاهلي من أصحاب المنصفات قال ابن سلام في سبب تلقبه بالمنضل: فضَّلته قصيدته التي يقال لها المنصفة وأولها:

أتمَّ ترَ أنَّ جبرتنا استَقَلَّوا فنيئُننا ونيئُهمَّ فريقُ

وليس له غيرها في كتب التراث.

٢ عبد الله بن خطل، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح بقتله ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة، لأنه كان مسلماً، ثم ارتد، وكانت له فينتان هما «فرتى وقريبة» تغنيان بهجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقُتلت إحدى قينتيه وهربت الأخرى، حتى استؤمن لها رسول الله فأمنها.

٣ كثير بن عبد الرحمن من خزاعة (٤٠ - ١٠٥ هـ / ٦٦٠ - ٧٢٢ م) شاعر متيم مشهور، من أهل المدينة، اشتهر بحبه لعزة فعرَّف بها.

حِبَالٌ سَلَامَةٌ أَضَحَّتْ رِثَانًا فَسَقِيًّا لَهَا جُدُدًا أَوْ رِمَانًا

وبأراجيز رُوبَة بن العجاج وما كان نحوها من القوافي المُتكلِّفة، والأشعار المُتَعَسِّفة. فأما الدَّاليات والرَّائيات وما بني على الحروف اللينة كالميم والعين واللام، وما جرى مَجْرَاهُنَّ، فلو اجتمع كلُّ حَيِّزٍ منهن وهو فِرَادٍ، لضاع عنهن الإيراد.

وزِدْنِ على ما ذُكِرَ أَنَّهُ اجتمع في جنازة أحمد بن حنبل^(١) من النِّسَاء والرجال، ويقال إنه لم يجتمع في الجاهلية ولا الإسلام جمعٌ أكثرُ ممَّا اجتمع في موت أحمد، قُدِّرَ الرَّجَالُ بِأَلْفِ أَلْفٍ، والنِّسَاءُ بِسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ، والله العالم بيقين الأشياء.

وإن كان حبيبٌ ضيَّع الصلوات، فإنه ضالٌّ بالفلوات، ما كادَ فيها عدواً، ولا بلغ مرادَه رَواحاً أوغُدواً. ينكص عن عدوه بالقهر، كل من ضيَّع صلاة الظهر. وكم من قصرٍ يُشَيِّد في الجنة بصلاة العصر، ومسكٍ في الجنة فَوَاحٍ، لمصليِّ المغرب قبل الرواح، وحوَرٍ أَنشَنَ بديع الإنشاء، لمن حافظ على صلاة العشاء، وقد جاء في الحديث النَّهْيُ أَنْ تسمى العتمة. وقد جاء في الحديث: «إِنَّ العتمة اسم بنت الشيطان». وإن من يعجز عن أداء تلك الرُّكعات، لجدير بأن يفقد أفضل الدعوات.

وإني لأضن بتلك الأوصال، أن يكون صاحبها قد جالَ في سقرٍ وصال، لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة، ومعان كاللؤلؤ مُخترعة، يستخرجها من غامض البحار، ويفض عنها المحار. وإن ابتدره خازن النارمالك، فقد نبذ في المِهالك، فليته كالجَعدي، أو سلك به مسلك عدِّي، أو كان مذهبه مذهب حاتم، فقد كان ذا خلق متألهاً، وبالكريم من الأخلاق مُتولهاً، وقال:^(٢)

وإني وإن طال الثواء لَمَيِّتٌ وَيَضُمُّني ماوييَ بَيْتٌ مُسَقَّفٌ

أو ليتَه لحق بزید بن مهلهلٍ، قد وفد على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، و طرح عنه ثوب الغبيِّ.

١ الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ/٧٨٠-٨٥٥م) كان إمام المحدثين، قال عنه الإمام الشافعي عندما ارتحل إلى مصر: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل».

٢ ورد الشطر الأول: وإني مُجَرِّى بما أنا عاملٌ

الإفشين والمازيار

وأما المازيار، فغَوِيَ بالسَّفهِ سَيَّار، وحسبه ما يتجرَّعُ من الحميم، ويحتمل من المقال الذميم، وقد خلد له في الكتب ما يوجب لعنه إلى يوم الدين، فكان في جهنم من الخالدين، ورحم الله ابن أبي دؤاد، فلقد شفى الأنفس من شر العباد، وكشف حال الأفشين، فعلم أنه آلف شَيْنٍ، مخالفٌ رشادٍ وزَيْنٍ.

بابك

وبابك فتح باب الطغيان، فتبعه شرار الرعيان، وأظن محاربتَه، عليه اللعنة، أفضل جهادٍ عُرف، وذنبه أكبر ذنبٍ اُقْتَرِف. ولعلته يودُّ في الآخرة أنه جرح عن كلِّ من قُتِل في أوانه مائة جرح، ومُلِيَّ كلِّ جرحٍ منها بالملح، ثم خُص من العذاب الذي لا يطاق، واستنقذ عنقه من النطاق.

وكُلِّ ساعٍ للدنيا الفانية لا بدَّ له من الندم، حين يفارقها وحين تُحسِر الأمم، فذمنا لها يُحسَب من الضلال، كما تمنى القناعة أخو الفقر والإقلال. نذمها على غير جنابة، ولم تخصَّ أحداً بالعبادة، بل أبناؤها في المحن سواء، لا تُسعِفهم الأهواء، فرب حاملٍ حزمة من الحطب، يشكو من الضيق والعطب، يعجز ثمنها عن شراء القوت، ويكابد شظفَ عيشٍ ممقوت، تنخرس الأشواك في قدمه، فتختضب الحزمة بدمه، وهو أقلُّ هموماً من الجالس على السرير، ينعم برشاً غرير، يُجمع له الذهب من غير الحلال، بظلم الأمم بطرق من الضلال، وإذا ملأ بطنه من طعام فاخر، وسبح في بحر من الترف زاخر، فنعمه تلك ولذاته، تأتيه منها أذاته، يأخذه القدر على غفولٍ، وغاية كلِّ سفرٍ إلى قفول. وما يدري العاقل، إذا افتر، أيُّ الشخصين أفضل: أريب غنى عليه إكليل، أم مُملقٌ ظله في الهلاك ظليل؟ كلاهما بلغ آراباً، وأحدهما يأكل تراباً، والآخر يُسقى شهى الراح، وتحفل حياته بالأفراح.

وما علمنا النَّسك يأتي بالوقاية، ولا في الأسباب الرَّافعة الحماية، والناس في دنياهم عاملون، أخطأهم ما هم آملون، ما آمن أن تأتي الآخرة بالأرزاق، فتخضر الشجرة بالأوراق، على أن السَّرَّ غائب، وكلنا في التماس النجاة خائب، والجاهل وفوق الجاهل، من ادَّعى المعرفة بالمناهل، واللعنة على الكاذبين.

الكيسانية

أما الذين يدعون في عليّ، عليه السلام، ما يدعون، فتلك ضلالة قديمة قدم الإنسان، وبحار من الغواية ليس لها شيطان، وقد نُفِيَ عبد الله بن سبأ^(١) لما جاهر بذلك النبأ. واعتقاد الكيسانية في محمد بن الحنفية عجيب، لا يصدق بمثله نجيب،^(٢) وقد روي أن أبا جعفر المنصور رفعت له نار في طريق مكة في الليلة التي مات فيها، فقال: قاتل الله الحميريّ، لو رأى هذه النار لظن أنها نار محمد بن الحنفية.^(٣) وقد بلغني أن رجلاً بالبصرة يعرف بشاباس، تزعم جماعة كثيرة أنه رب العزة، وتجبي إليه الأموال الجمّة، ويحمل إلى السلطان منها قسماً وافراً، ليكون بما طلب ظافراً، وهو إذا كشف ساقط لا يستنير، يبيّذه إلى الفضل مؤجّر الحمير. وحُدِّثت أن امرأة بالكوفة يدعى لها مثل ذلك.

١ - عبد الله بن سبأ: رأس الطائفة السبئية، وهو الذي قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنت الإله! فنفاه عليّ إلى المدائن، فلما قتل علي كرم الله وجهه زعم عبد الله بن سبأ أنه لم يمت لأن فيه جزءاً إلهياً. وقيل إنه كان يهودياً وأسلم. وهو أول من أظهر القول بالرفض وبإمامة علي، ومنه تشعبت فرق الضلال. واجتمعت عليه جماعة، هم أول فرقة قالت بالتوقف وبالرجعة بعد الغيبة.

٢ أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، المعروف بابن الحنفية (١٦-٨١هـ)، كان كثير العلم والورع، وكان شديد القوة، وله في ذلك أخبار عجيبة.

وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي يدعو الناس إلى إمامة محمد بن الحنفية، وكيسان لقب المختار المذكور، وقيل: كيسان مولى علي رضي الله عنه. والكيسانية يزعمون أنه مقيم برضوى في شعب منه ولم يمت، وأنه يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً.

٣ إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة المعروف بالسيد الحميري (١٠٥-١٧٣هـ/٧٢٣-٧٨٩م)، كان شاعراً محسناً كثير القول، له مدائح جمّة في أهل البيت عليهم السلام، قال له بشار بن برد: لولا أن الله تعالى شغلك بمديح أهل البيت لاقتقرنا. وكان يرى رأي الكيسانية، وكان كثير الشاعر يرى هذا الرأي، ويقال: إن السيد اجتمع بجعفر الصادق فعرفه خطاه وأنه على ضلالة فرجع وأتاب.

ابن الراوندي

وقد سمعت من يخبر أنّ لابن الراوندي أتباعاً يذكرون أنّ اللاهوت سكنه، وأنّه من العلم مكّنه، ويخترعون له فضائل يشهد الخالق والمخلوق ، أنّ كذبها غير مسبوق، وهو في هذا أحد الكفرة، لا يُحسبُ من الكرام البرّة، فلو مات الفطنُ كمدّاً لما عتب عليه أحد، فأين مهربُ العاقلِ من شقاء أكبر من أحد؟! أكلّمَا خدع مُخادع، أرسلت من الكُفْرِ مصادع؟ والمصادع: السهام، وما جهرت بسفيهٍ دعواه، إلا وافق جهولاً عواه، أي عطفه.

مدعي النبوة

وقد ظهر في الضيعة المعروفة بالنَّيْرِبِ المقاربة لسَرْمِينِ رجل يعرف بأبي جوف، لا يستتر من الجهل بحوف، والحواف إزار صغير من جلد مشقق الأطراف تأتزرُ به الجارية وهي صغيرة، وكان يدعي النبوة، وكان له قطن في بيت فقال: إن قطني لا يحترق وأمر ابنه أن يُدني سراجاً إليه، ففعل وشبت في القطن النار، وصرخت النساء، واجتمعت الجيرة، وإنما الغرضُ إطفاء. وحدّثني من حضره، أنه كان يكثر الضحك بغير موجب، ولا عند حدثٍ أو حديثٍ يُعجب، ف قيل له: ممّ تضحك؟ فقال كلاماً معناه: إن الإنسانَ ليفرحُ بهينٍ قليل، فكيف من وصل إلى العطاء الجليل؟ وكان بيّن الجنون، ليس الخبل فيه بالمكون، فاتَّبَعَهُ الأَغْبِيَاءُ، وكذّب ما يقوله الأنبياء، حتى قتله والي حلب، حرسها الله، وذلك بعد مقتل البطريق المعروف بالدوقس في بلد أفامية، وكان الذي حثَّ على قتله جيش بن محمد بن حمصامة لأنَّ خبره وصل إليه، فأرسل إلى سلطان حلب، حرسها الله، يقول: اقتله وإلاً أنفذت إليه من يقتله، وكان السلطان يتهاون به لأنه حقيير، ورُبَّ شاةٍ نتج منها الوقير، أي قطع الغنم.

وبعض الشيعة يحدث أن سلمان الفارسي ومعه نفر جاؤوا يطلبون علي بن أبي طالب، سلام الله عليه، فلم يجدوه في منزله، فبينما هم كذلك لمع البارق وتبعه الرعد، وإذاعلي قد نزل على سطح البيت، في يده سيف مخضوب بالدم، فقال: وقع خلاف بين فئتين من الملائكة، فصعدت إلى السماء لأصلح بينهما! والذين يقولون هذه المقالة يعتقدون أن الحسن والحسين ليسا من ولده، فحاق بهم العذاب الأليم. أفلا يرى إلى هذه الأمة كيف أفتنت في الضلالة، كافنتان الربيع في إخراج المرعى، والظباء في رزقها تسعى؟ وللكذب سوقٌ ليست للصدق، تجعل الأسد والثعلب صنوين لا فرق.

خوف الشيخوخة

وأما الذي ذكره من بلوغ السنِّ، فإن الله سبحانه، خلق مقراً ومشهداً، ورغبة في العاجلة وزهداً، وإذا اللبيب أنعم النظر، لم ير الحياة تجذبه إلا إلى الضّرر، فالمقيم كأخي ارتحال، لا تثبت الأمور به على حال: إمساء وصبح يتبسّم ، لا يلبث معهما العمر يتقدم، كأنهما ذئبان ضاريان، والعمر قطعان يتبع بعضها بعضاً، وهما على الأغنام السّارحة يغيران، فيفنيان القطعان، ويُعملان فيها الأنياب نهشاً وعضاً.

وإن كان، مكّن الله وطأة الأدب ببقائه، قد افتقد الشبيبة فإنما أنفقتها في طلب آدابٍ وعلوم، وهو في هذا محمودٌ غير مَلوم، ولو كان لها على الحيّ ثبات، تشبّثت بنفسه النفيسة حتى الممات، ولكنها بعضُ الأعراض، لا تشعر بالحياة ولا الانقراض.

وإذا كنّا على ذمّ هذه المنزلة مجمعين، ولفراقها مزمعين، فلم نأسف على نأي هذه الدنيا الخوّانة؟ إن الأشاءة لمن العوّاتة، والأشياءُ النخلةُ الصغيرة، والعوّانة النخلة الطويلة، ومتى أخلص الإنسان وهو قرينُ الغفلةِ التوبة، وإن أذنب توبةً بعد نوبة، فإنها تغسل ذنوبه غسلاً النساءِ صوف الأغنام، في نهر يجري مدى الأيام ، غير لونه الوسخُ الكثير ، فوجب غسله للتطهير ، وكان قد أخذ عن بيضِ أغنام ، تفوق ما يرتع حولها من الأنعام ، فعاد وكأنه كافور الطيب، أو ما ضحك من كافورٍ رطيب، والكافور: زهر النخلة، وقيل هو وعاءُ الطلعة.

فأما الغانيات بعد السبعين، فالأشيبُ لديهن يُعان ولا يُعين، وقد حُكي أن أبا عمرو بن العلاء كان يخضب لحيته، فاشتكى وجعاً في بعض الأيام، فعاده بعض أصحابه، قال: تقوم إن شاء الله تعالى من علّتك. فقال: ما أملُّ بعد ست وثمانين. وعاد إليه وقد تماثل للشفاء، فقال أبو عمرو: لا تحدّث بما قلت لك. وهذا من ظريف ماروي، رغب في تمويهه بالخضاب، وكتّم سنّه عن كلِّ الأصحاب.

وقد تحدّث بعض طلاب الأدب أنّه، أدام الله تزيين المحافل بحضوره، ذكر التزويج يريد من تخدمه، فسرنى ذلك، لأنّه دلّ على نيّته الإقامة بالوطن، وفي قربه الفرحة لذوي الفطن. إذ كان كالشجرة الوارفٍ ظلّها كالطيف، والبارد هواؤها في حرّ الصيف، والطيب ثمرها لمن طعمها،

والعطر هو أوها لمن تنسّمها.

وهو يعرف حكاية الخليل عن العرب: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الخدع، ولا يكون كمن أنفه جدع، والنصف^(١)، ممن يوصف «لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون»^(٢):

لا تنكحن عجزاً إن دعوك لها واخلع ثيابك عنها ممعناً هرباً
وإن أتوك فقلوا: إننا نصف فإن أطيب نصفها الذي ذهباً^(٣)

ولعله تقدّر له كصاحبة أبي الأسود أم عمرو، ورب خير تحت الخمر:

كثوب اليماني قد تقدم عهدُه ورقتته ما شئت في العين واليد^(٤)

وحكي عن أبي حاتم سهل بن محمد أنه قرأ على الأصمعي شعر حسان بن ثابت، فلما انتهى إلى قوله:

لم تفقها شمس النهار بشيءٍ غير أن الشباب ليس يدوم

قال الأصمعي: وصفها والله بالكبر، وقد يجوز ما قال، والأشبه أن يكون قال هذا وهي شابة، على سبيل التأسف، أي إن الأشياء لا بقاء لها، كما قال الآخر:^(٥)

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان

ولو نشط لهذا الأرب، لتنافست فيه العجائز والمكتهلات، وراجت خطبة الحمقاوات المنهلات، لأن العاقلة ذات الرشاد، تحب معاشرة من أتقن فيما بنى وأشاد. وهل هو إلا كما قال الأول:

١ النصف: المرأة بين الحديثة والمسننة، كأن نصف عمرها قد ذهب.

٢ الآية ٦٨ من سورة البقرة

٣ البيتان للحسن بن علي الحرمازي، مولى بني هاشم، نزل بالبصرة في بني الحرماز فانسب إليهم. وكان ممن يأخذون عن أبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري والأصمعي، روى أخباراً كثيرة وله بعض الأشعار.

٤ هذا البيت أحد بيتين لأبي الأسود الدؤلي، وقد وردا:

أبي القلب إلا أم عوف وحُبها عجزاً ومن يحب عجزاً يُنفد
كسحق اليماني قد تقدم عهدُه وجدته ما شئت في العين واليد

٥ موسى الشهوات وهو موسى بن يسار مولى بني تيم قريش. وسمي شهوات لتشهيه على عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الأطايب فيشترها له، وكان من شعراء المدينة وظرقاتهم. والبيت المذكور أحد بيتين:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب كان في الناس غير أنك فان

وروي البيتان للشاعر هارون بن علي المنجم (٢٥١ - ٢٨٨ هـ / ٨٦٥ - ٩٠١ م) وهو عالم بالأدب وله كتب منها (كتاب النساء)، و(المختار في الأغاني، و(اختيار الشعراء)، وأشهر تأليفه (البارع) في أخبار الشعراء المولدين، جمع فيه ١٦١ شاعراً، قال ابن خلكان: وهو من الكتب النفيسة، فإنه يعني عن داوود الجماعة وقد مخض أشعارهم وأثبت زيدتها. توفي ببغداد شاباً:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
ليس لك فيما علمته عيب عابهُ الناس غير أنك فان

يا عَزُّ هَلْ لِكَ فِي شَيْخٍ فَتَى أَبَدًا وَقَدْ يَكُونُ شَبَابٌ غَيْرُ فِتْيَانِ

فليس بأوَّلَ مَنْ طالت به المدة، فتزوج على السنِّ عجوزاً جدَّة، كما قال:

إِذَا مَا أَعْرَضَ الْفِتْيَانُ عَنِّي فَمَنْ لِي أَنْ تُسَاعِفَنِي عَجُوزُ

كَأَنَّ مَجَامِعَ اللَّحْيَيْنِ مِنْهَا إِذَا حَسَرْتُ عَنِ الْعَزِيِّنِ كَوْزُ

ويروى للحارث بن حِلْزَةَ، ولم أجده في ديوانه:^(١)

وَقَالُوا مَنْ نَكَحْتَ؟ فَقُلْتُ خَيْرًا عَجُوزًا مِنْ عُرَيْنَةِ ذَاتِ مَالِ

نَكَحْتُ كَبِيرَةً وَغَرِمْتُ مَالًا كَذَاكَ الْبَيْعُ: مُرْتَخَصٌ وَغَالِ

وأعوذ بالله ممَّا قال الآخر:

عَجُوزًا لَوْ أَنَّ الْمَاءَ يُسْقَى بِكَفِّهَا لَمَا تَرَكْتُنَا بِالْمِيَاهِ نَجُوزُ

وما زالت العرب تحمِّدُ الحَيْرَبُونَ والشَّهْلَةَ^(٢)، ولا تكره مع الشباب الكهلة. وقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد وهو شاب، وهي طاعنة في السنِّ. وقالت له أم سلمة ابنة أبي أمية: يا رسول الله، إني امرأة قد كبرتُ وما أطيَّقُ الغَيْرَةَ. فقال: أَمَا قَوْلُكَ: قد كبرتِ، فإنا أكبرُمنك، وأما الغَيْرَةَ، فإنِّي سوف أدعو الله أن يزيلها عنك. وقال الشاعر:^(٣)

فَمَا أَنَا ابْنُ رُهِمٍ قَدْ عَلِمْتُمْ وَلَا ابْنُ الْعَامِلِيَّةِ فَاحْذَرُونِي

وَلَكِنِّي وُلِدْتُ بِنَجْمِ شَكْسٍ لَشَمْطَاءِ الذَّوَائِبِ حَيْرَبُونَ

ولا أشكُّ أنَّه قد استخدم في مصر أصنافاً من الجَواري، وليس عيباً لكي تواري، ولولا أنَّ أخت الكبرة يفتقر إلى معينٍ كي تُسعده، لكان الحزم أن يتجنب جنس النساء ويبعده، فهو يعرف قول القائل:

١ صدق المعري في قوله، فالبيتان للحارث بن زهير، وهو من بني كلب بن وَيْزَةَ بن تغلب من بني قضاة، وأشهر شعره أبيات في عجز تزوجها تدعى هند بنت مسلم بن شكل وهي من بني عرينة بن ثور، وورد البيتان لاختلاف طفيف:

وَقَالُوا مَنْ نَكَحْتَ؟ فَقُلْتُ خَيْرًا عَجُوزًا مِنْ عُرَيْنَةِ ذَاتِ مَالِ

نَكَحْتُ مُجَيِّزًا وَنَقَدْتُ أَلْتَأُ كَذَاكَ الْبَيْعُ: مُرْتَخَصٌ وَغَالِ

٢ قال الثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩هـ/٩٦١ - ١٠٢٨م) في فصل «ترتيب سن المرأة» في كتاب «فقه اللغة»: الشهلة: الكهلة إذا وجدت مسَّ الكبر وفيها بقية وجلد، ثم هي شهيرة ثم حيزيون.

٣ البيتان من أربعة أبيات للشاعر الجاهلي مجهول الولادة والوفاة خُثيم بن عدي من بني كلب، وفيهم اختلاف:

فَمَا أُمِّي بَرُّهُمٍ قَدْ عَلِمْتُمْ وَلَا بِالْعَامِلِيَّةِ فَاحْذَرُونِي

وَلَكِنِّي وُلِدْتُ بِنَجْمِ شَكْسٍ لِبَيْضَاءِ الذَّوَائِبِ حَيْرَبُونَ

ما العيشُ إلا القُفْلُ والمِفْتَاحُ وعُرفةٌ * تخَرَقتها الرِّياحُ
لا صخَبٌ فيها ولا صِياحُ

وحَدَّثني ابْنُ الفِنتَسريِّ المُقرئ، أَنه سمعه يسأل عن غلامٍ للخدمة، وربما كان استخدام الأحرار،
يمنع من القرار، فقد قال أبو عبادة: ^(١)

أنا من يأسرٍ ويُسَرِّ وسَعِدٍ لستُ من عامرٍ ولا عمَارِ
ما بأرضِ العِراقِ يا قومٍ حُرٌّ يفتديني من خِدمةِ الأحرارِ

وأن يخدم نفسه الوحيد، خيرٌ من أن يدخلَ بيته العبيد، فطالما أحووا المالك إلى العقاب، وأن
ينسى الأدب ويُقبَّح السباب.

وربَّ نازلٍ من أهلِ الأدبِ في خان، ليس بالخائنِ ولا المُستخان، يخدمه صبي أعتقَ من الرِّقِّ
حرٌّ، وفي خدمته يسرق ويضُرُّ. وإذا أرسله بالبتك، بنات الدُّرهم ليأتيه ببطيخة حين يكثر البطيخ،
سرق في السبيل المال، وزاد في الخيانة واستطال، ثم وقفَ بالبائع، فغبنه غبن الضائع، فأخذ منها
الصغيرة، ثم انصرف بها لاعباً، كأنما هُدي كاعباً، فلم يزل يتلقف بها في الطريق، حتى كسرهما بين
فريق. ويجوز أن يحملها في حال السَّلامة، ويمضي ليسبح مع الفتیان، فإذا نزل في الماء اختطفها
بعض الصبيان.

وكان في بلدنا غلامٌ لبعض الجند يزعم، ويصدق فيما يزعم، أَنه كان مملوكاً لأبي أسامة جنادة بن
محمد الهرويِّ بمصر، وكان يأسف لفراقه، ويعجب من جميل أخلاقه. وإنما ذكرت ذلك لأنه، عرَّف
الله الوقتَ بحياته أي طيبه، ممَّن قد عرف جنادة وجربَه. ^(٢)

وأما أهل بلدي، حرسهم الله، فإذا كان الحظ قد أعطاني حُسن ظنِّ الغرباء، فلا يمتنع أن يعطيني
تلك المنزلة من الرُّهط القرباء. ولكنهم كطلَّاب الخُطبة من أبكم، وضوء الشمس في ليل معتم.
وسيدي الشَّيخ أبو العباس الممتَّع: في السنِّ ولدٌ، وفي المودَّة أخٌ، وفي فضله جدٌّ أو أبٌّ. وإنه في
أدبه، لكما قال تعالى: «وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تجزى». ^(٣)

وأما إشفاق الشَّيخ - ملأ الله حياته بالفرح، وأراح سمعه من كلِّ ما جرح - فتلك أخلاق الأنيس

١ هو البحتري وسبقت ترجمته

٢ جنادة بن محمد الأزدي الهرويِّ اللغوي. كان علامة لغوياً أدبياً، قتله الحاكم صبراً سنة تسع وتسعين وثلاثمائة.

٣ الآية ١٩ سورة الليل

المُحِب، لا يختص بها أخو الجبن عن الشجاع الصلب. ومن القسوط، تعرّض بالقنوط. «قُلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله»^(١). كم من أديب شرب وطرب ثم تاب، وأجاب الرزاق الوهاب. فقد يضل الدليل في ضوء القمر، ثم يهديه الله فينصاع لما أمر، وكم استنقذ من لُجّة البحر غريق، فسلم واستبان له الطريق.

وقد كان الفضيل بن عياض^(٢)، يتمرغ في أقدار الرياض، ثم حُسِبَ في الزهاد، وصار من أهل الاجتهاد. وربّ خليع وهو فتى، تصدّر لما كبر وأفتى، ومغنّ بطنبور أو عود، قُدِّرَ له أن يتوب فيجود، فرّقِي منبراً وصار واعظاً، ولكتاب الله حافظاً.

١ الآية ٥٢ سورة الزمر

٢ أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي الزاهد المشهور (١٠٧-١٨٧هـ) أحد رجال الطريقة، كان في أول أمره شاطرا يقطع الطريق، وكان من كبار السادات، قال له الرشيد يوماً: ما أزهك! فقال الفضيل: أنت أزهد مني، لأنني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة، والدنيا فانية والآخرة باقية، ومناقبه كثيرة.

عمر بن عبد العزيز

ولعلّه قد نظر في طبقات المَعْنِين فرأى فيهم عمر بن عبد العزيز، ومالك بن أنس، هكذا ذكر ابن خرداذبة، فإن يك كاذباً فعليه كذبه.^(١)

وثمة حكاية معروفة أن أبا حنيفة كان يُشارِبُ حمّادَ عجرد وينادمه^(٢)، فنسك أبو حماد بن عمر بن يونس الكوفي المعروف بعجرد الشاعر المشهور، هو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، ولم يشتهر إلا في العباسية، ونادم الوليد بن يزيد الأموي، وهو من الشعراء المجيدين، وبينه وبين بشار بن برد أهاج فاحشة، توفي سنة ١٦١هـ.

وأقام حمّادٌ في الغواية، فبلغه أن أبا حنيفة يذمه ويعيبه، فكتب إليه حمّاد:

إِنْ كَانَ نُسْكُكَ لَا يَتِمُّ بغيرِ شَتْمِي وانتِصامي
فأقعُدْ وقُمْ بي كيفِ شئتُ ستَ مع الأَدَانِي والأَقْصَايِ
فلطالما زكّيتني وأنا المُقِيمُ على المَعَايِ
أيّامَ تُعْطِينِي وتَأْ خُذْ في أباريقِ الرِّصَايِ

١ أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبة (٢٠٥-٢٨٠هـ/٨٢٠-٨٩٣م). كان خرداذبه مجوسياً أسلم على يدي البرامكة. وتولى أبو القاسم هذا البريد والخبر بنواحي الجبل، ونادم المعتمد، وخص به. ومن تصانيفه: كتاب المسالك والممالك، كتاب أدب السماع، كتاب اللهو والملاهي، كتاب الندامى والجلساء: كتاب الشراب.

٢ الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٨٠-١٥٠هـ) كان عاملاً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع حسن الوجه حسن المجلس، شديد الكرم حسن المواساة لإخوانه، أحسن الناس منطلقاً وأحلامهم نعمة. وذكر أن أبا حنيفة رأى في المنام كأنه ينش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فبعث من سأل ابن سيرين، فقال ابن سيرين: صاحب هذه الرؤيا يثور علماً، لم يسبقه أحد قبلة.

عمر بن الخطاب

أليس الصحابة، عليهم رضوان الله، كانوا كلُّهم على ضلال، ثمَّ تداركهم المقتدر ذو الجلال؟ وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب خرج من بيته يريد داراً كانوا يجتمعون فيها للقمار، فلم يجد أحداً فقال: لأذهبنَّ إلى الخمار، لعلِّي أجد عنده خمرًا، فلم يجد عنده شيئاً. فقال: لأذهبنَّ ولأسلمنَّ^(١) والتوفيق يجيء من الله سبحانه وتعالى بإجبار، وفيما خوطب به النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ”وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى“^(٢).

وذكر أبو معشر المدني^(٣) في كتابه ”المبعث“ حديثاً معناه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ذبح ذبيحةً للأصنام، فأخذ شيئاً منها فطُبِّخ له، وحمله زيد بن حارثة^(٤) ومضيا ليأكلاه في بعض الشعاب، فلقيهما زيد بن عمرو بن نفيل^(٥)، وكان من المتألهين في الجاهلية، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم، ليأكل من الطعام، فسأله عنه فقال: هو من شيءٍ ذبحناه لآلهتنا. فقال زيد بن عمرو: أتني لا أكل شيءٍ ذبح للأصنام، وإني على دين إبراهيم صلى الله عليه، فأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة بإلقاء ما معه.^(٦)

وفي حديث آخر، وقد سمعته بإسناد: أن تميم بن أوس الداري، والدَّارِ قَبِيلَةٌ من لخم، كان يُهدي إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، في كلِّ سنةٍ زَقَاتًا من خمر، فجاء به في بعض السنين، وقد حُرِّمَت الخمر، فأراقها.^(٧)

١ هذه الحكاية لم ترد عند أحد آخر، وهي ليست مما يقبله العقل.

٢ الآية ٧ سورة الضحى.

٣ أبو معشر جعفر بن محمد البلخي (١٧٠-٢٧٢هـ/٧٨٨-٨٨٦م)، كان إمام وقته في فنه، وله التصانيف المفيدة في علم التنجيم، وكانت له إصابات عجيبة.

٤ أبو أسامة زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبَّه، وأوَّل من أسلم بعد خديجة، وشهد بدرًا وما بعدها واستخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة في غزوة المريسيع، وظل يدعى زيد بن محمد حتى نزل تحريم التبني، وزوجه النبي ابنة عمته زينب، ثم طلقها لعدم اتفاقهما، وتزوجها رسول الأتله صلى الله عليه وسلم. كان مقدِّم الأمراء في جيش مؤتة، وبها استشهد عام ٦٢٩م.

٥ هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى. لم يدخل يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموعودة، وقال أعبد رب إبراهيم ويأدى قومه بعبب ما هم عليه. قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يأتي يوم القيامة أمة وحده».

٦ حكاية أخرى يخالف فيها المعري جميع المؤرخين، فمن المعروف أن الله سبحانه وتعالى حفظ نبيه الكريم من عادات الجاهلية، فكيف يمتنع زيد بن عمرو عن أكل ذبائح الأوثان، ويرضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

٧ هل يعقل هذا يا أبا العلاء؟ إن رسول الله لم يشرب خمرًا قطًّا، فكيف يأتيه بزقُّ من الخمر بعد تحريمها وقد حُرِّمَت في السنة الثالثة للهجرة؟

والمطبوخُ وإنَّ أسكَرَ فهو جارٍ مجرى الخمر، على أنَّ كثيراً من الفقهاء قد شربوا الخمر، وذكرَ أحمد بن حنبل عند أحمد بن يحيى ثعلبٍ، وإن كان شرب النبيذ قط؟ والنبيذ عند الفقهاء غير الخمر، فقال ثعلب: أنا سقيته بيدي في حانةٍ كانت لخلف بن هشام البزاز.

فأما الطلاء فقد كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، جزءاً منه على نصارى الشام لجنود المسلمين، والمثل السائر:

هِيَ الخمرُ تُكْنَى الطَّلَاءَ كما الذئبُ يُكْنَى أبا جَعْدَةَ

وهذا البيت يُروى ناقصاً كما علم، وهو ينسب إلى عبيد بن الأبرص وربّما وجد في نسخةٍ من ديوانه، وليس في كلِّ النسخ. والذي أذهب إليه أن هذا البيت قيل في الإسلام بعد ما حرّمت الخمر. وإنّما لذّة الشاربين فيما يعرضُ لهم من السكر، ولولا ذلك لكان غيرها من الأشربة أعذبَ وأدفاً، وقال الأخطل التغلبي:

عَلَّلَانِي بِشَرِبَةِ مِنْ طِلَاءٍ نَعَمَتِ النَّيْمُ فِي شَبَا الزَّمْهَرِيرِ

ويروى لدعل:

عَلَّلَانِي بِسَمَاعٍ وَطِلَاءٍ وَبَضَيْفٍ جَائِعٍ يَبْغِي الْقِرَى

وهذا يدلُّ على أن الطلاء يسكر، ويروي للهدلي:

إِذَا مَا شَتُّتُ بَاكَرِنِي غَرِيضٌ وَزُقُّ فِيهِ نِيٌّ أَوْ نَضِيحُ

وإن كان، هيأ الله له حُبَّ الأحباب، قد شرب نياً، وقال له الندمان: هنيئاً، فله أسوةً بشيخ الأزدي ابن دريد محمد بن الحسن إذ قال:

بَلْ رُبَّ لَيْلٍ جَمَعَتْ قُطْرِيهِ لِي بِنْتُ ثَمَانِينَ عُرُوساً تُجْتَلَى

ثم قال في آخر القصيدة:

فَإِنْ أُمْتُ فَقَدْ تَنَاهَتْ لَذِي وَكُلُّ شَيْءٍ بَلَغَ الْحَدَّ أَنْتَهَى

وما اختار له أن يأخذ بقول أبي نواس:^(١)

١ أبو نُوَاس (١٤٦ - ١٩٨ هـ / ٧٦٣ - ٨١٣ م) الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء. شاعر العراق في عصره. ولد في الأهواز ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها، وعاد إلى بغداد فأقام بها إلى أن توفي فيها. هو أول من نهج للشعر طريقتة الحضرية وأخرجه من اللهجة البدوية، وقد نظم في جميع أنواع الشعر، وأوجد شعره خمرياته.

قالوا كَبُرَتْ فقلتُ ما كَبُرَتْ يدي عَنْ أَنْ تَسِيرَ إِلَى فمي بالكاسِ

وهو يعرف البيت:

وَمَا طَبَخُوهَا غَيْرَ أَنْ غَلَامَهُمْ سعى في نواحي كَرَمِها بِسِرَاجِ

وقول عبد الله بن المعتز^(١):

ذَكَرَ العِلْجُ أَنَّهُمْ طَبَخُوهَا فرضينا ولو بَعُودِ خِلالِ

وقديماً طلب الندامى مطبوخاً، شَبَّاناً في العمر وشيوخاً، ينافقون بالصفة ويوارون، وعن الصَّهْبَاءِ
المعتقة يدارون، وأبيات الحسين بن الضَّحَّاك الخليج التي تنسب إلى أبي نواسٍ معروفة^(٢):

وشاطريُّ اللسان مختلق التِّد كَرِيه، شابَّ المُجَوْنَ بالتُّسْكِ

دَسَسْتُ حمراء كالشَّهَابِ له مِنْ كَفِّ خَمَارِ حَانَةِ أَفْكِ

يُخْلِفُ عن طَبْخِها بِخالِقِهِ وربِّ موسى ومُنشِئِ الفلكِ

ومن النُّفَاقِ أَنْ يُظْهِرَ الإنسانَ شَرِباً ما أَجاز شربه بعض الفقهاء، ويعمد إلى الصفراء والحمراء،
فقد أحسن الحكميُّ في قوله:

فإذا نَزَعْتَ عَنِ الغَوَايَةِ فليكنْ لِّلهِ ذاكِ النَّزْعُ لا النَّاسِ

وقد آن لمولاي الشَّيْخِ أَنْ يزهد في شِيمة حميد، وينصرف عن مذهب أبي زبيد، وإتِّماعيت
حُمَيْدًا الأَمَجِّيَّ القائل: ^(٣)

حُمَيْدُ الَّذِي أَمَجُّ دارُهُ أخو الخمرِ ذو الشَّيْبَةِ الأَصْلُغِ

أَتاهُ المَشْيِبُ على شَرِبِها وكان كَرِيماً فما يَنْزِعُ

١ ابن المُتَمَتِّز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ / ٨٦١ - ٩٠٨ م) عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي. الشاعر المبدع، خليفة يوم ولية. آلت الخلافة في أيامه إلى المقتدر العباسي، واستصغره القواد فخلعوه، وأقبلوا على ابن المعتز، فلقبوه (المرتضى بالله)، وباعوه للخلافة، فأقام يوماً ولية، ووثب عليه غلمان المقتدر فخلعوه، وعاد المقتدر، فقبض عليه وسلمه إلى خادم له اسمه مؤنس، فخنقه.

٢ الحسين بن الصَّحَّاح الباهلي البصري (١٥٠ - ٢٥٠ هـ / ٧٦٧ - ٨٦٤ م) شاعر عباسي مولى لباهلة، وهو بصري المولد والمنشأ، وهو من ندماء الخلفاء. شاعر أديب ظريف، مطبوع حسن التصرف في الشعر حلو المذهب. وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغير عليها.

٣ ليس لهذا الشاعر أي ذكر في كتب التراث، ولم يذكر أحد نسبه أو أبياتاً أخرى غير هذه الأبيات الثلاثة التي أوردنا اثنين منها، وله حكاية طريفة مع أولاد أخيه وعمر بن عبد العزيز تتكرر في مراجع كثيرة.

وقال آخر:

تُعَاتِبَنِي فِي الرَّاحِ أُمٌّ كَبِيرَةٌ وَمَا قَوْلُهَا، فِيمَا أَرَاهُ، مُصِيبٌ
تَقُولُ أَلَا تَجْفُو الْمُدَامَ فَعِنْدَنَا مِنْ الرَّزْقِ تَمْرٌ مُكْتَثَبٌ وَزَيْبٌ؟
فَقُلْتُ رُوَيْدًا مَا الزَّيْبُ مُفْرَحِي وَليْسَ لَتَمْرٍ فِي الْعِظَامِ دَبِيبٌ
فَإِنَّ حُمَيْدًا عَلَّهَا فِي شَبَابِهِ وَلَمْ يَصْحُ مِنْهَا حِينَ لَاحَ مَشِيبٌ

وإذا تسامع الناس بتوبته، اجتمع عليه الشبان لم يكتملوا، والأدباء الذين اكتهلوا، وكلُّ أشيبٍ لم يبق من عمره إلا ظمأ حمار، كما اجتمع للسمر أصناف السُّمَار، فيقتبسون من آدابه، ويرهفون السمعَ لخطابه، وجلس لهم في بعض المساجد بحلب، حرسها الله، فإنها من بعد أبي عبد الله بن خالويه عطلت من خلخال وسوار، وأقفرت من الأدب أيما إقفار. وإذا حدث ذلك بتفضل الله، أعدَّ معه خنجرًا كخنجر ابن الرومي، أو الذي عناه ابن هرمة في قوله:^(١)

لَا أَمْتَعُ الْعَوْدَ بِالْفِصَالِ وَلَا أَبْتَاعُ إِلَّا قَرِيبَةَ الْأَجَلِ
لَا غَنَمِي فِي الْحَيَاةِ مُدًّا لَهَا إِلَّا دِرَاكَ الْقِرَى وَلَا إِبْلِي
كَمْ نَاقَةٌ قَدْ وَجَّاتٍ مَنَحَرَهَا بِمُسْتَهَلِّ الشُّبُوبِ أَوْ جَمَلِ

فإذ جلس في مجلسه الذي يلتقط أهله منه الأزهار، بل لآئى البحار، فيكون ذلك الخنجر قريباً منه، فإذا صادف أن يمرَّ بباب المسجد الكهل المُرَقَّبُ الذي أرادته القائل بقوله:

إِذَا الْكَهْلُ الْمُرَقَّبُ غَاصَ أَلْنَاءً إِلَى سِيِّ لَه فِي الْقَرَوِ ثَانِ
كَأَنَّ الدُّارِعَ الْمَغْلُولَ مِنْهَا سَلِيبٌ مِنْ رِجَالِ الدِّيْبِلَانِ

والسيُّ المثل والشبيه، القرو: شئ يجعل فيه زق الخمر، والذارع: زق الخمر. والديبلان: جبل معروف. وثب إليه وثبة نمر، إلى غزالة منفردة تمر، أو أمر بعض أصحابه بالوثوب إليه، فطعنه بذلك الخنجر طعنة فانبعث الدم، كالخالص من صباغ العندم، وقرأ هذه الآية: ” إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ“^(٢).

١ ابراهيم بن هرمة (٨٠ - ١٧٦ هـ / ٦٩٩ - ٧٩٢ م) شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، أنشد الشعر بين يدي الرشيد. اتفق المؤرخون على أن الشعر ختم بابن هرمة وبخمسة من معاصريه، إلا أن الأصمعي قدمه عليهم، وقد تنقل بين المدينة ودمشق وبغداد يمدح الخلفاء.

٢ الآية ١١٤ من سورة هود.

فإذا مضى صاحبه إلى السلطان شاكياً فقال: من فعل ذلك بك؟ فسماه له، قال السلطان بمشيئة الله: لا حرَّ بوادي عوفٍ،^(١) ما أصنع بأصل الأدب وبقية أهله؟ ما يفعل ذلك مرةً أو اثنتين، إلا وحملة الذوارع قد اجتنبت تلك الناحية، كما اجتنب أبو سفيان بن حرب طريقه خوفاً من النبي صلى الله عليه وسلم، فقال حسان:

إِذَا هَبَطْتُ حَوْرَانَ مِنْ رَمَلٍ عَالِجٍ فَقُولَا لَهَا لَيْسَ الطَّرِيقُ هُنَالِكَ

ولا بأس إن كان قد أعدَّ خنجراً يخفيه في كفه، فإذا ضرب به زقَّ الخمر، ذكر من نظر في المبتدأ حديث طالوت لما أمر ابنته وهي امرأة داود، صلى الله عليه، أن تدخله عليه وهو نائم ليقتله. فجعلت له في فراش داود زقَّ خمرٍ ودستته عليه، وضربه بالسيف، وسالت الخمر، فظنَّ أنها الدم، فأدركه الأسف والندم، فأوماً بالسيف ليقتل نفسه ومعه ابنته، فأمسكت يده، وحدثته بما فعلته، فشكرها على ذلك.

ويكون السكران إذا ألمَّ بذلك المسجد، تُرْتَرُ ومُزْمَرُ، كما في الحديث^(٢)، واستنكته، فإن أوجبت الصورة أن يُجلد جُلْد، ولا يقتصر له الشيخ، أغراه الله أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، على أربعين جلدة في الحدِّ على مذهب أهل الحجاز، ولكن يجلده ثمانين على مذهب أهل العراق، فإنها أوجع وأفجع. ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم، جلد أربعين، فلما صار الأمر إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، استقلها، فشاور علياً عليه السلام، فجعلها ثمانين.

وإذا صحت الأخبار المنقولة بأن أهل الآخرة يعلمون أخبار أهل العاجلة، فلعلَّ الحور المعذبات له في الخلد، يسألن عن أخباره من يردُّ عليهنَّ من الصلحاء، فيسمعن مرةً أنه بالفسطاط، وتارةً أنه بالبصرة، ومرةً أنه ببغداد، وخطرةً أنه بحلب. فإذا شاع أمر التوبة، ومات ناسكٌ من أهل حلب، أخبرهن بذلك، فسُررن وابتهجن، وهنَّهنَّ جاراتهنَّ. ولأريب أنه قد سمع حكاية البيتين الثابتين في كتاب الاعتبار:

أَنْعَمَ اللَّهُ بِالْخَيَالَيْنِ عَيْنًا وَبِمَسْرَاكِ يَا سَعَادُ إِلَيْنَا
عَجَبًا مَا جَزَعَتْ مِنْ وَخْشَةِ اللَّحْدِ دِ وَمِنْ ظُلْمَةِ الْقُبُورِ عَلَيْنَا

١ مثل معروف وذكرت في سببه حكايات مختلفة، ومعناه: لا سيد بناوته.

٢ حديث ابن مسعود في الرجل الذي ظلَّ أنه شرب الخمر فقال: تَرْتَرُوهُ ومزْمَرُوهُ، أي حركوه ليستنكته هل يوجد منه ريح الخمر أم لا.

وأعوذ بالله من قوم يحثُّهم المشيبُ على أن يستكثروا من الصهباء، كأنها المنجية من داهية
تتلون كالهرباء، كما قال حاتم:

أماويَّ إنَّ المالَ غادٍ ورائحٌ ويَبقى مِنَ المالِ الأحاديثُ والذِكْرُ
وقد عَلِمَ الأَقْوامُ لو أنَّ حاتِمًا أرادَ ثِراءَ المالِ كانَ لَهُ وَفْرُ
يُفَكُّ به العاني وَيُؤكَلُ طَيِّبًا ولا أَنْ تُعَرِّيه القِداحُ ولا اليَسْرُ
أماويَّ إنَّ يَصيحُ صَدايَ بِقَفْرَةٍ مِنَ الأَرْضِ لا ماءً لَدَيَّ ولا خَمْرُ
تَرَيَّ أَنَّ ما أنْفَقْتُ لَمْ يَكُ صَرِّي وَأَنَّ يَدَي مِمَّا بَخَلْتُ به صِفْرُ

وقال طرفة:^(١)

فإن كنت لا تستطيع دفع منيَّتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وقال عبد الله بن المعتز:

لا تُطَلِّ بالكؤوسِ مطلي وحبسي ليسَ يومي، يا صاحبي، مثل أمسي
لاتسلني وسل مشيبي عني مُدَّ عَرَفْتُ الخمسين أنكرت نفسي

فهذا حثته كثرة سنيِّه على أن يستكثر من السُّلَافة، وما حفظ حقَّ الخِلافة، وإنَّ العجبَ طمعه
أن يتولَّها، كأنه في العبادة نفسَه أبلاها، ولكن كما قال القائل لمعاوية بن يزيد:

تلقاها يزيدٌ عن أبيه فخذها يا معاوي عن يزيدا

وقد كان محمد بن يزيد المُبرِّد ينادم البحريَّ ثم ترك. وأنا أضنُّ به، ميز الله من الغيظ قلب
عدوه، أن يكون كأبي عثمان المازني: عوتب في الشُّراب فقال: إذا صار أكبر ذنوبي تركته.

اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر عامله على
البحرين وعمان يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر شاباً.

وأما إبراهيم بن المهدي فقد أساء في تعريضه بالكأس لمحمد بن حازم، ولكن من عبث بالعود
والقيان، لم يكن في الديانة قوي الإيمان. وقد روي أنَّ المعتصم دعا إبراهيم كعادته فغناه بيتين
وبكى، فقال له المعتصم: ما يبكيك؟ فقال: كنت عاهدت الله إذا بلغت ستين سنةً أن أتوب، وقد
بلغتها. فأعفاه المعتصم من الغناء وحضور مجالس الشراب.

١ طرفة بن العبد بن سفيان البكري الوائلي (٨٦ - ٦٠ ق. هـ / ٥٢٩ - ٥٦٤ م) شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، وأصغر أصحاب المعلقة سنأ. كان هجاءً
غير فاحش القول، تفيض الحكمة على لسانه في أكثر شعره.

والتوبة إذا لم تكن صادقة صافية، لم تكن في الإيمان كافية، وكان في بلدنا رجلٌ مغرمٌ بالخمرة، فلما كُبرَ رغب في المطبوخ، وكان يحضر مع نداماه وبين يديه زقٌ فيه خمرمطبوخةً، وعندهم قدحٌ واحدٌ، فيشرب هو من المطبوخ، ويشرب أصحابه من النبيء، فإذا جاء القدح إليه ليشرب، غسله من أثر الخمر وشرب فيه، فإذا فرغ زقُ المطبوخ رجع فشرَب من شراب إخوانه.

وأما مخاطبته غيره وهو يعني نفسه، فهو كقولهم في المثل: إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ. وطبيعة الإنسان غالبية، يريد المُتَنَسِّكُ أن ينصرفَ حُبُه عن العاجلة، وليس يقدر على ذلك، كما لا تقدِرُ الظبية أن تصيرَ لَبُوَّةً، ولا الحصاة أن تصيرَ لؤلؤةً: «يُوسَفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَخْفِرِي لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ»^(١). وقول القائل في الدعاء: اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْحَمَامَةَ بَازِيًا، يَكُونُ لِلسَّفَهَةِ مَوَازِيًا.

ولقد عَلِمْتَ ولا أَنهَاكَ عن خُلُقٍ أن لا يَكُونُ أَمْرٌوً إلا كما خُلِقَا

وإنَّا لنجد الرجل موقناً بالآخرة، مُصَدِّقًا بالقيامة، مُعْتَرِفًا بالوحدانية وهو يبخل على الكلب النابح بالعظام، وعلى الجارية أن تأكل بانتظام. وكثير من الذين يتلون الآية: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»^(٢) وهم بها مصدقون، ومن خشية إلههم مشفقون، يضيئون بالقليل الحقيق، ولا يتصدقون على السائل ولا الفقير، فكيف تكونُ حالُ مَنْ ينكرُ حديثَ الجزاء، ولا يقبلُ عن الفانية حُسْنَ العزاء؟

وقد مرَّ به حديث أبي طلحة، أو أبي قتادة، ومعناه أنه خاصم يهوديًا إلى النبي صلى الله وسلم، وكان لأبي طلحة حديقة نخل، وبينه وبين اليهودي خلافٌ في نخلةٍ واحدةٍ. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لليهودي: أسمح له بالنخلة حتى أضمن لك نخلةً في الجنة؟ ووصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفات أشجار الجنة. فقال اليهودي: لا أبيع عاجلاً بأجل. فقال أبو طلحة: أتضمنُ لي يا رسول الله كما ضمنت له حتى أعطيه الحديقة؟ فقال: نعم. فرضي أبو طلحة بذلك. وأخذ اليهودي وذهب إلى حديقته، فوجد فيها امرأته وأبناءه وهم يأكلون من جناها، فجعل يدخلُ إصبعه في أفواههم فيخرجُ ما فيها من التمر، فقالت امرأته: لِمَ تفعل هذا ببنيك؟ فقال: إنِّي قد بعْتُ الحديقة. فقالت: إن كنتَ بعْتَها بعاجلاً فبئسَ ما فعلت! فقصَّ عليها الخبر، ففرحت بذلك.

١ الآية ٢٩ سورة يوسف.

٢ الآية ٢٦١ سورة البقرة

ولو قيل لبعض عبّاد هذا العصر: أعطِ لِبِنْتَهُ من طينٍ تفرّمَد ، لتعطى في الآجلة لبنةً من عَسْجَد، لما أجاب. لو سئل أن يُعطيَ أُمَّةً عوراء، يُعَوِّضُ منها في الآخرة بحوراء، لما فعل. على أنه من المُصدِّقين، فكيف من نشأ على التكذيب، وجحدَ وقوعَ التّعذيب؟

وأما «فادوه» فلقي طائرَ الحَيْن، فأنصَبَ عليه بجناحين، فلا إله إلا الله، ما أعدَّ المهراس، ليُشجَّ به الرأس، ولكن لكلِّ أجلٍ كتابٌ، والشرُّ يُبَكِّرُ وَيَنْتَاب. مَنَّتَهُ نفسُهُ التَّوبَةَ، فكانت كصاحبة امرئ القيس لما قال لها:

مَنِّيْتِنَا بَعْدَ وَبَعْدِ غَدٍ حَتَّى بَخَلْتِ كَأَسْوَأِ الْبُخْلِ

ويُحكى عن أبي الهذيل العَلَّاف أنه كان يمرُّ في الأسواق على حمارٍ ويقول: يا قومُ احذروا توبَةَ غلامي. وكان له غلامٌ يعدُّ نفسَه التَّوبَةَ، فسقطت عليه آجرةٌ فقتلته، والدنيا الغرارةُ ختلته.

بدء معرفة ابن القارح

وأول ما سمعت بأخبار الشيخ، أدام الله تأثير الفضل ببقائه، من رجلٍ واسطيٍّ^(١) يتعرّضُ لعلم العَروض، ذكر أنه شاهده بنصّيين^(٢)، وفيها رجلٌ يعرف بأبي الحسين البصريّ، كان معلماً لبعض العلوية، وكان غلامٌ يختلف إليه يُعرفُ بابنِ الدان، وقد اجتاز الشيخُ بلدنا والواسطيّ يومئذٍ فيه. وقد شاهدت عند أبي أحمد عبد السلام بن الحسين المعروف بالواجكا رحمه الله،^(٣) كتباً عليها سماعُ لرجلٍ من أهلِ حلب، وما أشكُّ أنه الشيخ، أيد الله شخصه بالتوفيق، وهو أشهر علم على الطريق، لا يفتقر إلى تعريف بالأشعار، بل يصدق شرفه في كل الأقطار. قال البكريُّ النّسابة لرؤبة: من أنت؟ قال: أنا ابن العجاج. قال: قصّرت وعرفّت. وإنّما هو في الاشتهار، كما الساطع من ضوء النهار، وكما قال أبو تمام الطائيُّ:

تحميه لألاؤه أو لودّعيتُهُ من أن يُذالَ بمن أو ممّن الرّجلُ

وإن تناسخت الأمم في العصور، فهو عليُّ بن منصور الذي مدحه أبو الطيّب:

في رتبة حجب الورى عن نيلها وعلا، فسّموه عليّ الحاجبا

وأما العلماء الذين لقيهم، فأولئك مصابيحُ بين الأنام، وكواكبُ تبدّد الظلام، وإنّ في النّظر إليهم لشرفاً، فكيف بمن أدركهم ومن بحورهم اغترفا؟ وإنّما أقول ذلك على الاختصار، ولعلّه قد استدرّب حارهم بالقلم والفهم، وفتحوا له أبواب البهيم وهي جمعُ بهمة وهو الأمر الذي لا يُهتدى له، فأخذ عن الكنانيّ سور التّنزيل، وفاز بثواب جزيل، فكأنما لقنّه إيّاه المصطفى الحبيب، وبدون تلك الدرّجة يبلغ الفهم الأريب. وسهّلوا له ما صعب من جبال العربيّة، فصارت وعورة كتاب سيبويه عنده كالسهول والبساتين، وغنيّ في اللّجج عن ركوب السفين.

وأما انحيازه إلى أبي الحسن، رحمه الله، فقد كان ذلك الرّجل سيّداً، ولمن ضعف من أهل

١ نسبة إلى واسط، وهي مدينتان على جانبي دجلة، والمدينة القديمة في الجانب الشرقي، وابتنى الحجاج مدينة في الجانب الغربي. قيل: سميت بواسط لتوسطها بين البصرة والكوفة والمدائن.

٢ مدينة في ديار ربيعة من بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات. كان لها سور حصين، وفيها أسواق عامرة وتجارات، ومياها كثيرة.

٣ عبد السلام بن الحسين بن محمد بن عبد الله البصري، ويلقب بالواجكا اللغوي، صاحب الخط المليح والضبط الفصيح. توفي في المحرم سنة ٣٢٩ هـ. ورد بغداد وحدث بها، وكان صدوقاً عالماً أديباً قارئاً، عارفاً بالقراءات، وكان يتولى النّظر بدار الكتب، وقرأ على أبي علي الفارسي، وأبي سعيد السيرافي.

الأدب مؤيداً، يمنح وداده لمن قوي منهم، ويحارب أعداءهم ويذود عنهم، وكان كما قال القائل:

وإذا رأيتَ صديقَه وشقيقَه لم تَدْرِ أيُّهما أخو الأرحام^(١)
وكما قال أبو تمام الطائي

كُلُّ شِعْبٍ كُنْتُمْ بِهِ آلٌ وَهَبٍ فَهُوَ شِعْبِي وَشِعْبُ كُلِّ أَدِيبٍ

والمثل السائر: على أهلها تجني براقش. وذكر الصولي أنه دخل على المتقي بعدما قتل بنو حمدان محمد بن رائق، فسأله عن أبيات نهشل بن حري^(٢):

وَمَوْلَى عَصَانِي وَاسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ كَمَا لَمْ يُطْعَ بِالْبَقَّتَيْنِ قَصِيرٌ^(٣)
فَلَمَّا رَأَى مَا غَبُّ أَمْرِي وَأَمْرِهِ وَنَاءَتْ بِأَعْجَازِ الْأُمُورِ صُدُورٌ
تَمَنَّى نَيْشاً أَنْ يَكُونَ أَطَاعِنِي وَقَدْ حَدَّثَتْ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورٌ

يقال: فعل كذا نيشاً، أي بعدما فات، قال الشاعر:

وَإِنَّكَ يَا قَطِينُ وَلَسْتَ مِنْهُمْ لِأَلَّامٌ مَالِكٍ عَقِباً ً وَرَيْشاً
تَنَاءَتْ مِنْكُمْ عَدْسُ بْنُ زَيْدٍ فَلَمْ تَعْرِفْكُمْ إِلَّا نَيْشاً

وما زال الشبان يحسبون في أنفسهم القوة، ييغون المكانة العالية الشريفة، ولكنهم لا يتحملون الشدائد العنيفة، والمثل السائر: رأي الشيخ خير من رؤية الغلام. وربما تملكت الطالب حدة، فواجهت من القدر شدة، إن الاكتفاء من العيش، ليغني المجتهد عن البري والریش، أي يبيري سهامه ويركب لها الریش، ولكن لا مفر من القضاء المحتوم، وآه من عمر بالتلف مختوم:

وَسَوْرَةٌ عَلِمَ لَمْ تُسَدِّدْ فَأَصْبَحَتْ وَمَا يَتَمَارَى أَنَّهَا سَوْرَةٌ الْجَهْلِ

وأما حججه الخمس فهو، إن شاء الله، يستغني في المحشر بالأولى منهن، وينظر في المتأخرين من أهل العلم، فلا ريب أنه يجد فيهم من لم يحجج، فيتصدق عليهم بالأربع. وكأنني به ومواكب الحجاج، يرفعون التلبية فيعلو الصوت والعجاج، وهو يفكر في تلبيات العرب، وأنها جاءت على ثلاثة

١ ينسب هذا البيت لإبراهيم بن هرمة ومحمد بن بشير الخارجي وعمير بن عامر وأبي تمام الذي أورده وأبياتاً أخرى في حماسته.
٢ نهشل بن حري بن ضمرة الدارمي، توفي ٤٥ هـ / ٦٦٥ م شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية وعاش في الإسلام، أسلم ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم، وصحب علياً كرم الله وجهه في حروبه. قال ابن سلام الجُمحي: نهشل بن حري شاعر شريف مشهور، من أسرة كلهم شعراء.
٣ قصير بن سعد اللخمي صاحب جذيمة الأبرش الذي غدرت به الزنباة وقتلته وهرب قصير، ثم عاد إليها وقد جدد أنفه، فقالوا: لأمر ما جدد قصير أنفه، وعرف مداخل مدينتها، ثم غزاها مع ابن أخت جذيمة وقتلها، وفي حكايته أقوال كثيرة صارت أمثالا منها آثار من قصير. وبقية موضع بالشام.

أنواع: مَسْجُوعٌ لا وزن له، وَمَنْهُوكٌ، وَمَشْطُورٌ. فالمسجوع كقولهم:

لَبَّيْكَ رَبَّنَا لَبَّيْكَ والخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ

والمنهوك على نوعين: أحدهما من الرَّجْزِ، والآخر من المُنْسَرِحِ، فالذي من الرَّجْزِ كقولهم:

لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكَ وَالْمَلِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ
إِلَّا شَرِيكَ هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَكَ

أَبُو بَنَاتٍ بِفَدَاكَ

فهذه من تلبيات الجاهليَّة، وفَدَاكَ يومئذ فيها أصنام، وكقولهم:

لَبَّيْكَ يَا مُعْطِي الْأَمْرِ لَبَّيْكَ عَن بَنِي التَّمْرِ
جئنَاكَ فِي الْعَامِ الزَّمْرِ نَأْمُلُ غَيْثًا يَنْهَمِرُ
يَطْرُقُ بِالسَّيْلِ الْخَمْرُ

والذي من المنسرح جنسان: أحدهما في آخره ساكنان، كقولهم:

لَبَّيْكَ رَبَّ هَمْدَانُ مِنْ شَاحِطٍ وَمِنْ دَانَ
جئنَاكَ نَبْغِي الْإِحْسَانَ بِكُلِّ حَرْفٍ مِذْعَانَ
نَطْوِي إِلَيْكَ الْغَيْطَانَ نَأْمُلُ فَضْلَ الْغُفْرَانَ

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم:

لَبَّيْكَ عَن بَجِيلَةَ الْفَخْمَةَ الرَّجِيلَةَ
وَنِعْمَتِ الْقَبِيلَةَ جَاءَتْكَ بِالْوَسِيلَةَ
نُؤْمَلُ الْفَضِيلَةَ

وربما جاؤوا به على قوافٍ مختلفة، كما رووا في تلبية بكر بن وائل:

لَبَّيْكَ حَقًّا حَقًّا تَعَبُّدًا وَرِقًّا
جئنَاكَ لِلنَّصَاحَةِ لَمْ نَأْتِ لِلرَّقَّاحَةِ

والرفاحة المتاجرة. والمشطور جنسان: أحدهما عند الخليل من الرّجز، كما روي في تلبية تميم:

لبيك لولا أنّ بَكَرّاً دُونَكَ يشكُرُكَ الناس ويكفُرُونَكَ
ما زال مِنَّا عَثَجٌ يَأْتُونَكَ

والعثج: الجماعة من الناس. والآخر من السريع وهو نوعان: أحدهما يلتقي فيه ساكنان كما يروون في تلبية همدان:

لَبَيْكَ مَعَ كُلِّ قَبِيلٍ لَبُّوكَ هَمْدَانُ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ تَدْعُوكُ
قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسْمَعْ دُعَاءَ فِي جَمِيعِ الْأَمْلُوكِ

قولهم: لبُّوك، أي لزموا أمرك، ومن روى: لبُّوك، فهو سِنَادٌ مكروه. والمشطور الذي لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم:

لَبَيْكَ عَنِ سَعْدٍ وَعَنِ بَنِيهَا وعن نساءٍ خلفها تغنيها
سارتُ إلى الرَّحْمَةِ تَجْتَنِيهَا

والموزون من التلبية يجب أن يكونَ كلُّه من الرّجز عند العرب، ولم تأتِ التلبية بالقصيد. ولعلهم قد لبُّوا به ولم تنقله الرواة. وكأني به، أطال الله زينة الوجود ببقائه، لما اعتزم استلام الركن، ذكر البيتين اللذين ذكرهما المفجع في حدِّ الإعراب:^(١)

لو كان حَيًّا قَبْلَهُنَّ ظَعَائِنًا حَيًّا الْحَطِيمُ وَجُوهُهُنَّ وَزَمْرُ
لكنَّه عَمَّا يُطِيفُ بِرُكْنِهِ مِنْهُنَّ صَمَاءُ الصَّدَى مُسْتَعْجِمُ

وكذلك يذكر قول الآخر:^(٢)

ذَكَرْتُكَ وَالْحَجِيجُ لَهُ عَجِيجُ بِمَكَّةَ وَالْقُلُوبُ لَهَا وَجِيبُ
فَقُلْتُ وَنَحْنُ فِي بَلَدٍ حَرَامٍ بِهِ لِلَّهِ أَخْلَصَتِ الْقُلُوبُ
أَتُوبُ إِلَيْكَ يَا رَبَّاهُ مِمَّا جَنَيْتُ فَقَدْ تَظَاهَرَتِ الذُّنُوبُ
فَأَمَّا مِنْ هَوَى لَيْلَى وَحُبِّي زيارَتَها، فَإِنِّي لا أَتُوبُ

١ المفجع محمد بن محمد بن عبد الله البصري النحوي من كبار النحاة، كان شاعراً مفلحاً وبينه وبين ابن دريد مهاجرة، وصنف كتاب التمران وعرائس المجالس والمتقدمين في الأيمان، توفي سنة ٢٢٠هـ.

٢ الأبيات لمجنون ليلى

فيقول: أليس قال البصريون إنَّ هاء النُّدْبَة لا تثبَّت في الوصل، والهاء في قوله: يا ربَّاه، مثل تلك الهاء ليس بينهما فرق؟ ولكن يجوز أن يكون مغزاهم في ذلك المنشور من الكلام، إذ كان المنظوم يحتمل أشياء لا يحتملها سواه. ولعلَّه قد ذكر هذه الأبيات في الطَّواف:

أَطَوَّفُ بِالْبَيْتِ فَيَمَنُ يُطَوِّفُ وَأَرْفَعُ مِنْ مِئْزَرِي الْمُسَبِّلِ
وَأَسْجُدُ بِاللَّيْلِ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَتْلُو مِنَ الْمُحْكَمِ الْمُنَزَّلِ
عَسَى فَارِجُ الْكَرْبِ عَن يُوسُفِ يُسَخِّرُ لِي رَبَّةَ الْمَحْمَلِ

فقال: ما أيسرَ لفظَ هذه الأبيات، لولا أنَّه حذفَ أن من خبرِ عسى، فسبحان الله، لا تعدمُ الحسنةَ ذاماً^(١)، وأبي الرجال المَهْدَبُ^(٢).

وذكر عند النَّفْرِ وتفرَّقِ الناس هذين البيتين:^(٣)

جَدَّدِي الْوَصَلَ يَا سُكَيْنَ وَجُودِي لِمَحِبِّ فِرَاقُهُ قَد أَحْمَا
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَرُدُّوا جِمَالَهُمْ فَتَزَمَا

وقول قيس بن الخطيم:^(٤)

دِيَارَ الَّتِي كَادَتْ وَتَحْنُ عَلَيَّ مِنْيَ تَحُلُّ بِنَا لَوْلَا نَجَاءُ الرِّكَائِبِ
وَلَمْ أَرَهَا إِلَّا ثَلَاثًا عَلَيَّ مِنْيَ وَعَهْدِي بِهَا عَذْرَاءُ ذَاتُ دَوَائِبِ
تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ عَمَامَةٍ بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَصَنَّتْ بِحَاجِبِ

وميَّز بين هذين الوجهين في قوله: تحلُّ بنا، لأنَّه يحتمل أن يكون: تحلُّ فينا، وقد يجوز أن يريد: تحلُّنا، كما يقال: أنزل بنا هاهنا، أي أنزلنا، ومنه قوله:

كما زلَّت الصَّفَواءُ بِالْمُنْتَزَلِ^(٥)

١ الأبيات لإسماعيل بن جامع بن إسماعيل، ويعرف بابن جامع. كان قد قرأ القرآن وسمع الحديث، ثم ترك ذلك واشتغل بالغناء. وقال صاحب الأغاني: كان

ابن جامع أحسن المغنين في أيامه صوتاً وأقواهم طبعاً وأصحهم صنعة.

٢ لا تعدم الحسنة ذاماً: مثل مشهور، معناه لا يخلو أحد من شيء يعاب به.

٣ أي الرجال المهذب: من بيت للناطقة الذبياني من قصيدة بلغت اثني عشر بيتاً، وهي إحدى اعتذاريات النابغة للنعمان بن المنذر:

وَلَسْتُ بِمُسْتَبَقٍ أَحَا لَا تَلْمُهُ عَلَيَّ شَعَثِ أَبِي الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ

٤ قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي المتوفى ٢ ق. هـ / ٦٢٠ م. شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية. أول ما اشتهر به تتبعه قاتلتي أبيه وجدته حتى

قتلتهما، وقال في ذلك شعراً. أدرك الإسلام، وتريث في قبوله، فقتل قبل أن يدخل فيه.

٥ قوله هذا من بيت لامرئ القيس

كَمَّيْتُ يَزُلُّ اللَّبْدُ عَن حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفَواءُ بِالْمُنْتَزَلِ

وإن كانت الحَجَجُ التي أتى بها مع مجاورةٍ، فقد أقام بمكة حتى صار أعلمَ بها من الغراب بوكِّره،
والقطاة بمواضع بيضها، والحرباء بمأواها بين الشجر.

وإن كان سافر إلى اليمن أو غيره، وجعل يحجُّها في كلِّ سنة، فذلك أعظم درجة في الثواب،
وأجدر بالوصول إلى مغفرة التَّوَّاب. ولعلَّه قد وقف بالمغمَّس^(١) وترحَّم على طفيل الغنوي لقوله:^(٢)

هَلْ حَبِلَ شَمَاءَ بَعْدَ الْهَجْرِ مَوْصُولٌ أَمْ أَنْتَ عَنْهَا بَعِيدُ الدَّارِ مَشْغُولٌ؟
إِذْ هِيَ أَحْوَى مِنْ الرُّبْعِيِّ حَاجِبُهُ وَالْعَيْنُ بِالْإِنْتِمِدِ الْحَارِيِّ مَكْحُولٌ
تَرَعَى مَنَابِتَ وَسْمِيٍّ أَطَاعَ لَهَا بِالْجِرْعِ حَيْثُ عَصَى أَصْحَابَهُ الْفَيْلُ^(٣)

وإنما أطلقت التَّرحُّمَ على طفيلٍ إذ كان بعض الرواة يزعم أنه أدرك الإسلام، ورُوِيَ له مدحٌ في
النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم أسمع في ديوانه^(٤):

وَأَبِيكَ حَايِرٌ إِنْ إِبْلَ مَحَمَّدٍ عَزُزُّ تَنَاوُحٍ أَنْ تَهَبَّ شَمَالُ
وَإِذَا رَأَيْتَ لَدَى الْفِنَاءِ غَرِيبَةً فَاصْتِ لَهْنًا مِنَ الدُّمُوعِ سِجَالُ
وَوَرَى لَهَا حَدَّ الشِّتَاءِ عَلَى الثَّرَى رَخْمًا وَمَا تَحْيَا لَهْنًا فِصَالُ

وأنشد أبيات ابن أبي الصَّلْتِ التَّقْفِيّ:^(٥)

إِنَّ آيَاتِ رَبَّنَا ظَاهِرَاتٌ مَا يُمَارِي فِيهِنَّ إِلَّا الْكَفُورُ
حَبَسَ الْفَيْلَ بِالْمُغَمَّسِ حَتَّى ظَلَّ يَحْبُو، كَأَنَّهُ مَعْقُورُ
كُلُّ دِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ الـ لَهُ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ بُورُ

١ المغمَّس: موضع في طرف الحرم، فيه برك فيل أبرهة حين توجه به إلى مكة لهدم الكعبة.

٢ تختلط هذه الأبيات مع أبيات قصيدة مطولة تبلغ واحداً وثمانين بيتاً من شعر عبدة بن الطبيب مطلعها:

هَلْ حَبِلَ حَوْلَةَ بَعْدَ الْهَجْرِ مَوْصُولٌ أَمْ أَنْتَ عَنْهَا بَعِيدُ الدَّارِ مَشْغُولٌ

حَلَّتْ حَوْلَتُهُ فِي دَارِ مُجَاوِرَةٍ أَهْلُ الْمَدَائِنِ فِيهَا الدَّيْكَ وَالْفَيْلُ

٣ طفيل بن عوف بن كعب بن قيس عيلان، توفي ١٣ ق. هـ / ٦٠٩ م. شاعر جاهلي، فحل، من الشجعان وهو أوصف العرب للخيال وربما سمي (طفيل الخيل) لكثرة وصفه لها.

٤ لكن الأبيات موجودة في ديوان الطفيل

٥ أمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، توفي ٥ هـ / ٦٢٦ م شاعر جاهلي، حكيم، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان، ورحل إلى البحرين فأقام ثماني سنين ظهر في أشائها الإسلام. وعاد إلى الطائف فسأل عن خير محمد صلى الله عليه وسلم، وقدم مكة وسمع منه آيات من القرآن وسألته قريش رأيه فقال: أشهد أنه على الحق. قالوا: فهل تتبعه؟ فقال: حتى أنظر في أمره. ثم خرج إلى الشام وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة وحدث وقعة بدر، وعاد أمية يريد الإسلام، فعلم بمقتل أهل بدر وفيهم ابنا خال له فامتنع وأقام في الطائف إلى أن مات.

وما عدم أن تخطر له أبيات نفيل:^(١)

ألا حُيِّتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا نَعْمَنَاكُم مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا
رُدَيْنَةَ لورَأَيْتِ، وَلَنْ تَرِيهِ أَلَا حُيِّتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا
إِذَا لَعَذَّرْتَنِي وَرَضَيْتِ أَمْرِي وَلَمْ تَأْسِي عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَا
حَمِدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا وَحَصَبَ حِجَارَةٍ تُلْقَى عَلَيْنَا
وَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَن نُّفَيْلٍ كَأَنَّ عَلِيَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا

وليت شعري أقرن بين الحج والعمرة أم أفرد؟ وأرجو أن لا تكون لقيته بمكة عجوز تعرض عليه فتوى ابن عباس، حلف ما بها من باس، فتذكر قول القائل:

قالت وقد طُفْتُ سَبْعًا حَوْلَ كَعْبَتِهَا: هل لك يا شيخُ في فُتْيَا ابْنِ عَبَّاسٍ؟
هل لك في رَخْصَةِ الْأَطْرَافِ نَاعِمَةً تُمَسِّي ضَجِيعَكَ حَتَّى مَصْدَرِ النَّاسِ

وكأني به وقد مرَّ بأنطاكية، فذكر قول امرئ القيس:

عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةٍ فَوْقَ عَقْمَةٍ كَجِرْمَةٍ نَخْلٍ أَوْ كَجَنَّةٍ يَثْرِبِ

وأما صديقه الذي أفحش عند الخصام، فهو يعرف المثل: أعرض عن ذي قبر، إذا حجرت دون الشخص الأرض، فقد نجا بالطول والعرض، ومن تحمل اللوم في حياته، استحق المعذرة في مماته، ولعله نطق بما نطق في معنى انشراح، لا يقصد بكلامه أن ينكأ الجراح، ومن غفر ذنب حي وهو موفور المهابة، فكيف لا يغفر له بعد الميتة وهو أضعف من ذبابة؟ وسلام على قبر من مخاتل، يعدل ألف تسليم في المحافل، وهو يعرف ما قالوه في معنى البيت:^(٢)

وَأْتِي صَاحِبِي حَيْثُ وَدَّعَا

أَيُّ أَزُورُ قَبْرِهِ.

١ نفييل بن حبيب الخثعمي قاتل أبرهة فهزمه أبرهة وأخذه نفييل أسيراً فلما هم بقتله قال نفييل لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب.
٢ - هذا القول من بيتين ذكرهما المرزوقي في «شرح ديوان الحماسة» ونسبهما إلى «مزعر» ولم نجد له أي ترجمة أو أشعار أخرى:

وَأْتِي لِأَسْدِي نِعْمَتِي ثُمَّ أَبْتَنِي لَهَا أُخْتَهَا حَتَّى أَعْلَّ فَأَشْفَعَا
وَأَجْعَلُ نِعْمِي مَا فَهَلَّتْ ذِمَامَةٌ عَلَيَّ وَأَتِي صَاحِبِي حَيْثُ وَدَّعَا

وأما الذي أنكره، فمولاي الشيخ مكرّر في الأدب تكرير الحسن والحسين في آل هاشم، والوشم المزخرف بكف الواشم، وهل يعجب لغناء من حمامة، أو قطرة تسبق الغيث من غمامة؟ ولو بارى الخزامى بأريجها، لجاز أن يسبق ما تفتح من أكمامها، أو البروق اللامعة لجا بريقه سابقاً أمامها. وفي الناس من يكون طبعه المخاصمة، فيؤذي الجليس، وينفّر الأنيس، وهو يعلم أنه فاضل، لا يباريه في الرمي مناضل.

ابن خالويه

وأما أبو عبد الله بن خالويه وإحضاره للبحثِ النَّسْخِ، فإنه ما عجزَ ولا أفسَحَ، أي نسي، ولكن الحازمَ يريد أن يكون الأمين، ويزيد على الشهادة الثانية اليقين:

أرى الحاجاتِ عند أبي خُبَيْبٍ نَكِدَنَّ وَلَا أُمِّيَّةَ فِي الْبِلَادِ^(١)

أين كأبي عبد الله؟ لقد عدمه الشَّامُ! فكان كَمَكَّةَ إذ فقدت هشام، عنيت هشامَ بن المغيرة، لأنَّ الشاعر رثاه فقال:^(٢)

فأصْبَحَ بطنُ مَكَّةَ مُفْشَعِرًا كأنَّ الأرضَ ليسَ بِهَا هِشَامُ^(٣)
يظُلُّ كأنَّه أثناءُ سَوِطٍ وفوقَ جفانِهِ شَحْمٌ ركامُ
فَلِلْكَبْرَاءِ أَكَلٌ كَيْفَ شَاؤُوا وَلِلصُّغْرَاءِ حَمْلٌ وافْتِثَامُ

وأبو الطيب اللُّغوي اسمه عبد الواحد بن عليٍّ، له كتابٌ في الإتياع صغير على حروف المعجم في أيدي البغداديين، وله كتابٌ يعرف بكتاب الإبدال، قد نحا به نحو كتاب يعقوب في القلب، وكتابٌ يعرف بشجر الدرِّ، سلك به مسلك أبي عمر في المداخل، وكتابٌ في الفرق قد أكثر فيه وأسهب. ولا شكَّ أنه قد ضاع كثيرٌ من كتبه وتصنيفاته، لأنَّ الروم قتلوه وأباه في فتح حلب.

وكان بين أبي الطيب اللُّغوي وأبي العباس بن كاتب البكتمريِّ مودَّةٌ ومؤانسةٌ، وله يقول:

يا عبدُ إنَّكَ عِنْدَ الْقَلْبِ جَنَّتُهُ حُبًّا، وَإِنَّكَ عِنْدَ الطَّرْفِ نَاطِرُهُ
أَزْمَعْتَ سَيْرًا، فَقُلْ مَا أَنْتَ قَائِلُهُ واذكُرْ لِرَاعِي الْهَوَى، مَا أَنْتَ ذَاكِرُهُ
لَا أَشْتَكِي سَهْرًا طَالَتْ مَسَافَتُهُ اللَّيْلَ يَعْلمُ أُنَى الدَّهْرِ سَاهِرُهُ

١ عبد الله بن الزبير الأسدي المتوفى ٧٥ هـ / ٦٩٥ م. شاعر من الكوفة من المشهورين بالهجاء، كان مرهوب اللسان كثير الهجاء سريع الغضب كثير التقلب.
٢ الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي من قريش توفي ٨٠ هـ / ٦٩٩ م شاعر غزل، من أهل مكة، نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة وكان يذهب مذهبه، لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء.

٣ كانت بنو مخزوم تسمى ربيعة قريش، وكان هشام بن المغيرة المخزومي جواداً سيِّداً. وكانوا يؤرخون بثلاثة أشياء، يقولون: كان ذلك زمن بناء الكعبة، وعام الفيل، وعام موت هشام. ولم أجد في غير رسالة الغفران سوى هذا البيت.

قوله: يا عبد، يريد: يا عبد الواحد، كما قال عديُّ بن زيد في الأبيات الصادية التي مضت:

غُيِّبَتْ عَنِّي عَبْدُ فِي سَاعَةِ الْـ شَرِّ وَجُنَّبْتُ أَوَانَ الْعَوِيصِ

يريد عبد هند. وقد كان أبو الطيب يتعاطى شيئاً من النظم.

في معرة النعمان

وقد علم الله أني لا في العير ولا في النفير^(١)، ومَن لجاني الرُّطَب بالتَّبْكير؟ كَلِّمًا رَغبت في الخُمول، قُدِّر لي غير المأمول، كان حقُّ الشَّيخ إذ أقامَ في معرَّة النُّعمان سنةً أن لا يسمَع لي بذكر، ولا أخطُر له على فكر، والآن فقد غمَرني بالأفضال، وأظنني دوحُ أدبه بوارف الظلال، وجاءتني منه فرائدٌ لو تمثَّلت الواحدة منها دُرَّة، لم يَفُقها تاج كسرى شهرة، ولاستغنى بثمنها رهط من الرجال، وضاق عن وصفها المجال، ينظر منها الناظرُ إلى جوهرة، تعدل جنةً مزهرة.

وهو، أدام الله عزَّ الأدب بحياته، كريم الطَّبَع والكريمُ يُخدع، ومن سمعَ جازَ أن يتصوَّر، وليس صُمُّ الصخر كالجواهر.

وأما ما ذكره من ميله في مصرَ إلى بعض اللذات، فهو يعرفُ الحديث: أريحوا القلوبَ تعِ الذُّكر. وقال أحيحة بن الجلاح:^(٢)

صَحَوْتُ عَنِ الصِّبَا وَالذَّهْرُ غَوُّ وَنَفْسُ الْمَرْءِ آوَنَةٌ مَلَوُّ

وكان ينبغي أن يكونَ في هذا الوقت يضبط ما معه من الأدب بدرسٍ من يدرُسُ عليه، والتقدم في السنِّ له تأثير، ويرمي بالنقص كلَّ كثيرٍ، والقطرة الواحدة قد تُغْرِق، وما حمى من البردِ قد يُحْرِق، وقال رجلٌ من قريش:

لِلَّهِ دَرِّي حِينَ أَدْرَكَنِي الْبَلَى عَلَى أَيِّمَا تَأْتِي الْحَوَادِثُ أُنْدَمُ؟
أَلَمْ أُجْتَلِ الْبِيضَاءَ يَبْرُقُ حِجْلُهَا لَهَا بَشَرَّ صَافٍ وَوَجْهٌ مُقَسَّمُ؟
وَلَمْ أَصْطَبِحْ قَبْلَ الْعَوَادِلِ شَرِبَةً مُشْعَشَعَةً كَأَنَّ عَاتِقَهَا الدَّمُ

١ مثل مشهور. والعير: الإبل تحمل التجارة، ويعنى به هاهنا عير قريش التي خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخذها، ووقعت وقعة بدر لأجلها، والنفير يعنى به وقعة بدر، وذلك أن كل من تخلف عن العير وعن النفير لبدر من أهل مكة كان مستصفرًا حقيرًا فيهم، ثم جعل مثلًا لكل من هذه صفته.

٢ أحيحة بن الجلاح الأوسي المتوفى ١٢٩ ق. هـ / ٤٩٧ م شاعر جاهلي، من دهاة العرب وشجعانهم. كان سيد يثرب، وكان مرابياً كثير المال وله حصن فيها وحصن في ظاهرها، ومزارع وبساتين ومال وفير، ولم يبق إلا القليل من شعره.

ولعلّه قد قضى الأرب من ذلك كله، والأشياء لها أواخر، وإنّما العاجلة سرابٌ ساخر، وقد عاشر
 ملوكاً ووزراء، فلا منقصة ولا إزراء، وقد سمع نبا النعمان الأكبر، إذ فارق ملكه فراق غير مضطر،
 واستعاض عن الحرير بالمسوح، ورغب في أن يسوح، وإياه عنى عدي بن زيد العبادي في قوله:

وتذكّر ربّ الخوّزنتي إذ فكّ
 ر يوماً وللهدي تفكير
 سرّه ملكه وكثره ما يم
 ليك والبحر معرضاً والسدير
 فازعوى جهله فقال: وما غب
 طة حّي إلى الممات يصير؟

والسكر محرّم في كل الأديان والملل، ويقال: إنهم في الهند لا يملكون عليهم رجلاً يشرب
 مسكراً، لأنهم يرونه منكراً، ويقولون: يجوز أن يحدث في المملكة أمر، ويقصدون الملك، فإذا الملك
 المتبّع تعتعه السكر.

لُعنَت الخمر التي لأنها تقهوه عن الطعام سمّوها القهوة، فكم تهبط بعزائم الرجال وتجعلها
 رخوة، ولا خير في الخمر، ثوطيء على مثل الجمر. من شربها صباحاً، لم ينل في يومه ربحاً، ومن
 شرب أم ليلى وهو اسم للخمر، فقد جرّ في الباطل ذيلاً. ومن أسمائها أم زنبق، ومن أغري بها باء
 بالخدلان المطبّق. ومن أسمائها الراح، فمن حمل بالراحة راحاً، فقد أرخى للغواية سراحاً. وهي
 العقار، فمن رضي بصحبة العقار، فقد خلج ثوب الوقار. وهي القرقف فمن أدمن القرقف، فليس
 له بين العقلاء موقف. وهي الخرطوم، فمن أولع بالخرطوم، رجع إلى حال المفطوم. وهي العاني،
 والمواظبة على العاني، تمنع بلوغ الأمان. وهي السبيئة، والخيبة لكل سبيئة، تُخرج من الأسرار كل
 خبيئة. وهي الكميت، ولا فائدة في الكميت، جعلت حيها مثل الميت. ومن أسمائها الصرخدي،
 ومن ابتلي بالصرخدي، لم يكن من الفاضحة بالمفدي. وما أخون عهد السلاف، تنقض وثيق
 الأحلاف. أما السلافة، فهي سلّ وآفة. كم شاب في بني كلاب، مات

فجاءة، وما بلغ من الدنيا هناءة! رماه بداء قاتل، إدمان المعتقة ذات المخاتل. وهي الشمول،
 فمن أدمن الشمول في دنياه، لا نظر له كأنما فقت عيناه. كم عود في حزن قينة في مجلس
 شراب، عصف بعقول ذوي الأبواب. وكم وكم من مزهر، أوقع هاجداً في السهر!

وهو يعرف أبيات المتنخل:

مما أقضي ومحار الفتى
 للضبع والشيبة والمقتل

إِنْ يُؤْسِ نَشَوَانَ بِمَضْرُوفَةٍ مِنْهَا بِنْيَاءٍ وَعَلَى مِرْجَلِ
لَا تَقَهِ الْمَوْتَ وَقَيَّاتُهُ خُطَّ لَهُ ذَلِكَ فِي الْمَحْبَلِ

وينبغي أن يُزهدَه في الصَّهَاءِ الصَّافِيَةِ، أن نَدَامَاه الأَكْرَمِينَ أَصْبَحُوا فِي الْقُبُورِ الْعَافِيَةِ. كم جلس مع فتیان، أتى عليهم الزَّمْنُ كُلُّ الْإِتْيَانِ، فكان كما قال الجعديُّ:

تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيحُ لِي الْهَوَى وَمِنْ حَاجَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْدِرِ بْنِ مُحَرَّرِي فَأَصْبَحَ مِنْهُمْ ظَاهِرُ الْأَرْضِ مُقْفِرَا

وهو يعرف الأبيات التي أولها: ^(١)

خَلِيلِيَّ هُبًّا طَالَ مَا قَدْ رَقَدْتُمَا أَجِدَّكُمَا لَا تَقْضِيَانِ كِرَاكُمَا؟

وهل يعجز أن يكون كما قال الآخر:

أَمَّا الطَّلَاءُ فَإِنِّي لَسْتُ ذَائِقَهَا حَتَّى الْأَقْيَ بَعْدَ الْمَوْتِ جَبَّارَا

كأنه كان نديمه على الطَّلَاءِ، فلما رماه التَّلْفُ من غيرِ بلاءٍ، حرَّم على نفسه شربها، حتى تُسْكِنَه الأَرْضُ تُرْبَهَا.

١ قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك المتوفى ٢٣ ق.هـ / ٦٠٠ م خطيب العرب وشاعرها وحليمتها وحكيمةها في عصره، كان أسقف نجران، ويقال إنه أول من علا على شرفٍ وخطب عليه، وأول من قال: أما بعد، وكان مؤمناً باللَّهِ والبعث، وقد رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعكاظ، وقد نقل الرسول عنه كلاماً، وقال عنه (يرحم الله قساً إنني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحدهم)

دنانير الذهب وفيها العجب

وسرّرتي عودةُ الدنانير إليه، فتلك أعوانٌ، تُشْتَبَه منها الألوان، ولها على النَّاسِ حقوقٌ، وهي الباردةُ إن سادَ العقوق. قال عمرو بن العاص لمعاوية: رأيتُ في النَّومِ أن القيامةَ قد قامتْ وجيءَ بك وقد أَلْجَمَكَ العَرَقُ، فقال معاوية: هل رأيتَ ثمَّ من دنانيرِ مصرَ شيئاً؟ وهذه لا ريب من دنانير مصر، فالحمد لله الذي سلّمها إلى هذا الوقت، ولم تكن كذهبٍ مخزونٍ، صار إلى الخمارة مع الموزون:^(١)

وَحَمَارَةٌ مِنْ بَنَاتِ الْمَجُوسِ تَرَى الزَّقِّ فِي بَيْتِهَا شَائِلًا
وَزَنًا لَهَا ذَهَبًا جَامِدًا فَكَالَتْ لَنَا ذَهَبًا سَائِلًا

ولا ألغز عنها هذا البيت:

دَنَانِيرُنَا مِنْ قَرْنِ ثَوْرٍ، وَلَمْ تَكُنْ مِنْ الذَّهَبِ الْمَضْرُوبِ بَيْنَ الصَّفَائِحِ
لَوْ رَأَاهَا الْمُرَقِّشُ لَعَلِمَ أَنَّهَا أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ أَحَبَّتِهِ، لَمَّا غَدَا الطَّاعِنُ بِصَحْبَتِهِ، فَقَالَ:
النَّشْرُ مِسْكٌ وَالْوَجُوهُ دَنَا نِيرٌ، وَأَطْرَافُ الْأَكْفِ عَنَمِ

وإنها لأحسنُ من الوجوه التي ذكرها الجعدي، وزعم أن حسنها بدي، فقال:^(٢)

فِي وَجْهِهِ شُمَّ الْعَرَانِينَ أَمْثَا لِ الدنانيرِ شُفْنِ بِالْمِثْقَالِ

أخذت من جوائز كرام صيد، تارةً بالخدمة وتارةً بالقصيد، ولم تكن في العيدية مرهنتٍ، ولا عند الغرض موهناتٍ، كما قال ردّاد الكلابي:^(٣)

١ البيتان لابن المعتز وسبقت ترجمته

٢ النابغة الجعدي

٣ ردّاد الكلابي. شاعر إسلامي من بني كلب بن وبرة بن تغلب، ويرد اسمه في بعض المصادر: رداذ.

ظَلَّتْ تَجُوبُ بِهِ الْبِلْدَانُ نَاجِيَةً عِيدِيَّةٌ أُزْهِنَتْ فِيهَا الدَّنَائِرُ

وهي عند أصحاب الألفهام النقيات، أجود من الخاتم الذي ذكره ابن قيس الرقيات، فقال: ^(١)

إِنْ حُتِمَتْ جَارَ طِينٍ خَاتِمِهَا كَمَا تَجُوزُ الْعَبْدِيَّةُ الْعُتُقُ

أراد بالعبدية دنانير نسبها إلى عبد الملك بن مروان، ويقال إنه أول من ضرب الدنانير في الإسلام.

وجلت عن نقد الصيرفي، وهي الرواجح لدى الميزان الوفي، حاشاً لله أن تكون كما قال الفرزدق:

تَنْفِي يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْيِ الدَّنَائِرِ تَنْقَادُ الصَّيَارِفِ

وهذا البيت يُنشد على وجهين: الدنانير والدراهم.

ولا هي من دنانير أيلة، باع بها البائع نخيله، وإنما ذكروا دنانير أيلة لأنها كانت في حيز الروم فتأتيها الدنانير من الشام، قال: ^(٢)

فَمَا هَبْرَزِيٍّ مِنْ دَنَائِرِ أَيْلَةٍ بِأَيْدِي الْوُشَاةِ نَاصِعٌ يَتَأَكَّلُ

الوشاة: النقاشون الذين يُوشونه. ولو رآها الضبي محرز ^(٣)، لشهد أنها حين تبرز، أجل من تلك القسمات، وإن كانت في أوجه ذات سمات، قال:

كَأَنَّ دَنَائِرًا عَلَى قَسَمَاتِهِمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ شَفَّ الْوَجُوهَ لِقَاءُ

ولو أخذ مثلها النَّادمُ على بيع كَمَيْتِهِ، لسكنت البهجة في خَلْدِهِ وَبَيْتِهِ، ولم يأسف أن عَوْضَ حِمَارًا مِنْ فَرَسٍ، وَلَوْجَدَ عَلَى الشُّكُوى ذَا خَرَسٍ، ولم يقل:

نَدِمْتُ عَلَى بَيْعِ الْكَمَيْتِ، وَإِنَّمَا حَيَاةُ الْفَتَى هَمٌّ لَهُ وَخَسَارُ

١ عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك من بني عامر المتوفى ٨٥ هـ / ٧٠٤ م شاعر قريش في العصر الأموي. خرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان، ثم انصرف إلى الكوفة بعد مقتل ابني الزبير (مصعب وعبد الله) ثم لجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فسأل عبد الملك في أمره، فأمنه، فأقام إلى أن توفي. أكثر شعره الغزل والنسيب، وله مدح وفخر. ولقب بابن قيس الرقيات لأنه كان يتغزل بثلاث نسوة، اسم كل واحدة منهن رقية.

٢ أَيْحِيَّةُ بِنُ الْجَلَّاحِ وَسَبِقَتْ تَرْجَمَتَهُ

٣ مُحْرَزُ بْنُ الْمُكْبِرِ الضُّبِّيِّ. شاعر جاهلي من بني ربيعة بن كعب من ضبة مجهول الولادة والوفاة، وفي الحماسة لأبي تمام، قصيدة له، يخاطب بها بني عدي بن جندب، وكان جارا لهم، ونُهبت إبله فلم ينجده.

وَمَا أَنَا بِالْدَنَانِيرِ سَائِمِي
وَقَالَتْ: أَتَمَّ الْبَيْعِ وَاشْتَرِ غَيْرَهُ
فَأَنْفَقْتُ فِيهِمْ مَا أَخَذْتُ وَلَمْ يَزَلْ
إِلَى أَنْ تَدَاعَى الْجُنْدُ بِالْغَزْوِ وَأَنْجَلَتْ
وَأَعُوزَنِي مُهْرٌ يَكُونُ مَكَانَهُ
وَسَارَ عَلَى الْخَيْلِ الْمَغْذَى صُحْبَتِي

أَصَاخَتْ وَهَشَّتْ لِلْبَيْاعِ نَوَاوِرُ
فَحَوْلَكَ فِي الْمَشْتَى بَنُونَ صِغَارُ
لَدَيَّ شَرَابٌ رَاهِنٌ وَقَتَارُ
غُيُومٌ شِتَاءٍ سُحْبُهُنَّ غِزَارُ
كَأَنْ لَيْسَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ مِهَارُ
وَسِرْتُ وَتَحْتِي لِلشَّقَاءِ حِمَارُ^(١)

وقال آخر:

وَقُبْضَةٌ مِنْ دَنَانِيرٍ غَدَوْتُ بِهَا
وَلَمْ يَزَلْ تَمَّ يَسْقِينَا وَيَأْخُذْهَا

لِلدُّسْكَرِيِّ وَحَوْلِي فِتْيَةٌ سُمُحُ
حَتَّى اسْتَقَلَّ بِمَا فِي الصُّرَّةِ الْقَدَحُ

ولو كان الشيخ أدرك من تقدم من الملوك، لكان لكل واحد منها كالذي قال فيه القائل:

وَأَصْفَرَ مِنْ ضَرْبِ دَارِ الْمُلُوكِ
يَلُوحُ عَلَى وَجْهِهِ جَعْفَرُ
يَزِيدُ عَلَى مَائَةٍ وَاحِدًا
إِذَا نَالَهُ مَعْشَرٌ أَيْسَرُوا

ودنانيره، بإذن الله، محجوبات، ما هنَّ بالغش مشوبات.

والإتقان من شيمه، فلا يدفع إلى مُدَابِنِ شَيْئًا مِنْ عَيْمِهِ أَي خَيْرٍ مَا لَدَيْهِ، وفي الكتاب العزيز: «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا»^(٢) وهذا قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وقد كان في زمانه من يشعر بالحرَج، والتُّسْكُ له عابِقُ الأَرْجِ، فأما اليوم فلو أَمِنَ كِتَابِيَّ عَلَى فِلْسٍ زَائِفٍ، لِأَسْرَعِ إِلَيْهِ الظَّنِّ إِسْرَاعِ الرِّمِيِّ الطَائِفِ، والرِّمِيُّ ههنا سَحَابٌ سَرِيعِ الْإِنْقِشَاعِ، مِنْ قَوْلِ الْهَذَلِيِّ:^(٣)

هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ
رِجَالٌ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ

وما عنيت بالكتابي، مَنْ نُسِبَ إِلَى إِنْجِيلٍ وَتَوْرَةٍ، دُونَ مَنْ نُسِبَ إِلَى الْقُرْآنِ وَفِيهِ أَكْرَمُ الْآيَاتِ.

على أنه لا بدَّ من أمانةٍ مفترقة في البلاد، تراها في الخيَّرين من العباد، وإنَّها في الآخرة لأشرف،

١ لم أجد هذه الأبيات والتي تليها وأبياتاً أخرى كثيرة في دواوين الشعر ولا في الكتب الجامعة، ويحتمل هذا أحد ظنين: إما أن تكون من دواوين وكتب كانت

تحت يد المعري وفقدت، أو أن تكون من أشعار المعري نفسه، ولعله نظمها للرسالة دون أن تكون في دواوينه.

٢ الآية ٧٥ من سورة آل عمران.

٣ البيت من أبيات لأبي جُنْدَبِ الْهَذَلِيِّ، وهو أخو أبي خراش الْهَذَلِيِّ، وهم عشرة إخوة كانوا أصحاب شرٍّ ومن العدائين المشهورين.

وهي الماسحة لما يُقْتَرَف، فكل واحدٍ منها دينارٌ أَعَزَّةٌ، يعثُ الكريم على الهزَّة، كما قال سحيم:^(١)

تُرِيكَ غَدَاةَ الْبَيْنِ كَفَاءً وَمِعْصَمًا وَوَجْهًا كَدِينَارِ الْأَعَزَّةِ صَافِيَا

ولو نظر إليه قيس بن الخطيم لما شبَّه به وجه كَنُودٍ بالنعمة كافرة، بل جعله من أنصر جنوده
وشدَّ به أوأصره، ولم يسمح أن يقول:

صَرَمَتِ الْيَوْمَ حَبْلَكَ مِنْ كَنُودَا لِتُبَدَلَ حَبْلَهَا حَبْلًا جَدِيدَا
عَشِيَّةً طَالَعَتْ فَأَرْتُكَ قَصْرًا مَحَاسِنَ فَخْمَةٍ مِنْهَا وَجِيدَا
وَوَجْهًا خَلْتُهُ لَمَّا بَدَا لِي غَدَاةَ الْبَيْنِ دِينَارًا نَقِيدَا

ولمثلة قصد ربيعة بن المكدَّم،^(٢) لما أيقن بحتفٍ مقدَّم، فقال:

شُدِّي عَلَيَّ الْعَصَبَ أُمَّ سَيَّارٍ فَقَدْ رُزِيَتْ فَارِسًا كَالدَّيْنَارِ

وكلُّ دينارٍ من هذه الصُّفر المباركة، أبلغ في قضاء الحاجة من دينارٍ الذي اختاره للمأربة قائل
هذا البيت:

هَلْ أَنْتَ بَاعْتَ دِينَارًا لِحَاجَتِنَا أَوْ عَبْدَ رَبِّ أَحَا عَوْنِ بْنِ مِخْرَاقٍ

وهذا البيت يتداوله النحويون، وزعم بعض المتأخرين من أهل العلم أنه مصنوع، وهذا أقرب
إلى العقل. فأما قول الفرزدق:

رَأَيْتُ ابْنَ دِينَارٍ يَزِيدَ رَمَى بِهِ إِلَى الشَّامِ يَوْمَ الْعَنْزِ، وَاللَّهُ قَاتِلُهُ^(٣)

لو كان دينارُ هذا المذكور كأحدِ هذه الدنانير، لكان أعزَّ من أن ينسب إليه يزيد. وأين هي من
دنانير النَّخَّةِ التي قال في واحدِها القائل:

عَمِّي الَّذِي مَنَعَ الدَّيْنَارَ ضَاحِيَةً دِينَارَ نَخَّةٍ جُرِّمَ وَهُوَ مَشْهُودٌ

ودينار النَّخَّةِ دينارٌ كان عامل الصدقات يأخذه إذا فرغ من الجباية. وكلُّ نقيشٍ من هذه الدنانير
الرَّاجعة بعد اليأس، تروي ظمأ الإنسان أكثر من دينار الذي دعاه لِسَقِيهِ مسافرٌ في فلاةٍ جذبة، وهو

١ سحيم عبد بن الحساس: سبقت ترجمته.
٢ ربيعة بن المكدَّم فارس كنانة وأشجع مضر، قيل ما نعلم أحداً حمى الظمينة فتبلاً أو ميتاً إلا ربيعة، ذلك أنه أصيب بجروح قاتلة، فاتكأ على رمحه وهو
على فرسه، فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، ثم رموا فرسه فنفرت ورمته، وكانت الطمائن قد وصلن إلى الديار، وأم سيَّار التي يخاطبها أمه.
٣ هذا البيت موجود في ديوان الفرزدق على النحو التالي:
رَأَيْتُ ابْنَ دُيَّانٍ يَزِيدَ رَمَى بِهِ إِلَى الشَّامِ يَوْمَ الْعَنْزِ وَاللَّهُ شَاغِلُهُ
وكثيراً ما نجد مثل هذا الاختلاف في رسالة الغفران

على ظهر ناقة صلبة، فقال:

أقول لدينارٍ وهُنَّ شوائِلُ بنا كنعامٍ طالباتِ رئالِ
لكَ الوَيْلُ أدركني بشَرَبَةِ آجِنِ من المَاءِ ما مَشْرُوبُهَا بزُلالِ
فما كادَ دينارٌ يُعَيْثُ بنُطْفَةِ حُشاشةٍ نَفْسِ آذنتِ بزَوَالِ

ولا هو كدينار الأخطل الذي ذكره في قوله:

كَمَّتْ ثلاثةَ أحوالٍ بطينتها حتّى اشتراها عباديُّ بدينارِ
لو وقعَ إلى عباديٍّ لما جاد به لخمّارِ بائع، ولو حُسب في الدين الضائع. ولا كالدينار في البيتِ
الذي أنشده أبو عمرو الزاهد:

وفي الكتابِ أسطُرٌ محكوكه، لا حَظَّ في الدينارِ للكاروكه
زعم أن الكاروكة القوادة.

والعجبُ لها تفرُّ من بنانِ السَّارقِ، فرارَ دنانيرِ الشَّارقِ، وصفها أبو الطيب فقال:

وألقى الشَّرْقُ منها في ثيابي دنانيراً تفرُّ من البنانِ
لو رآها كَثِيرٌ عَزَّةً لأكدَ بصافي النية، أنها أحسنُ من الهرقلية:
يَروُقُ عُيونَ الناظرينَ كأنَّه هِرْقَلِيٌّ وِزْنِ أَحْمَرِ التُّرِّ راجِحُ

وما أدراك ما الثمانين

وإن كانت زائدةً على الثمانين، فقد أوفت على عدة أصحاب موسى الذين جاء فيهم: «واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا»^(١) وعلى عدة الاستغفار المذكور في قوله: «إن تستغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم»^(٢) وعلى عدة أذرع السلسلة في قوله تعالى: «في سلسلةٍ ذرعتها سبعون ذراعاً فأسلكوه»^(٣).

ولو كان الإنسان في بئر عمقها ثمانون قامّةً، جاز أن تُنقذه هذه المصفرة من غير مرض، والزائلة بما يعترض من الجرض، والجرض الجهد، وإنما ذكرت ذلك لقول الأعشى:

ولو كنت في جب ثمانين قامّةً ورقيت أسباب السماء بسلم

ولو كانت أعوامٌ زهيرٍ مثلها لما وصف نفسه بالسامة^(٤)، ولكانت له أنهض قامة والقامة الأعوان، كأنها جمع قائم. قال الراجز:

وقامتني ربيعة بن كعبٍ حسبك ما عندهم وحسبي

ولو أدركه عروة بن حزام^(٥) وهو يقول:

يكلّفني عمي ثمانين ناقّةً وما لي يا عفراء غير ثمان

لجاز أن يرق له فيغيثه من هذه الثمانين بعضها أو يسمح له بكلّها، لأنه كريم طبع، ويجود كما جاد بالماء نبع، ولو صارت في يد عروة هذه الثمانون، لبلغ بها الأمنية، لأنّ الناقة في ذلك الزمان كانت ربّما اشترت بعشرة دراهم.

١ الآية ١٥٥ سورة الأعراف

٢ الآية ٨٠ سورة التوبة

٣ الآية ٣٢ سورة الحاقة

٤ يشير إلى قول زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

٥ عروة بن حزام المتوفى ٣٠ هـ / ٦٥٠ م كان يحب ابنة عمه (عفراء) نشأ في بيت واحد. ولما كبر خطبها، فطلبت أمها مهراً لا قدرة له عليه، فرحل إلى ابن عمه في اليمن، وعاد فإذا هي قد تزوجت بأموي من الشام، فلحق بها، فآكرمه زوجها. فأنقاه أياماً وودعها وانصرف، فمات حياً بلوغ حيه.

الفرزدق

وفي بعض أخبار الفرزدق، أن رجلاً من ملوك بني أمية أعطاه مائة من إيل الصدقة، فباعها بألف وخمسمائة درهم. وقد مرت به الحكاية التي يذكرها أصحاب التاريخ، أن الجمل كان يباع في زمن أبي جعفر المنصور بدرهم، وأنه صادر قوماً من أصحابه، وكانت لهم نعاج، فباعوها ثمانين نعاج بدرهم. هذا مما وجد بخط المرزباني في تاريخ ابن شجرة.^(١) وهي أنصر من الثمانين التي ذكرها العلوي البصري في قوله^(٢)

عَبَرْتُ إِلَيْهِمْ فِي ثَمَانِينَ فَارِسًا فَأَذْرَكْتُ مِنْهُمْ بُعَيْتِي وَمُرَادِيَا

ولولا خشية الغلو لقلت: ومن ثمانين ألفاً ذكرها السنبي^(٣) في قوله:

ثَمَانُونَ أَلْفًا، وَلَمْ أَحْصِهِمْ وَقَدْ بَلَغَتْ رَجْمَهَا أَوْ تَزِيدُ

وكيف للفرزدق همّام بن غالب أن ترميه الحوادث بهذه الثمانين، كما رتمه بسنيه في قوله:

رَمَتْنِي بِالْثَمَانِينَ اللَّيَالِي وَسَهْمُ الدَّهْرِ أَقْتَلُ سَهْمِ رَامٍ

ولو ملكها راعي ثمانين الذي يقال فيه، أحقق من راعي ضأن ثمانين^(٤)، لجعلت له عقلاً رائعاً، وثوباً من التنعم واسعاً.

وهو يعرف حكاية الحطيئة مع سعيد بن العاص لما قال له: أَيُّ النَّاسِ أَشْعَرُ؟ قال:

الذي يقول، وهو أبو دؤاد الإيادي:

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَقَدْ مَنَ قَدْ رَزَيْتُهُ الْإِعْدَامَ

١ القاضي أحمد بن كامل بن شجرة (٢٦٠ - ٣٥٠هـ). أحد أصحاب الطبري، وتقلد قضاء الكوفة، وكان من العلماء بالأحكام وعلوم القرآن والنحو والشعر وأيام الناس والتواريخ وأصحاب الحديث وله مصنفات في أكثر ذلك.

٢ قائد ثورة الزنج في البصرة علي بن محمد وكان يدعي الانتساب إلى علي بن أبي طالب. قاتل أربع عشرة سنة من ٢٥٦ - ٢٧٠هـ.

٣ هذا لقب لعدد من الشعراء، والمقصود هنا الأخرم السنبي وقد اشتهر بقصيدة منها هذا البيت، ويوردها أبو العلاء في «رسالة الصاهل والشاحج».

٤ «أحقق من طالب ضأن ثمانين». أصل المثل أن أعرابياً بشر كسرى ببشرى سُرَّ بها فقال له: سلني ما شئت. فقال: أسألك ضأناً ثمانين. فضرب به المثل في الحمق.

قال: ثم من؟ قال: الذي يقول وهو حسان بن ثابت:

رَبِّ عِلْمٍ أَضَاعَهُ الْمَا لُ وَجَهْلٍ غَطَّى عَلَيْهِ النَّعِيمُ

قال: ثم من؟ قال: الذي يقول وهو أعشى قيس:

بَيْضَاءُ صَحَوْتُهَا وَصَفُ رَاءِ الْعَشِيَّةِ كَالْعَرَارَةِ

قال: ثم من؟ قال: ثم حَسْبُكَ بي إذا وضعتُ رجلاً على رجلٍ، ثم جريتُ في آثارِ القوافي، كما يجري الفصيلُ في آثارِ الإبل.

وقال الشاعر:

وَجَدْتُ بَنِي الْجَعْرَاءِ قَوْمًا أَدْلَةً وَمَنْ لَا يُهْنُهُمْ يُمَسِّ وَغَدًا مَهْضَمًا
وَأَحْمَقُ مِنْ رَاعِي ثَمَانِينَ تَرْتَعِي بَجَنْبِ السُّتَارِ بَقْلَ رَوْضِ مُوسَمًا

وتلك الثمانون، أُلقيَ فيها الرِّيعُ إلى أن يصيرَ قيراطُها قنطاراً، ولا فتى حدها معطاراً أي هو قريب من عطر، لا يعدم في صيام ولا فطر، أوفر حظاً في المحمدة من التي ذكرها الحراني السلمي، أبو المحلّم عوف بن المحلّم في قوله:

إِنَّ الثَّمَانِينَ، وَبُلَّغْتُهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَانٍ
وَبَدَّلْتُني بِالشَّطَاطِ انْحِنَا وَكُنْتُ كَالصَّعْدَةِ تَحْتَ السَّنَانِ

لأن التي ذكرها تضعف، والدنانير الثمانون تُنْعَشُ وتُسَعِفُ، وتلك تجعل الرجل بعد كونه كالقناة، كأنه قوس في أيدي الحناة.

ولعلّه قد اجتاز في أرض الموصِل، بالقريّة التي تعرف بثمانين وهي قريبة من الجبل المعروف بالجوديّ، فإن كانت ثمانون القريّةُ وطن أناسٍ، فهذه تجري مجرى الوطن في الإيناس، كما قال:

الْفَقْرُ فِي أَوْطَانِنَا غُرْبَةٌ وَالْمَالُ فِي الْغُرْبَةِ أَوْطَانٌ^(١)

لله دَرّ الذَّهَبِ من خليل، فإنه يفيءُ بظلّ ظليل، وإن دُفِنَ لا يبالي، ولا يقال هذا الذهب البالي، أعطيَ نفيسَ المقدار، فما همَّ شرفه بأنحدار، والدُّرُّ إذا كُسِرَ لم يعد يساوي فلساً، وقد كان

١- هذا البيت أحد بيتين من شعر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذجح الزبيدي الإشبيلي (٣٠٩-٣٧٩هـ/٩٢٧-٩٨٩م) كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخير أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر وعلم السير والأخبار.

يبيحُ البهجةَ والأنسا ذهبت قيمته، وربَّ ذهبٍ في سِوار، مرَّ عليه زمن يلفت الأنظار، ثمَّ جُعِلَ في
خلخال، تختالُ بلْبُسه ذاتُ الخال، ثمَّ نقل إلى كاسٍ، وهو بحسنه كاسٍ، ما تغيَّر إذ لمسته النيران،
ولا غدر بوفِّي الجيران.

ولعل هذه الثمانين، قد أدركَ ذهبها قارون، وموسى المرسل وأخاه هارون، لا تقتربُ منه
الهلكة، وله العزة في كل مملكة، يُعظَّم في أرض السُّند، وبلاد الهند.

ابنة الأخت والخال

وأما ابنة الأخت، أدام الله لها الصيانة، فإنها أدلت على الخال إذ كان أحد الوالدين،

فهمت أن تأكل بيدين، وما هي بأخت للرجل الذي قال فيه القائل: (١)
وَوَرَاءَ الثَّارِ مِنِّْي ابْنُ أُخْتٍ مَصْعُ، عُقْدَتُهُ مَا تُحَلُّ

ولا تجعلها أختاً للهجرس (٢) لأنه طالب خاله بثار، فلم يقبح ما فعل من الآثار، ولكن تشبه أن تكون أختاً لابن مضر حين فاتتها الأخوة من الهجرس، وهو المعروف بالخنوت واسمه توبة، وكان له أخ يقال له طارق، فقتله رهط خاله، فرأى أن يقتل خاله، وقال:

بَكَتْ جَزَعاً أُمِّي رُمَيْلَةً أَنْ رَأَتْ	دَمًا مِنْ أُخِيهَا فِي الْمُهَنْدِ بَادِيَا
فَقَلْتُ لَهَا: لَا تَجْزَعِي إِنَّ طَارِقًا	حَمِيمِي الَّذِي كَانَ الْخَلِيلَ الْمُصَافِيَا
وَمَا كُنْتُ لَوَاعِطِيْتُ الْفِي نَجِيْبَةٍ	وَأَوْلَادَهَا لَعَوًّا تُسَاقُ، وَرَاعِيَا
لِلْأَرْضَى بَوْتَرٍ مِنْهُمْ دُونَ أَنْ أَرَى	دَمًا مِنْ بَنِي عَوْفٍ عَلَى السَّيْفِ جَارِيَا
وَمَا كَانَ فِي عَوْفٍ دَمٌ لَوْ أَصَبْتُهُ	لِيُوفِيَنِي مِنْ طَارِقٍ غَيْرُ خَالِيَا

ويجوز أن يكون قد رشح إلى هذه المرأة شيء من آداب الخوولة، فليتنق معرة بيانها، أكثر من اتقائه خلصة بنانها. فهو يعلم أن الشعر ورثه زهير بن أبي سلمى من خاله بشامة بن الغدير، ولم يكن في قبيلته "مزينة" شعر يذكر، وحضره زهير عند الوفاة، فأراد أن يعطيه شيئاً من ماله، فقال بشامة: أما يكفيك أنني ورثتك غرائب القصيدة؟

وربما كان في نساء حلب، حرسها الله، شواعر، فلا يأمن أن تكون هذه منهن، فطالما كن أجود أشعاراً من رجالهن، وحدث رجل ضرير من أهل أمد يحفظ القرآن، ويأنس بأشياء من العلم، أنه كان له وهو شاب امرأة مقينة تزين النساء في الأعراس، وكان ينجم في القرع، وكان يعتمد حفظ

١- البيت من شعر الشنفرى.

٢- الهجرس بن كليب التغلبي، وقد قتل خاله جساس أباه كليلاً، وكان هذا سبباً في حرب البسوس التي دامت أربعين عاماً، وشب في ديار أخواله بني مرة، وعلم القصة بعد أن شب فقتل خاله

تلك الأشعار، ويدرسها في بيته، ولا غريزة له في معرفة الأوزان، فيكسر البيت. فتقول له امرأته الماشطة: ويلي! ما هذا جيد! فيجادلها ويزعم أنها مخطئة. فإذا أصبح مضى فسأل من يعرف ذلك، فأخبره أن الصواب معها، وعرفه كيف يجب أن يكون، فإذا حفظه، عاد في الليلة الثانية فذكره وقد أصلح، فتقول الماشطة: هذا الساعة جيد.

وكان لي من يؤجرني الدواب من أهل البادية يُعرف بعُنوان، وله امرأة تزعم أنها من طي، ولم يكن يعرف موزون الأبيات من غيره، وكانت المرأة تحس بذلك. وكانت تتأسف على طفل لها مات يقال له رجب، وكانت تُنشد هذا البيت:

إِذَا كُنْتَ مِنْ جَرًّا حَبِيبِكَ مُوجِعًا فَلَا بُدَّ يَوْمًا مِنْ فِرَاقِ حَبِيبِ

فَقَالَتْ يَوْمًا:

إِذَا كُنْتَ مِنْ جَرًّا رُجِيبٍ مُوجِعًا

فَعَلِمْتُ أَنَّ الْوِزْنَ مُخْتَلٌّ، فَقَالَتْ:

إِذَا كُنْتَ مِنْ جَرًّا رُجِيبِينَ مُوجِعًا

فَحَرَّكَتِ التَّنْوِينَ، وَأَنْكَرَتْ تَحْرِيكَهُ بِالطَّبَعِ. فَقَالَتْ:

إِذَا كُنْتَ مِنْ جَرًّا رُجِيبِكَ مُوجِعًا

فَأَضَافَتْهُ إِلَى الْكَافِ، فَاسْتَقَامَ الْوِزْنُ وَاللَّفْظُ.

وفي الكتاب العزيز ”يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم فاحذروهم، وإن تتعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم“^(١)

الشبلي الصوفي

وأما أبو بكر الشبلي، رحمه الله، فلا ريبَ أنَّه من أهلِ الفضل، وأرجو أن يكون سالماً من مذهبِ الحُلُولِيَّة. وأنشدني له منشد:

بأح مَجْنُونُ عامِرٍ بهِـوَاهُ وكتَمْتُ الهوى، ففُزْتُ بِوَجْدِي
وإذا كان في القِيَامَةِ نُودِي أينَ أهلُ الهوى؟ تقدَّمْتُ وَحْدِي

هكذا أنشدته: نودي بسكونِ الياء، ولا أحبُّ ذلك، وإن كان جائزاً، وإنما يوجدُ في أشعار الضَّعْفَةِ من المُحدِثين.

فإن صحَّ أن هذين البيتين له، فلا يمتنعُ أن يعترضَ عليه قائلٌ فيقول: من زعمَ أنَّه صافٍ، فما يجب أن يأتي بغيرِ الإنصاف، وادِّعَاؤُهُ الانفرادَ من العالم لا يُسلِّم به البشر، إن كان هوأهُ للمخلوقين، أو الخالق ولا يقين، فلَهُ في الأممِ نُظراءُ كثير.

خاتمة الرسالة

وأنا أعتذر إلى مولاي الشيخ الجليل من تأخير الإجابة، فإن عوائق الزمن منعت من إملاء السوءاء، كأنها سوءاء التي عناها القائل:

نُبْتُ سُوءًا تَنَانِي وَأَتَّبَعُهَا لَقَدْ تَبَاعَدَ شَكْلَانَا وَمَا اقْتَرَبَا
وَجَدْتُهَا فِي شَبَابِي غَيْرَ مُطْلَبَةٍ فَكَيْفَ وَالرَّأْسُ جَوْنٌ تُسَعِفُ الطَّلْبَا

وأنا مستطيعٌ بغيري، فإذا غاب الكاتبُ فلا إملاء. ولا يُنكرُ الإطالةَ عليّ، فإنَّ الخالصَ من النَّصارِ الذائب، طالما اشتري بأضعافه في الرِّزَّةِ من اللُّجَيْنِ تشوبه الشوائب، فكيف إذا كان الثمن من البقايا غير القيِّمات، يوجدن في الطُّرُقِ مَرَمِيَّاتٍ؟ وعلى حضرته الجليلة سلامٌ يتبع قوَّته ضِعْفُهُ، وتلحق براعيه خرافه.

**إصدارات وزارة الثقافة والرياضة
إدارة البحوث والدراسات الثقافية**

السنة	المؤلف	الإصدارات	م
٢٠٠٠	حصبة العوضي	البدء من جديد	١
٢٠٠٠	فاطمة الكواري	بداية أخرى	٢
٢٠٠٠	د. حسن رشيد	أصوات من القصة القصيرة في قطر	٣
٢٠٠٠	دلال خليفة	دنيانا مهرجان الأيام والليالي	٤
٢٠٠٠	جاسم صفر	قالت ستأتي	٥
٢٠٠١	فاروق يوسف	غنج الأميرة النائمة	٦
٢٠٠١	سعاد الكواري	وربئة الصحراء	٧
٢٠٠١	أحمد الصديقي	ويخضر غصن الأمل	٨
٢٠٠١	حمد محسن النعيمي	بستان الشعر	٩
٢٠٠١	ترجمة/ النور عثمان	رومانوف وجوليت	١٠
٢٠٠١	د. حسام الخطيب	الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة	١١
٢٠٠١	د. حسن رشيد	الحضن البارد	١٢
٢٠٠١	خالد عبيدان	سحابة صيف شتوية	١٣
٢٠٠١	أمير تاج السر	سيرة الوجد	١٤
٢٠٠١	حصبة العوضي	وجوه خلف أشرعة الزمن	١٥
٢٠٠١	غازي الذبيبة	حافة الموسيقى	١٦
٢٠٠١	د. هيا الكواري	قصص أطفال	١٧
٢٠٠١	د. أحمد عبد الملك	أوراق نسائية	١٨
٢٠٠١	إسماعيل ثامر	الفريج	١٩
٢٠٠٢	د. أحمد الدوسري	الأعمال الشعرية الكاملة ج ١ - ج ٢	٢٠
٢٠٠٢	معروف رفيق	علمني كيف أحبك	٢١

السنة	المؤلف	الإصدارات	م
٢٠٠٢	خليفة السيد	قصص وحكايات شعبية	٢٢
٢٠٠٢	صدي الحرمان	رحلة أيامي	٢٣
٢٠٠٢	عبد الرحيم الصديقي	جرح وملح	٢٤
٢٠٠٢	وداد الكواري	خلف كل طلاق حكاية	٢٥
٢٠٠٢	د. أحمد عبد الملك	دراسات في الإعلام والثقافة والتربية	٢٦
٢٠٠٢	د. عبد الله إبراهيم	النثر العربي القديم	٢٧
٢٠٠٢	جاسم صفر	كأن الأشياء لم تكن	٢٨
٢٠٠٢	عبد السلام جاد الله	نعاس المغني	٢٩
٢٠٠٢	د. زكية مال الله	مدى	٣٠
٢٠٠٢	خليل الفزيع	قال المعنى	٣١
٢٠٠٢	د. عونى كرومي	المسرح الألماني المعاصر	٣٢
٢٠٠٢	محمد رياض عصمت	المسرح في بريطانيا	٣٣
٢٠٠٢	حسن توفيق	إبراهيم ناجي - الأعمال الشعرية المختارة	٣٤
٢٠٠٣	د. صلاح القصب	مسرح الصورة بين النظرية والتطبيق	٣٥
٢٠٠٣	صبيته العذبة	النوافذ السبع	٣٦
٢٠٠٣	جمال فايز	الرحيل والميلاد	٣٧
٢٠٠٣	د. كلثم جبر	أوراق ثقافية	٣٨
٢٠٠٣	علي الفياض / علي المناعي	بدائع الشعر الشعبي القطري	٣٩
٢٠٠٣	ظافر الهاجري	شبابيك المدينة	٤٠
٢٠٠٣	د. شعاع اليوسف	حضارة العصر الحديث	٤١
٢٠٠٣	غانم السليطي	المتراشقون "مسرحية"	٤٢
٢٠٠٣	د. حجر أحمد حجر	معاناة الداء والعذاب في أشعار السياب	٤٣
٢٠٠٣	سنان المسلماني	سحائب الروح	٤٤

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٤٥	أصوات قطرية في القصة القصيرة	د. عبد الله إبراهيم	٢٠٠٣
٤٦	ذاكرة الإنسان والمكان	خالد البغدادى	٢٠٠٣
٤٧	إبراهيم العريض شاعراً	عبد الله فرج المرزوقي	٢٠٠٣
٤٨	الصحافة العربية في قطر	إبراهيم إسماعيل	٢٠٠٤
٤٩	أم الفواجع	علي ميرزا	٢٠٠٤
٥٠	صباح الخير أيها الحب	وداد عبد اللطيف الكواري	٢٠٠٤
٥١	الصحافة العربية في قطر "مترجم إلى الإنجليزية"	إبراهيم إسماعيل ترجمة / النور عثمان	٢٠٠٤
٥٢	لائق قطرية	علي عبد الله الفياض	٢٠٠٥
٥٣	الأعمال الشعرية الكاملة	مبارك بن سيف آل ثاني	٢٠٠٥
٥٤	التفاحة تصرخ.. الخبز يتعري	دلال خليفة	٢٠٠٥
٥٥	إدارة التغيير	عبد العزيز العسيري	٢٠٠٥
٥٦	الشعر الحديث في قطر	د. عبد الله فرج المرزوقي	٢٠٠٥
٥٧	الشرح المختصر في أمثال قطر	خليفة السيد	٢٠٠٥
٥٨	لؤلؤ الخليج ذاكرة القرن العشرين	خالد زيارة	٢٠٠٥
٥٩	على رمل الخليج	محمد إبراهيم السادة	٢٠٠٥
٦٠	إبداعات خليجية	(مسابقة القصة القصيرة لدول مجلس التعاون)	٢٠٠٥
٦١	الأدب المقارن وصبوة العالمية	د. حسام الخطيب	٢٠٠٥
٦٢	مهارات الإرشاد النفسي وتطبيقاته	د. موزة المالكي	٢٠٠٥
٦٣	تجريبية عبد الرحمن منيف في مدن الملح	نورة محمد آل سعد	٢٠٠٥
٦٤	المعري يعود بصيراً	د. أحمد عبد الملك	٢٠٠٥
٦٥	وردة الإشراق	حسن توفيق	٢٠٠٥
٦٦	مجاديفي	حصاة العوضي	٢٠٠٥

السنة	المؤلف	الإصدارات	م
٢٠٠٥	د. زكية مال الله	الأعمال الشعرية الكاملة ج ١	٦٧
٢٠٠٥	رانجيت هوسكوتي ترجمة: طيبة خميس	أسباب للانتماء	٦٨
٢٠٠٥	بشرى ناصر	تباريح النوارس	٦٩
٢٠٠٥	د. حسن رشيد	المرأة في المسرح الخليجي	٧٠
٢٠٠٥	حمد الرميحي	أبو حيان .. ورقة حب منسية	٧١
٢٠٠٥	د. أنور أبو سويلم د. مريم النعيمي	تطور التأليف في علمي العروض والقوافي	٧٢
٢٠٠٥	أمير تاج السر	أحزان كبيرة	٧٣
٢٠٠٥	عيد بن صلهام الكبيسي	الديوان الشعبي	٧٤
٢٠٠٥	هاشم صالح ومحمد مخلوف. مراجعة د. حسام الخطيب	سمك القرش والنورس البحري دومينيك دو فيلبان	٧٥
٢٠٠٥	د. إبراهيم الشهابي مراجعة د. حسام الخطيب	مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام طارق رمضان	٧٦
٢٠٠٦	علي بن خميس المهندي	ذاكرة الذخيرة	٧٧
٢٠٠٦	باسم عبود الياسري	تجليات القص "مع دراسة تطبيقية في القصة القطرية"	٧٨
٢٠٠٦	د. أحمد سعد	سمط الدهر "قراءة في ضوء نظرية النظم"	٧٩
٢٠٠٦	خولة المناعي	كان يا ما كان	٨٠
٢٠٠٦	د. حسن رشيد	الظل والهجير "نصوص مسرحية"	٨١
٢٠٠٦	مجموعة مؤلفين	الرواية والتاريخ	٨٢
٢٠٠٦	خليفة عبد الله الهزاع	وجوه متشابهة "قصص قصيرة"	٨٣
٢٠٠٦	د. يونس لوليدي	المسرح والمدينة	٨٤
٢٠٠٦	د. زكية مال الله	الأعمال الشعرية الكاملة ج ٢	٨٥
٢٠٠٦	حصه العوضي	الدفتر الملون الأوراق	٨٦

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
٨٧	الظل وأنا	نسرین قفة	٢٠٠٦
٨٨	حقیبة سفر	صفاء العبد	٢٠٠٦
٨٩	مسرحیات قطرية (أمجاد یا عرب - هلو Gulf)	غانم السليطي	٢٠٠٦
٩٠	العالم وتحولاته (التاريخ – الهوية - العولمة)	د. إسماعيل الربيعي	٢٠٠٦
٩١	موال الفرح والحزن والفيلة "نصان مسرحيان"	حمد الرميحي	٢٠٠٦
٩٢	حكاية جدتي	مريم النعيمي	٢٠٠٦
٩٣	صورة المرأة في مسرح عبدالرحمن المناعي	إمام مصطفى	٢٠٠٦
٩٤	تاريخ اللغات ومستقبلها، عالم بابلي هارالد هارمان	سامي شمعون، مراجعة محمد فرزوات	٢٠٠٦
٩٥	فلسطين في الشعر الأُسباني المعاصر محمد الجعدي	محمد الجعدي، مراجعة د. حسام الخطيب	٢٠٠٦
٩٦	هل كنّا مثل أيّ عاشقين؟ نفتاح سارنا	د. منذر محمد	٢٠٠٦
٩٧	ديوان ابن فرحان	حسن حمد الفرحان	٢٠٠٧
٩٨	موال الفرح والحزن والفيلة "مترجم إلى الفرنسية"	حمد الرميحي	٢٠٠٧
٩٩	الفن التشكيلي القطري.. تتابع الأجيال	خالد البغدادي	٢٠٠٧
١٠٠	دراسة في الشعر النبطي	حمد الفرحان النعيمي	٢٠٠٧
١٠١	بداية أخرى "مترجم إلى الإنجليزية"	فاطمة الكواري	٢٠٠٧
١٠٢	الخيال.. رياضة الأباء والأجداد	صلاح الجيدة	٢٠٠٧
١٠٣	شجرة الغاف باحثون من جامعة قطر	مجموعة باحثين، جامعة قطر	٢٠٠٧
١٠٤	وجع امرأة عربية The pain of Arab woman	تأليف/ كلثم جبر، ترجمة/ النور أسامة ابوبكر	٢٠٠٧
١٠٥	بداية جديدة A new beginning	تأليف/ فاطمة الكواري، ترجمة/ النور أسامة ابوبكر	٢٠٠٧
١٠٦	موال الفرح والحزن والفيلة La chanson du Bonheur ET Malheur	تأليف/ حمد الرميحي، ترجمة علي زينل	٢٠٠٧

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١٠٧	القضية المشتركة د. فيليب أگران	عبدالودود العمراني مراجعة د. حسام الخطيب	٢٠٠٧
١٠٨	النقد بين الفن والأخلاق، حتى نهاية القرن الرابع الهجري	د. مريم النعيمي	٢٠٠٨
١٠٩	وداع العشاق	حسين أبو بكر المحضار	٢٠٠٨
١١٠	الوزة الكسولة	د. لطيفة السليطي	٢٠٠٨
١١١	المهن والحرف والصناعات الشعبية في قطر	خليفة السيد محمد المالكي	٢٠٠٨
١١٢	العشر الأوائل.. رائدات الفن التشكيلي في قطر	خولة المناعي	٢٠٠٨
١١٣	الرواية العربية.. رحلة بحث عن المعنى	عماد البليك	٢٠٠٨
١١٤	دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر	د. عبد القادر حمود القحطاني	٢٠٠٨
١١٥	السلحف البحرية في دولة قطر	د. جاسم عبد الله الخياط د. محسن عبد الله العنسي	٢٠٠٨
١١٦	تجليات اللون في الشعر العربي الحديث في النصف الثاني من القرن العشرين	د. ماجد فارس قاروط	٢٠٠٨
١١٧	عصر النفط ليوناردو ماوجري	د. إبراهيم الشهابي	٢٠٠٨
١١٨	حكايات من الأدب الشعبي الفارسي مقتطفات من شهنامه الفردوسي	د. مصطفى باكور	٢٠٠٨
١١٩	بنت عرب إفلين شاكر	أمل منصور، مراجعة د. فائقة صديقي	٢٠٠٨
١٢٠	الموسوعة الصيدلانية	د. زكية مال الله	٢٠٠٩
١٢١	المدارس المسرحية منذ عصر الإغريق حتى العصر الحاضر	أ.د. جمعة أحمد قاجة	٢٠٠٩
١٢٢	من أفواه الرواة	علي عبد الله الفياض	٢٠٠٩
١٢٣	صورة الأسرة العربية في الدراما التلفزيونية	د. إبراهيم إسماعيل	٢٠٠٩
١٢٤	دور الدراما القطرية في معالجة مشكلات المجتمع	د. ربيعة الكواري د. سمية متولي عرفات	٢٠٠٩
١٢٥	ديوان الغربية	إسماعيل تامر	٢٠٠٩

م	الإصدارات	المؤلف	السنة
١٢٦	الحب والعبودية في مسرح حمد الرميحي	خالد سالم الكلباني	٢٠٠٩
١٢٧	عناق الأسرة نوبوكوجيما	د. منذر محمد	٢٠٠٩
١٢٨	قصة حب طبل وطاراة "مترجم إلى الإنجليزية"	حمد الرميحي	٢٠١٠
١٢٩	التراث والسرد	د. حسن المخلف	٢٠١٠
١٣٠	ديوان الأعشى (جزآن)	تحقيق: د. محمود الرضواني	٢٠١٠
١٣١	توظيف التراث في شعر سميح القاسم	لولوة حسن العبدالله	٢٠١٠
١٣٢	إساءة الوالدين إلى الأبناء وفاعلية برنامج إرشادي لعلاجها	أمل المسلماني	٢٠١٠
١٣٣	شحنات المكان	ياسين النصير	٢٠١٠
١٣٤	من أدب الزوج الأمريكيان	عبدالكريم قاسم حرب	٢٠١٠
١٣٥	أزهار ذابلة وقصائد مجهولة للسياب	حسن توفيق	٢٠١٠
١٣٦	وضاح اليمين دراسة في موروثه الشعري	د. باسم عبود الياسري	٢٠١٠
١٣٧	عروق القدس النازفة مجموعة باحثين، تحرير د. منير العكش	د. منير العكش	٢٠١٠
١٣٨	اللغة والثقافة كليركرامش	د. أحمد الشيمي مراجعة عبدالودود العمراني	٢٠١٠
١٣٩	مستقبل الدراسات الأدبية هانس غومبرخت، والتر موزر	د. ربي محمود ود. منذر محمد	٢٠١٠
١٤٠	عصارة الأيام سمرست موم	د. حسام الخطيب	٢٠١٠
١٤١	كُتُب تحترق، تاريخ تدمير المكتبات لوسيان بولاسترون	هاشم صالح ومحمد مخلوف. مراجعة عبدالودود العمراني	٢٠١٠
١٤٢	الترجمة والعودة مايكل كرونين	محمود الهاشمي وعبدالودود العمراني مراجعة د. حسام الخطيب	٢٠١٠
١٤٣	العلم في الترجمة سكوت مونثغومري	د. إبراهيم الشهابي مراجعة وفاء التومي	٢٠١٠

السنة	المؤلف	الإصدارات	م
٢٠١٠	، ترجمة / عبدالودود العمراني	قصة حب طبل وطاراة والقرن الأسود تأليف / حمد الرميحي	١٤٤
٢٠١١	ندى لطفي الحاج حسين	قطر الندى	١٤٥
٢٠١١	فضل الحاج علي	الوحي الثائر "سلسلة شعراء من السودان"	١٤٦
٢٠١١	الجبلي صلاح الدين	شيء من التقوى "سلسلة شعراء من السودان"	١٤٧
٢٠١١	محمد عثمان كجراي	في مرايا الحقول "سلسلة شعراء من السودان"	١٤٨
٢٠١١	مصطفى طيب الأسماء	المغاني "سلسلة شعراء من السودان"	١٤٩
٢٠١١	أبو القاسم عثمان	على شاطئ السراب "سلسلة شعراء من السودان"	١٥٠
٢٠١١	الشيخ عثمان محمد أونسة	ديوان أم القرى "سلسلة شعراء من السودان"	١٥١
٢٠١١	محمد عثمان عبدالرحيم	في ميزان قيم الرجال "سلسلة شعراء من السودان"	١٥٢
٢٠١١	د. سعد الدين فوزي	من وادي عبقر "سلسلة شعراء من السودان"	١٥٣
٢٠١١	حسين محمد حمدنا الله	شبابتي "سلسلة شعراء من السودان"	١٥٤
٢٠١١	محمد المهدي المجذوب	غارة وغروب "سلسلة شعراء من السودان"	١٥٥
٢٠١١	د. محي الدين صابر	من التراب "سلسلة شعراء من السودان"	١٥٦
٢٠١١	محمد محمد علي	المجموعة الشعرية الكاملة "سلسلة شعراء من السودان"	١٥٧
٢٠١١	خليفة الهزاع	ضفدع مقاطعة كالايفراس وقصص أخرى مارك توين	١٥٨
٢٠١١	عبدالودود العمراني مراجعة وفاء التومي	محاضرات الحائزين على جائزة نوبل في الأدب	١٥٩
٢٠١١	د. عامر شيخوني مراجعة بدرالدين علاء الدين ووفاء التومي	جسور إلى اللانهاية مايكل غيلن	١٦٠
٢٠١١	د. نبيلة الزواوي مراجعة أ.د. محمد لطفي اليوسفي	الهند تظفر بالحرية أبو الكلام آزاد	١٦١
٢٠١١	بدور القحطاني وسامي بن صغير. مراجعة فرانسيس غيلسي	منظومة حيوانات قطر محمد جاسم العبدالجبار	١٦٢

السنة	المؤلف	الإصدارات	م
٢٠١١	أنور الشامي. مراجعة وفاء التومي	الحرية الافتراضية داون نونسياتو	١٦٣
٢٠١٢	أ.د. رعد ناجي الجده	النظام الدستوري في دولة قطر	١٦٤
٢٠١٢	إسماعيل تامر	الفريخ (رواية) – الطبعة الثانية	١٦٥
٢٠١٢	محمد إبراهيم السادة	السردية الشفاهية	١٦٦
٢٠١٢	خليل الفزيع	حادي العيس	١٦٧
٢٠١٢	أ.د. منذر محمد محمود. مراجعة عبدالودود العمراني	المال العزيز مارثا ماكفي	١٦٨
٢٠١٢	د. إبراهيم الشهابي مراجعة وفاء التومي	سعيًا للصمت جورج بروشنيك	١٦٩
٢٠١٢	ترجمة /د. رشيد بلحبيب	المتعة في تعلّم اللغات فابيو كاوان	١٧٠
٢٠١٢	تأليف / أمير تاج السر ترجمة/ عبدالوهاب عبدالله، أمل عبدالله	مهر الصباح THE KORAK COUNCIL	١٧١
٢٠١٢	عبدالودود العمراني مراجعة – د. جلال الغربي	الحائزين على جائزة نوبل للأدب 1985-1999	١٧٢
٢٠١٢	دلال خليفة	La fable du lac (أسطورة الإنسان والبحيرة) دلال خليفة	١٧٣
٢٠١٢	ناديج ديفو ترجمة: أ.د. شكري المبخوت	دليل المؤلف وكاتب السيناريو – دليل عملي للكتابة	١٧٤
٢٠١٣	د. هند المفتاح	هموم في الإدارة	١٧٥
٢٠١٣	عبدالرحمن المناعي	هالشكل يا زعفران (مسرحيتان باللهجة العامية)	١٧٦
٢٠١٣	عبدالرحمن المناعي	مقامات ابن بحر	١٧٧
٢٠١٣	محمد قجة	القدس في عيون الشعراء	١٧٨
٢٠١٣	حسين الجابر	المصورون في قطر	١٧٩
٢٠١٣	بشرى ناصر	عناكب الروح	١٨٠

السنة	المؤلف	الإصدارات	م
٢٠١٣	د. مصطفى عقيل الخطيب	الخليج العربي دراسات في الأصول التاريخية والتطور السياسي	١٨١
٢٠١٣	سوسن عصفور	فنّ الرسم عند الأطفال: جمالياته ومراحل تطوره	١٨٢
٢٠١٣	أحمد محمد الصديق	واحات وظلال	١٨٣
٢٠١٣	دلال خليفة	أنا الياسمينه البيضاء (باللغة الإيطالية) lo gelsomino bianco	١٨٤
٢٠١٣	جمال فايز ترجمة: محمد ميخوت	INBOUND TRAVLERS (AND OTHER STORY)	١٨٥
٢٠١٣		-LES ARTS ISLAMIQUES	١٨٦
٢٠١٣	خليفة هزاع	الأريكة البشرية / إدغاورانبو	١٨٧
٢٠١٣	عبدالودود العمراني	الثورة الرومنسية تيم بلانينغ	١٨٨
٢٠١٤	حسن توفيق	حلم يتفتح في صخر	١٨٩
٢٠١٤	محمد ابراهيم السادة	اناشيد البلابل	١٩٠
٢٠١٤	عبد الله السالم	عيوب الشعر	١٩١
٢٠١٤	أحمد منصور محمد علي	المشكلات العملية في المناقصات والمزايدات	١٩٢
٢٠١٤	أحمد بن يوسف الخليفي	الخليج حضارة وتاريخ	١٩٣
٢٠١٤	أ.د. حسن حسين البراوي	الحماية القانونية للمأثورات الشعبية القطرية	١٩٤
٢٠١٤	د. إبراهيم اسماعيل	الإعلام المعاصرو وسائله، مهاراته، تأثيراته، أخلاقياته	١٩٥
٢٠١٤	محمد الكواري- شيخة الكواري	الإصدارات الثقافية للوزارة من 1976-2013	١٩٦
٢٠١٤	أحمد بن يوسف الخليفي	"سحر الطبيعة في قطر" " The Magic of Qatar landscape "	١٩٧
٢٠١٤	د. يحيى زكريا الأغا	سميح القاسم في ظل الغياب	١٩٨
٢٠١٤	لولوة البنعلي	الأرنب خرنوق	١٩٩
٢٠١٤	ترجمة: نزار شقرون أ.نعيم عاشور	رواية الوردة (غيوم دولوريس)	٢٠٠

السنة	المؤلف	الإصدارات	م
١٠١٤		ترجمة مبارك بن سيف آل ثاني – للفرنسية	٢٠١
٢٠١٥	خالد المسلماني	لمسات معمارية	٢٠٢
٢٠١٥	د. علي الطوالبة	البنية النحوية في شعر مبارك بن سيف آل ثاني (دراسة نحوية دلالية)	٢٠٣
٢٠١٥	بسام علواني	قاريء الشرفات	٢٠٤
٢٠١٥	د. عبد الغفور الهيتي	حراثة في الذاكرة	٢٠٥
٢٠١٥	سميرة عبيد ترجمة للفرنسية/ عبدالله فريج	Bracelets de violettes –Recueil de poesie أساور البنفسج	٢٠٦
٢٠١٦	حصبة المنصوري	النسوية في شعر المرأة القطرية	٢٠٧
٢٠١٦	إعداد / أ.د. صبري حافظ ، د/ محمد مصطفى سليم ، د/إكرامي فتحي حسين	القصة القصيرة في قطر – ببليوجرافيا شاملة ودليل وصفي تحليلي	٢٠٨
٢٠١٦	عبدالرحمن المناعي	المرزام	٢٠٩
٢٠١٦	د/رامي أبو شهاب	الأنساق الثقافية في القصة القطرية	٢١٠
٢٠١٦	د/أحمد طعمة حلي	القيم الجمالية في الشعر العربي	٢١١

